

المجموعة الكاملة لمؤلفات
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رَحْمَةُ اللَّهِ

تيسير الكريم الرحمن
في
تفسير كلام المنان

الجزء السادس

من تفسير من أول سورة الفصص إلى آخر تفسير سورة الزخرف

مركز صالح بن صالح الثقافي

بعنيزة

المملكة العربية السعودية

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

تفسير

سُورَةُ الْفُصَيْصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُوا
عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

* [تلك] الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم [آيات الكتاب المبين]
لكل أمر يحتاج إليه العباد ، من معرفة ربهم ، ومعرفة حقوقه ، ومعرفة
أوليائه وأعدائه ، ومعرفة وقائمه وأيامه ، ومعرفة ثواب الأعمال ،
وجزاء العمال .

فهذا القرآن قد بينها غاية التبين ، وجلَّ لها للعباد ، ووضحها .
ومن جملة ما أبان ، قصة موسى وفرعون ، فإنه أبدأها ، وأعادها
في عدة مواضع .

وبسطها في هذا الموضع فقال : [تتلوعليك من نبأ موسى وفرعون بالحق] .
فإن نبأها غريب ، وخبرها عجيب .
[لقوم يؤمنون] فإليهم يساق الخطاب ، ويوجه الكلام .

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِفُّ طَائِفَةً
مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾

حيث إن معهم من الإيمان ، ما يقبلون به ، على تدبر ذلك ، وتلقيه
بالقبول والاهتداء ، بمواقع العبر ، ويزدادون به إيماناً ، وبقينا ، وخيرا
إلى خيبرهم .

وأما من عداهم ، فلا يستفيدون منه ، إلا إقامة الحججة عليهم ، وصانه
الله عنهم ، وجعل بينهم وبينه حجاباً أن يفقهوه .

فأول هذه القصة [إن فرعون علا في الأرض] في ملكه وسلطانه ،
وجنوده ، وجبروته ، فصار من أهل العلو فيها ، لا من الأعلين فيها .
[وجعل أهلها شيعاً] أي : طوائف متفرقة ، يتصرف فيهم بشهوته ،
وينفذ فيهم ما أراد من قهره ، وسطوته .

[يستضعف طائفة منهم] وتلك الطائفة ، هم : بنو إسرائيل ، الذين
فضلهم الله على العالمين ، الذين ينبغي له أن يكرمهم ويجلهم .
ولكنه استضعفهم ، بحيث لأنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما
أراده فيهم .

فصار لا يبالي بهم ولا يهتم بشأنهم ، وبلغت به الحال ، إلى أنه
[يذبح أبناءهم ويستحوي نساءهم] خوفاً من أن يكثروا ، فيغمروه في بلاده ،
ويصير لهم الملك .

[إنه كان من المفسدين] الذين لا قصد لهم في صلاح الدين ، ولا صلاح
الدنيا ، وهذا من إفساده في الأرض .

وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً
وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ

* [ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض] بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف ، ونهلك من قاومهم ، ونخذل من ناوأم .
[ونجعلهم أئمة] في الدين ، وذلك لا يحصل مع استضعاف ، بل لا بد من تمكين في الأرض ، وقدرة تامة .

[ونجعلهم الوارثين] للأرض ، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة .
[ونمكن لهم في الأرض] فهذه الأمور كلها ، قد تعلق بها إرادة الله ، وجرت بها مشيئته .

[و] كذلك نريد أن [نرى فرعون وهامان] وزيره [وجنودهما] الذين بهم^(١) صالوا وجالوا ، وعلوا وبغوا [منهم] أي : من هذه الطائفة المستضعمة .

[ما كانوا يحذرون] من إخراجهم من ديارهم ، ولذلك كانوا يسمعون

(١) في الأصل المطبوع « التي الخ » والصواب أن يقال « الذين بهم » صالوا الخ « لأن ضمير جمع التكسير لا يؤنث إلا لما لا يعقل ، وأما جمع تكسير العقلاء فيعود الضمير إليهم مذكراً ، كما قال تعالى « رجال لاتلهمهم تجارة الآية » ولم يقل « لاتلهمها » كما فعل المؤلف هنا ولذلك أصلحنا العبارة هكذا « الذين بهم صالوا » .

أُمُّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضَعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَأَلْتَقَطَهُ

في قمعهم ، وكسر شوكتهم ، وتثقل أبنائهم ، الذين هم محل ذلك .
فكل هذا قد أراده الله ، وإذا أراد أمراً ، سهل أسبابه ، ونهج طريقه .
وهذا الأمر كذلك ، فإنه قدر وأجرى من الأسباب — التي لم يشعر
بها لا أولياؤه ولا أعداؤه — ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود .
فأول ذلك ، لما أوجد الله رسوله موسى ، الذي جعل استنقاذ هذا
الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه ، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة ،
التي يذبجون بها الأبناء ، أوحى إلى أمه ، أن ترضعه ، ويمكث عندها .
[فإذا خفت عليه] بأن أحسست أحدا تخافين عليه منه أن
يوصله إليهم .

[فألقيه في اليم] أي نيل مصر ، في وسط تابوت مفلق .

[ولا تخافي ولا تحزني ، إننا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين] .
فبشرها بأنه سيرده إليها ، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم ، ويجعله
الله رسولا .

وهذا من أعظم البشائر الجليلة ، وتقديم هذه البشارة لأم موسى ،
ليطمئن قلبها ، ويسكن روعها ، فكانها خافت عليه ، وفعلت ما أمرت به ،
ألقت في اليم ، وساقه الله تعالى .

ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ
وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنِي

[فالتقطه آل فرعون] فصار من لقطهم ، وهم الذين باشروا وجدانه .

[ليكون لهم عدوا وحزنا] أى : لتكون العاقبة والمآل من هذا
الالتقاط ، أن يكون عدوا لهم وحزنا يحزنهم ، بسبب أن الحذر لا ينفع
من القدر ، وأن الذى خافوا منه من بنى إسرائيل ، قويض الله أن يكون
زعيمهم ، يتربى تحت أيديهم ، وعلى نظرهم ، وبكفالتهم .

وعند التدبر والتأمل ، تجدى فى طى ذلك من المصالح لبنى إسرائيل ،
ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم ، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته
بحيث إنه صار من كبار الملكة .

وبالطبع لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا ، وهو هو
ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة .

ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف — الذى بلغ بهم الذل
والإهانة ، إلى ما قص الله علينا بعضه — أن صار بعض أفرادهم ، ينازع
ذلك الشعب القاهر العالى فى الأرض : كما سيأتى بيانه .

وهذا مقدمة للظهور ، فإن الله تعالى من سنته الجارية ، أن جعل الأمور
تمشى على التدرج ، شيئا فشيئا ، ولا تأتى دفعة واحدة .

وقوله [إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين] أى : مجرمين ،
فأردنا أن نعاقبهم على إجرامهم ، ونكيد لهم ، جزاء على مكربهم وكيدهم .

لِيْ وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَرِيحًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ

فما التقطه آل فرعون ، حَنَّ الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة ،
المؤمنة « آسية » بنت مزاحم [وقالت] : هذا الولد [قررة عين لي ولك ،
لا تقتلوه] .

أى أبقه لنا ، لتقرَّ به أعيننا ، ونسر به في حياتنا .

[عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولدا] أى : لا يخلو ، إما أن يكون بمنزلة
الخدم ، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا أو نرقيه درجة أعلى من ذلك ،
نجعله ولدا لنا ، ونكرمه ، ونجمله .

فقدّر الله تعالى ، أنه نفع امرأة فرعون ، التي قالت تلك المقالة .
فإنه لما صار قررة عين لها ، وأحبهه حبا شديداً ، فلم يزل لها بمنزلة
الولد الشقيق ، حتى كبر ، ونبأه الله وأرسله ، بادرت^(١) إلى الإسلام والإيمان
به ، رضى الله عنها ، وأرضاهها .

قال الله تعالى هذه المراجعات والمقاولات ، في شأن موسى : [وهم لا
يشعرون] ما جرى به القلم ، ومضى به القدر ، من وصوله إلى ما وصل إليه .
وهذا من لطفه تعالى ، فإنهم لو شعروا ، لكان لهم وله ، شأن آخر .

(١) قوله « وبادرت » كان في الأصل « فبادرت » فأصلحنا الكلمة
بـ « بادرت » لأنه جواب « لما » في قوله « فإنه لما صار الخ » وجواب
« لما » لا يقترف بالفاء بدليل قوله تعالى « فلما أن جاء البشر ألقاه على
وجهه فارتد بصيرا » ولم يقل « فألقاه » .

لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه قَبِصْرَتْ بِهِ عَن جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِ

ولما فقدت موسى أمه ، حزنت حزنا شديدا ، وأصبح فؤادها فارغاً من التلقا ، الذي أزعجها ، على تمتضى الحالة البشرية ، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والحوف ، ووعدا برده .

[إن كادت لتبدي به] أى : بما فى قلبها [لولا أن ربطنا على قلبها] ففتناها ، فصبرت ، ولم تبد به .

[لتكون] بذكر الصبر والثبات [من المؤمنين] فإن العبد إذا أصابته مصيبة ، فصبر وثبت ، ازداد بذلك إيمانه ، ودل ذلك ، على أن استمرار الجزع مع العبد ، دليل على ضعف إيمانه .

[وقالت] أم موسى [لأخته قصيه] أى : اذهبي فقصى الأثر عن أخيك ، وابحى عنه ، من غير أن يحس بك أحد ، أو يشعروا بمقصودك . فذهبت تقصه [فصبرت به عن جنب وهم لا يشعرون] أى : أبصرت على وجه ، كأنها مارة لا قصد لها فيه .

وهذا من تمام الحزم والحذر ، فإنها لو أبصرت به ، وجاءت إليهم قاصدة لظنوا بها ، أنها هى التى ألقته ، فربما عزموا على ذبحه ، عقوبة لأهله . ومن لطف الله بموسى وأمه ، أن منعه من قبول ندى امرأة ، فأخرجوه إلى السوق ، رحمة به ، ولعل أحدا يطلبه .

فجاءت أخته ، وهو بتلك الحال [فقالت هل أدلكم على أهل بيت

يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا

يكفلونه لكم وهم له ناصحون] .

وهذا جُلُّ غرضهم ، فإنهم أحبوه حبا شديدا ، وقد منعه الله من المراضع
نخافوا أن يموت .

فلما قالت لهم أخته ، تلك المقالة المشتعلة على الترغيب ، في أهل هذا
البيت ، بتمام حفظه وكفالاته ، والنصح له ، بادروا إلى إجابتها ، فأعلمتهم ،
ودلتهم على أهل هذا البيت .

[فرددناه إلى أمه] كما وعدناها بذلك [كى تقر عينها ولا تحزن]
بمحيث أنه تربي عندها ، على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة ، تفرح به ،
وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك .

[ولتعلم أن وعد الله حق] فأريناها بعض ما وعدناها به عياناً ،
ليطمئن بذلك قلبها ، ويزداد إيمانها ، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله ،
في حفظه ، ورسالته .

[ولكن أكثرهم لا يعلمون] فإذا رأوا السبب متشوشا ، شوش
ذلك إيمانهم ، لعدم علمهم الكامل ، أن الله تعالى يجعل الحن والعقبات
الشاقة ، بين يدي الأمور العالوية ، والمطالب الفاضلة .

فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون ، يتربى في سلطانهم ،
ويركب مرأى كجهم ، ويلبس ملابسهم .

وَكَذَلِكَ نَجَزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ
مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ

وأمه بذلك مطمئنة ، قد استقر أنها أمه من الرضاع ، ولم يستنكر
ملازمته إياها ، وحنوه عليها .

وتأمل هذا اللطف من الله ، وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطقته ،
وتيسير الأمر ، الذي صار به التعلق ، بينه وبينها ، الذي بان للناس ، أنه هو
الرضاع ، الذي بسببه يسميها أمًّا ، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره
في ذلك كله ، صدقًا وحقًّا .

[ولما بلغ أشده] من القوة والعقل واللب ، وذلك نحو أربعين سنة
في الغالب .

[واستوى] فهكأت فيه تلك الأمور [آتيناها حكما وعلما] أي : حكما
يعرف به الأحكام الشرعية ، ويحكم به بين الناس ، وعلما كثيرا .

[وكذلك نجزي المحسنين] في عبادة الله المحسنين ، خلق الله ، يعطيهم
علما وحكما ، بحسب إحسانهم ، ودل هذا على كمال إحسان موسى
عليه السلام .

[ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها] إما وقت القائلة ، أو غير
ذلك من الأوقات ، التي بها يغلون عن الانتشار .

[فوجد فيها رجلاين يقتتلان] يتخاصمان ويتضاربان [هذا من شيعته]
أي من بني إسرائيل [وهذا من عدوه] كالتبيط .

عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ
مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ
مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا

[فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه] لأنه قد اشتهر ، وعلم
الناس أنه من بني إسرائيل ، واستغاثه لموسى ، دليل على أنه بلغ موسى
عليه السلام مبلغا ، يخاف منه ، ويرجى من بيت الملكة والسلطان .

[فوكزه موسى] أى : وكز الذي من عدوه ، استجابة لاستغاثة
الإسرائيلي .

[قضى عليه] أى : أماته من تلك الوكزة ، لشدها ، وقوة موسى .
فندم موسى عليه السلام على ماجرى منه ، و [قال هذا من عمل الشيطان]
أى : من تزينه ، ووسوسته [إنه عدو مضل مبين] فلذلك أجريت ما أجريت
بسبب عداوته البينة ، وحرصه على الإضلال .

ثم استغفر ربه [قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر ، له إنه هو
الغفور الرحيم] خصوصا للمنجبين إليه ، المبادرين للإجابة والتوبة ، كما جرى
من موسى عليه السلام .

[قال] موسى [رب بما أنعمت على] بالتوبة والمغفرة ، والنعم الكثيرة
[فلن أكون ظاهرا] أى : معينا ومساعدًا [للمجرمين] أى : لأعين
أحدا على معصية .

لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي
أَسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ
مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ

وهذا وعد من موسى عليه السلام ، بسبب منة الله عليه ، أن لا يعين
مجرما ، كما فعل في قتل القبطي .

وهذا يفيد أن النعم ، تقتضى من العبد فعل الخير ، وترك الشر .

[ف] لها جرى منه قتل الذى هو من عدوه [أصبح في المدينة خائفا

يتربص] هل يشعر به آل فرعون ، أم لا ؟

وإنما خاف ، لأنه قد علم ، أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال ،

سوى موسى ، من بنى إسرائيل .

فبينما هو على تلك الحال [فإذا الذى استنصره بالأمس على عدوه يستصرخه]

على قبطي آخر .

[قال له موسى] موبخا على حاله [إنك لغوي مبين] أى : بين الفواية ،

ظاهر الجراءة .

[فلما أن أراد أن يبطش] موسى [بالذى هو عدو لها] أى : له

وللمخاصم المستصرخ لموسى ، أى : لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي ،

وهو يستغيث بموسى ، فأخذته الحمية ، حتى هم أن يبطش بالقبطي .

[قال] له القبطي زاجرا له عن قتله : [يا موسى أتريد أن تقتلني كما

قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض] لأن من

أعظم آثر الجبار في الأرض ، قتل النفس بغير حق .

يُمُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا
أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يُمُوسَىٰ
إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾

[وما تريد أن تكون من المصلحين] وإلا ، فلو أردت الإصلاح ،
لحلت بيني وبينه ، من غير قتل أحد .

فانكف موسى عن قتله ، وارعوى ، لوعظه وزجره .

وشاع الخبر بما جرى من موسى في هاتين القضيتين ، حتى تراود ملائكة
فرعون ، وفرعون على قتله ، وتشاوروا على ذلك .

فقيض الله ، ذلك الرجل الناصح ، وبادر إلى الإخبار ^(١) لموسى بما اجتمع
عليه رأى ملائكة .

فقال : [وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى] أي : ركضا على قدميه ،
من نصحه لموسى ، وخوفه أن يوقعوا به ، قبل أن يشعر .

[قال يا موسى إن الملائكة يأترون بك] أي : يتشاورون فيك [ليقتلوك
فاخرج] عن المدينة [إنى لك من الناصحين] .

فامتثل نصحه [فخرج منها خائفا يترقب] أن يوقع به القتل ، ودعا الله .

(١) قوله « إلى الإخبار لموسى » لو قال « إلى إخبار موسى » لكان

أصح وأفصح .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾
وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ
السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ
يَسْتُقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا
قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ

[قال رب نجني من القوم الظالمين] فإنه قد تاب من ذنبه وفعله غضبا،
من غير قصد منه للقتل ، فتوعدهم له ، ظلم منهم وجراءة .

[ولما توجه تلقاء مدين] أى : قاصداً بوجهه مدين ، وهو جنوبي
فلسطين ، حيث لا ملك فيه لفرعون .

[قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل] أى : وسط الطريق المختصر ،
الموصل إليها ، بسهولة ورفق ، فهداه الله سواء السبيل ، فوصل إلى مدين .
[ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يستقون] مواشيهم ،
وكانوا أهل ماشية كثيرة [ووجد من دونهم] أى : دون تلك الأمة
[امرأتين تذودان] غنمهما ، عن حياض الناس ، لعجزهما عن مزاحمة
الرجال ، وبخلهم ، وعدم مروءتهم ، عن السقى لها .

[قال] لها موسى [ما خطبكما] أى : ما شأنكما بهذه الحالة .

[قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء] أى : قد جرت العادة أنه لا يحصل

لنا سقى حتى يصدر الرعاء مواشيهم ، فإذا خلا لنا الجو ، سقينا .

[وأبونا شيخ كبير] أى : لا قوة له على السقى ، فليس فينا قوة ، نتقدر

لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ
فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي

بها ، ولانا رجال ، يزاحمون الرعاء .

فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما [فسقى لهما] غير طالب منهما
الأجر ، ولاله قصد ، غير وجه الله تعالى .

فلما سقى لهما ، وكان ذلك وقت شدة حر ، وسط النهار ، بدليل قوله :

[ثم تولى إلى الظل] مستريحا لتلك الظلال بعد التعب .

[فقال] في تلك الحالة ، مسترزقا ربه [رب إني لما أنزلت إلي من

خير فقير] .

أى : إني مفقر للخير ، الذى تسوقه إليّ ، وتيسره لى .

وهذا سؤال منه بحاله ، والسؤال بالحال ، أبلغ من السؤال بلسان انتقال .

فلم يزل فى هذه الحالة ، داعيا ربه متملقا .

وأما المرأتان ، فذهبتا إلى أبيهما ، وأخبرتاه بما جرى .

فأرسل أبوهما ، إحداهما إلى موسى ، فجاءته [تمشي على استحياء] .

وهذا يدل على كرم عنصرها ، وخلقها الحسن ، فإن الحياء من الأخلاق

الفاضلة ، وخصوصاً فى النساء .

ويدل على أن موسى عليه السلام ، لم يكن فيما فعله من السقى ، بمنزلة

الأجير والخدم ، الذى لا يستحى منه عادة ، وإنما هو عزيز النفس ، رأت

من حسن خلقه ، ومكارم أخلاقه ، ما أوجب لها الحياء منه .

يَدْعُوكَ لِيَجْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ
قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا
يَأْتِيكُ اسْتِجْرَاءُ إِن خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَأَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾

[قالت] له : [إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا] أي :
لا لمنّ عليك ، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان ، وإنما قصده أن يكافئك
على إحسانك .

فأجابها موسى .

[فلما جاءه وقص عليه القصة] من ابتداء السبب الموجب لهربه ،
إلى أن وصل إليه [قال] مسكنا روعه ، جابراً قلبه : [لا تخف نجوت من
القوم الظالمين]

أي : ليذهب خوفك وروعك ، فإن الله نجاك منهم ، حيث وصلت
إلى هذا المحل ، الذي ليس لهم عليه سلطان .

[قالت إحداهما] أي : إحدى ابنتيه [يا أبت استأجره] أي : اجعله
أجيراً عندك ، برعى الغنم ويسقيها .

[إن خير من استأجرت القوى الأمين] أي : إن موسى ، أولى من
استؤجر ، فإنه جمع القوة والأمانة ، وخير أجير استؤجر ، من جمعها ،
القوة ، والقدرة ، على ما استؤجر عليه ، والأمانة فيه بعدم الخيانة .

وهذان الوصفان ، ينبغى اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملاً ،
بإجارة أو غيرها .

فإن الخلل لا يكون إلا بفقدها ، أو فقد إحداهما .

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي
تَمَنِّي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ
عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي

وأما باجتماعهما ، فإن العمل يتم ويكمل .

وإنما قالت ذلك ، لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقي لها ، ونشاطه ،
ما عرفت به قوته ، وشاهدت من أمانته وديانته ، وأنه رَحِمَهُمَا فِي حَالَةٍ ،
لا يرحى نفعهما ، وإنما قصده بذلك ، وجه الله تعالى .

[قال] صاحب مدين لموسى [إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي

هاتين على أن تأجرني] أى تصير أجيراً عندي [ثمانى حجج] .
أى : ثمانى سنين .

[فإن أتمت عشراً فمن عندك] تبرع منك ، لا شىء واجب عليك .

[وما أريد أن أشق عليك] فأحتم عشر السنين ، وما أريد أن أستأجرك ،

لأنك لست أعملاً شاقاً ، وإنما استأجرتك ، لعمل سهل يسير ، لا مشقة فيه

[ستجدنى إن شاء الله من الصالحين] فرغبه فى سهولة العمل ، وفى

حسن المعاملة .

وهذا يدل على أن الرجل الصالح ، ينبغي له أن يحسن خلقه ، مهما أمكنه ،

وأن الذى يطلب منه ، أبلغ من غيره .

[قال] موسى عليه السلام — مجيباً له فيما طلبه منه — : [ذلك بيني

وبينك] أى هذا الشرط ، الذى أنت ذكرت ، رضيت به ، وقد تم فيما

بينى وبينك .

وَيَنبَغُ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ

[أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على] سواء قضيت الثماني الواجبة ، أم تبرعت بالزائد عليها [والله على ما نقول وكيل] حافظ يراقبنا ، ويعلم ما تعاقدنا عليه .

وهذا الرجل ، أبو المرأتين ، صاحب مدين ، ليس بشعيب النبي المعروف ، كما اشتهر عند كثير من الناس ، فإن هذا ، قول لم يدل عليه دليل

وغاية ما يكون ، أن شعيبا عليه السلام ، قد كانت بلده مدين ، وهذه القضية ، جرت في مدين ، فأين الملازمة بين الأمرين ؟

وأيا ، فإنه غير معلوم ، أن موسى أدرك زمان شعيب ، فكيف بشخصه ؟ ! !

ولو كان ذلك الرجل شعيبا ، لذكره الله تعالى ، ولسمته المرأتان .

وأيا فإن شعيبا ، عليه الصلاة والسلام ، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه . ولم يبق إلا من آمن به .

وقد أعاد الله المؤمنين به ، أن يرضوا لبنتي نبيهم ، بمنهما عن الماء ، وصد ماشيتهما ، حتى يأتيهما رجل غريب ، فيحسن إليهما ، ويسقى ماشيتهما .

وما كان شعيب ، ليرضى أن يرعى موسى عنده ، ويكون خادماً له ، وهو أفضل منه ، وأعلى درجة ، إلا أن يقال : هذا قبل نبوة موسى ، فلا منافاة .

وَكَيْلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ
الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ
مِنْهَا بِخَبْرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا
نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ

وعلى كل حال ، لا يعتمد على أنه شعيب النبي ، بغير نقل صحيح عن
النبي صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

[فلما قضى موسى الأجل] يحتمل أنه قضى الأجل الواجب ، أو الزائد
عليه ، كما هو الظن بموسى ، ووفائه ، اشتاق إلى الوصول إلى أهله ، ووالدته ،
وعشيرته ، ووطنه .

وظن من طول المدة ، أنهم قد تناسوا ما صدر منه .

[سار بأهله] قاصداً مصر [آنس] أى : أبصر [من جانب الطور
نارا ، قال لأهله امكثوا] أى آنست نارا لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة
من النار لعلكم تصطلون] وكان قد أصابهم البرد ، وتاهوا الطريق .

[فلما أتاه نودي من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من
الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين] فأخبر بألوهيته ،
وربوبيته .

ويلزم من ذلك ، أن يأمره بعبادته ، وتأمله ، كما صرح به فى الآية
الأخرى « فأعبدنى وأقم الصلاة لذكركى » .

أَنْ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا
رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ
وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٣١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ

[وأن ألق عصاك] فأتقاها [فلما رآها تهتز] تسعى سعياً شديداً ، ولما
صورة مُهَيْلَةٌ [كأنها جان] ذَكَرُ الحيات العظيم .

[ولى مدبراً ولم يعقب] أى : يرجع ، لاستيلاء الروع على قلبه .

فقال الله له : [ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين] وهذا أبلغ
ما يكون فى التأمين ، وعدم الخوف .

فإن قوله : [أقبل] يقتضى الأمر بإقباله ، ويجب عليه الامتثال .

ولكن قد يكون إقباله ، وهو لم يزل فى الأمر الخوف ، فقال :
[ولا تخف] أمر له بشيئين ، إقباله ، وأن لا يكون فى قلبه خوف .

ولكن يبقى احتمال ، وهو أنه ، قد يقبل وهو غير خائف ، ولكن
لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه ، فذلك قال : [إنك من الأمنين]
فحينئذ اندفع الحذور من جميع الوجوه .

فأقبل موسى عليه السلام ، غير خائف ، ولا مرعوب ، بل مطمئناً ،
واقتماً بخبر ربه ، قد ازداد إيمانه ، وتم يقينه .

فهذه آية ، أراه الله إياها ، قبل ذهابه إلى فرعون ، ليكون على يقين
تام ، فيكون أجراً له ، وأقوى وأصلب .

ثم أراه الآية الأخرى فقال : [أسلك يدك] أى : أدخلها [فى جيبك
تخرج بيضاء من غير سوء] فسلكتها وأخرجها ، كما ذكر الله تعالى .

بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَنِكَ
بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي
هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ

[واضمم إليك جناحك من الرهب] أى ضم جناحك وهو عضدك
إلى جنبك ليزول عنك الرهب والخوف .

[فذانك] أى : انقلاب العصا حية ، وخروج اليد بيضاء من غير
سوء .

[برهانان من ربك] أى : حجتان قاطعتان من الله .

[إلى فرعون وملائه ، إنهم كانوا قوما فاسقين] فلا يكفيهم مجرد الإنذار
وأمر الرسول إياهم ، بل لا بد من الآيات الباهرة ، إن نفعت .

[قال] موسى عليه السلام ، معتذرا من ربه ، وسائلا له المعونة على
ما حمله ، وذاكراله الموانع ، التى فيه ، ليزيل ربه ما يحذره منها .

[رب إني قتلت منهم نفسا] أى : [فأخاف أن يقتلون * وأخي

هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي رداء] أى : معاونا ومساعدة
[يصدقني] فإنه مع تضايف الأخبار ، بقوى الحق [إني أخاف أن يكذبون] .

فأجابه الله إلى سؤاله فقال : [سنشد عضدك بأخيك] أى : نعاونك
به وتقويك .

ثم أزال عنه محذور القتل ، فقال : [ونجعل لك سلطانا] أى : تسلطاً ،

أَنْ يُكْذِبُونَ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعُلُ لَكَمَا
سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيٰتِنَا أٰتَمًا وَمَنْ أَتَّبَعُكُمَا
الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيٰتِنَا بَيِّنٰتٍ قَالُوا مَا هٰذَا

وتمكناً من الدعوة ، بالحجة ، والهبة الإلهية من عدوها [فلا يصلون
إليكما] .

وذلك بسبب آياتنا ، وما دلت عليه من الحق ، وما أزعجت به من باشرها
ونظر إليها .

فهى التى بها حصل لكما السلطان ، واندفع بها عنكم ، كيد عدوكم ،
وصارت لكم أبلغ من الجنود ، أولى العدَدِ والعدَدِ .

[أتما ومن اتبعكما الغالبون] وهذا وعد لموسى فى ذلك الوقت ، وهو
وحده فريد ، وقد رجع إلى بلده ، بعد ما كان شريدا .

فلم تزل الأحوال تتطور ، والأمور تنتقل ، حتى أنجز له موعوده ،
ومكثه من العباد والبلاد ، وصار له ولأتباعه ، الغلبة والظهور .

فذهب موسى برسالة ربه [فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات] واضحات
الدلالة على ما قال لهم ، ليس فيها قصور ، ولا خفاء .

[قالوا] على وجه الظلم ، والعلو ، والعناد [ما هذا إلا سحر مفترى]
كما قال فرعون فى تلك الحال ، التى ظهر فيها الحق ، واستعلى على الباطل ،
واضحل الباطل ، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور « إنه لكبيركم
الذى علمكم السحر » (هذا ، وهو الذكى غير الزكى الذى بلغ من المكر
والخداع والكيد ، ما قصه الله علينا وقد علم « ما أنزل هؤلاء إلا رب

إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ ﴿٣٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ
لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا

السموات والأرض « ولكن الشقاء غالب .

[وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين] وقد كذبوا في ذلك ، فإن الله أرسل يوسف ، قبل موسى كما قال تعالى « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف كذاب .

[وقال موسى] حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال ، وأن ما هم عليه هو الهدى :

[ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار] .
أى : إذا لم تغد المقاتلة معكم ، وتبين الآيات البينات ، وأبيتم إلا التماذى في غيكم ، واللجاج على كفركم ، فالله تعالى العالم بالهتدى وغيره ، ومن تكون له عاقبة الدار ، نحن أم أتم [إنه لا يفلح الظالمون] .

فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه ، والفلاح ، والفوز .

وصار لأولئك ، الخسار ، وسوء العاقبة والمهلك .

[وقال فرعون] متجرئاً على ربه ، ومموها على قومه السفهاء ، ضعفاء

العقول :

الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ
فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ

[يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري] أي : أنا وحدي ، إلهكم
ومعبودكم .

ولو كان ثمَّ إله غيري ، لعلته .

فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون ، حيث لم يقل « مالكم من إله
غيري » .

وهذا ، لأنه عندهم ، العالم الفاضل ، الذي مهما قال ، فهو الحق ، ومهما
أمر ، أطاعوه .

فلما قال هذه المقالة ، التي قد تحتل أن ثمَّ إلهها غيره ، أراد أن يحقق
النفي ، الذي جعل فيه ذلك الاحتمال ، فقال لـ « هامان » :

[فأوقد لي يا هامان على الطين] ليجعل له لبنا من فخار .

[فاجعل لي صرحا] أي : بناء عاليا [لعلني أطلع إلى إله موسى وإني
لأظنه من الكاذبين] .

ولكن سنحقق هذا الظن ، ونريكم كذب موسى .

فانظر هذه الجراءة العظيمة ، على الله ، التي ما بلغها آدمي .

كذب موسى ، وادّعى أنه الله ، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق ،
وفعل الأسباب ، ليتوصل إلى إله موسى ، وكل هذا ترويح .

ولكن العجب من هؤلاء الملأ ، الذين يزعمون أنهم كبار المملكة ،
المديرون لشئونها ، كيف لعب هذا الرجل بقولهم ، واستخف أحلامهم ،

الكَذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبَرَهُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ
فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آئَةً

وهذا لفسقتهم ، الذى صار صفة راسخة فيهم .

فسد دينهم ، ثم تبع ذلك ، فساد عقولهم ، ففسالك اللهم ، الثبات على
الإيمان ، وأن لا تزيف قلوبنا ، بعد إذ هديتنا ، وأن تهبلنا من لدنك رحمة
إنك أنت الوهاب .

قال تعالى : [واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق] استكبروا
على عباد الله ، وساموهم سوء العذاب ، واستكبروا على رسل الله ، وما
جاءوهم به من الآيات .

فكذبوها ، وزعموا أن ما هم عليه ، أعلى منها وأفضل .

[وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون] فلذلك تجرأوا .

وإلا فلو علموا ، وظنوا أنهم يرجعون إلى الله ، لما كان منهم
ما كان .

[فأخذناه وجنوده] عندما استمر عنادهم وبغيهم [فنبذناهم فى اليم ،
فانظر كيف كان عاقبة الظالمين] كانت شر العواقب وأخسرها عاقبة ،
أعقبها العقوبة الدنيوية المستمرة ، المتصلة بالعقوبة الأخروية .

[وجعلناهم آئمة يدعون إلى النار] أى جعلنا فرعون وملاه ، من
الآئمة ، الذين يقتدى بهم ، ويمشى خلفهم إلى دار الخزي والشقاء .

يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ
فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ
آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ

[ويوم القيامة لا ينصرون] من عذاب الله ، فهم أضعف شيء ، عن
دفعه عن أنفسهم ، وليس لهم من دون الله ، من ولى ولا نصير .

[وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة] أى : وأتبعناهم ، زيادة في عقوبتهم
وخزيهم ، في الدنيا لعنة ، يلعنون ، ولهم عند الخلق ، الثناء القبيح ، والمقت
والذم .

وهذا أمر مشاهد ، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ، ومقدمتهم .

[ويوم القيامة هم من المقبوحين] للمبعدين ، المستقرة أفعالهم . الذين
اجتمع عليهم مقت الله ، ومقت خلقه ، ومقت أنفسهم .

[ولقد آتينا موسى الكتاب] وهو التوراة [من بعد ما أهلكنا
القرون الأولى] الذين كان خاتمهم ، في الإهلاك العام ، فرعون وجنوده .
وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة ، انقطع الهلاك العام ، وشرع
جهاد الكفار بالسيف .

[بصائر للناس] أى : كتاب الله ، الذى أنزله على موسى ، فيه بصائر
للناس ، أى : أمور يبصرون بها ، ما ينفعهم ، وما يضرهم ، فتقوم الحجة
على العاصى ، وينتفع بها المؤمن ، فتكون رحمة في حقه ، وهداية إلى الصراط
المستقيم ، ولهذا قال :

لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِمِجَانِبِ
الْعَرَبِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾
وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا
فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾

[وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون].

ولما قص الله على رسوله ، ما قص من هذه الأخبار الغيبية ، نبه العباد ،
على أن هذا خبر إلهي محض ، ليس للرسول ، طريق إلى علمه ، إلا من جهة
الوحي ، ولهذا قال :

[وما كنت بمجانب العربي] أي : بمجانب الطور العربي [إذ قضينا
إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين] على ذلك ، حتى يقال : إنه
وصل إليك من هذا الطريق .

[ولكنا أنشأنا قرونا ، فتطاول عليهم العمر] فاندرس العلم ، ونسيت
آياته .

فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك ، وإلى ما علمناك ، وأوحينا
إليك .

[وما كنت ثاويا] أي : مقيا [في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا] أي :
تعلمهم ، وتعلم منهم ، حتى أخبرت بما أخبرت ، من شأن موسى في مدين .
[ولكنا كنا مرسلين] أي : ولكن ذلك الخبر ، الذي جئت به عن
موسى ، أئر من آثار إرسالنا إليك ، ووحي سبيلك إلى علمه ، بدون
إرسالنا .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ
قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

[وما كنت بجانب الطور إذ نادينا] موسى ، وأمرناه أن يأتي القوم
الظالمين ، ويبلغهم رسالتنا ، ويريهم من آياتنا وعجايبنا ، ما قصصنا
عليك .

والمقصود ، أن الما جريات ، التي جرت لموسى ، عليه الصلاة والسلام ،
في هذه الأما كن ، فقصصتها كما هي ، من غير زيادة ولا نقص ، لا يخلو
من أحد أمرين .

إما أن تكون حضرتها وشاهدتها ، أو ذهبت إلى محلها ، فتعلمتها
من أهلها .

فحينئذ قد لا يدل ذلك ، على أنك رسول الله ، إذ الأمور التي يخبرها
عن شهادة ودراسة ، من الأمور المشتركة ، غير المختصة بالأنبياء .

ولكن هذا قد علم وتيقن أنه ما كان وما صار .

فأولياؤك وأعداؤك ، يعلمون عدم ذلك .

فتمين الأمر الثاني ، وهو : أن هذا جاءك من قبلي الله ووحيه

وإرساله .

ثبت بالدليل القطعي ، صحة رسالتك ، ورحمة الله بك للعباد ، ولهذا قال :

[ولكن رحمة من ربك ، لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك]

أى : العرب ، وقريش ، فإن الرسالة عندهم ، لا تعرف وقت إرسال الرسول
وقبله بأزمان متطاولة .

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾
فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى

[لعلمهم بتذكرون] تفصيل الخير ، فيفعلونه ، والشر فيتركونه .
فإذا كنت بهذه المنزلة ، كان الواجب عليهم ، المبادرة إلى الإيمان بك ،
وشكر هذه النعمة ، التي لا يقادر قدرها ، ولا يدرك شكرها .
وإنذاره للعرب ، لا ينفي ، أن يكون مرسلًا لغيرهم ، فإنه عربي ، والقرآن
الذي نزل عليه ، عربي ، وأول من باشر بدعوته ، العرب .
فكانت رسالته لهم أصلاً ، ولغيرهم تبعاً ، كما قال تعالى « أكان للناس
عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس * قل يا أيها الناس إني
رسول الله اليكم جميعاً » .
[ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم] من الكفر والمعاصي
[فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين]
أى : فأرسلناك يا محمد ، لدفع حججهم ، وقطع مقاتلهم .
[فلما جاءهم الحق] الذي لا شك فيه [من عندنا] وهو القرآن ، الذي
أوحيناه إليك [قالوا] مكذبين له ، ومعترضين بما ليس يعترض به :
[لولا أوتى مثل ما أوتى موسى] أى أنزل عليه كتاب من السماء
جملة واحدة .

أى : فأما ما دام ينزل متفرقاً ، فإنه ليس من عند الله .

أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا
وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ
هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا

وأى دليل فى هذا؟ وأى شبهة أنه ليس من عند الله، حين نزل مفترقا؟
بل من كمال هذا القرآن، واعتناء الله بمن أنزل عليه، أن نزل مفترقا،
ليثبت الله به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين .
« ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » .

وأيضاً، فإن قياسهم على كتاب موسى، قياس قد نقضوه، فكيف
يقسونه على كتاب كفروا به، ولم يؤمنوا؟

ولهذا قال [أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل، قالوا سحران
تظاهرا] أى : القرآن والتوراة، تعارنا فى سحرهما، وإضلال الناس
[وقالوا إنا بكل كافرون] .

فثبت بهذا، أن القوم يريدون إبطال الحق، بما ليس ببرهان، وينقضونه
بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافر .
ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين [وقالوا إنا بكل
كافرون] .

ولكن هل كفرهم بهما، كان طلبا للحق، واتباعا لأمر عندهم، خير
منهما، أم مجرد هوى؟

قال تعالى ملزما لهم بذلك : [قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى
منهما] أى من التوراة والقرآن [أتبعه إن كنتم صادقين] ولا سبيل لهم،

لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ

ولا لغيرهم ، أن يأتوا بمثلها ، فإنه ما طرق العالم ، منذ خلقه الله ، مثل هذين الكتابين ، علماً ، وهدى ، وبيانا ، ورحمة للخلق .

وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال : مقصودى ، الحق والهدى والرشد .

وقد جئتكم بهذا الكتاب ، المشتمل على ذلك ، الموافق لكتاب موسى .

فيجب علينا جميعا الإذعان لهما ، واتباعهما ، من حيث كونهما هدى وحقا .

فإن جئتمونى بكتاب من عند الله ، هو أهدى منهما ، اتبعته . وإلا ، فلا أترك هدى وحقا قد علمته لغير هدى وحق .

[فإن لم يستجيبوا لك] فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما [فاعلم أنما يتبعون أهواءهم] أي : فاعلم أن تركهم اتباعك ، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه ، ولا إلى هدى ، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم .

[ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله] فهذا من أضل الناس ، حيث عرض عليه الهدى ، والصراط المستقيم ، الموصل إلى الله وإلى دار كرامته ، فلم يلتفت إليه ، ولم يقبل عليه .

ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء ، فاتبعه ، وترك الهدى .

فهل أحد أضل من هذا وصفه !!؟ ولكن ظلمه وعدوانه ، وعدم محبته للحق ، هو الذى أوجب له : أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله ، فلهذا قال :

هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴿٥٠﴾

[إن الله لا يهدي القوم الظالمين] أى: الذى صار الظلم لهم وصفا والعناد لهم نعتاً ، جاءهم الهدى فرفضوه ، وعرض لهم الهوى ، فتبعوه .

سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها ، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها .

فهم فى غيهم وظلمهم يعمهون ، وفى شقايتهم وهلاكهم ، يترددون .

وفى قوله : [فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم] دليل على أن كل من لم يستجب للرسول ، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول ، فإنه لم يذهب إلى هدى ، وإنما ذهب إلى هوى .

[ولقد وصلنا لهم القول] أى : تابعناه وواصلناه ، وأنزلناه شيئاً فشيئاً ، رحمة بهم ولطفاً [لعلهم يتذكرون] حين تتكرر عليهم آياته ، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها .

فصار نزوله متفرقاً ، رحمة بهم ، فلم اعتراضوا على ما هو من مصالحهم ؟

فصل

في ذكر بعض الفوائد والمعبر في هذه القصة العجيبة

فنها أن آيات الله وعبره ، وأيامه في الأمم السابقة ، إنما يستفيد بها ويستنير ، المؤمنون ، فعلى حسب إيمان العبد ، تكون عبرته .

وإن الله تعالى إنما يسوق القصص ، لأجلهم .

وأما غيرهم ، فلا يعبا الله بهم ، وليس لهم منها نور وهدى .

ومنها : أن الله تعالى ، إذا أراد أمراً ، هياً أسبابه ، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدرج ، لا دفعة واحدة .

ومنها : أن الأمة المتضعفة ، ولو بلغت في الضعف ما بلغت ، لا ينبغي لها أن يستولى عليها الكسل ، عن طلب حقها ، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور ، خصوصاً إذا كانوا مظلومين ، كما استنقذ الله ، أمة بنى إسرائيل ، الأمة الضعيفة ، من أسر فرعون وملايه ، ومكنهم في الأرض ، وملكهم ببلادهم .

ومنها : أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة ، لا تأخذ حقها ، ولا تتكلم به ، لا يقوم لها أمر دينها ولا دنياها ، ولا يكون لها إمامة فيه .

ومنها : لطف الله بأم عوسى ، وتهوينه عليها المصيبة ، بالبشارة ، بأن الله سيرد إليها ابنها ، ويجعله من المرسلين .

ومنها : أن الله يقدر على عبده بعض المشاق ، لينيله سرورا أعظم من ذلك ، أو يدفع عنه شراً أكثر منه .

كما قدر على أم موسى ، ذلك الحزن الشديد ، والهم البليغ ، الذى هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها ، على وجه مطمئن به نفسها ، وتقربه عينها ، وتزداد به غبطة وسرورا .

ومنها : أن الخوف الطبيعى من الخلق ، لا ينافى الإيمان ولا يزيله ، كما جرى لأم موسى ، ولموسى من تلك المخاوف .

ومنها : أن الإيمان يزيد وينقص . وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان ، ويتم به اليقين ، الصبر عند المزعجات ، والتثبيت من الله ، عند المقلقات ، كما قال تعالى .

[لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين] أى : ليزداد إيمانها بذلك ، ويطمئن قلبها .

ومنها : أن من أعظم نعم الله عبده ، وأعظم معونة للعبد على أموره ، تثبيت الله إياه ، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف ، وعند الأمور المذهلة ، فإنه بذلك ، يتمكن من القول الصواب ، والفعل الصواب .

بخلاف من استمر قلقه وروعه ، وانزعاجه ، فإنه يضيع فكره ، ويذهل عقله ، فلا ينتفع بنفسه فى تلك الحال .

ومنها : أن العبد - ولو عرف أن القضاء والقدر ، ووعد الله نافذ لا بد منه -

فإنه لا يهمل فعل الأسباب ، التي أمر بها ، ولا يكون ذلك منافيا لإيمانه
بخبير الله .

فإن الله قد وعد أم موسى ، أن يرده عليها ، ومع ذلك ، اجتهدت في
رده ، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه .

ومنها : جواز خروج المرأة في حوائجها ، وتكليمها للرجال ، من
غير محذور ، كما جرى لأخت موسى ، وابنتى صاحب مدين .

ومنها : جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع ، والدلالة على من
يفعل ذلك .

ومنها : أن الله من رحمته بعبد الضميف ، الذى يريد إكرامه ، أن
يريه من آياته ، ويشهده من بيناته ، ما يزيد به إيمانه ، كما رد الله موسى
إلى أمه ، لتعلم أن وعد الله حق .

ومنها : أن قتل الكافر ، الذى له عهد بمقد أو عرف ، لا يجوز .
فإن موسى عليه السلام عدّ قتله القبطى الكافر ، ذنبا ، واستغفر
الله منه .

ومنها : أن الذى يقتل النفوس بغير حق ، يعد من الجبارين ، الذين
يفسدون فى الأرض .

ومنها : أن من قتل النفوس بغير حق ، وزعم أنه يريد الإصلاح فى
الأرض ، وتهيب أهل المعاصى ، فإنه كاذب فى ذلك ، وهو مفسد كما حكى
الله قول القبطى [إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن

تكون من المصلحين [على وجه التقرير له ، لا الإنكار .

ومنها : أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه ، على وجه التحذير له ، من شر ، يقع ، فيه ، لا يكون ذلك نعمة - بل قد يكون واجبا - كما أخبر ذلك الرجل موسى ، ناصحا له ومحدرا .

ومنها : أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة ، فإنه لا يلقى بيده إلى التهلكة ، ولا يستسلم لذلك ، بل يذهب عنه ، كما فعل موسى .

ومنها : أنه عند تزامم الفسدين ، إذا كان لا بد من ارتكاب إحداها فإنه يرتكب الأخف منهما ، والأسلم .

كما أن موسى ، لما دار الأمر بين بقاءه في مصر ، ولكنه يقتل ، أو يذهب إلى بعض البلدان البعيدة ، التي لا يعرف الطريق إليها ، وليس معه دليل يده غير ربه ، ولكن هذه الحالة أرجى للسلامة من الأولى ، فتبعها موسى .

ومنها : أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه ، إذا لم يترجح عنده أحد القولين ، فإنه يستهدى ربه ، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين ، بعد أن يقصد بقلبه الحق ، ويبحث عنه ، فإن الله لا يخيب من هذه حاله .

كما خرج موسى تلقاء مدين فقال : [عسى ربي أن يهديني سواء السبيل] .

ومنها : أن الرحمة بالخلق ، والإحسان على من يعرف ومن لا يعرف ،

من أخلاق الأنبياء ، وأن من الإحسان سقى الماشية الماء ، وإعانة العاجز .

ومنها استحباب الدعاء ، بتبيين الحال وشرحها ، ولو كان الله عالماً لها . لأنه تعالى ، يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته ، كما قال موسى : [رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير] .

ومنها أن الحياء - خصوصاً من الكرام - من الأخلاق المدوحة .

ومنها : المكافأة على الإحسان ، لم يزل دأب الأمم السابقين .

ومنها : أن العبد إذا عمل العمل لله تعالى ، ثم حصل له مكافأة عليه ، من غير قصد بالقصد الأول ، فإنه لا يلام على ذلك ، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين ، عن معروفه الذي لم يتبع له ، ولم يستشرف بقلبه على عوض .

ومنها مشروعية الإجارة ، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها ، مما لا يقدر به العمل ، وإنما مرده ، العرف .

ومنها أنه تجوز الإجارة بالمنفعة ، ولو كانت للنفعة بضماً .

ومنها أن خطبة الرجل لابنته الذي يتخيرها ، لا يلام عليه .

ومنها : أن خير أجير وعامل يعمل للإنسان ، أن يكون قويا أميناً .

ومنها : أن من مكارم الأخلاق ، أن يُحسِّن خلقه ، لأجيره ، وخادمه ، ولا يشق عليه بالعمل لقوله : [وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين] .

ومنها : جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود ، من دون إشهاد لقوله :
[والله على ما نقول وكيل] .

ومنها : ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات ، والمعجزات
الظاهرة ، من الحية ، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء ، ومن عصمة الله
لموسى وهرون ، من فرعون ، ومن الفرق .

ومنها : أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماما في الشر ،
وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته .

كما أن من أعظم نعمة ، أنعم الله بها على عبده ، أن يجعله إماما في الخير
هاديا مهديا .

ومنها : ما فيها من الدلالة ، على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث
أخبر بذلك تفصيلا ، وتأصيلا موافقا ، قصة قصا ، صدق به المرسلين ؛ وأيد
به الحق المبين ، من غير حضور شيء من تلك الوقائع ؛ ولا مشاهدة لموضع
واحد من تلك المواضع ؛ ولا تلاوة درس فيها شيئا من هذه الأمور ؛
ولا مجالسة أحد من أهل العلم ؛ إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم ؛ ووحى
أنزله عليه الكريم المنان ؛ لينذر به قوما جاهلين ؛ وعن النذر والرسول
غافلين .

فصلوات الله وسلامه ؛ على من مجرد خبره ينبيء أنه رسول الله ؛
ومجرد أمره ونهييه ينبيه العقول النيرة ؛ أنه من عند الله .

كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به ؛ وصدقته خبر الأولين
والآخرين .

والشرع الذى جاء به من رب العالمين ، وما جبل عليه من الأخلاق
الفاضلة ؛ التى لا تناسب ؛ ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة ؛ والنصر المبين
لدينه وأمته .

حتى بلغ دينه ؛ مبلغ الليل والنهار ؛ وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار ؛
بالسيف والسنان ، وقلوبهم بالعلم والإيمان .

ولم تزل الأمم المعاندة ؛ والملوك الكفرة ؛ ترميه بقوس واحدة ؛
وتكيد له المكائد ؛ وتمكن لإطفائه ؛ وإخفائه ؛ وإخضاره من الأرض
وهو قد بهرها وعلاها .

لا يزداد إلا نموا ، ولا آياته وبراهينه ، إلا ظهورا .

وكل وقت من الأوقات ، يظهر من آياته ، ما هو عبرة للعالمين ،
وهداية للعالمين ، ونور وبصيرة للمتوسمين . والحمد لله وحده .

﴿٥٢﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّآ كُنَّا
مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا

* يذكر تعالى ، عظمة القرآن ، وصدقه ، وحقه ، وأن أهل العلم بالحقية ، يعرفونه ، ويؤمنون به ، ويقرون بأنه الحق :

[الذين آتيناهم الكتاب من قبله] وهم أهل التوراة ، والإنجيل ، الذين لم يغيروا ، ولم يبدلوا [هم به] أى : بهذا القرآن ، ومن جاء به [يؤمنون] .

[وإذا يتلى عليهم] استمعوا له ، وأذعنوا و [قالوا آمنا به] إنه الحق من ربنا [لموافقته ما جاءت به الرسل ، ومطابقتها لما ذكر في الكتاب ، واشتماله على الأخبار الصادقة ، والأوامر والنواهي الموافقة ، لغاية الحكمة . وهؤلاء ، الذين تفيد شهادتهم ، وينفع قولهم ، لأنهم لا يقولون ما يقولون ، إلا عن علم وبصيرة ، لأنهم أهل الخبرة ، وأهل الكتب .

وغيرهم لا يدل ردهم ، ومعارضتهم للحق ، على شبهة ، فضلا عن الحجة ، لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق .

قال تعالى : « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا » الآيات .

وقوله [إنا كنا من قبله مسلمين] فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان والإسلام ، فصدقنا بهذا القرآن ، آمنا بالكتاب الأول ، والكتاب الآخر .

وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا
اللَّغْوَ اعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ

وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب ، إيمانه بالكتاب الأول .

[أولئك] الذين آمنوا بالكتابين [يؤتون أجرهم مرتين] أجراً على
الإيمان الأول ، وأجراً على الإيمان الثاني .

[بما صبروا] على الإيمان ، وثبتوا على العمل ، فلم تزعزعهم عن ذلك ،
شبهة ، ولا ثنأهم عن الإيمان ، رياسة ولا شهوة .

[و] من خصالم الفاضلة ، التي هي من آثار إيمانهم الصحيح ، أنهم
[يدرءون بالحسنة السيئة] أى : دأبهم وطريقتهم ، الإحسان لكل أحد ،
حتى للمسيء إليهم ، بالقول والفعل ، يقابلونه بالقول الحميد ، والفعل الجميل ،
لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم ، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم .

[وإذا سمعوا اللغو] من جاهل خاطبهم به ، أعرضوا عنه ،
و [قالوا] مقالة عباد الرحمن أولى الأبواب : [لنا أعمالنا ولكم
أعمالكم] .

أى : كلٌّ سَيِّجَازِي بعمله ، الذى عمله وحده ، ليس عليه من وزر
غيره شئ .

ولزم من ذلك ، أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون ، من اللغو والباطل ،
والسلام الذى لا فائدة فيه .

[سلام عليكم] أى لا تسمعون منا إلا الخير ، ولا نخطبكم بمقتضى
جهلكم .

عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

فإسكم ، وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللثيم ، فإننا ننزه أنفسنا عنه ،
ونصونها عن الخوض فيه .

[لا نبتغي الجاهلين] من كل وجه .

* يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية
أحد ، ولو كان من أحب الناس إليك ، فإن هذا ، أمر غير مقدور للخلق
هداية للتوفيق ، وخلق الإيمان في القلب ، وإنما ذلك بيد الله تعالى ، يهدي
من يشاء ، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه ، ممن لا يصلح لها ، فيبقيه
على ضلاله .

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى : « وإنك لتهدى إلى صراط
مستقيم » فتلك هداية البيان والإرشاد .

فالرسول يبين الصراط المستقيم ، ويرغب فيه ، ويبذل جهده في سلوك
الخلق له .

وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان ، ويوفقهم بالفعل ، فحاشا وكلا .
ولهذا لو كان قادرا عليها ، لهدى من وصل إليه إحسانه ، ونصره ،
ومنعه من قومه ، عمه أبا طالب ، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة
له للدين والنصح التام ، ما هو أعظم مما فعله معه عمه ، ولكن الهداية
بيد الله .

﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهَدَىٰ مَعَكَ تُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا
أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا

* يخبر تعالى أن المكذبين من قريش ، وأهل مكة ، يقولون للرسول
صلى الله عليه وسلم :

[إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا] بالقتل والأسر ، ونهب
الأموال .

فإن الناس قد عادوك وخالفوك ، فلو تابعتك ، لتعرضنا لمعاداة الناس
كلهم ، ولم يكن لنا بهم طاقة .

وهذا الكلام منهم ، يدل على سوء الظن بالله تعالى ، وأنه لا ينصر
دينه ، ولا يعلى كلمته .

بل يمكن الناس من أهل دينه ، فيسومونهم سوء العذاب ، وظنوا
أن الباطل سيعلو على الحق .

قال الله - مبينا لهم حالة ، هم بها دون الناس ، وأن الله اختصهم
بها فقال :

[أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجي إليه ثمرات كل شيء رزقا
من لدنا] .

أى : أو لم نجعلهم ممتكنين ، ممكنين في حرم ، يكثر المتقربون إليه ،
ويقصده الزائرون ، قد احترمه القريب والبعيد ، فلا يهاج أهله ،
ولا ينتقصون بقليل ولا كثير .

مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن
قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمَّا نُسُكْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى

والحال أن كل ما حولهم من الأماكن ، قدحف بها الخوف من كل
جانب ، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين .

فَلْيَحْمَدُوا رَبَّهُمْ عَلَى هَذَا الْأَمْنِ الْقَامِ ، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ غَيْرُهُمْ ، وَعَلَى
الرِّزْقِ الْكَثِيرِ ، الَّذِي يُجِئُ إِلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، مِنَ الثَّرَاتِ ، وَالْأَطْعَمَةِ ،
وَالْبَضَائِعِ ، مَا بِهِ يَرْتَقُونَ وَيَتَوَسَّعُونَ .

وَلْيَتَّبِعُوا هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ، لِيَتِمَّ لَهُمُ الْأَمْنُ وَالرَّغْدُ .

وإياهم وتكذيبه ، والبطر بنعمته ، فيبدلوا من بعد أمنهم خوفاً ،
وبعد عزم ذلاً ، وبعد غناهم فقراً ، ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم
قبلهم ، فقال :

[وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا] أَى : نَفَرَتْ بِهَا ، وَأَهْلَتْهَا ،
وَأَشْتَغَلَتْ بِهَا عَنِ الْإِيمَانِ بِالرَّسْلِ ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ ، وَأَزَالَ عَنْهُمْ النِّعْمَةَ ،
وَأَحْلَبَهُمُ النِّقْمَةَ .

[فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمَّا نُسُكْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا] لِتَوَالِي الْهَلَاكِ وَالْتَلْفِ
عَلَيْهِمْ ، وَإِيحَاشِهَا مِنْ بَعْدِهِمْ .

[وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ] لِلْعِبَادِ ، نِيَّتِهِمْ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْنَا جَمِيعَ مَا مَتَعْنَاهُمْ
بِهِ مِنَ النِّعْمِ ، ثُمَّ نَعِيدُهُمْ إِلَيْنَا ، فَجَازِيَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ .

حَتَّىٰ يَبِثَّ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي
الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

ومن حكمته ورحمته ، أن لا يعذب الأمم ، بمجرد كفرهم ، قبل إقامة
الحجة عليهم ، بإرسال الرسل إليهم ، ولهذا قال :

[وما كان ربك مُهْلِكِ الْقُرَىٰ] أى بكفرهم وظلمهم [حتى يبعث في
أُمها] أى : في القرية والمدينة التى إليها يرجعون ، ونحوها يترددون ، وكل
ما حولها ينتجعها ، ولا تخفى عليهم أخبارها .

[رسولا يتلو عليهم آياتنا] الدالة على صحة ما جاء به ، وصدق
ما دعاهم إليه .

فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم .

بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة ، والأطراف النائية ، فإن ذلك ،
مظنة الخفاء والجفاء ، والمدن الأمهات ، مظنة الظهور والانتشار ، وفي
الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم .

[وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون] بالكفر والمعاصى ،
مستحقون للعقوبة .

والحاصل ، أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه ، وإقامة الحجة عليه .

﴿ وَمَا أوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا

* هذا حض منه تعالى لعباده ، على الزهد في الدنيا ، وعدم الاغترار بها ،
وعلى الرغبة في الأخرى ، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه .

ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق ، من الذهب ، والفضة ، والحيوانات
والأمتعة ، والنساء ، والبنين ، والمآكل ، والمشرب ، والذات ، كلها
متاع الحياة الدنيا وزينتها .

أى : يتمتع به وقتاً قصيراً ، متاعاً قاصراً ، محشوا بالمنغصات ،
ممزوجا بالغصص .

ويتزين به زمانا يسيرا ، للفخر والرياء ، ثم يزول ذلك سريعا ،
وينقضى جميعا ، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم ، والخبية
والحرمان .

[وما عند الله] من النعيم المقيم ، والعيش السليم [خير وأبقى]
أى : أفضل في وصفه وكميته ، وهو دائم أبداً ، ومستمر سرمداً .

[أفلا تعقلون] أى : أفلا تكون لكم عقول ، بها تزنون أى
الأمسين أولى بالإيثار ، وأى الدارين أحق للعمل لها .

فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد ، يؤثر الأخرى على الدنيا ، وأنه
ما آثر أحد الدنيا ، إلا لنقص في عقله .

ولهذا نبه العقول على الموازنة ، بين عاقبة مؤثر الدنيا ، ومؤثر
الآخرة فقال :

حَسَنًا فَهُوَ لَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴿٦١﴾

[أفن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه] أى : هل يستوى مؤمن ،
ساع للآخرة سعيها قد عمل على وعد ربه له ، بالثواب الحسن ، الذى هو
الجنة ، وما فيها من النعيم العظيم ، فهو لاقيه ، من غير شك ، ولا ارتياب
لأنه وعد من كريم ، صادق الوعد ، لا يخلف الميعاد ، لمبد قام بمرضاته ،
وجانب سخطه .

[كمن متعناه متاع الحياة الدنيا] فهو يأخذ فيها ، ويعطى ، وبأكل
ويشرب ، ويتمتع كما تتمتع البهائم .

قد اشتغل بدنياه عن آخرته ، ولم يرفع بهدى الله رأسا ، ولم ينقد
للمرسلين .

فهو لا يزال كذلك ، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك .

[ثم هو يوم القيامة من المحضرين] للحساب وقد علم أنه لم يقدم خيرا
لنفسه ، وإنما قدم جميع ما يضره ، وانتقل إلى دار الأعمال .

فما ظنكم بما بصير إليه ؟ وما محسوبون ما يصنع به ؟ .

فليختر العاقل لنفسه ، ما هو أولى بالاختيار ، وأحق الأمرين
بالإيثار .

﴿٦٢﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا

* هذا إخبار من الله تعالى ، عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة ، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء ، عن عبادة الله ، وإجابة رسله فقال :

[ويوم يناديهم] أى : ينادى من أشركوا به شركاء ، يعبدونهم ، ويرجون نفعهم ، ودفع الضرر عنهم ، فيناديهم ، ليبين لهم عجزها ، وضلالهم .

[فيقول أين شركائى] ، وليس لله شريك ، ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم .

ولهذا قال : [الذين كنتم تزعمون] فأين هم ، بذواتهم ، وأين نفعهم وأين دفعهم ؟

ومن المعلوم أنهم يتبين لهم فى تلك الحال ، أن الذى عبدوه ، ورجوه باطل ، مضمحل فى ذاته ، وما رجوا منه ، فيقولون [أى : يحكون] على أنفسهم بالضلالة والغواية .

ولهذا [قال الذين حق عليهم القول] من الرؤساء والقادة ، فى الكفر والشر ، مقرين بغوايتهم وإغوائهم : [ربنا هؤلاء] التابعون [الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا] .

أى : كلنا قد اشترك فى الغواية ، وحق عليه كلمة العذاب .

[تبرأنا إليك] من عبادتهم ، أى : نحن برآء منهم ، ومن عملهم .

يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ

[ما كانوا إيانا يعبدون] وإنما كانوا يعبدون الشياطين .

[وقيل] لهم : [ادعوا شركاءكم] على ما أملت فيهم ، من النفع .

فأسروا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج ، الذي يضطر فيه العابد إلى

من عبده .

[فدعوه] لينفعمهم ، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء .

[فلم يستجيبوا لهم] فعمل الذين كفروا ، أنهم كانوا كاذبين ،

مستحقين للعقوبة .

[ورأوا العذاب] الذي سيحل بهم عيانا ، بأبصارهم بعد ما كانوا

مكذابين به ، منكرين له .

[لو أنهم كانوا يهتدون] أى : لما حصل عليهم ما حصل ، ولهدوا

إلى صراط الجنة ، كما اهتدوا في الدنيا ، ولكن لم يهتدوا ،

فلم يهتدوا .

[ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين] ، هل صدقتموهم ، وانبعتموهم

أم كذبتموهم وخالفتموهم ؟

[فعصيت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون] أى : لم يحيروا عن هذا

السؤال جوابا ، ولم يهتدوا إلى الصواب .

ومن المعلوم ؛ أنه لا ينجى في هذا الموضع ؛ إلا التصريح بالجواب

الصحيح ؛ المطابق لأحوالهم ؛ من أننا أجبناهم بالإيمان ؛ والافتقاد .

فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ
فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾
﴿٦٧﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ
مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم ؛ لم ينطقوا بشيء .
ولا يمكن أن يتساءلوا ؛ ويترجعوا بينهم ؛ فيماذا يجيبون به ؛ ولو
كان كذبا .

* لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم ؛ وعن رسلهم ؛ ذكر
الطريق ، الذى ينجو به العبد ، من عقاب الله تعالى ، وأنه لانجاة إلا لمن
اتصف بالتوبة عن الشرك والمعاصي ، وآمن بالله فعبده ، وآمن برسله ،
فصدقهم ، وعمل صالحاً ؛ متبعاً فيه للرسل .

[فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ] من جمع هذه الخصال [من المفلحين] الناجحين
بالمطلوب ؛ الناجين من المهوب .

فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور .

﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ
مُبَيَّنَ اللَّهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخِزْيُفِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

* هذه الآيات ؛ فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات ؛ ونفوذ مشيئته بجميع البريات ؛ وانفراده باختيار من يختاره ويمتصه ؛ من الأشخاص ؛ والأوامر والأزمان ؛ والأماكن .

وأن أحداً ؛ ليس له من الأمر والاختيار شيء .

وأنه تعالى ؛ منزه عن كل ما يشركون به ؛ من الشريك ؛ والظهير والعيون ؛ والولد ؛ والصاحبة ؛ ونحو ذلك ؛ مما أشرك به المشركون . وأنه العالم بما أكنته الصدور ، وما أعلنوه .

وأنه وحده ، المعبود المحمود ؛ في الدنيا والآخرة ؛ على ماله من صفات الجلال والجمال ؛ وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال .

وأنه هو الحاكم في الدارين ؛ في الدنيا ؛ بالحكم القدرى ؛ الذى أمره جميع ما خلق وذراً ، والحكم الدينى ، الذى أمره جميع الشرائع ، والأوامر والنواهي .

وفي الآخرة يحكم بحكمه القدرى والجزائى ، ولهذا قال : [وإليه ترجعون] فيجازى كلا منكم بعمله ، من خير وشر .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١)
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

* هذا امتنان من الله على عباده ، يدعوهم به إلى شكره ، والقيام بعبوديته وحقه ، أن جعل لهم من رحمته ، النهار ليتفوا من فضل الله ، وينتشروا للطلب أرزاقهم ومعايشهم ، في ضيائه ، والليل ليهدأوا فيه ويسكنوا ، وتستريح أبدانهم وأنفسهم ، من تعب التصرف في النهار ، فهذا من فضله ورحمته بعباده .

فهل أحد يقدر على شيء من ذلك ؟

و [إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتاكم بضياء ، أفلا تسمعون] مواظب الله وآياته ، سماع فهم وقبول ، وانقياد .

و [إن جعل عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتاكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون] مواظب العبر ؛ ومواظب الآيات فستنير في بصائرهم ، وتسلكوا الطريق المستقيم .

وقال في الليل [أفلا تسمعون] وفي النهار [أفلا تبصرون] .

لأن سلطان السمع في الليل ، أبلغ من سلطان البصر ، وعكسه النهار .

وفي هذه الآيات ، تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه ،

ويستبصر فيها ؛ ويقسها بحال عدمها .

مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾
وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا
مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ

فإنه إذا وازن بين حالة وجودها ، وبين حالة عدمها ؛ تنبه عقله
لموضع المنة .

بخلاف من جرى مع العوائد ، ورأى أن هذا أمر ، لم يزل مستمراً ،
ولا يزال .

رعى قلبه عن الثناء على الله ، بنعمه ، ورؤية افتقاره إليها في كل
وقت .

فإن هذا ، لا يحدث له فكرة شكر ، ولا ذكر .

* أى : ويوم ينادى الله المشركين به ، العادلين به غيره ، الذين يزعمون
أن له شركاء ، يستحقون أن يعبدوا ، وينفعون ويضرون .

فإذا كان يوم القيامة وأراد الله أن يظهر جراتهم وكذبهم في
زعمهم وتكذيبهم لأنفسهم [يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم
تزعمون] .

أى : بزعمهم ، لا بنفس الأمر كما قال : « وما يتبع الذين يدعون من
دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن » .

فإذا حضروا ، هم وإياهم ، نزع الله [من كل أمة] من الأمم المكذبة

فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٥﴾

[شهيذا] يشهد على ماجرى فى الدنيا ، من شركهم واعتقادهم ، وهؤلاء بمنزلة المنتخبين .

أى : انتخبنا من رؤساء المكذبين ، من يتصدى للخصومة عنهم ، والمجادلة عن إخوانهم ، وهم على طريق واحد .

فإذا برزوا للمحاكمة [فقلنا هاتوا برهانكم] أى : حججتكم ودليلكم ، على صحة شرككم .

هل أمرناكم بذلك ؟ هل أمرتكم رسلى ؟ هل وجدتم ذلك فى شىء من كتبى ؟

هل فىهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية ؟

هل ينفعونكم ، أو يدفعون عنكم من عذاب الله ، أو يغفون عنكم ؟ فليفعلوا ، إذا كان فىهم أهلية ، وليروكم ، إن كان لهم قدرة .

[ففعلوا] حينئذ ، بطلان قولهم وفساده ، و [أن الحق لله] تعالى :

قد توجهت عليهم الخصومة ، وانقطعت حججهم ، وأفلجت^(١) حجة الله .

[وضل عنهم ما كانوا يفترون] من الكذب ، والإفك ، واضمحل ، وتلاشى ، وعدم .

وعلموا أن الله قد عدل فىهم ، حيث لم يضع العقوبة ، إلا بمن استحقها ، واستأهلها

(١) وأفلجت . أى : غلبت حجة الله حججهم .

﴿٧٦﴾ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ
مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْمُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ
قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا تَرَكَ

* يخبر تعالى ، عن حالة قارون ، وما فعل ، وفعل به ونصح ووعظ ،
فقال :

[إن قارون من قوم موسى] أى : من بنى إسرائيل ، الذين فضّلوا
على العالمين ، وفاقومهم فى زمانهم ، وامتن الله عليهم بما امتن به ، فكانت
حالم مناسبة للاستقامة .

ولكن قارون هذا ، انحرف عن سبيل قومه [فبغى عليهم] وطفى ،
بما أوتيه من الأمور العظيمة اللطيفة .

[وآتيناه من الكنوز] أى : كنوز الأموال شيئاً كثيراً
[ما إن مفاتيحه لتنوء بالمصبة أولى القوة] والمصبة ، من العشرة إلى
التسعة إلى السبعة ، ونحو ذلك .

أى : حتى إن مفاتيح خزائن أمواله ، تنقل الجماعة القوية عن حملها ،
هذه المفاتيح ، فماظنك بالخزائن ؟

[إذ قال له قومه] ناصحين له محذرين له عن الطغيان : [لا تفرح إن الله
لا يحب الفرحين] أى : لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة ، وتفتخر بها ، وتلهيك
عن الآخرة ، فإن الله لا يحب الفرحين بها ، المنسكين على محبتها .

[وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة] أى : قد حصل عندك من وسائل

اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا
أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَمْ

الآخرة ، ما ليس عند غيرك من الأموال ، فابغ بها ، ما عند الله ، وتصدق
ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات ، وتحصيل اللذات .

[ولاتنس نصيبك من الدنيا] أى : لانأمرك أن تصدق بجميع
مالك ، وتبقى ضائعا ، بل أتفق لآخرتك ، واستمتع بدنياك ، استمتعا ،
لا يثلم دينك ، ولا يضر بآخرتك .

[وأحسن] إلى عباد الله [كما أحسن الله إليك] بهذه الأموال .
[ولاتبغ الفساد في الأرض] بالتكبر ، والعمل بمعاصي الله والاشتغال
بالنعم عن المنعم .

[إن الله لا يحب المفسدين] بلى يعاقبهم على ذلك ، أشد العقوبة .
[قال] قارون — راداً لنصيحتهم ، كافرا بنعمة ربه - : [إنما أُوتيته
على علم عندي] .

أى : إنما أدركت هذه الأموال ، بكسبي ، ومعرفتي بوجوده
المكاسب ، وحذقي .

أو على علم من الله بحالى ، يعلم أنى أهل لذلك ، فلم تنصحونى على
ما أعطانى الله ؟

قال تعالى — مبيناً أن عطاءه ، ليس دليلاً على حسن حالة المعطى .

أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً
وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى
قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ

أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة
وأكثر جمعاً [فما المانع من إهلاك قرون أخرى ، مع مضي عادتنا ، وسنتنا
بإهلاك من هو مثله . وأعظم منه ، إذا فعل ما يوجب الهلاك ؟ .
[ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون] بل يعاقبهم الله ، ويعذبهم على ما
يعلمه منهم .

فهم ، وإن أئتموا لأنفسهم حالة حسنة ، وشهدوا لها بالنجاة ، فليس
قولهم مقبولاً ، وليس ذلك راداً عنهم من العذاب شيئاً ، لأن ذنوبهم غير
خفية ، فإنكارهم لا محل له .

فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه ، وعدم قبول نصيحة قومه ،
فرحاً بطراً قد أعجبته نفسه ، وغره ما أوتيه من الأموال .

[فخرج] ذات يوم [على قومه في زينته] أى بحالة أرفع ما يكون
من أحوال دنياه ، قد كان له من الأموال ما كان ، وقد استمد وتجمل
بأعظم ما يمكنه .

وتلك الزينة في العادة ، من مثله ، تكون هائلة ، جمعت زينة الدنيا
وزهرتها وبهجتها وغضارتها ونفرتها .

فرمته في تلك الحالة العيون ، وملأت بزيته القلوب ، واختلبت
زينته ، النفوس .

مَا أَوْتَىٰ قَارُونَ إِنَّهُ لَدُو حَظٍ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقِيهَا

فانقسم فيه الناظرون قسمين ، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة
والرغبة .

[قال الذين يريدون الحياة الدنيا] أى : الذين تعلقت إرادتهم فيها ،
وصارت منتهى رغبتهم ، ليس لهم إرادة فى سواها .

[ياليت لنا مثل ما أوتى قارون من الدنيا ومناجها وزهرتها] إنه
لدو حظ عظيم] .

وصدقوا إنه لدو حظ عظيم ، لو كان الأمر منتهيا إلى رغباتهم ، وأنه
ليس وراء الدنيا ، دار أخرى ، فإنه قد أعطى منها ، ما به غاية التمتع بنعيم
الدنيا ، واقتدر بذلك على جميع مطالبه ، فصار هذا الحظ العظيم ، بحسب
همتهم ، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ، ومنتهى مطلبها لمن أدنى الهمم ،
وأسفلها ، وأدناها ، وليس لها أدنى صعود إلى المراتب العالية ، والمطالب
العالية .

[وقال الذين أوتوا العلم] الذين عرفوا حقائق الأشياء ، ونظروا إلى
باطن الدنيا ، حين نظر أولئك إلى ظاهرها :

[ويلكم] متوجعين مما تمنوا لأنفسهم ، راينين لحالمهم ، منكبين
لمقالمهم .

[ثواب الله] العاجل ، من لذة العبادة ومحبهه ، والإجابة إليه ،
والإقبال عليه .

إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ
يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ
تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَسْتَطِئُّ اللَّهُ الرِّزْقَ

والآجل من الجنة ، وما فيها ، مما تشتهيہ الأنفس ، وتلذ الأعين [خير
لن آمن وعمل صالحا] من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه ، فهذه حقيقة الأمر .
ولكن ما كل من يعلم ذلك يقبل عليه ، فما يُلَقَى ذلك ويوفق له
[إلا الصابرون] الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله ، وعن معصيته ،
وعلى أقداره المؤلمة ، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها ، أن تشغلهم
عن ربهم ، وأن تحول بينهم ، وبين ما خلقوا له .

فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية

فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر ، وازيَّنت الدنيا عنده ، وكثر
بها إعجابه ، بغته العذاب [نخسفنا به وبداره الأرض] جزاء من جنس عمله .
فكمارفع نفسه على عباد الله ، أنزله الله أسفل سافلين ، هو وما اغتر
به ، من داره ، وأثامه ، ومتاعه .

[فيما كان له من فئة] أي : جماعة ، وعصبة ، وخدم ، وجنود [ينصرونه
من دون الله وما كان من المنتصرين] أي : جاءه العذاب ، فما نصر ،
ولا انتصر .

[وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس] أي : الذين يريدون الحياة
الدنيا ، الذين قالوا : « ياليت لنا مثل ما أوتى قارون » .

[يقولون] متوجعين ومعتبرين ، وخائفين من وقوع العذاب بهم :

لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا
وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴿١﴾
﴿٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا

[ويكان الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر] أى : يضيق
الرزق على من يشاء ، فعملنا حينئذ ، أن بسطه لقارون ، ليس دليلاً على خير
فيه ، وأننا غالطون فى قولنا : « إنه لذو حظ عظيم » .
و [لولا أن من الله علينا] فلم يعاقبنا على ما قلنا ، فلولا فضله ومنته
[لخسف بنا] .

فصار هلاك قارون ، عقوبة له ، وعبرة وموعظة لغيره ، حتى إن الذين
غبطوه ، سمعت كيف ندموا ، وتغير فكركم الأول .

[ويكانه لا يفلح الكافرون] أى : لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

* لما ذكر تعالى ، قارون وما أوتيته من الدنيا ، وما صار إليه عاقبة
أمره ، وأن أهل العلم قالوا : « ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً رغب »
تعالى فى الدار الآخرة ، وأخبر بالسبب الموصول إليها فقال :

[تلك الدار الآخرة] التى أخبر الله بها فى كتبه وأخبرت بها رسله ،
التى جمعت كل نعيم ، واندفع عنها كل مكدر ومنغص

[نجعلها] داراً وقراراً [للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً]
أى : ليس لهم إرادة فكيف العمل للعلو فى الأرض ، على عباد الله ، والتكبر
عليهم وعلى الحق [ولا فساداً] وهذا شامل لجميع المعاصى .

فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴿١﴾
﴿٢﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ

فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض ، ولا الفساد ، لزم من ذلك ، أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله ، وقصدهم الدار الآخرة ، وحالم ، التواضع لعباد الله ، والانقياد للحق والعمل الصالح . وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة الحسنى ، ولهذا قال : [والعاقبة أى حالة الفلاح والنجاح ، التى تستقر وتستمر ، لمن اتقى الله تعالى . وغيرهم — وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة — فإنه لا يطول وقته ، ويذول عن قريب .

وعلم من هذا الحصر فى الآية الكريمة ، أن الذين يريدون العلو فى الأرض ، أو الفساد ، ليس لهم فى الدار الآخرة ، نصيب ، ولأهم منها ، حظ . * يخبر تعالى عن مضاعفة فضله ، وتام عدله فقال : [من جاء بالحسنة] شرط فيها أن يأتى بها العامل ، لأنه قد يعملها ، ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه ، أو يبطلها ، فهذا لم يجىء بالحسنة . والحسنة ، اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله ، من الأقوال ، والأعمال الظاهرة ، والباطنة ، المتعلقة بحقه تعالى ، وحقوق العباد [فله خير منها] أى : أعظم وأجل ، وفى الآية الأخرى « فله عشر أمثالها » . هذا التضعيف للحسنة ، لا بد منه ، وقد يقترن بذلك من الأسباب ، ما تزيد به المضاعفة كما قال تعالى : « والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » بحسب حال العامل وعمله ، ونفعه ، ومحله ، ومكانه . [ومن جاء بالسئنة] وهى كل ما نهى الشارع عنه ، نهى تحريم .

فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾
﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادِ
قُلُوبِ رَبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾

[فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون] كقوله تعالى
« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم
لا يظلمون » :

* يقول تعالى [إن الذي فرض عليك القرآن] أى : نزله ، وفرض فيه
الأحكام ، وبين فيه الحلال والحرام ، وأمرك بتبليغه للعالمين ، والدعوة
لأحكامه ، جميع المكلفين .
لا يليق بحكمته ، أن تكون هى الحياة الدنيا فقط ، من غير أن يثاب
العباد ويعاقبوا .

بل لا بد أن يردك إلى معاد ، يجازى فيه المحسنون بإحسانهم ،
والمسيئون بمصيبتهم .

وقد بينت لهم الهدى ، وأوضحت لهم النهج .

فإن تبعوك ، فذلك حظهم وسعادتهم .

وإن أبوا إلا عصيانك ، والقدح بما جئت به من الهدى ، وتفضيل
ما معهم من الباطل على الحق ، فلم يبق للمجادلة محل ، ولم يبق إلا المجازاة
على الأعمال من العالم بالغييب والشهادة ، والحق والمبطل .

ولهذا قال : [قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين]

وقد علم أن رسوله هو المهتدى الهادى ، وأن أعداءه هم الضالون المضلون .

وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ
فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ
بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

[وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب] أى : لم تكن متعربيا لنزول
هذا الكتاب عليك ، ولا مستعداً له ، ولا متصدياً .

[إلا رحمة من ربك] وبالعباد ، فأرسلك بهذا الكتاب ، الذى رحم
به العالمين ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وزكاهم ، وعلمهم الكتاب
والحكمة ، وإن كانوا من قبل ، لئى ضلال مبين .

فإذا علمت أنه أنزل إليك رحمة منه ، علمت ، أن جميع ما أمر به ،
ونهى عنه ، رحمة ، وفضل من الله .

فلا يكن فى صدرك حرج من شىء منه ، وتظن أن مخالفه ، أصلح
وأففع .

[فلا تكونن ظهيراً للكافرين] أى : معينا لهم على ما هو ، من
شعب كفرهم .

ومن جملة مظاهرتهم ، أن يقال فى شىء منه ، إنه خلاف الحكمة
والمصلحة والنفعة .

[ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك] بل أبلغها وأنفذها ،
ولا تبال بمكرهم ولا يخذعنك عنها ، ولا تتبع أهواءهم .

[وادع إلى ربك] أى اجعل الدعوة إلى ربك ، منتهى قصدك وغاية
عملك .

الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ
شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

فكل ما خالف ذلك ، فإرضه ، من رياء ، أو سمعة ، أو موافقة
أغراض أهل الباطل ، فإن ذلك داع إلى السكون معهم ، ومساعدتهم على
أمرهم ولهذا قال :

[ولا تكونون من المشركين] لا في شركهم ، ولا في فروعه وشعبه ،
التي هي جميع المعاصي .

[ولا تدع مع الله إلها آخر] بل أخلص لله عبادتك ، فإنه [لا إله إلا
هو] فلا أحد يستحق أن يؤله ، ويحب ، ويعبد ، إلا الله الكامل الباقي
الذي [كل شيء هالك إلا وجهه] وإذا كان كل شيء سواه هالكا
مضمحلا ، فعبادة الهالك الباطل باطلة ، بطلان غايتها ، وفساد نهايتها .

[له الحكم في الدنيا والآخرة] وإليه [لا إلى غيره] [ترجعون] .

فإذا كان ما سوى الله ، باطلا هالكا ، والله هو الباقي ، الذي لا إله
إلا هو ، وله الحكم في الدنيا والآخرة ، وإليه مرجع الخلائق كلهم ،
ليجازيهم بأعمالهم ، تعين على من له عقل ، أن يعبد الله وحده لا شريك ،
ويعمل لما يقربه ويدنيه ، ويحذر من سخطه وعقابه ، وأن يقدم على ربه
غير تائب ، ولا مقلع عن خطيئه وذنوبه .

تم تفسير سورة القصص - والله الحمد والثناء والمجد دائما أبدا .

تفسير

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا

* يخبر تعالى ، عن تمام حكمته ، وأن حكمته ، لا تقتضى أن كل من قال « إنه مؤمن » وادعى لنفسه الإيمان ، أن يبقوا في حالة ، يسلون فيها من الفتن والحزن ، ولا يعرض لهم ، ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه .
فإنهم لو كان الأمر كذلك ، لم يتميز الصادق من الكاذب ، والحق من المبطل ،

ولكن سنته تعالى وعادته في الأولين ، وفي هذه الأمة ، أن يتلهم بالسراء والضراء ، والعسر واليسر ، والمنشط والمكره ، والغنى والفقر ، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان ، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ، ونحو ذلك من الفتن ، التي ترجع كلها ، إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة ، والشهوات المعارضة للإرادة .

فمن كان عند ورود الشبهات ، يثبت إيمانه ولا يتزلزل ، ويدفعها بما معه من الحق .

إِيمَانًا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾
﴿٤﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ
مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب ، أو
الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله ، يعمل بمقتضى الإيمان ، ويجاهد شهوته ،
دل ذلك على صدق إيمانه وصحته .

ومن كان عند ورود الشهوات تؤثر في قلبه ، شكاً وريباً ، وعند
اعتراض الشهوات ، تصرفه إلى المعاصي أو تصدغه عن الواجبات ، دل
ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه .

والناس في هذا المقام : درجات ، لا يخصصها إلا الله ، فمستقل ومستكثر .

فنسأل الله تعالى ، أن يثبتنا بالقول الثابت ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة ،
وأن يثبت قلوبنا على دينه .

فالا ابتلاء ، والإمتحان للنفوس ، بمنزلة الكبر ، يخرج خبثها ، وطيبها .

* أى : أحسب الذين همهم ، فعل السيئات ، وارتكاب الجنايات ، أن
أعمالهم سهيل ، وأن الله سيفضل عنهم ، أو يفوتونه ، فلذلك أقدموا عليها ،
وسهل عليهم عملها ؟ .

[ساء ما يحكمون] أى : ساء حكمهم ، فإنه حكم جائر ، لتضمنه إنكار
قدرة الله وحكمته ، وأن لديهم قدرة ، يمتنعون بها من عقاب الله ، وهم
أضعف شيء وأعجزه .

﴿٥﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ
عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ ﴿٦﴾

* معنى : يا أيها المحب لربه المشتاق لقربه ولقائه ، المسارع في مرضاته ،
أبشر بقرب لقاء الحبيب ، فإنه آت ، وكل ما هو آت ، قريب .
قزود للقائه ، وسر نحوه ، مستصحباً الرجاء ، مؤملاً الوصول إليه .
ولكن ، ما كل من يدعى يُعطى بدعواه ، ولا كل من تمنى ، يعطى
ما تمناه ، فإن الله سميع للأصوات ، عليم بالنيات .
فمن كان صادقاً في ذلك ، أناله ما يرجو ، ومن كان كاذباً ، لم تنفعه
دعواه .

وهو العليم بمن يصلح لحبه ، ومن لا يصلح .
[ومن جاهد] نفسه وشيطانه ، وعدوه الكافر ، [فإنما يجاهد لنفسه]
لأن نفعه ، راجع إليه ، وثمرته ، عائدة إليه .
و [إن الله لغني عن العالمين] لم يأمرهم به ، لينتفع به ، ولا نهاهم عما
نهاهم عنه ، بخلاً منه عليهم .

وقد علم أن الأوامر والنواهي ، يحتاج المكلف فيها ، إلى جهاد ، لأن
نفسه ، تتناقل بطبعها ، عن الخير ، وشيطانه ينهأه عنه ، وعدوه الكافر ،
يمنعه من إقامة دينه ، كما ينبغي .

وكل هذه ، معارضات ، تحتاج إلى مجاهدات وسعي شديد .

﴿٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ

سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

﴿٨﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ

بِىَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنْتُمْ كُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

* يعنى أن الذين من الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح ، سيكفر الله عنهم سيئاتهم ، لأن الحسنات يذهبن السيئات .

[ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون] وهى أعمال الخير ، من واجبات ، ومستحبات ، فهى أحسن ما يعمل العبد ، لأنه يعمل المباحات أيضاً ، وغيرها .

* أى : وأمرنا الإنسان ، ووصيناه بوالديه حسنا ، أى : ببرها ، والإحسان إليهما ، بالقول والعمل ، وأن يحافظ على ذلك ، ولا يعقهما ، ويسىء إليهما ، فى قوله وعمله .

[وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم] ، وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله ، وهذا تعظيم لأمر الشرك .

[فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون] فأجازيكم بأعمالكم .

فبروا والديكم وقدموا طاعتها ، إلا على طاعة الله ورسوله ، فإنها مقدمة على كل شىء .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ

فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ

جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ

* أى : من آمن بالله ، عمل صالحا ، فإن الله وعده ، أن يدخله الجنة في جملة عباد الله الصالحين ، من النبيين ، والصدّيقين ، والشهداء ، والصالحين ، كل على حسب درجته ، ومرتبته عند الله .

فالإيمان الصحيح ، والعمل الصالح ، عنوان على سعادة صاحبه ، وأنه من أهل الرحمن ، ومن الصالحين من عباد الله .

* لما ذكر تعالى ، أنه لا بد أن يمتحن من ادّعى الإيمان ، ليظهر الصادق من الكاذب ، بيّن تعالى ، أن من الناس فريقا ، لا صبر لهم على المحن ، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل فقال :

[ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ [بضرب ، أو أخذ مال ، أو تعبير ، ليرتد عن دينه ، ويراجع الباطل .

[جعل فتنة الناس كعذاب الله] أى : يجعلها صادّة له عن الإيمان ، والثبات عليه ، كما أن العذاب صادّ عما هو سببه .

[واثن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم] ، لأنه موافق للهوى ، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم ، : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وأن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » .

إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ نَسَّ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾
وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ

[أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين] حيث أخبركم بهذا التفريق ،
الذي حاله كما وصف لكم ، فتعرفون بذلك ، كمال علمه ، وسعة حكمته .

[وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين] أى : فلذلك قدّر محناً
وابتلاءً ، ليظهر علمه فيهم ، فيجازيهم بما ظهر منهم ، لا بما يعلمه بمجردده ،
لأنهم قد يحتجون على الله ، أنهم لو ابتلوا ، لثبتوا .

* يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم ، وفي ضمن
ذلك ، تحذير المؤمنين ، من الاعتراض بهم ، والوقوع في مكرهم فقال :

[وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا] فتركوا دينكم
أو بعضه ، واتبعونا في ديننا ، فإننا نضمن لكم الأمر [ولنحمل خطاياكم] .
وهذا الأمر ليس بأيديهم ، فلماذا قال : [وما هم بحاملين من خطاياهم
من شيء] لا قليل ولا كثير .

فهذا التحمل ، ولورضى به صاحبه ، فإنه لا يفيد شيئاً ، فإن الحق لله
والله تعالى ، لم يمكن العبد من التصرف في حقه ، إلا بأمره وحكمه ، وحكمه
« أن لا تزر وازرة وزر أخرى » .

ولما كان قوله [وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء] قد يتوهم منه

لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴿١٣﴾

أيضاً ، أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ومحوهم من دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم ، الذي ارتكبه ، دون الذنب الذي فعله غيرهم ، ولو كانوا متسببين فيه ، قال محترزا عن هذا الوهم :

[وليحملن أثقالهم] أى : أثقال ذنوبهم التي عملوها [وأثقالا مع أثقالهم] وهي الذنوب التي حصلت بسببهم ، ومن جرائمهم . فالذنب الذي فعله التابع ، لكل من التابع والمتبوع ، حصة منه حصلت هذا لأنه فعله وباشره .

والتبوع ، لأنه تسبب في فعله ودعا إليه .

كما أن الحسنة إذا فعلها التابع ، له أجرها بالباشرة وللداعي ، أجره بالتسبب .

[وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون] من الشر وتزيينه ، وقولهم « ولنحمل خطاياكم » .

﴿١٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ
إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ
وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴿١٥﴾

* يخبر تعالى ، عن حكمه وحكمته ، في عقوبات الأمم المكذبة ، وأن الله أرسل عبده ورسوله ، نوحا عليه السلام ، إلى قومه ، يدعوهم إلى التوحيد ، وإفراد الله بالعبادة ، والنهي عن الانداد ، والأصنام .

[فلبث فيهم] نبياً داعياً [ألف سنة إلا خمسين عاماً] ، وهو لا يني بدعوتهم ، ولا يفتر في نصحهم ، يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاً ، فلم يرشدوا ، ولا اهدوا .

بلى استمروا على كفرهم وطفيانهم ، حتى دعا عليهم نبيهم نوح ، عليه الصلاة والسلام مع شدة صبره ، وحلمه ، واحتماله فقال :
« رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » .

[فأخذهم الطوفان] أي : الماء الذي نزل من السماء بكثرة ، ونبع من الأرض بشدة [وهم ظالمون] مستحقون للعذاب .

[فأنجيناه وأصحاب السفينة] الذين ركبوا معه ، أهله ومن آمن به .
[وجعلناها] أي : السفينة ، أوقصة نوح [آية للعالمين] يعتبرون بها ، على أن من كذب الرسل ، آخر أمره ، الهلاك ، وأن المؤمنين ، سيجعل الله لهم ، من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق ، مخرجاً .

وجعل الله أيضاً السفينة ، أي : جنسها آية للعالمين ، يعتبرون بها رحمة ربهم ، الذي قيض لهم أسبابها ، ويسر لهم أمرها ، وجعلها تحملهم ، وتحمل متاعهم ، من محل إلى محل ، ومن قطر إلى قطر .

﴿١٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

* يذكر تعالى ، أنه أرسل خليفه ، إبراهيم عليه السلام إلى قومه ،
يدعوهم إلى الله .

فقال لهم : [اعبدوا الله] أى : وحّدوه ، وأخلصوا له العبادة ، وامتلوا
ما أمركم به .

[واتقوه] أن يغضب عليكم ، فيعذبكم ، وذلك بترك ما يغضبه
من المعاصى .

[ذلكم] أى : عبادة الله وتقواه [خير لكم] من ترك ذلك .

وهذا من باب إطلاق «أفعل التفضيل» بما ليس فى الطرف الآخر
منه شىء .

فإن ترك عبادة الله ، وترك تقواه ، لا خير فيه بوجه ، وإما كانت
عبادة الله وتقواه ، خيراً للناس ، لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته ، فى الدنيا
والآخرة ، إلا بذلك .

وكل خير يوجد فى الدنيا والآخرة ، فإنه من آثار عبادة الله وتقواه .

[إن كنتم تعلمون] ذلك ، فاعلموا الأمور ، وانظروا ، ما هو أولى
بالإشارة .

فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه ، نهاهم عن عبادة الأصنام ، وبين لهم
نقصها ، وعدم استحقاقها للعبودية فقال :

أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ

[إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا] نتحتونها، وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتختلقون الكذب، بالأمر بعبادتها، والتسك بذلك.

[إن الذين تدعون من دون الله] في نقصه، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته.

[لا يملكون لكم رزقا] فكانه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة، لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وأن من هذا وصفه، لا يستحق أدنى أدنى مثقال مثقال ذرة، من العبادة والتعاليه.

والقلوب لا بد أن تطلب معبوداً تأله، وتسأله حوائجها.

فقال - حائلا لهم على من يستحق العبادة - [فابتغوا عند الله الرزق] فإنه هو الميسر له، المقدر، المحيب لدعوة من دعاه لمصالح دينه ودنياه.

[واعبدوه] وحده، لا شريك له، لكونه الكامل النافع، الضار، المتفرد بالتدبير.

[واشكروا له] وحده، لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم، فمنه.

وجميع ما اندفع، ويندفع من النقم عنهم، فهو الدافع لها.

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ
وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمِينِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ
يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا

[إليه ترجعون] فيجازيكم على ما عملتم ، وينبئكم بما أسررتم وأعلنتم .
فاحذروا القدوم عليه ، وأنتم على شرككم ، وارغبوا فيما يقر بكم
إليه ، ويثيبكم - عند القدوم - عليه .
[أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده] يوم القيامة [إن ذلك
على الله يسير] .

كما قال تعالى : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » .
[قل] لهم ، إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء : [سيروا في
الأرض] بأبدانكم وقلوبكم [فانظروا كيف بدأ الخلق] فإنكم
ستجدون أمما من الآدميين ، لا تزال توجد شيئا فشيئا ، وتجدون النبات
والأشجار ، كيف تحدث ، وقتا بعد وقت ، وتجدون السحاب والرياح
ونحوها ، مستمرة في تجدها .
بل الخلق دائما ، في بدء وإعادة .

فانظر إليهم وقت موتهم الصغرى - النوم - وقد هم عليهم الليل
بظلامه ، فسكنت منهم الحركات ، وانقطعت منهم الأصوات ، وصاروا
في فرشهم ومأواهم ، كالميتين .

ثم إنهم لم يزالوا على ذلك ، طول ليلهم ، حتى تنفلق الأصباح ،

فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ
الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ
وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ

فانتبهوا من رقدتهم ، وبعثوا من موتهم ، قائلين « الحمد لله الذى أحيانا
بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

ولهذا قال : [ثم الله] بعد الإعادة [ينشئ النشأة الآخرة] وهى النشأة
لا تقبل موتا ، ولا نوما ، وإنما هو الخلود والدوام ، فى إحدى الدارين .
[إن الله على كل شئ قدير] فقدرته تعالى ، لا يعجزها شئ ، وكما قدر
بها على ابتداء الخلق ، فقدرته على الإعادة ، من باب أولى وأحرى .

[يعذب من يشاء ويرحم من يشاء] أى : هو المنفرد بالحكم الجزائى ،
وهو : إنابة الطائعين ، ورحمتهم ، وتعذيب العاصين والتنكيل بهم .
[وإليه تقلبون] أى : ترجعون إلى الدار ، التى بها تجرى عليكم
أحكام عذابه ورحمته .

فاكتسبوا فى هذ الدار ، ما هو من أسباب رحمته من الطاعات .
وابتعدوا عن أسباب عذابه ، وهى المعاصى .

[وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء] أى : ياهؤلاء المكذبين و
المتجربين على المعاصى ، لا تحسبوا أنه مفعول عنكم ، أو أنكم معجزون لله
فى الأرض ، ولا فى السماء .

وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا

مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

فلا تفرنكم قدر تكم ، وما زينت لكم أنفسكم ، وخذعتكم ، من النجاة من عذاب الله فليست بمجزين الله ، في جميع أقطار العالم .
[وما لكم من دون الله من ولي] يتولاكم ، فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم .

[ولا نصير] ينصركم ، فيدفع عنكم المكاره .

* يخبر تعالى ، من هم الذين زال عنهم الخير ، وحصل لهم الشر .
وأنتهم الذين كفروا به وبرسله ، وبما جاءوهم به ، وكذبوا بقاء الله .
فليس عندهم ، إلا الدنيا ، فلذلك أقدموا ، على ما أقدموا عليه ، من الشرك والمعاصي ، لأنه ليس في قلوبهم ، ما يخوفهم من عاقبة ذلك ، ولهذا قال :

[أولئك يئسوا من رحمتي] أى : فلذلك لم يعلموا سببا واحداً ، يحصلون به الرحمة .

وإلا ، فلو طعموا في رحمته ، لعملوا لذلك أعمالا .
والإياس من رحمة الله ، من أعظم المحاذير ، وهو نوعان .
إياس الكفار منها ، وتركهم كل سبب يقربهم منها .
وإياس العصاة ، بسبب كثرة جنائياتهم ، أو حشيتهم ، فملك قلوبهم ، فأحدث لها الإياس .

[وأولئك لهم عذاب أليم] أى : مؤلم موجه .

﴿٢٤﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ

فَأَنْجَبَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾
وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وكان هذه الآيات، معترضات، بين كلام إبراهيم لقومه، وردم عليه، والله أعلم بذلك.

* أى : فما كان مجاوبة قوم إبراهيم لإبراهيم، حين دعاهم إلى ربه، قبول دعوته، والاهتداء بنصحه، ورؤية نعمة الله عليهم بإرساله إليهم. وإنما كان مجاوبتهم له، شر مجاوبة.

[قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ] أشنع القتلات، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فالتوه في النار [فأنجاه الله] منها.

[إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون] فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل، وبرهمن ونصحهم، وبطلان قول من خالفهم، وناقضهم، وأن للمعارضين للرسل، كأنهم تواصوا وحث بعضهم بعضا، على التكذيب.

[وقال] لهم إبراهيم في جملة ما قاله، من نصحه : [إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا] .

أى : غاية ذلك، مودة في الدنيا ستقطع وتضعل.

[ثم يوم القيامة يكثر بعضكم ببعض ويلمن بعضكم بعضا] أى : يتبرأ كل من العابدين والمعبودين، من الآخر « وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا
وَمَا أُولَئِكَ إِلَّا لِقَاءُ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُنْجَرُونَ ﴿٢٥﴾
﴿٢٦﴾ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا

فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه سيتبرأ ، من عابديه ، ويلعنهم ؟ .

[و] أن [ماواكم] جميعا ، العابدين والمعبودين [النار] .

وليس أحد ، ينصرهم من عذاب الله ، ولا يدفع عنهم عقابه .

* أى لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، يدعو قومه ، وهم مستهرون على عنادهم .

إلا أنه آمن له بدعوته ، لوط ، الذى نبأه الله ، وأرسله إلى قومه كما سيأتى ذكره .

[وقال] إبراهيم ، حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئا :

[إني مهاجر إلى ربى] أى : هاجر أرض السوء ، ومهاجر إلى الأرض

المباركة ، وهى الشام .

[إنه هو العزيز] أى : الذى له القوة ، وهو يقدر على هدايتكم .

واسكنه [حكيم] ما انتضت حكمته ذلك .

ولما اعتزلهم وفارقهم ، وهم يحالهم ، لم يذكر الله عنهم ، أنه أهلكتهم

بعذاب .

بل ذكر اعتزاله إياهم ، وهجرته من بين أظهرهم .

فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا

فأما ما يذكر في الإسرائيليات ، أن الله تعالى فتح على قومه باب
البعوض ، فشرب دماءهم ، وأكل لحومهم ، وأتلفهم عن آخرهم ، فهذا
يتوقف الجزم به ، على الدليل الشرعي ، ولم يوجد .

فلو كان الله استأصلهم بالعذاب ، لذكره ، كما ذكر إهلاك الأمم
المكذبة .

ولكن هل من أسرار ذلك ، أن الخليل عليه السلام ، من أرحم
الخلق ، وأفضلهم ، وأحلمهم ، وأجلهم ، فلم يدع على قومه ، كما دعا غيره ،
ولم يكن الله يجرى عليهم بسببه ، عذابا عاما ؟ .

ومما يدل على ذلك ، أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط ، وجادلهم ،
ودافع عنهم ، وهم ليسوا قومه ، والله أعلم بالحال .

[ووهبنا له إسحق ويعقوب] أى : بعد ما هاجر إلى الشام [وجعلنا
في ذريته النبوة والكتاب] .

فلم يأت بعده نبي ، إلا من ذريته ، ولا نزل كتاب ، إلا على ذريته ،
حتى ختموا بابنه ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وعليهم أجمعين .

وهذا من أعظم المناقب والمفاخر ، أن تكون مواد الهداية والرحمة ،
والسعادة ، والفلاح ، والفوز ، في ذريته ، وعلى أيديهم ، اهتدى المهتدون ،
وآمن المؤمنون ، وصلح الصالحون :

وآتيناها أجره في الدنيا [من الزوجة الجميلة ، فائقة الجمال ، والرزق

فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ
مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَنْبِئْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ
وَتَقَطُّونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾

الواسع ، والأولاد ، الذين بهم قوت عينه ، ومعرفة الله ومحبته ،
والإنابة إليه .

[وإنه في الآخرة لمن الصالحين] بل وهو ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ،
أفضل الصالحين على الإطلاق ، وأعلام منزلة ، فجمع الله له ، بين سعادة
الدنيا والآخرة .

* تقدم أن لوطا عليه السلام ، آمن لإبراهيم ، وصار من المهتدين به .
وقد ذكروا ، أنه ليس من ذرية إبراهيم ، وإنما هو ابن أخى
إبراهيم .

فقوله تعالى : [وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب] وإن كان عاما ،
فلا يناقض كون لوط ، نبيا رسولا ، وهو ليس من ذريته ، لأن الآية ،
جى بها ، لسياق المدح والثناء ، على الخليل ،

وقد أخبر أن لوطاً ، اهتدى على يديه ، ومن اهتدى على يديه أكل
من اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادى ، والله أعلم .

فأرسل الله لوطا إلى قومه ، وكانوا مع شركهم ، قد جمعوا بين فعل

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا
إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا
كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا
لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ

الفاحشة في الذكور ، وقطع السبيل ، وفشو المنكرات ، في مجالسهم .

فنصحهم لوط ، عن هذه الأمور ، وبين لهم ، قبائحها في نفسها ،
وما تثول إليه من العقوبة البليغة ، فلم يرعوا ، ولم يذكروا .

[فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت
من الصادقين] .

فأيس منهم نبيهم ، وعلم استحقاقهم العذاب ، وجزع من شدة تكذيبهم
له ، فدعا عليهم و(قال رب انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ] فاستجاب الله
دعاه ، فأرسل للملائكة لإهلاكهم .

فروا يا إبراهيم قبل ذلك ، وبشروه ياسحق ، ومن وراء إسحق
يعقوب .

ثم سألهم إبراهيم أين يريدون ؟

فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط .

فجعل يراجعهم ، ويقول [إن فيها لوطا] .

فقالوا له : [لننجينه وأهله . إلا امرأته كانت من الغابرين] ثم مضوا

حتى أتوا لوطا .

جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ
وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلِكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ
الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

فساءه مجيئهم ، وضاق بهم ذرعا ، بحيث إنه لم يعرفهم ، وطن أنهم
من جملة الضيوف ، أبناء السبيل ، نجاف عليهم من قومه ، فقالوا له :

[لا تخف ولا تحزن] وأخبروه أنهم رسل الله .

[إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون
على أهل هذه القرية رجزا] أي : عذابا [من السماء بما كانوا يفسقون]
فأمروه أن يسرى بأهله ليلا .

فلما أصبحوا ، قلب الله عليهم ديارهم ، فجعل عاليها سافلها ، وأمطر
عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم ، فصاروا سمرا
من الأسمار ، وعبرة من العبر .

[ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون] أي : تركنا من ديار قوم
لوط ، آثارا بينة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم ، ، فينتفعون بها .

كما قال تعالى : « وإنسكم لتمرون عليه مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » .

﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٧﴾
﴿٣٨﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ
لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَعَصَوْهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

* أى [و] أرسلنا [إلى مدين] القبيلة المعروفة المشهورة [أخاه شعيبا]
الذى أمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، والإيمان بالبعث ورجائه ،
والعمل له ، ونهاهم عن الإفساد فى الأرض ، بينخس المكابيل والموازن ،
والسعى بقطع الطرق .

[فكذبوه فأخذتهم الرجفة] أى عذاب الله [فأصبحوا فى دارهم
جاثمين ^(١)] .

* أى : وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود ، وقد علمت قصتهم ، وتبين لكم
بشئ تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم ، وآثارهم ، التى بانوا عنها .
وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات ، المفيدة للبصيرة فكذبوهم ،
وجادلوهم .

(١) قوله « جاثمين » المراد : ميتين قعودا « وفى المختار من الصحاح
جثم الطائر : تلبد بالأرض وبابه « دخل » و « جلس » وكذا الإنسان »
اه . أى : تلبد بالأرض .

وقال الراغب فى مفردات ألفاظ القرآن « جاثمين : استعمارة للمقيمين .
من قولهم : جثم الطائر إذا قعد ولطىء بالأرض اه . أى : لصق بالأرض .

وَقَرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ
فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا
بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ
وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ

[وزين لهم الشيطان أعمالهم] حتى ظنوا أنها أفضل ، مما جاءتهم
به الرسل .

وكذلك قارون ، وفرعون ، وهامان ، حين بعث الله إليهم موسى
ابن عمران ؛ بالآيات البينات ؛ والبراهين الساحطات ، فلم ينقادوا ، واستكبروا
في الأرض ، على عباد الله ، فأذلوهم ، وعلى الحق ، فردوه ، فلم يقدرُوا على
النجاء ، حين نزلت بهم العقوبة .

[وما كانوا سابقين] الله ، ولا فائتين ، بل سلوا واستسلموا .

[فكلا] من هؤلاء الأمم المكذبة [أخذنا بذنبه] على قدره ،
وبعقوبة مناسبة له .

[فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً] أى : عذاباً يحصبهم ، كقوم عاد ،
حين أرسل الله عليهم الريح العقيم ، و«سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية
أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى * كأنهم أعجاز نخل خاوية» .

[ومنهم من أخذته الصيحة] كقوم صالح ، [ومنهم من خسفنا به
الأرض] كقارون .

[ومنهم من أغرقنا] كفرعون وهامان ، وجنودهما .

[وما كان الله] أى : ما ينبغي ولا يليق به [أن يظلمهم] لكمال

لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴿٤٠﴾
﴿٤٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ
الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ

عدله ، وغناه التام ، عن جميع الخلق
[ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] منعوها حقها ، الذى هى بصدده ،
فإنها مخلوقة لقيادة الله وحده .
فهؤلاء ، وصعوها فى غير موصمها ، وشغلوها بالشهوات والمعاصى ،
فضرروها غاية الضرر ، من حيث ظنوا ، أنهم ينفعونها .
* هذا مثل ضربه الله ، لمن عبد معه غيره ، يقصد به التعزز والتقوى ؛
والنفع ؛ وأن الأمر بخلاف مقصوده ؛ فإن مثله ؛ كمثل العنكبوت ؛ اتخذت
بيتا ، يقيها من الحر ، والبرد ، والآفات .
[وإن أوهن البيوت] أى : أضعفها وأوهاها [لبيت العنكبوت] .
فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة ، وبيتها ، من أضعف البيوت
فما ازدادت بأتخاذها ، إلا ضعفا .
كذلك هؤلاء ، الذين يتخذون من دونه أولياء ، فقراء ، عاجزون ،
من جميع الوجوه .
وحين اتخذوا الأولياء من دونه ، يتعززون بهم ، ويستنصرونهم ،
ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم ، ووهناً إلى وهنهم .
فإن اتسكروا عليهم ، فى كثير من مصالحهم ، وألقوا عليهم ، تخلوا
هم عنها .

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

على أن أولئك سيقومون بها .

نغذوهم ، فلم يحصلوا منهم على طائل ، ولا أنالوهم من معونتهم ،
أقل نائل .

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم ، حالهم ، وحال من اتخذوهم ، لم يتخذوهم ،
ولتبرأوا منهم ، ولتولوا الرب القادر الرحيم ، الذي إذا تولاه عبده ، وتوكل
عليه ، كفاه مثونة دينه ودينه ، وازداد قوة إلى قوته ، في قلبه وبدنه
وحاله وأعماله .

ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين ، ارتقى من هذا ، إلى ما هو أبلغ
منه ، وأنها ليست بشيء ، بل هي مجرد أسماء سموها ، وظنون اعتقدوها .

وعند التحقيق ، يتبين للعاقل بطلانها وعدمها ، ولهذا قال :

[إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء] أي : إنه تعالى يعلم —
وهو عالم الغيب والشهادة — أنهم ما يدعون من دون الله شيئاً موجوداً ،
ولا إلهاً له حقيقة ، كقوله تعالى « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم
ما أنزل الله بها من سلطان » .

وقوله « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون
إلا الظن » .

[وهو العزيز] الذي له القوة جميعاً ، الذي قهر بها جميع الخلق .

وَمَا يَمْقُلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾

[الحكيم] الذى يضع الأشياء مواضعها ، الذى أحسن كل شئ خلقه ، وأتقن ما أمره .

[وتلك الأمثال نضربها للناس] أى : لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم لكونها من الطرق الموضحة للعلوم ، لأنها تقرب الأمور المقولة ، بالأمور المحسوسة ، فيتضح المعنى المطلوب بسببها ، فهى مصلحة لعموم الناس .

[و] لكن [ما يعقلها] بفهمها وتدبرها ، وتطبيقها على ما ضربت له ، وعقلها فى القلب .

[إلا العالمون] أى : إلا أهل العلم الحقيقى ، الذين وصل العلم إلى قلوبهم .

وهذا مدح للأمثال ، التى يضربها ، وحث على تدبرها وتعقلها ، ومدح لمن يعقلها .

وأنه عنوان ، على أنه من أهل العلم ، فعلم أن من لم يعقلها ، ليس من العالمين .

والسبب فى ذلك ، أن الأمثال التى يضربها الله فى القرآن ، إنما هى للأمور السكبار ، والمطالب العالية ، والمسائل الجليلة .

فأهل العلم ، يعرفون أنها أم من غيرها ، لاعتناء الله بها ، وحثه عباده على تعقلها ، وتدبرها . فيبدلون جهدهم فى معرفتها .

﴿٤٤﴾ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

وأما من لم يعقلها ، مع أهميتها ، فإن ذلك ، دليل على أنه ليس من أهل العلم ، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة ، فعدم معرفته غيرها ، من باب أولى وأحرى .

ولهذا ، أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ، ونحوها .

* أى : هو تعالى ، المنفرد بخلق السموات ، على علوها وارتفاعها وسمتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة .

والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبرارى والقفار ، والأشجار ونحوها .

وكل ذلك خلقه بالحق ، أى لم يخلقها عبثا ، ولا سدى ، ولا لغير فائدة .

وإنما خلقها ، ليقوم أمره وشرعه ، ولتتم نعمته على عباده ، وليروا من حكمته ، وقهره وتدييره ، ما يدلهم على أنه وحده ، معبودهم ، ومحبوهم ، وإلههم .

[إن في ذلك لآية للمؤمنين] على كثير من المطالب الإيمانية ، إذا تدبرها المؤمن ، رأى ذلك فيها عياناً .

﴿﴾ أَتْلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ
إِنِ الصَّلَاةَ تَنهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ

* يأمر تعالى بتلاوة وحيه ، وتنزيله ، وهو : هذا الكتاب العظيم .
ومعنى تلاوته ، اتباعه ، بامتثال ما يأمر به ، واجتناب ما ينهى عنه ،
والاهتداء بهداه ، وتصديق أخباره ، وتدبر معانيه ، وتلاوة ألفاظه ،
فصار تلاوة لفظه جزء المعنى ، وبعضه .

وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب ، علم أن إقامة الدين كلها ،
داخلة في تلاوة الكتاب .

فيكون قوله [وأقم الصلاة] من باب عطف الخاص على العام ، لفضل
الصلاة وشرفها ، وآثارها الجميلة ، وهي [إن الصلاة تنهى عن الفحشاء
والمنكر] .

فالفحشاء ، كل ما استعظم ، واستفحش من المعاصي ، التي تشبهها النفوس .
والمنكر : كل معصية تنكرها العقول والفطر .

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، أن العبد المقيم لها ،
التمتع لأركانها وشروطها ، وخشوعها ، يستنير قلبه ، ويتطهر فؤاده ،
يزداد إيمانه ، وتقوى رغبته في الخير ، وتقل أو تنعدم ، رغبته في الشر .
فبالضرورة ، مداومتها والحفاظة عليها على هذا الوجه ، تنهى عن الفحشاء
والمنكر .

فهذا من أعظم مقاصد الصلاة ، وثمراتها .
وتمَّ في الصلاة ، مقصود أعظم من هذا وأكبر ، وهو : ما اشتملت
عليه من ذكر الله ، بالقلب ، واللسان ، والبدن .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٥﴾
﴿٤٥﴾ وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

فإن الله تعالى ، إنما خلق العباد ، لعبادته ، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة .

وفيه من عبوديات الجوارح كلها ، ما ليس في غيرها ، ولهذا قال :
[ولذكر الله أكبر] .

ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها ، أخبر أن ذكره تعالى ، خارج الصلاة ، أكبر من الصلاة كما هو قول جمهور المفسرين .

لكن الأول ، أولى ، لأن الصلاة ، أفضل من الذكر خارجها ،
ولأنها — كما تقدم — بنفسها من أكبر الذكـر .

[والله يعلم ما تصنعون] من خير وشر ، فيجازيكم على ذلك ، أكل الجزاء ، وأوفاه .

* ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب ، إذا كانت عن غير بصيرة من الجادل ، أو بغير قاعدة مرضية ، وأن لا يجادلوا ، إلا بالتي هي أحسن ، بحسن خلق ولفظ ولين كلام ، ودعوة إلى الحق ، وتحسينه ، ورد الباطل وتهجينه ، بأقرب طريق موصل لذلك .

وأن لا يكون القصد منها ، مجرد المجادلة والمغالبة ، وحب العلو ، بل يكون القصد ، بيان الحق ، وهداية الخلق .

إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ

[إلا الذين ظلموا] من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصد المجادل منهم وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل، على وجه المشاغبة والمغالبة. فهذا، لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع.

[وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد] أى: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد.

ولا تكن مناظرتكم إياهم، على وجه يحصل به القدح، في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم، وخروج عن الواجب، وآداب النظر.

فإن الواجب، أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق.

ولا يرد الحق، لأجل قوله، ولو كان كافراً.

وأيضاً فإن بناء مناظرة أهل الكتاب، على هذا الطريق، فيه إلزام لهم، بالإقرار بالقرآن، وبالرسول، الذي جاء به.

فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية، والتي انفقت عليها الأنبياء والكتب وتقررت عند المتناظرين، وثبتت حقائقها عندهما، وكانت الكتب السابقة، والمرسلون، مع القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم، قد بينتها، ودلت، وأخبرت

وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

بها ، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها ، والرسل كلهم ، وهذا من خصائص الإسلام .

فأما أن يقال : نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلاني ، دون الكتاب الفلاني ، وهو الحق الذي صدق ما قبله ، فهذا ظلم وهوى .

وهو يرجع إلى قومه بالتكذيب ، لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها ، المصدق لما بين يديه ، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن .

وأيضاً فإن كل طريق تثبت بها نبوة أى نبي كان ، فإن مثلها . وأعظم منها ، دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وكل شبهة يقدهح بها في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن مثلها ، أو أعظم منها ، يمكن توجيهها إلى نبوة غيره .

فإذا ثبت بطلانها في غيره ، فثبت بطلانها في حقه صلى الله عليه وسلم ، أظهر وأظهر .

وقوله [ونحن له مسلمون] أى : منقادون مستسلمون لأمره .

ومن آمن به ، واتخذها إلهاً ، وآمن بجميع كتبه ، ورسله ، وانقاد لله واتباع رسله ، فهو السعيد .

ومن انحرف عن هذا الطريق ، فهو الشقي .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ

* أى . [وكذلك أنزلنا إليك] يا محمد ، هذا [الكتاب] الكريم ،
المبين كل نبأ عظيم .

الداعى إلى كل خلق فاضل ، وأمر كامل ، المصدق للكتب السابقة ،
الخبر به الأنبياء الأقدمون .

[فالذين آتيناهم الكتاب] فعرفوه حق معرفته ، ولم يداخلهم حسد
وهوى .

[يؤمنون به] لأنهم تيقنوا صدقه ، بما لديهم من الموافقات ، وبما
عندهم من البشارات ، وبما تميزوا به ، من معرفة الحسن والقبيح ، والصدق
والكذب .

[ومن هؤلاء] الموجودين [من يؤمن به] [إيماناً عن بصيرة ، لا عن
رغبة ولا رهبة .

[وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون] الذين دأبهم الجحود للحق ،
والمناد له .

وهذا حصر لمن كفر به ، أنه لا يكون من أحد ، قصده متابعة
الحق .

وإلا ، فكل من له قصد صحيح ، فإنه لا بد أن يؤمن به ، لما
اشتمل عليه من البينات ، لكل من له عقل ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

وما يدل على صحته ، أنه جاء به هذا للنبي الأمين ، الذى عرف

بَيِّنَاتٍ إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ
كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾
بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

قومه صدقه ، وأماتته ، ومدخله ومخرجه ، وسائر أحواله ، وهو لا يكتب
بيده خطأ ، بل ولا يقرأ خطأ مكتوباً .

فإتيانه به في هذه الحال ، من أظهر البينات القاطعة ، التي لا تقبل
الارتياب ، أنه من عند الله العزيز الحميد ، ولهذا قال :

[وما كنت تتلو] أى تقرأ [من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك
إذا] لو كنت بهذه الحال [لارتاب المبطلون] فقالوا : تعلمه من الكتب
السابقة ، أو استنسخه منها .

فأما وقد نزل على قلبك ، كتاباً جليلاً ، تحديت به الفصحاء البلغاء ،
الأعداء ، الألداء أن يأتوا بمثله ، أو بسورة من مثله ، فعجزوا غاية العجز ،
بل ولا حدثتهم أنفسهم بالمعارضة ، لعلمهم ببلاغته وفصاحته ، وأن كلام
أحد من البشر ، لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله ، ولهذا قال :

[بل هو آيات مبينات] إلى [الظالمون] .

* [بل هو] أى : هذا القرآن [آيات بينات] لا خفيات .

[في صدور الذين أوتوا العلم] وهم : سادة الخلق ، وعقلاؤهم ، وأولو
الألباب منهم ، والكل منهم .

فإذا كان آيات بينات ، في صدور أمثال هؤلاء ، كانوا حجة

على غيرهم .

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴿٤٩﴾
﴿٥٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا
الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ

وإنكار غيرهم ، لا يضر ، ولا يكون ذلك إلا ظلما ، ولهذا قال :

[وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون] لأنه لا يجحدها إلا جاهل ، تكلم
بغير علم ، ولم يقتد بأهل العلم ، ومن هو التمكن من معرفته على حقيقته ، أو
متجاهل ، عرف أنه حق فمانده ، وعرف صدقه ، فخالفه .

* أى : واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ، ولما جاء به ،
واقترحوا عليه ، نزول آيات ، عينوها كما قال الله عنهم :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » الآيات .

فتعيين الآيات ، ليس عندهم ، ولا عند الرسول صلى الله عليه وسلم ،
فإن في ذلك تدابير ، مع الله ، وأنه لو كان كذا ، وينبغي أن يكون كذا ،
وليس لأحد من الأمور شىء .

ولهذا قال : [قل إنما الآيات عند الله] إن شاء أنزلها ، أو منعها

[وإنما أنا نذير مبين] وليس لى مرتبة ، فوق هذه المرتبة .

وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل ، فإذا حصل المقصود - بأى

طريق - كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ، ظلما وجورا ، وتكبرا

على الله ، وعلى الحق .

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات ، ويكون في قلوبهم ، أنهم لا يؤمنون

بالحق إلا بها كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك، شيء وافق أهواهم،
فآمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات.

فأى فائدة حصلت، في إنزالها على التقدير الفرضي؟

ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه فقال:

[أو لم يكفهم] في علمهم بصدقك، وصدق ما جئت به [أنا أنزلنا
عليك الكتاب يتلى عليهم].

وهذا كلام مختصر، جامع فيه، من الآيات البينات، والدلالات
الباهرات، شيء كثير.

فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرد، وهو أمي، من أكبر الآيات
على صدقه.

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديهم إياه، آية أخرى.

ثم ظهوره، وبروزه جهراً علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند
الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قل فيه أنصاره، وكثير مخالفوه
وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يثن ذلك عزمه.

بل خرج به على رموس الأَشهاد، ونادى به، بين الحاضر والباد،
بأن هذا كلام ربي.

فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته^(١) أو يستطيع مجاراته.

(١) قوله: أو ينطق بمباراته الأولى أن يقال أو «ينطق بعباراته»
أو «يبرز ويتحدى بمباراته» حتى يكون الكلام واضحاً بعيداً عن
ارتكاب المجازات والتأويلات فإن المباراة لا تكون بالنطق بل بالفعل.

أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً
وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا

ثم هيمنت على الكتب المتقدمة ، وتصحيحه للصحيح ، ونفى ما أدخل
فيها من التحريف ، والتبديل .

ثم هدايته لسواء السبيل ، في أمره ونهيه .

فأمر بشيء ، فقال العقل « ليقته لم يأمر به » ، ولا نهى عن شيء فقال
العقل « ليقته لم ينه عنه » .

بل هو مطابق للعدل واليزان ، والحكمة المعقولة لذوى البصائر ،
والمقول .

ثم مساندة إرشاداته ، وهدايته ، وأحكامه ، لكل حال ، وكل زمان ،
بحيث لا تصلح الأمور إلا به .

فجميع ذلك ، يكفى من أراد تصديق الحق ، وعمل على طلب الحق .

فلا كفى الله ، من لم يكفه القرآن ، ولا شفى الله ، من لم يشفه الفرقان .

ومن اهتدى به واكتفى ، فإنه رحمة له وخير ، فلذلك قال :

[إن في ذلك لرحمة وذكري لقوم يؤمنون] وذلك لما يحصل فيه من

العلم الكثير ، والخير الغزير وتزكية القلوب والأرواح ، وتطهير العقائد ،
وتكميل الأخلاق ، والفتوحات الإلهية ، والأسرار الربانية .

[قل كفى الله بيني وبينكم شهيدا] فأنا قد استشهدته .

فإن كنت كاذبا ، أحلّ بي ما به تمترون .

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

وإن كان إنما يؤيدني ، وينصرني ، ويسر لي الأمور ، فلتكفكم ،
هذه الشهادة الجليلة من الله .

فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسموه ، ولم تروه - لاتكفي
دليلا ، فإنه [يعلم ما في السموات والأرض] .

ومن جملة معلوماته ، حالي وحالكم ، ومقالى لكم .

فلو كنت متقولا عليه ، مع علمه بذلك ، وقدرته على عقوبتي - لكان
قدحا ، في علمه ، وقدرته ، وحكمته كما قال تعالى « ولو نقول علينا بعض
الآقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » .

[والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون] حيث
خسروا الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وحيث
فاتهم النعيم المقيم ، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح ، كل باطل
قبيح ، وفي مقابلة النعيم ، كل عذاب أليم ، ففسروا أنفسهم وأهلهم
يوم القيامة .

﴿٥٣﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمْ
الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ

* يخبر تعالى ، عن جهل المكذبين للرسول ، وما جاء به ، وأنهم يقولون -
استعجالا للعذاب ، وزيادة تكذيب : [متى هذا الوعد إن كنتم
صادقين] ؟

يقول تعالى [ولولا أجل مسمى] مضروب لنزوله ، ولم يأت بعد [لجاؤهم
العذاب] بسبب تعجزهم لنا ، وتكذيبهم الحق .

فلو أخذناهم بجهلهم ، لكان كلامهم ، أسرع لبلائهم وعقوبتهم .

ولكن - مع ذلك - فلا يستبطنوا نزوله [وليأتينهم بغتة وهم
لا يشعرون] .

فوقع كما أخبر الله تعالى ، لما قدموا لـ «بدر» بطرين مفاخرين ، طائين
أنهم قادرون على مقصودهم .

فأذلم الله ، وقتل كبارهم ، واستوعب جملة أشرارهم ، ولم يبق فيهم
بيت ، إلا أصابته تلك المصيبة .

فأتاهم العذاب ، من حيث لم يحتسبوا ، ونزل بهم ، وهم لا يشعرون .

هذا ، وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي ، فإن أمامهم العذاب
الأخروي ، الذي لا يخلص منهم أحد منه ، سواء عوجل بعذاب الدنيا ،
أو أمهل .

بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَنْفَسُهُمُ
الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي
فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

[وإن جهنم لمحيطة بالكافرين] ليس لهم عنها ، معدل ولا منصرف .
قد أحاطت بهم من كل جانب ، كما أحاطت بهم ذنوبهم ، وسيناتهم ،
وكفرهم .

وذلك العذاب ، هو العذاب الشديد .

* [يوم يفشاهم العذاب من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا
ما كنتم تعملون] فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذابا ، وشملكم العذاب ، كما
شملكم الكفر والذنوب .

* يقول تعالى : [يا عبادي الذين آمنوا] وصدقوا رسولي [إن أرضي
واسعة فإياي فإعبدون] فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض ، فارتحلوا منها
إلى أرض أخرى ، حيث كانت العبادة لله وحده .

فأما كن العبادة ، ومواضعها ، واسعة ، والمعبود واحد ، والموت لا بد
أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم ، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين
الإيمان والعمل الصالح بإتزاله الغرف العالية ، والمنازل الأنيقة الجامعة ، لما
تشهيه الأنفس ، وتلد الأعين ، وأنتم فيها خالدون .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ
صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ

فـ [نعم] تلك المنازل ، في جنات النعيم [أجر العاملين] لله .
[الذين صبروا] على عبادة الله [وعلى ربهم يتوكلون] في ذلك .
فصبرهم على عبادة الله ، يقتضى بذل الجهد والطاقة في ذلك ، والحاربة
العظيمة للشيطان ، الذى يدعوهم إلى الإخلال بشىء من ذلك .
وتوكلهم ، يقتضى شدة اعتمادهم على الله ، وحسن ظنهم به ، أن يحقق
ما عزموا عليه من الأعمال ، ويكملها .
ونص على التوكل ، وإن كان داخلا فى الصبر ، لأنه يحتاج إليه فى كل
فعل ، وترك مأمور به ، ولا يتم إلا به .
* أى : البارى تبارك وتعالى ، قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم ، قويمهم ،
وعاجزهم .

فكم [من دابة] فى الأرض ، ضعيفة القوى ، ضعيفة العقل .
[لا تحمل رزقها] ولا تدخره ، بل لم تزل ، لا شىء معها من الرزق ،
ولا يزال الله يسخر لها الرزق ، فى كل وقت وبوقته .
[الله يرزقها وإياكم] فكلكم عيال الله القائم برزقكم ، كما قام
بخلقكم وتديركم .

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَنْسُطُ

[وهو السميع العليم] فلا تخفى عليه خافية ، ولا تهلك دابة من عدم
الرزق ، بسبب أنها خافية عليه .

كما قال تعالى : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم
مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » :

* هذا استدلال على المشركين ، المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة ،
وإلزام لهم ، بما أثبتوه من توحيد الربوبية .

فأنت لو سألتهم من خلق السموات والأرض ، ومن نزل من السماء
ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، ومن بيده تدبير جميع الأشياء ؟
« ليقولن الله » وحده ، ولا عترَ فؤا بعجز الأوثان ، ومن عبوده مع
الله ، عن شئ من ذلك .

فاعجب لإفكهم ، وكذبهم ، وعدولهم إلى من أقروا بعجزه ، وأنه
لا يستحق أن يدبر شيئا .

وسَجَّلَ عليهم عدم العقل ، وأنهم السفهاء ، ضفء الأحلام .

فهل تجد أضعف عقلا ، وأقل بصيرة ، ممن أتى إلى حجر ، أو قبر ونحوه
وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر ، ولا يخلق ولا يرزق - ثم صرف له
خالص الإخلاص ، وصافي العبادة ، وأشركه مع الرب ، الخالق الرازق ،
النافع الضار .

الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ
الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ
الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ

وقل : الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال ، وأوضح بطلان ما عليه
المشركون ، ليحذره الموقنون .

وقل : الحمد لله ، الذي خلق العالم العلوى والسفلى ، وقام بتدبيرهم ،
ورزقهم ، وبسط الرزق على من يشاء ، وضيقه عن يشاء ، حكمة منه ، ولعلمه
بما يصلح عباده ، وما ينبئ لهم .

* يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة ، وفي ضمن ذلك ، التزهيد في الدنيا
والتشويق للأخرى فقال :

[وما هذه الحياة الدنيا] في الحقيقة [إلا لهو ولعب] تلهو بها القلوب ،
وتلعب بها الأبدان ، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللاذات ، والشهوات
الخالبة للقلوب المعرضة ، الباهجة للعيون الغافلة ، المفرحة للنفوس المبطللة
الباطلة .

ثم تزول سريعا ، وتنفض جميعا ، ولم يحصل منها مجبها ، إلا على الندم
والخسران .

دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ

[وإن الدار الآخرة لهى الحيوان] أى : الحياة الكاملة ، التى من لوازمها ، أن تكون أبدان أهلها ، فى غاية القوة ، وقواهم فى غاية الشدة ، لأنها أبدان وقوى ، خلقت للحياة ، وأن يكون موجودا فيها ، كل ما تكمل به الحياة ، وتتم به اللذة ، من مفرحات القلوب ، وشهوات الأبدان ، من المآكل ، والمشارب ، والمناكح ؛ وغير ذلك ، مما لا عين رأت . ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[لو كانوا يعلمون] لما آثروا الدنيا على الآخرة ، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان ، ورغبوا فى دار اللهو واللعب .
فدل ذلك ، أن الذين يعلمون ، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا ، لما يعلمونه من حالة الدارين .

ثم أزم تعالى ، المشركين بإخلاصهم لله ، فى حال الشدة ، عند ركوب البحر ، وتلاطم أمواجه ، وخوفهم الهلاك ، بتركهم وقتذاك ، أندادهم ، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له .

فلما زالت عنهم الشدة ، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر ، أشركوا به ، من لا ينجاه من شدة ، ولا أزال عنهم مشقة .

فهلأ أخلصوا لله الدعاء ، فى حال الرخاء والشدة ، واليسر والعسر ، ليعلموا أنهم مؤمنين حقا ، مستحقين ثوابه ، مندفعين عنهم عقابه .

مِنْ حَوْلِهِمْ أَفْبَابُ الْبَطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ

ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم ، بالنجاة من البحر ، ليكون
عاقبته السكفر ، بما آتيناهم ، ومقابلة النعمة بالإساءة ، وليسكلوا تتمهم في
الدنيا ، الذي هو كتمتع الأنعام ، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم .
[فسوف يعلمون] حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة ، شدة الأسف ،
والألم العقوبة .

ثم امتن عليهم بحرمه الآمن ، وأنهم أهله ، في أمن ، وسعة ورزق ،
والناس من حولهم ، يتنظفون ويخافون . فلا يعبدون الذي أطعمهم من
جوع ، وآمنهم من خوف .

[أفبالباطل يؤمنون] وهو ما هم عليه ، من الشرك ، والأقوال ،
والأفعال الباطلة .

[وبنعمة الله] هم [يكفرون] فأين ذهبت عقولهم ، وانسلخت أحلامهم
حيث آثروا الضلال على الهدى ، والباطل على الحق ، والشقاء على السعادة ،
وحيث كانوا أظلم الخلق .

[ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً] فنسب ما هو عليه من الضلال
والباطل ، إلى الله .

[وكذب بالحق لما جاءه] على يد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن هذا الظالم العنيد ، أمامه جهنم [أليس في جهنم مثوى
للكافرين] يؤخذ بها منهم الحق ، ويمخزون بها ، وتكون منزلهم الدائم ،

فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

الذى لا يخرجون منه .

[والذين جاهدوا فينا] وهم الذين هاجروا في سبيل الله ، وجاهدوا
أعداءهم ، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته .
[لنهدينهم سبلنا] أى : الطرق الموصلة إلينا ، وذلك ، لأنهم
محسنون !

[وإن الله لمع المحسنين] بالعون ، والنصر ، والهداية .

دل هذا ، على أن أحرى الناس بموافقة الصواب ، أهل الجهاد .
وعلى أن من أحسن فيما أمر به ، أعانه الله ، ويسر له أسباب الهداية .
وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعى ، فإنه يحصل له من
الهداية ، والمعونة على تحصيل مطلوبه ، أمور إلهية ، خارجة عن مدرك
اجتهاده ، وتيسر له أمر العلم .

فإن طلب العلم الشرعى ، من الجهاد في سبيل الله ، بل هو أحد نواعي
الجهاد ، الذى لا يقوم به إلا خواص الخلق ، وهو الجهاد بالقول ، واللسان ،
للكفار ، والمنافقين .

والجهاد على تعليم أمور الدين ، وعلى رد نزاع المخالفين للحق ،
ولو كانوا من المسلمين .

تم تفسير سورة العنكبوت - بحمد الله وعونه

تفسير

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم﴾ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ

كانت الفرس والروم ، في ذلك الوقت ، من أقوى دول الأرض .
وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ، ما يكون بين الدول المتوازنة .
وكانت الفرس مشركين ، يعبدون النار .

وكانت الروم ، أهل كتاب ، ينتسبون إلى التوراة والإنجيل ، وهم
أقرب إلى المسلمين من الفرس ، فكان المسلمون يحبون غلبتهم ، وظهرهم
على الفرس .

وكان المشركون ، لا يفتخرون بالفرس في الشرك ، يحبون ظهور
الفرس على الروم .

فظهر الفرس على الروم ، وغلبوهم غلبا لم يحط بملكهم ، بل أدنى أرضهم .
ففرح بذلك مشركو مكة ، وحزن المسلمون .

فأخبرهم الله ، ووعدهم أن الروم سيعتقل الفرس .

مَنْ بَعْدَ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ
وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ وَالسَّكِينِ

[في بضع سنين] تسع ، أو ثمان ، ونحو ذلك ، مما لا يزيد على العشر ،
ولا ينقص عن الثلاث .

وأن غلبة الفرس للروم ، ثم غلبة الروم للفرس ، كل ذلك بمشيئته وقدره
ولهذا قال :

[لله الأمر من قبل ومن بعد] فليس الغلبة والنصر ، لمجرد وجود
الأسباب .

وإنما هي ، لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر .

[ويومئذ] أي : يوم يغلب الروم الفرس ، ويقهر ونهم [يفرح المؤمنون
بنصر الله ، ينصر من يشاء] .

أي : يفرحون بانتصارهم على الفرس ، وإن كان الجميع كفاراً ، ولكن
بعض الشر أهون من بعض ، ويحزن يومئذ ، المشركون .

[وهو العزيز] الذي له العزة ، التي قهر بها الخلائق أجمعين « يؤتى
الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء » .

[الرحيم] بعباده المؤمنين ، حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم
وتنصرهم ، ما لا يدخل في الحساب .

[وعد الله لا يخلف الله وعده] فتيقنوا ذلك ، واجزموا به ، واعلموا
أنه لا بد من وقوعه .

أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ
عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾

فلما نزلت هذه الآيات ، التي فيها هذا الوعد ، صدق بها المسلمون ،
وكفر بها المشركون ، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين ، على مدة
سنين عينوها .

فلما جاء الأجل ، الذي ضربه الله ، انتصر الروم على الفرس ، وأجلوم
عن البلاد التي أخذوها منهم ، وتحقق وعد الله .

وهذا من الأمور الغيبية ، التي أخبر بها الله ، قبل وقوعها ، ووجدت
في زمان من أخبرهم الله بها ، من المسلمين والمشركين .

[ولكن أكثر الناس لا يعلمون] أن ما وعد الله به حق ، فلذلك
يوجد فريق منهم ، يكذبون بوعد ، ويكذبون آياته .

وهؤلاء الذين لا يعلمون ، أى : لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها .
وإنما [يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا] فينظرون إلى الأسباب ،
ويجزمون بوقوع الأمر ، الذى فى رأيهم ، انمقدت أسباب وجوده ،
ويتيقنون عدم الأمر الذى لم يشاهدوا له من الأسباب المتقتضية
لوجوده ، شيئا .

فهم واقفون مع الأسباب ، غير ناظرين إلى مسببها ، التصرف فيها .
[وهم عن الآخرة هم غافلون] قد توجهت قلوبهم ، وأهواؤهم ، وإراداتهم ،
إلى الدنيا وشهواتها ، وحطامها ، فعملت لها ، وسعت ، وأقبلت بها ،
وأدبرت ، وغفلت عن الآخرة .

فلا الجنة تشتاق إليها ، ولا النار تخافها وتخشاها ، ولا المقام بين يدي
الله ولقائه ، يروعها ويزعجها ، وهذا علامة الشقاء ، وعنوان الغفلة
عن الآخرة .

ومن العجب أن هذا القسم من الناس ، قد بلغت بكثير منهم ، الفطنة
والذكاء ، في ظاهر الدنيا ، إلى أمر يحير العقول ، ويدهش الألباب .
وأظهروا من العجائب الذرية ، والكهربائية ، والمرآكب البرية والبحرية ،
والهوائية ، ما فاقوا به وبرزوا ، وأعجبوا بمقولهم ، ورأوا غيرهم عاجزا
عما أقدرهم الله عليه .

فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء ، وهم مع ذلك ، أبلد الناس
في أمر دينهم ، وأشدم غفلة عن آخرتهم ، وأقلهم معرفة بالعواقب .
قد رآهم أهل البصائر النافذة ، في جهاهم يتخبطون ، وفي ضلالهم
يعمهمون ، وفي باطلهم يترددون .

نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون .

ولو نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه ، من الأفكار الدقيقة
في الدنيا وظاهرها ، وما حرموا من العقل العالى ، لعرفوا أن الأمر لله ،
والحكم له في عباده ، وإن هو إلا توفيقه أو خذلانه ، ولخافوا ربهم
وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم ، من نور العقول والإيمان ، حتى يصلوا إليه ،
ويحلوا بساحته .

وهذه الأمور لو قارنها الإيمان ، وبنيت عليه ، لانتشرت الرُّقى العالى ،
والحياة الطيبة .

﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

ولكنها لما بنى كثير منها على الإلحاد ، لم تنمر إلا هبوط الأخلاق ،
وأسباب الفناء والتدمير . .

* أى : أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه [فى أنفسهم] .
فإن فى أنفسهم ، آيات يعرفون بها ، أن الذى أوجدهم من العدم ،
سيعيدهم بعد ذلك ، وأن الذى نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة ، إلى مضغة
إلى آدمى ، قد نفخ فيه الروح ، إلى طفل إلى شاب ، إلى شيخ ، إلى هرم ،
غير لائق أن يتركهم سدى مهملين ، لا ينهون ولا يؤمرون ، ولا يثابون
ولا يعاقبون .

[ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق] أى : ليلوكم أيكم
أحسن عملاً .

[وأجل مسمى] أى : مؤقت بقاؤها إلى أجل تنقضى به الدنيا ، وتقوم
القيامة ، وتبدل الأرض غير الأرض ، والسموات .

[وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون] فذلك لم يستعدوا
للقائه ، ولم يصدقوا رسله ، التى أخبرت به ، وهذا الكفر عن غير دليل .
بل الأدلة القاطعة ، دلت على البعث والجزاء .

ولهذا نبههم على السير فى الأرض ، والنظر فى عاقبة الدين كذبوا

فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾
ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آمَنُوا السُّوْأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

رسلهم ، وخالفوا أمرهم ، ممن هم أشد من هؤلاء قوة ، وأكثر آثارا في
الأرض ، من بناء قصور ، ومصانع ، ومن غرس أشجار ، ومن زرع ،
وإجراء أنهار .

فلم تغن عنهم قوتهم ، ولا نفعتهم آثارهم ، حين كذبوا رسلهم ،
الذين جاءوهم بالبينات الدالات على الحق ، وصحة ما جاءوهم به .

فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك ، لم يجدوا إلا أمما بائدة ، وخلقاً
مهلكين ، ومنازل بعدهم موحشة ، وذم من الخلق عليهم متتابع .

وهذا جزاء معجل ، توطئة للجزاء الأخرى ، ومبتدأ له .

وكل هذه الأمم المهلكة ، لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك ، وإنما ظلّموا
أنفسهم ، وتسبوا في هلاكها .

[ثم كان عاقبة الذين أساءوا] أى : المسيئين [السوى] أى : الحالة
السيئة الشنيعة .

وصار ذلك داعيهم إلى [أن كذبوا بآيات الله وكانوا يستهزئون] .
فهذا عقوبة إساءتهم وذنوبهم .

﴿١١﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ
شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءَ وَوُكُلُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ

ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب ، يكون سببا لأعظم العقوبات ،
وأعضل الثلاث .

* يخبر تعالى ، أنه المتفرد بإبداء المخلوقات ، ثم يعيدهم ، ثم إليه يرجعون
بعد إعادتهم ، ليجازيهم بأعمالهم .

ولهذا ذكر جزاء أهل الشر ، ثم جزاء أهل الخير ، فقال :

[ويوم تقوم الساعة] ويقوم الناس لرب العالمين ، ويردون القيامة عيانا .

يومئذ [يبلس المجرمون] أى : يياسون من كل خير .

وذلك لأنهم ، ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجمام ، وهى الذنوب ،
من كفر ، وشرك ، ومعاصى .

فلما قدموا أسباب العقاب ، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب ،
أيسوا ، وأبلسوا ، وأفلسوا ، وضل عنهم ما كانوا يفترونه ، من نفع
شركائهم ، وأنهم يشفعون لهم .

ولهذا قال : [ولم يكن لهم من شركائهم] التى عبدوها مع الله [شفعاء
وكانوا بشركائهم كافرين] .

تبرأ المشركون من أشركوهم مع الله ، وتبرأ المعبودون ، وقالوا « تبرأنا
إليك ، ما كنا نؤاينا يعبدون » ، والتعنوا ، وابتعدوا .

السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿١٦﴾

وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر ، كما افترت أعمالهم في الدنيا .

[فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات] وآمنوا بقلوبهم ، وصدقوا ذلك
بالأعمال الصالحة [فهم في روضة] فيها سائر أنواع النبات وأصناف
المشتميات .

[يجبرون] أى : يسرون ، وينعمون بالمال كل اللذيذة ، والأشربة ،
والحور الحسان ، والخدم ، والولدان ، والأصوات المطربات ، والسماع
المبهج ، والمناظر العجيبة ، والزوائج الطيبة ، والفرح والسرور ، واللذة
والحبور ، مما لا يقدر أحد أن يصفه .

[وأما الذين كفروا] وجحدوا نعمه ، وقابلوها بالكفر [وكذبوا
بآياتنا] التى جاءتهم بها رسلنا [فأولئك في العذاب محضرون] فيه .

قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم ، واطلع العذاب الأليم على
أفئدتهم ، وشوى الحميم وجوههم ، وقطع أمعاءهم .

فأين الفرق بين الفريقين ، وأين التساوى بين المنعمين والمعذبين !!؟

﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧)
وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (١٨)
يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُمِئِي الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (١٩) ﴿﴾

* هذا إخبار عن تنزيهه عن السوء والنقص ، وتقدسه عن أن يماثله أحد من الخلق ، وأمر للعباد أن يسبحوه ، حين يمسون ، وحين يصبحون ، ووقت العشي ، ووقت الظهيرة .

فهذه الأوقات الخمسة ، وأوقات الصلوات الخمس ، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد .

ويدخل في ذلك ، الواجب منه ، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس .

والمستحب كأذكار الصباح والمساء ، وأدبار الصلوات ، وما يقترن بها من النوافل .

لأن هذه الأوقات التي اختارها الله لأوقات المفروضات ، هي أفضل الأوقات .

فالتسبيح والتحميد فيها ، والعبادة فيها ، أفضل من غيرها .

بل العبادة ، وإن لم تشتمل على قول « سبحان الله » فإن الإخلاص فيها ، تنزيهه لله بالفعل ، أن يكون له شريك في العبادة ، أو أن يستحق أحد من الخلق ، ما يستحقه من الإخلاص والإنابة .

[يخرج الحي من الميت] كما يخرج النبات من الأرض الميتة ، والسنبلة

﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا

من الحبة ، والشجرة من النواة ، والفرخ من البيضة ، والمؤمن من الكافر ، ونحو ذلك .

[ويخرج الميت من الحى] بعكس المذكور [ويحيى الأرض بعد موتها] .

فينزل عليها المطر ، وهى ميتة هامدة ، فإذا أنزل عليها الماء ، اهتزت ، وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج [وكذلك تخرجون] من قبوركم .

فهذا دليل قاطع ، وبرهان ساطع ، أن الذى أحيا الأرض بعد موتها ، يحيى الأموات .

فلا فرق فى نظر العقل ، بين الأمرين ، ولا موجب لاستبعاد أحدهما ، مع مشاهدة الآخر .

* هذا شروع فى تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية ، وكال عظمته .

ونفوذ مشيئته ، وقوة اقتداره ، وجليل صنعه ، وسعه رحمته وإحسانه فقال :

[ومن آياته أن خلقكم من تراب] وذلك بخلق أصل النسل ، آدم

عليه السلام [ثم إذا أنتم بشر تنتشرون] وبشكم فى أقطار الأرض وأرجائها .

ففى ذلك ، آيات على أن الذى أنشأكم من هذا الأصل ، وبشكم

فى أقطار الأرض ، هو الرب المعبود ، الملك الحمود ، والرحيم الودود ، الذى سيعيدكم بالبعث بعد الموت .

لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾
﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَفُ

[ومن آياته] الدالة على رحمته ، وعنايته بعباده ، وحكمته العظيمة ،
وعلمه المحيط .

[أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا] تناسبكم وتناسبونهن ، وتشا كلكم
وتشا كلونهن .

[لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة] بما رتب على الزواج ،
من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة .

فصل بالزوجة ، الاستمتاع واللذة ، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم ،
والسكون إليها .

فلا تجد بين اثنين في الغالب ، مثل ما بين الزوجين ، من المودة والرحمة .

[إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون] يُعْمِلُونَ أفكارهم ، ويتدبرون
آيات الله ، وينتقلون من شيء إلى شيء .

* والعالمون ، هم أهل العلم ، الذين يفهمون العبر ، ويتدبرون الآيات .
وآيات الله في ذلك كثيرة :

[ومن آياته خلق السموات والأرض] وما فيها ، فإن ذلك ، دال
على عظمة سلطان الله ، وكال اقتداره ، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة
وكال حكمته ، لما فيها من الإقنانه ، وسعة علمه — لأن الخالق ، لا بد أن

أَسْنَتِكُمْ وَأَتْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

يعلم ما خلقه « ألا يعلم من خلق » — وعموم رحمته وفضله ، لما في ذلك من المنافع الجليلة .

وأنة المرید ، الذى يختار ما يشاء ، لما فيها من التخصیصات والمزايا .
وأنة وحده ، الذى يستحق أن يعبد ويوحده ، لأنه المنفرد بالخلق ،
فيجب أن يفرد بالعبادة .
فكل هذه ، أدلة عقلية ، نبه الله العقول إليها ، وأمرها بالتفكر ،
واستخراج العبرة منها .

[و] كذلك في [اختلاف أسنتكم وألوانكم] على كثرتكم وتباينكم
مع أن الأصل واحد ، ومخارج الحروف واحدة .

ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه ، ولا لونين متشابهين
من كل وجه ، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ، ما به يحصل التمييز .

[إن في ذلك لآيات للعالمين] أى : إن هذا دال على كمال قدرته ،
ونفوذ مشيئته .

ومن عنايته بعباده ، ورحمته بهم أن قدر ذلك الاختلاف ، لثلايق
التشابه ، فيحصل الاضطراب ، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب .

﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ
مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾
﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِّلُ مِ
نَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

* أى : سماع تدبر ، وتعقل للسماعى والآيات فى ذلك .

إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى ، كما قال : « ومن رحمته جعل لكم
الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .
وعلى تمام حكمته ، إذ حكمته ، اقتضت سكون الخلق فى وقت ، ليستريحوا
ويستجموا .

وانتشارهم فى وقت ، لمصالحهم الدينية والدنيوية ، ولا يتم ذلك ،
إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم ، والمنفرد بذلك ، هو المستحق للعبادة .

* أى : ومن آياته ، أن ينزل عليكم المطر ، الذى تحيا به البلاد
والعباد ، ويريكم قبل نزوله ، مدماته ، من الرعد ، والبرق ، الذى يخاف
ويطمع فيه .

[إن فى ذلك آيات] دالة على عموم إحسانه ، وسعة علمه ، وكمال
إتقانه ، وعظيم حكمته ، وأنه يحيى الموتى ، كما أحيا الأرض بعد موتها .

[لقوم يعقلون] أى : لهم عقول ، تعقل بها ماتسمعه ، وتراه ، وتحفظه ،
وتستدل به ، عل ما جعل دليلاً عليه .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ لَهٗ قَتْنُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ

* أى : ومن آياته العظيمة ، أن قامت السموات والأرض ، واستقرتا ، وثبتتا بأمره ، فلم تنزلزا ، ولم تسقط السماء على الأرض .

فقدرته العظيمة ، التي بها أمسك السموات والأرض أن تزولا ، يقدر بها ، على أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض ، إذا هم يخرجون « نخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » .

[وله من فى السموات والأرض] لكل خلقه ومماليكه ، والمتصرف فيهم من غير منازع ، ولا معاون ، ولا معارض ، وكلهم قانتون لجلاله ، خاضعون لملكه .

[وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو] أى إعادة الخلق بعد موتهم [أهون عليه] من ابتداء خلقهم ، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول .

فإذا كان قادراً على الابتداء ، الذى تقرون به ، كانت قدرته على الإعادة ، التى هى أهون ، أولى وأولى .

ولما ذكر من الآيات العظيمة ، ما به يعتبر المقربون ، ويتذكر المؤمنون ويستبصر المهتدون ، ذكر الأمر العظيم ، والمطلب الكبير فقال :

[وله المثل الأعلى فى السموات والأرض] وهو كل صفة كمال .

وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ

والكمال من تلك الصفة ، والمحبة ، والإنابة التامة الكاملة ، في قلوب
عباده المخلصين ، والذكر الجليل ، والعبادة منهم .
فالمثل الأعلى ، هو وصفه الأعلى ، وما ترتب عليه .
ولهذا كان أهل العلم ، يستعملون في حق الباري ، قياس الأولى ،
فيقولون :

كل صفة كمال في المخلوقات ، فخالقها أحق بالاتصاف بها ، على وجه
لا يشاركه فيها أحد .
وكل نقص في المخلوق ، ينزه عنه ، فتنزيه الخالق عنه ، من باب
أولى وأحرى .

[وهو العزيز] أى : له العزة الكاملة ، والحكمة الواسعة .

فبغيرته أوجد المخلوقات ، وأظهر المأمورات .

وبحكته ، أتقن ما صنعه ، وأحسن فيها ما شرعه .

* هذا مثل ضربه الله ، لتبجح الشرك وتهجينه ، مثلاً من أنفسكم ، لا يحتاج
إلى حل وترحال ، وإعمال الجلال .

[هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم] أى : هل

أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء ، يشارككم في رزقكم ، وترون أنفسكم
وهم فيه ، على حد سواء .

تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

[تخافونهم كخيفتكم أنفسكم] أى : كالأحرار الشركاء فى الحقيقة ،
الذين يخاف من قسمه ، واختصاص كل شىء بماله ؟

ليس الأمر كذلك ، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم ، شريكاً لكم
فما رزقكم الله تعالى .

هذا ، ولستم الذين خلقتموهم ، ورزقتموهم ، وهم أيضاً ، ممالئكم مثلكم .
فكيف ترضون أن تجعلوا الله شريكاً من خلقه ، وتجعلونه بمنزلة ،
وعديلاه فى العبادة ، وأنتم لا ترضون مساواة ممالئكم لكم ؟

هذا من أعجب الأشياء ، ومن أدل شىء على سفه من اتخذ شريكاً
مع الله ، وأن ما اتخذ باطل مضمحل ، ليس مساوياً لله ، ولا له من
العبادة شىء .

[كذلك نفصل الآيات] بتوضيحها بأمثلها [لقوم يعقلون]
الحقائق ويعرفون .

وأما من لا يعقل ، فلو فَصَّلَتْ له الآيات ، وبينت له البينات ، لم يكن
له عقل يبصر به ما تبين ، ولا لُبُّ يعقل به ما توضح .

فأهل العقول والألباب ، هم الذين يساق إليهم الكلام ، ويوجه الخطاب .
وإذا علم من هذا المثال ، أن من اتخذ من دون الله شريكاً ، يعبده
ويتوكل عليه فى أموره ، ليس معه من الحق شىء ، فما الذى أوجب لهم
الإقدام ، على أمر باطل ، توضح بطلانه ، وظهر برهانه ؟ لقد أوجب لهم
ذلك ، اتباع الهوى ، فلماذا قال :

يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي
مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٩﴾
﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ

[بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم] هويت أنفسهم الناقصة ،
التي ظهر من نقصها ، ما تعلق به هواها ، أمراً^(١) يجزم العقل بفساده ،
والفطر برده ، بغير علم دلهم عليه ، ولا برهان قادم إليه .

[فمن يهدي من أضل الله] أى : لا تعجبوا من عدم هدايتهم ، فإن
الله تعالى أضلهم بظلمهم ، ولا طريق لهداية من أضل الله ، لأنه ليس أحد
معارضاً لله ، أو منازعاً له فى ملكه .

[وما لهم من ناصرين] ينصرونهم ، حين تحق عليهم كلمة العذاب ،
وتنقطع بهم الوصل والأسباب .

* يأمر تعالى بالإخلاص له فى جميع الأحوال ، وإقامة دينه فقال :

[فأقم وجهك] أى : انصبه ووجهه [للدين] الذى هو الإسلام ،
والإيمان ، والإحسان ، بأن تتوجه بقلبك ، وقصدك ، وبدنك إلى إقامة
شرائع الدين الظاهرة ، كالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ونحوها .
وشرائعه الباطنة ، كالحبة ، والخوف ، والرجاء ، والإنابة .

والإحسان فى الشرائع الظاهرة والباطنة ، بأن تعبد الله فيها كأنك
تراه ، فإن لم تسكن تراه ، فإنه يراك .

وخص الله إقامة الوجه ، لأن إقبال الوجه ، تبع لإقبال القلب ، ويترتب
على الأمرين ، سعى البدن ، ولهذا قال :

(١) قوله « أ مر » مفعول به لقوله « هويت أنفسهم » .

النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

[حنيفا] أي : مقبلا على الله في ذلك ، معرضاً عما سواه .

وهذا الأمر الذي أمرناك به ، هو [فطرة الله التي فطر الناس عليها]
ووضع في عقولهم حسنها ، واستقباح غيرها .

فإن جميع أحكام الشرع ، الظاهرة والباطنة ، قد وضع الله في قلوب
الخلق كلهم . الميل إليها .

فوضع في قلوبهم ، محبة الحق ، وإيثار الحق ، وهذا حقيقة الفطرة .
ومن خرج عن هذا الأصل ، فلما راض عرض لفطرته ، أفسدها ، كما
قال النبي صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ،
أو ينصرانه أو يمجسانه » .

[لا تبديل لخلق الله] أي : لا أحد يبدل خلق الله ، فيجعل الخلق
على غير الوضع ، الذي وضعه الله .

[ذلك] الذي أمرناك به [الدين القيم] أي : الطريق المستقيم الموصل
إلى الله ، وإلى دار كرامته ، فإن من أقام وجهه للدين حنيفا فإنه سالك
الصراط المستقيم ، في جميع شرائعه وطرقه .

[ولكن أكثر الناس لا يعلمون] فلا يتعرفون الدين القيم ، وإن
عرفوه ، لم يسلكوه .

[منيبين إليه واتقوه] وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين .

فإن الإنابة ، إنابة القلب ، وانجذاب دواعيه ، لمرضى الله تعالى .

وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا
شِيَعًا كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

ويلزم من ذلك ، عمل البدن ، بمقتضى ما فى القلب ، فمثل ذلك ،
العبادات الظاهرة والباطنة .

ولا يتم ذلك ، إلا بترك المعاصى ، الظاهرة والباطنة ، فلذلك قال :

[واتقوه] فهذا يشمل فعل المأمورات ، وترك المنهيات .

وخص من المأمورات الصلاة بقوله [وأقيموا الصلاة] لكونها تدعو
إلى الإجابة والتقوى ، كما قال تعالى فى سورة العنكبوت « وأقم الصلاة
إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فهذا إعانتها على التقوى .

ثم قال [ولذكر الله أكبر] فهذا حثها على الإجابة .

وخص من المنهيات أصلها ، والذى لا يقبل معه عمل ، وهو الشرك فقال :

[ولا تكونوا من المشركين] لكون الشرك مضادا للإجابة ، التى

روحها ، الإخلاص من كل وجه .

ثم ذكر حالة المشركين مهجنا لها ، ومقبحا فقال :

[من الذين فرقوا دينهم] مع أن الدين واحد ، وهو إخلاص العبادة

لله وحده وهؤلاء المشركون ، فرقوه :

منهم من يعبد الأوثان والأصنام .

ومنهم من يعبد الشمس والقمر .

ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين ، ومنهم يهود ، ومنهم نصارى .

ولهذا قال :

[وكانوا شيعة] أى : كل فرقة ، تحزبت وتعصبت ، على نصر مامعها ، من الباطل ، ومنازدة غيرهم ومحاربتهم .

[كل حزب بما لديهم] من العلوم المخالفة لعلوم الرسل [فرحون] به ، يحكون لأنفسهم ، بأنه الحق ، وأن غيرهم على باطل .

وفى هذا تحذير للمسلمين ، من تشتمهم وتفرقهم فرقا ، كل فريق يتعصب لما معه من حق وباطل ، فيكونون مشايهين بذلك للمشركين ، فى التفرق بل الدين واحد ، والرسول واحد ، والإله واحد .

وأكثر الأمور الدينية ، وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة .

والأخوة الإيمانية ، قد عقدها الله وربطها ، أتم ربط .

فما بال ذلك كله ، يُلقى ويبنى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية ، أو فروع خلافية ، يضل بها بعضهم بعضا ، ويتميز بها بعضهم على بعض ؟

فهل هذا إلا من أكبر نزعات الشيطان ، وأعظم مقصوده ، التى كاد بها المسلمين ؟

وهل السعى فى جمع كلمتهم ، وإزالة ما بينهم من الشقاق ، المبنى على ذلك الأصل الباطل ، إلا من أفضل الجهاد فى سبيل الله ، وأفضل الأعمال المقربة إلى الله ؟

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا
أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٣) لِيَكْفُرُوا

ولما أمر تعالى بالإجابة إليه — والإجابة للأمور بها ، هي الإجابة
الاختيارية ، التي تكون في حالي العسر واليسر ، والسعة والضيق —
ذكر الإجابة الاضطرارية ، التي لا تكون مع الإنسان إلا عند
ضيقه وكرهه .

فإذا زال عنه الضيق ، نبذها وراء ظهره ، وهذه غير نافلة فقال :
[وإذا مس الناس ضر] إلى [يشركون] .

* [وإذا مس الناس ضر] مرض ، أو خوف من هلاك ونحوه .
[دعوا ربهم منيبين إليه] ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك
الحال ، لعلهم أنه لا يكشف الضر إلا الله .
[ثم إذا أذاقهم منه رحمة] فشفاهم من مرضهم ، وآمنهم من خوفهم .
[إذا فريق منهم] ينقضون تلك الإجابة ، التي صدرت منهم ،
ويشركون به من لا أسعدهم ولا أشقى ، ولا أقصرهم ولا أغنى .
وكل هذا ، كفر بما آتاهم الله ، ومن به عليهم ، حيث أنجاهم ،
وأنقذهم من الشدة ، وأزال عنهم المشقة .

فهل أقبلوا هذه النعمة الجليلة ، بالشكر والهدوم على الإخلاص له ،

في جميع الأحوال ؟ .

بِمَاءِ آتَيْنَهُمْ فَمَتَّمَّوْا فَسَوَّفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا
فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

[أم أنزلنا عليهم سلطانا أى : حجة ظاهرة] فهو [أى : ذلك
السلطان .

[يتكلم بما كانوا به يشركون] ويقول لهم : اثبتوا على شرككم ،
واستمروا على شككم ، فإن ما أتم عليه ، هو الحق ، وما دعتكم الرسل
إليه ، باطل .

فهل ذلك السلطان ، موجود عندهم ، حتى يوجب لهم شدة التمسك
بالشرك .

أم البراهين العقلية والسمعية ، والكتب السماوية ، والرسل الكرام ،
وسادات الأنام ، قد نهوا أشد النهى عن ذلك ، وحذروا من سلوك طريقه
الموصلة إليه ، وحكوا بفساد عقل ودين ، من ارتكبه ؟ .

فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان ، وإنما هو ، أهواء ، النفوس ،
ونزغات الشيطان .

﴿٣٦﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ
سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٧﴾

* يخبر تعالى ، عن طبيعة أكثر الناس ، في حالى الرخاء والشدة ، أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة ، من صحة ، وغنى ، ونصر ونحو ذلك ، فرحوا بذلك ، فرح بطر ، لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله .

[وإن تصيبهم سيئة] أى : حال تسوؤهم وذلك [بما قدمت أيديهم] من المعاصى .

[إذا هم يقنطون] يياسون من زوال ذلك الفقر ، والمرض ، ونحوه . وهذا جهل منهم وعدم معرفة .

[أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر] .

فالقنوط بعد ما علم ، أن الخير والشر من الله ، والرزق ، سمته وضيقة ، من تقديره ، ضائع ، ليس له محل .

فلا تنظر أيها العاقل ، لمجرد الأسباب ، بل اجعل نظرك لمسببها ، ولهذا قال :

[إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون] فهم الذين يعتبرون يبسط الله الرزق لمن يشاء ، وقبضه .

ويعرفون بذلك ، حكمة الله ورحمته ، وجوده ، وجذب القلوب لسؤاله ، فى جميع مطالب الرزق .

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ

أى : فأعط القريب منك - على حسب قربه وحاجته - حقه الذى أوجبه الشارع ، أو حض عليه ، من النفقة الواجبة ، والصدقة ، والهداية ، والبر ، والسلام ، والإكرام ، والعتق عن زلته ، والمسامحة عن هفوته .
وكذلك ، آت المسكين ، الذى أسكنه الفقر والحاجة ، ماتزيل حاجته ، وتدفع به ضرورته ، من إطعامه ، وسقيه وكسوته .

[وابن السبيل] الغريب المتقطع ، فى غير بلد ، الذى هو مظنة شدة الحاجة ، وأنه لا مال معه ، ولا كسب يدبر نفسه به ، فى سفره .
بخلاف الذى فى بلده ، فإنه حتى لو لم يكن له مال ، فإنه لا بد - فى الغالب - أن يكون فى حرفة ، أو صناعة ونحوها تسد حاجته .
ولهذا جعل الله فى الزكاة ، حصة للمسكين ، وابن السبيل .

[ذلك] أى : إيتاء ذى القربى والمسكين ، وابن السبيل [خير للذين يريدون] بذلك العمل [وجه الله] أى : خير غزير ، وثواب كثير ، لأنه من أفضل الأعمال الصالحة ، والنفع المتعدى ، الذى وافق محله ، المقرون به الإخلاص .

فإن لم يرد به وجه الله ، لم يكن خيراً **لِلْمُعْطَى** ، وإن كان خيراً ونفعاً **لِلْمُعْطَى** كما قال تعالى : « لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » .

مفهومها ، أن هذه الأمور خير ، لنفعها المتعدى ، ولكن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً .

خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾
وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوهَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوهَا عِنْدَ اللَّهِ

وقوله [وأولئك] الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله [هم
المفلحون] الفائزون بثواب الله ، الناجون من عقابه .

ولما ذكر العمل ، الذى يقصد به وجهه ، من النفقات ، ذكر العمل
الذى يقصد به مقصد دنيوى فقال :

[وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس] أى : ما أعطيتم من
أموالكم الزائدة عن حوائجكم ، وقصدكم بذلك ، أن يربوا أى : يزيد
في أموالكم ، بأن تعطوها لمن تطعمون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها ،
فهذا العمل ، لا يربوا أجره عند الله ، لكونه معدوم الشرط ، الذى هو
الإخلاص .

ومثل ذلك العمل ، الذى يراد به الزيادة ، فى الجاه والرياء عند الناس ،
فهذا كله لا يربوا عند الله .

[وما آتيتم من زكاة] أى : مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة ، ويطهر
أموالكم من البخل بها ، ويزيد فى دفع حاجة المعطى .

[تريدون] بذلك [وجه الله فأنلكم هم المضعفون] أى : المضعف لهم
الأجر ، الذى تربوا نفقاتهم عند الله ، ويربها الله لهم ، حتى تكون شيئاً
كثيراً .

ودل قوله [وما آتيتم من زكاة] أن الصدقة مع اضطرار من يتعلق
بالمنفق ، أو مع دين عليه ، لم يقضه ، ويقدم عليه الصدقة ، أن ذلك ليس

وَمَا آتَيْتُمْ مِّنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْشُكُمْ ثُمَّ
يُحْيِيكُمْ هَلْ مِّنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِثْلَ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ
وَمَا يَشَاءُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

بزكاة ، يؤجر عليه العبد ، ويرد تصرفه شرعاً ، كما قال تعالى في الذي يمدح
« الذي يؤتي ماله يتزكى » .

فليس مجرد إيتاء المال ، خيراً ، حتى يكون بهذه الصفة ، وهو : أن
يكون على وجه ، يتزكى به صاحبه .

* يخبر تعالى أنه وحده ، المنفرد بخلقكم ورزقكم ، وإماتتكم وإحيائكم ،
وأنه ليس أحد من الشركاء ، التي يدعوها المشركون ، من يشارك الله
في شيء من هذه الأشياء .

فكيف يشركون ، بمن انفرد بهذه الأمور ، من ليس له تصرف فيها ،
بوجه من الوجوه؟! !

فسبحانه وتعالى ، وتقدس ، وتنزه ، وعلا عن شركهم .

فلا يضره ذلك ، وإنما وباله عليهم .

﴿٤٠﴾ زَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ

لِيذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴿٤١﴾

﴿٤٢﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴿٤٢﴾

أى : استعلن الفساد ، فى البر والبحر ، أى : فساد معاشهم ونقصها ،
وحلول الآفات بها .

وفى أنفسهم من الأمراض والوباء ، وغير ذلك .

وذلك بسبب ما قدمت أيديهم ، من الأعمال الفاسدة ، المفسدة ،
بطبعها .

هذه المذكورة [ليذيقهم بعض الذى عملوا] أى : ليعلموا أنه المجازى

على الأعمال ، فعجل لهم نموذجاً ، من جزاء أعمالهم فى الدنيا .

[لعلهم يرجعون] عن أعمالهم ، التى أثرت لهم من الفساد ، ما أثرت .

فتصلح أحوالهم ، ويستقيم أمرهم .

فسبحان من أنعم ببلائه ، وتفضل بعقوبته ، وإلا ، فلو أذاقهم جميع

ما كسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة

* والأمر بالسير فى الأرض ، يدخل فيه السير بالأبدان ، والسير فى

القلوب ، للنظر والتأمل ، بعواقب المتقدمين .

[كان أكثرهم مشركين] تجدون عاقبتهم شر العواقب ، ومآلم

شر مال .

فَأْتِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ
لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ
وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا

عذاب استأصلهم ، و ذم ، و لعن من خلق الله يقبهم ، و خزي
متواصل .

فاحذروا أن تفعلوا أفعالهم ، لئلا يُحْذَى بِكُمْ حَذْوَهُمْ ، فإن عدل الله
وحكمته في كل زمان ومكان .

* أى : أقبل بقلبك ، و توجه بوجهك ، واسع ببدنك ، لإقامة الدين
القيم المستقيم .

فنفذ أوامره ونواهيهِ ، بجد واجتهاد ، و قم بوظائفه الظاهرة
والباطنة .

و بادر زمانك ، و حياتك ، و شبابك ، [من قبل أن يأتي يوم لا مرد
له من الله] و هو يوم القيامة ، الذى إذا جاء ، لا يمكن رده ، و لا يرجأ
العاملون ، ليستأنفوا العمل ، بل فرغ من الأعمال ، لم يبق إلا جزاء العمال .
[يومئذ يصدعون] أى : يتفرقون عن ذلك اليوم ، و يصدرون
أشعاتا متفاوتين ، ليروا أعمالهم .

[من كفر] منهم [فعليه كفره] و يعاقب هو بنفسه ، لا تزر وازرة
وزر أخرى .

[و من عمل صالحاً] من الحقوق ، التى لله ، و التى للعباد ، الواجبة
والمستحبة .

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٥﴾

﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ

[فلا نفسهم] لا لغيرهم [يمهدون] أي : يهينون ، ولأ نفسهم يعمرن
آخرتهم ، ويستمدون للفوز بمنازلها وغرفاتها .

ومع ذلك ، جزاؤهم ليس مقصوداً على أعمالهم ، بل يجزيهم الله من
فضله الممدود ، وكرمه غير المحدود ، ما لا تبلغه أعمالهم .

وذلك لأنه أحبهم ، وإذا أحب الله عبداً ، صب عليه الإحسان صبا ،
وأجزل له العطايا الفاخرة ، وأنعم عليه بالنعمة الظاهرة والباطنة .

وهذا بخلاف الكافرين ، فإن الله لما أبغضهم ومقتهم ، عاقبهم
وعذبهم ، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم ، فلهذا قال : [إنه لا يحب
الكافرين] .

* أي : ومن الأدلة الدالة على رحمة وبعثه الموتى ، وأنه الإله المعبود ،
والملك المحمود .

[أن يرسل الرياح] أمام المطر [مبشرات] بإثارتها للسحاب ، ثم
جمعها ، فتستبشر بذلك النفوس قبل نزوله .

[وليذيقكم من رحمة] فينزل عليكم مطراً ، تحيا به البلاد والعباد ،
وتذوقون من رحمة ، ما تعرفون أن رحمة ، هي المنقذة للعباد الجالبة لأرزاقهم
فتشاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة ، الفاتحة لخزائن الرحمة

مَنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَأَتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

[ولتجرى الفلك] في البحر [بأمره] القدرى [ولتبتغوا من فضله]
بالتصرف في معاشكم ومصالحكم .

[ولعلكم تشكرون] من سخر لكم الأسباب ، وسير لكم الأمور .
فهذا المقصود من النعم ، أن تقابل بـشكر الله تعالى ، ليزيدكم الله منها ،
ويقيمها عليكم .

وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي ، فهذه حال من بدل نعمة الله
كفرا ، ومنحته محنة ، وهو معرض لها للزوال ، والانتقال منه إلى غيره .
* أى [ولقد أرسلنا من قبلك] في الأمم السالفة [رسلا إلى قومهم]
حين جعلوا توحيد الله ، وكذبوا بالحق ، فجاءتهم رسالهم يدعونهم إلى
التوحيد والإخلاص ، والتصديق بالحق ، وبطلان ما هم عليه ، من الكفر
والضلال .

وجاءهم بالبينات والأدلة على ذلك ، فلم يؤمنوا ، ولم يزولوا
عن غيرهم .

[فانتقمنا من الذين أجرموا] ونصرنا المؤمنين ، أتباع الرسل .
[وكان حقا علينا نصر المؤمنين] أى : أوجبنا ذلك على أنفسنا ،

﴿٤٨﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا وَيَسْطُرُهُ
فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلْفِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَنَّ قَبْلَهُ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَأَنْظُرُوا

وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة ووعدناهم به ، فلا بد من وقوعه .

فأتم أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، إن بقيم على تكذيبكم ،
حلّت بكم العقوبة ، ونصرناه عليكم .

* يخبر تعالى عن كمال قدرته ، وتمام نعمته ، أنه [يرسل الرياح فتثير
سحابا] من الأرض .

[فيسطه في السماء] أي : يمدّه ويوسعه [كيف يشاء] أي : على أي
حالة أرادها من ذلك .

[ثم يجعله] أي : ذلك السحاب الواسع [كسفا] أي : سحابا ثخيناً ،
قد طبق بعضه فوق بعض .

[فتري الودق يخرج من خلفه] أي : السحاب ، نطقاً صفاراً متفرقة ،
لا تنزل جميعاً ، فتفسد ما أتت عليه .

[فإذا أصاب به] بذلك المطر [من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون]
ييشر بعضهم بعضاً بنزوله ، وذلك لشدة حاجتهم ، واضطرارهم إليه ، فلهذا
قال : [وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين] أي : آيسين

إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُعْجِي
الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

﴿٥٠﴾ وَلَئِن أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ
يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ

قائطين ، لتأخر وقت مجيئه .

أى : فلما نزل في تلك الحال ، صار له موقع عظيم عندهم ، وفرح
واستبشار .

[فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها] فاهتزت
وربت ، وأنبتت من كل زوج كريم .

[إن ذلك] الذى أحيا الأرض بعد موتها [يحيي الموتى ، وهو على كل
شئ قدير] فقد رته تعالى ، لا يتعاصى عليها شئ ، وإن تعاصى على قدر
خلقه ، ودق عن أفهامهم ، وحاترت فيه عقولهم .

* يخبر تعالى عن حالة الخلق ، وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض
بعد موتها ، ونشر رحمة الله تعالى ، لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن
المطر ، وعلى زروعهم ، ريحا مضرّة مقلقة ، أو منقصة .

[فرأوه مصفرا] قد تداعى إلى التلف [لظلوا من بعده يكفرون] .
فينسون النعم الماضية ، ويبادرون إلى الكفر .

وهؤلاء ، لا ينفع فيهم وعظ ولا زجر [فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع

إِذَا وَلَوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ
إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٣﴾

العمى الدعاء [وبالأولى [إذا ولوا مدبرين] فإن الموانع قد توفرت فيهم^(١)
عن الانقياد والسمع النافع كتوفر هذه الموانع المذكورة ، عن سماع الصوت
الحسى .

[وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم] لانهم لا يقبلون الإبصار
بسبب عماهم فليس فيهم قابلية له .

[إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون] فهؤلاء الذين ينفع فيهم
إسماع الهدى ، المؤمنون بآياتنا بقلوبهم ، المنقادون لأوامرنا ، المسلمون لنا .
لأن مهمم الداعى القوى لقبول النصائح والمواعظ ، وهو استعدادهم
للإيمان بكل آية من آيات الله ، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدررون عليه من
أوامر الله .

(١) قوله : « فإن الموانع الخ » تمبير قلق وفيه تعقيد فلو قال « فإن
الموانع عن الانقياد والسمع النافع قد توفرت فيهم كتوفر هذه الموانع
المذكورة عن سماع الصوت الحسى » لكان أسس أسلوبا ، وأوضح فهما
للقارىء .

﴿۵۴﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ
ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿۵۴﴾

* يخبر تعالى ، عن سعة علمه ، وعظيم اقتداره ، وكمال حكمته ، أنه ابتداء
خلق آدميين من ضعف ، وهو الأطوار الأولى من خلقه ، من نطفة إلى
علقة ، إلى مضغة ، إلى أن صار حيوانا في الأرحام ، إلى أن ولد ، وهو في
سن الطفولية ، وهو إذ ذاك في غاية الضعف ، وعدم القوة والقدرة .

ثم ما زال الله يزيد في قوته ، شيئاً فشيئاً ، حتى بلغ الشباب ، واستوت
قوته ، وكتلت قواه ، الظاهرة والباطنة .

ثم انتقل من هذا الطور ، ورجع إلى الضعف ، والشيبة والمهرم .
[يخلق ما يشاء] بحسب حكمته .

ومن حكمته ، أن يرى العبد ضعفه ، وأن قوته محفوفة بضعفين ، وأنه
ليس له من نفسه ، إلا النقص .

ولولا تقوية الله له ، لما وصل إلى قوة وقدرة ، ولو استمرت قوته في
الزيادة ، لطنى ، وبغى ، وعتا .

وليعلم العباد ، كمال قدرة الله ، التي لاتزال مستمرة ، يخاق بها الأشياء ،
ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ، ولا ضعف ، ولا نقص ، بوجه من
الوجوه .

﴿١٥٥﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ
سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿١٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَوتُوا الْعِلْمَ
وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْآخِرَةِ فَمَا يَتَّبِعْتُمْ

* يخبر تعالى عن يوم القيامة ، وسرعة مجيئه ، وأنه إذا قامت الساعة .

[يقسم المجرمون] بالله أنهم [ما لبثوا] في الدنيا [إلا ساعة] .

وذلك اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر ، واستقصار لمدة الدنيا .

ولما كان قولهم كذبا لا حقيقة له ، قال تعالى : [كذلك كانوا

يؤفكون] .

أى : ما زالوا - وهم في الدنيا - يؤفكون عن الحقائق ، ويأتفكون

الكذب .

ففي الدنيا ، كذبوا الحق الذي جاء به المرسلون .

وفي الآخرة ، أنكروا الأمر المحسوس ، وهو اللبث الطويل في

الدنيا .

فهذا خلقهم التبيح ، والعبد ، يبعث على ما مات عليه .

[وقال الذين أوتوا العلم والإيمان] أى : من الله عليهم بهما ، وصار

وصفا لهم ، العلم بالحق ، والإيمان المستلزم ، إثبات الحق .

وإذا كانوا عالمين بالحق ، مؤثرين له ، لزم أن يكون قولهم مطابقا

للواقع ، مناسبا لأحوالهم .

فهذا قالوا الحق : [لقد لبثتم في كتاب الله] أى : في قضائه وقدره ،

وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مَعذِرَتَهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

الذى كتبه الله عليكم ، وفي حكمه [إلى يوم البعث] أى : عُمرًا ، يتذكر
فيه المتذكر ، ويتدبر فيه المتدبر ، ويعتبر فيه المعبر ، حتى صار البعث ،
ووصلتم إلى هذه الحال .

[فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون] فإذلك أنكرتموه
فى الدنيا ، وأنكرتم إقامتكم فى الدنيا وقتنا ، تتمكنون فيه من الإنابة
والتوبة .

فلم يزل الجهل شعاركم ، وآثاره من التكذيب ، والخسار دثاركم .

[فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم] فإن كذبوا ، وزعموا أنهم ،
ما قامت عليهم الحجة ، أو ما تمكنوا من الإيمان ، ظهر كذبهم ، بشهادة
أهل العلم والإيمان ، وشهادة جلودهم ، وأيديهم ، وأرجلهم .

وإن طلبوا الإعذار وأن يردون فلا يعودون ، لما نهوا عنه ، لم
يُمكنوا ، فإنه فات وقت الإعذار ، فلا تقبل معذرتهم .

[ولا هم يستعقبون ^(١)] أى لا : يزال عقبهم ، والعقاب عنهم .

(١) يستعقبون . أى : لا يطلب منهم إرضاءه تعالى والرجوع إلى

ما يرضيه من العوبة والطاعة ، كما دعوا إليه فى الدنيا .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ
وَلَنْ جِتَّهُمْ بَيِّنَةٌ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَتَمُّ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾

أى : [ولقد ضربنا] لأجل عنايتنا ، ورحمتنا ، ولطفنا ، وحسن
تعليمنا .

[للناس في هذا القرآن من كل مثل] تتضح به الحقائق ، وتعرف به
الأمور ، وتنقطع به الحجة .

وهذا عام في الأمثال ، التي يضربها الله ، في تقريب الأمور المعقولة
بالحسوسة .

وفي الإخبار ، بما سيكون ، وجلاء حقيقته ، حتى كأنه وقع .

ومنه في هذا الموضع ، ذكر الله تعالى ، ما يكون يوم القيامة وحالة
الجرمين فيه ، وشدة أسفهم ، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب .
ولكن أبى الظالمون الكافرون ، إلا معاندة الحق الواضح ،
ولهذا ، قال :

[ولئن جتتهم بآية] أى : أى آية ، تدل على صحة ما جئت به [ليقولن
الذين كفروا إن أتم إلا مبطلون] أى : قالوا للحق : إنه باطل .
وهذا من كفرهم وجراءتهم ، وطبع الله على قلوبهم ، وجهلهم المفرط ،
ولهذا قال :

[كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون] فلا يدخلها خير ،
ولا تدرك الأشياء على حقيقتها ، بل ترى الحق باطلا ، والباطل حقاً .

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴿٥٩﴾

* [فاصبر] على ما أمرت به ، وعلى دعوتهم إلى الله .

ولو رأيت منهم إعراضا ، فلا يصدك ذلك .

[إن وعد الله حق] أى : لاشك فيه ، وهذا مما يعين على الصبر ، فإن العبد إذا علم أن علمه غير ضائع ، بل سيجده كاملا ، هان عليه ما يلقاه من المكاره ، وتيسر عليه كل عسير ، واستقل من عمله كل كثير .

[ولا يستخفك الذين لا يوقنون] أى : قد ضعف إيمانهم ، وقل يقينهم ، فحفت لذلك أحلامهم ، وقل صبرهم .

فإياك أن يستخفك هؤلاء ، فإنك إن تجملهم منك على بال ، وتحذر منهم ، وإلا ، استخفوك ، وحلوك على عدم الثبات ، على الأوامر والنواهي .

والذنس تساعدهم على هذا ، وتطلب التشبه والموافقة .

وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن ، رزين العقل ، يسهل عليه الصبر .

وكل ضعيف اليقين ، ضعيف العقل خفيفه .

فالأول ، بمنزلة اللب ، والآخر بمنزلة القشور . فالله المستعان .

تم تفسير سورة الروم — والله الحمد والمنة .

تفسير

سُورَةُ لقمانَ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿الم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾

يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى [آيات الكتاب الحكيم]
أى : إن آياته محكمة ، صدرت من حكيم خبير .
ومن إحكامها ، أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها ، وأبينها ،
الدالة على أجل المعاني وأحسنها .
ومن إحكامها ، أنها محفوظة من التغيير والتبديل ، والزيادة
والنقص ، والتحريف .
ومن إحكامها : أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة ،
والأمور الغيبية كلها ، مطابقة للواقع ، مطابق لها الواقع ، لم يخالفها كتاب
من الكتب الإلهية ، ولم يخبر بخلافها ، نبي من الأنبياء ، ولم يأت ، ولن
يأت علم محسوس ولا معقول صحيح ، يناقض ما دلت عليه .
ومن إحكامها : أنها ما أمرت بشيء ، إلا هو خالص المصلحة ،
أوراجحها .

هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ

ولانتهت عن شيء ، إلا وهو خالص المفسدة ، أو راجعها .
وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء ، مع ذكر حكمته وفائدته ، والنهي
عن الشيء ، مع ذكر مضرته .
ومن إحكامها : أنها جمعت بين الترغيب والترهيب ، والوعظ
البلغ ، الذي تعادل به النفوس الخيرة ، وتحتكم ، ففعل بالحزم .
ومن إحكامها : أنك تجد آياتها المتكررة ، كالقصص ، والأحكام
ومحوها ، قد اتفقت كلها وتواطأت ، فليس فيها تناقض ، ولا اختلاف .
فكلما ازداد بها البصير تدبراً ، وأعمل فيها العقل تفكيراً ، انبه
عقله ، وذهل لبه من التوافق والتواطؤ ، وجزم جزماً ، لا يمتري فيه ، أنه
تنزيل من حكيم حميد .
ولكن — مع أنه حكيم — يدعو إلى كل خلق كريم ، وينهى عن
كل خلق لئيم .
أكثر الناس محرومون من الاهتداء به ، معرضون عن الإيمان
والعمل به ، إلا من وفقه الله تعالى ، وعصمه ، وهم المحسنون في عبادة ربهم
والمحسنون إلى الخلق .
فإنه [هدى] لهم ، يهديهم إلى الصراط المستقيم ، ويحذرهم من طرق
الجحيم .
[ورحمة] لهم ، تحصل لهم به ، السعادة في الدنيا والآخرة ، والخير
الكثير ، والثواب الجزيل ، والفرح ، ويندفع عنهم الضلال والشقاء .

الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أَوْلَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ
وَأَوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

ثم وصف المحسنين ، بالعلم التام ، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف
من عقاب الله ، فيتركون معاصيه .
ووصفهم بالعمل ، وخص من العمل ، عملين فاضلين .

[يقيمون الصلاة] المشتملة على الإخلاص ، ومناجاة الله تعالى ،
والتعبد العام للقلب واللسان ، والجوارح المعينة ، على سائر الأعمال .

[ويؤتون الزكاة] التي تزكى صاحبها ؛ من الصفات الرذيلة ، وتنفع
أخاه المسلم ، وتسد حاجته ، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبته
للمال ، فيخرج محبوبه من المال ، لما هو أحب إليه ، وهو طلب
مرضاة الله .

[أولئك] المحسنون ، الجامعون بين العلم التام ، والعمل [على هدى]
أى : عظيم ، كما يفيدُه التفسير .

وذلك الهدى حاصل لهم ، وواصل إليهم [من ربهم] الذي لم يزل
يربهم بالنعم ؛ ويدفع عنهم النقم .

وهذا الهدى الذي أوصله إليهم ، من تربيته الخاصة بأوليائه ، وهو
أفضل أنواع التربية .

[وأولئك هم المفلحون] الذين أدركوا رضا ربهم ، وثوابه الدنيوي
والآخروي ، وسلخوا من سخطه وعقابه .

وذلك لسلكهم طريق الفلاح ، الذي لا طريق له غيرها .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن ، المقبلين عليه ، ذكر من أعرض عنه ، ولم يرفع به رأساً ، وأنه عوقب على ذلك ، بأن تعوض عنه كل باطل من القول ، فترك أعلى الأقوال ، وأحسن الحديث ، واستبدل به أسفل قول وأقبحه ، فلذلك قال :

[ومن الناس] إلى [وهو العزيز الحكيم] .

* أى : [ومن الناس من] هو محروم مخذول [يشتري] .

أى : يختار ويرغب ورغبة من يبذل الثمن فى الشيء .

[لهُو الحديث] أى : الأحاديث الملهية للقلوب ، الصادّة لها عن أجلّ

مطلوب .

فدخل فى هذا ، كل كلام محرم ، وكل لغو ، وباطل ، وهذيان من الأقوال المرغبة فى الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، ومن أقوال الرادين على الحق ، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق ، ومن غيبة ، ونميمة ، وكذب ، وشتم ، وسب ، ومن غناء ومزامير شيطان ، ومن الماجريات الملهية ، التى لانفع فيها ، فى دين ولا دنيا .

فهذا الصنف من الناس ، يشتري لهو الحديث ، عن هدى الحديث [ليضل] الناس [عن سبيل الله بغير علم] أى : بعد ماضل هو فى فعله ، أضل غيره ، لأن الإضلال ، ناشئ عن الضلال .

وإضلاله فى هذا الحديث ؛ صده عن الحديث النافع ، والعمل النافع ، والحق المبين ، والصراط المستقيم .

مُهَيِّنٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تَمَّتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَوَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا
كَأَنَّ فِي أذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

ولا يتم له هذا ، حتى يقدح في الهدى والحق ، الذى جاءت به
آيات الله .

[ويتخذها هزوا] يسخر بها ، وبمن جاء بها .

فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه ، والقدح في الحق ،
والاستهزاء به وبأهله ، أضل من لاعلم عنده وخدعه بما يوحى إليه ، من
القول الذى لا يميزه ذلك الضال ، ولا يعرف حقيقته .

[أولئك لهم عذاب مهين] بما ضلوا ، واستهزأوا بآيات الله ،
وكذبوا الحق الواضح ، ولهذا قال [وإذا تتلى عليه آياتنا] ليؤمن بها
وينقاد لها .

[ولى مستكبراً] أى : أدبر إدبار مستكبر عنها ، راد لها ، ولم تدخل قلبه
ولا أثرت فيه ، بل أدبر عنها [كأن لم يسمعها] بل [كأن فى أذنيه وقراً]
أى : صمما لا تصل إليها الأصوات ؛ فهذا لاحيلة فى هدايته .

[فبشره] بشارة تؤثر فى قلبه الحزن والغم ؛ وفى بشرته السوء ؛
والظلمة ؛ والغبرة .

[بعذاب أليم] مؤلم لقلبه ؛ ولبدنه ؛ لا يقادر قدره ؛ ولا يدرى
بمظيم أمره .

فهذه بشارة أهل الشر ، فلا نعمت البشارة .

وأما بشارة أهل الخير فقال : [إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات]

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾
﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ

جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان ، والظاهر بالإسلام ، والعمل الصالح .
[لهم جنات النعيم] بشارة لهم بما قدموه ، وقرى لهم بما أسلفوه .
[خالدين فيها] أى ، فى جنات النعيم ، نعيم الروح ، والبدن .
[وعد الله حقا] لا يمكن أن يخلف ، ولا يغير ، ولا يتبدل .
[وهو العزيز الحكيم] كامل العزة ، كامل الحكمة .
من عزته وحكمته ، أن وفق من وفق ، وخذل من خذل ، بحسب
ما اقتضاه علمه فيهم ، وحكمته .
* يتلو تعالى على عباده ، آثاراً من آثار قدرته ، وبدائع من بدائع
حكيمته ، ونعما من آثار رحمته ، فقال :
[خلق السموات] السبع ، على عظمها ، وسعتها ، وكثافتها ،
وارتفاعها الهائل .
[بغير عمد ترونها] أى : ليس لها عمد ، ولو كان لها عمد لرؤيت
وإنما استقرت واستمسكت ، بقدرة الله تعالى .
[وألقى فى الأرض رواسى] أى : جبالا عظيمة ، ركزها فى أرجائها
وأنحائها ، لئلا [تميد بكم] فلولا الجبال الراسيات ، لمادت الأرض ، ولما
استقرت بساكنها .

رَوَّسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقَ اللَّهِ
فَارُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ
مُتَّبِعِينَ ﴿١١﴾

[وبث فيها من كل دابة] أى : نشر في الأرض الواسعة ، من جميع
أصناف الدواب ، التى هى مسخرة لبنى آدم ، ولمصلحتهم ، ومنافعهم .
ولما بثها فى الأرض ، علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به ،
فأنزل من السماء ماء مباركا .

[فأنبتنا فيها من كل زوج كريم] المنظر ، نافع مبارك ، فرتعت فيه
الدواب المنبثة ، وسكن إليه كل حيوان .

[هذا] أى : خلق العالم العلوى والسفلى ، من جماد ، وحيوان ،
وسوقٍ أرزاق الخلق إليهم [خلق الله] وحده لاشريك له ، كل مقر بذلك
حتى أنتم يا معشر المشركين .

[فأرونى ماذا خلق الذين من دونه] أى : الذين جعلتموهم له شركاء ،
تدعونهم وتعبدونهم ، يلزم على هذا ، أن يكون لهم خلق كخلقه ،
ورزق كرزقه .

فإن كان لهم شيء من ذلك ، فأرونيه ، ليصح ما ادعيتهم فيهم من
استحقاق العبادة .

ومن المعلوم أنهم لا يقدرّون أن يروه شيئا من الخلق لها ، لأن جميع
المذكورات ، قد أقروا أنها خلق الله وحده ، ولا ثم شيء يعلم غيرها .

﴿١٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن
يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به ، أن تعبد .

ولكن عبادتهم إياها ، عن غير علم وبصيرة ، بل عن جهل وضلال ،
ولهذا قال : [بل الظالمون في ضلال مبين] .

أى : جليّ واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعا ولا ضرا ولا موتا
ولا حياة ولا نشورا ، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق للمالك لكل الأمور .

* يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل ، لقمان ، بالحكمة ، وهى العلم
بالحق ، على وجهه وحكمته ، فهى العلم بالأحكام ، ومعرفة ما فيها ، من
الأسرار والإحكام .

فقد يكون الإنسان عالما ، ولا يكون حكيما .

وأما الحكمة ، فهى مستلزمة للعلم ، بل والعمل ، ولهذا فسرت الحكمة
بالعلم النافع ، والعمل الصالح .

ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة ، أمره أن يشكره على ما أعطاه ،
ليبارك له فيه ، وليزيده من فضله ، وأخبره أن شكر الشاكرين ، يعود
نفعه عليهم ، وأن من كفر فلم يشكر الله ، عاد وبال ذلك عليه .

[والله غنى عنه حميد] فيما يقدره ويقضيه ، على من خالف أمره .

فغناه تعالى ، من لوازم ذاته ، وكونه حميدا فى صفات كماله ؛ حميدا فى
جميل صنعه ، من لوازم ذاته ، وكل واحد من الوصفين ، صفة كمال ،
واجتماع أحدهما إلى الآخر ، زيادة كمال إلى كمال .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَدُنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ

واخلف المفسرون ، هل كان لقمان نبياً ، أو عبداً صالحاً ؟

والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة ، وذكر بعض ما يدل على حكمته ، في وعظه لابنه .

فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار فقال : [وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه] .

وقال له قولاً يعظه به ، والوعظ : الأمر ، والنهي ، المقرون بالترغيب والترهيب .

فأمره بالإخلاص ، ونهاه عن الشرك ، وبين له السبب في ذلك فقال :

[إن الشرك لظلم عظيم] ووجه كونه ظلماً عظيماً ، أنه لا أظلم ولا أشع من سوّى الخلق من تراب ، بمالك الرقاب .
وسوّى الذى لا يملك من الأمر شيئاً ، بمالك الأمر كله .

وسوّى الناقص الفقير من جميع الوجوه ، بالرب الكامل الغنى من جميع الوجوه .

وسوّى من لا يسقطيع أن ينعم بمشقة ذرة من النعم ، بالذى ما بالخلق من نعمة في دينهم ، ودنياهم وأخراهم ، وقلوبهم ، وأبدانهم ، إلا منه ، ولا يصرف السوء إلا هو .

فهل أعظم من هذا الظلم شيء ؟؟؟ !

لَظْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ

وهل أعظم ظلما ، ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده ، فذهب بنفسه الشريفة ، فجعلها في أخس المراتب ؟ !

جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئا ، فظلم نفسه ظلما كبيرا .

ولما أمر بالقيام بحقه ، بترك الشرك الذى من لوازمه القيام بالتوحيد ، أمر بالقيام بحق الوالدين فقال :

[ووصينا الإنسان] أى : عهدنا إليه ، وجعلناه وصية عنده ، سنسأله عن القيام بها ، وهل حفظها أم لا ؟

فوصيناه [بوالديه] وقلنا له : [اشكر لى] بالقيام بعبوديتى ، وأداء حقوقى ، وأن لا تستعين بنعمى على معصيتى .

[ولوالديك] بالإحسان إليهما بالقول اللين ، والكلام اللطيف ، والفعل الجميل ، والتواضع لهما ، وإكرامهما ، وإجلالهما ، والقيام بمثنوتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه ، بالقول والفعل .

فوصيناه بهذه الوصية ، وأخبرناه أن [إلى المصير] أى : سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك ، وكلفك بهذه الحقوق ، فيسألك :

هل قتت بها ، فيثيبك الثواب الجزيل ؟ أم ضيعتها ، فيعاقبك العقاب الويبيل ؟ .

وذكر السبب الموجب لبر الوالدين فى الأم فقال : [حملته ، أمه وهنا على وهن] أى : مشقة على مشقة ، فلا تزال تلاقى المشاق ، من حين يكون نطفة ، من الوحى ، والمرض ، والضعف ، والثقل ، وتغير الحال ، ثم وجم الولادة ، ذلك الوجع الشديد .

وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾
وَإِنْ جَاهِدَكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا
وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ

[وفضاله في عامين] وهو ملازم لحضنة أمه وكفالتها ،
ورضاعها .

أفأ يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد ، مع شدة الحب ، أن
يؤكد على ولده ، ويوصى إليه بتمام الإحسان إليه ؟

[وإن جاهدك] أى : اجتهد والدك [على أن تشرك بي ، ما ليس
لك به علم ، فلا تطعهما] ولا تنظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما ، لأن
حق الله ، مقدم على حق كل أحد ، و « لا طاعة للمخلوق ، في معصية
الخالق » .

ولم يقل « وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم
فطعهما » .

بل قال : [فلا تطعهما] أى : فى الشرك ، وأما برهما ، فاستمر عليه .
ولهذا قال : [وصاحبهما فى الدنيا معروفاً] أى : صحبة إحسان
إليهما بالمعروف .

وأما اتباعهما ، وهما بحالة الكفر والمعاصى ، فلا تتبعهما .
[واتبع سبيل من أناب إلىَّ] وهم المؤمنون بالله ، وملائكته ،
وكتبه ، ورسله ، المستسلمون لربهم ، النبيون إليه .

واتباع سبيلهم ، أن يسلك مسلكهم فى الإنابة إلى الله ، التى هى

مَرْجِعُكُمْ فَأَنْبِئْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَدْنِي إِنَّهَا
ن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ
أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَدْنِي

انجذاب دواعى القلب وإراداته، إلى الله، ثم يتبعها سعى البدن، فيما يرضى
الله، ويقرب منه .

[ثم إلى مرجعكم] الطائع والعاصى ، والنيب ، وغيره [فأنبئكم
بما كنتم تعملون] ، فأجازيك على إيمانك ، وأجازيهما على كفرهما ، ثم
أجازى كلا منكم بما صدر عنه من الخير والشر .
فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية .

[يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل] التى هى أصغر الأشياء
وأحقرها .

[فتكن فى صخرة] أى فى وسطها [أو فى السموات أو فى
الأرض] .

فى أى : جهة من جهاتهما [يأت بها الله] سعة علمه ، وتمام خبرته
وكمال قدرته .

ولهذا قال : [إن الله لطيف خبير] أى : لطف فى علمه وخبرته ، حتى
اطلع على البواطن والأسرار ، وخفايا القفار والبحار .

وانتمصود من هذا ، الحث على مراقبة الله ، والعمل بطاعته ، مهما
أمكن ، والترهيب من عمل القبيح ، قلّ أو أكثر .

أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ
مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ
وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

[يا بني أقم الصلاة] حثه عليها ، وخصها لأنها أكبر العبادات
البدنية .

[وأمر بالمعروف وانه عن المنكر] وذلك يستلزم العلم بالمعروف ،
وذلك يستلزم العلم بالمعروف ، ليأمر به ، والعلم بالمنكر ، لينهى عنه .

والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر إلا به ، من
الرفق ، والصبر ، وقد صرح به في قوله [واصبر على ما أصابك] ومن كونه
فاعلاً لما يأمر به ، كافئاً لما ينهى عنه .

فتضمن هذا ، تكميل نفسه ، بفعل الخير وترك الشر ، وتكميل غيره بذلك ،
بأمره ونهييه .

ولما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى وأن في الأمر والنهي مشقة
على النفوس ، أمره بالصبر على ذلك فقال : [واصبر على ما أصابك إن ذلك]
الذي وعظ به لقمان ابنه [من عزم الأمور] أي : من الأمور ، التي يعزم
عليها ، ويهتم بها ، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم .

[ولا تصعر خدك للناس] أي : لا تملهُ وتعبس بوجهك للناس ،
تكبراً عليهم ، وتماظماً .

[ولا تمس في الأرض مرحاً] أي : بطراً ، نخراً بالنعم ، ناسياً المنعم ،
معجباً بنفسك .

[إن الله لا يحب كل مختالٍ] في نفسه وهيبته وتماظمه [فخور] بقوله .

وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ
لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

[واقصد في مشيك] أى : امش متواضعاً مستكيناً ، لا مَشَى البطر
والتكبر ، ولا مشى التماوت .

[واغضض من صوتك] أدبا مع الناس ومع الله .

[إن أنكر الأصوات] أى أفظمها وأبشمها [لصوت الحمير] .

فلو كان فى رفع الصوت البليغ فائدة ومصالحة ، لما اختص بذلك ، الحمار
الذى قد علمت خسته وبلادته .

وهذه الوصايا ، التى وصى بها لقمان ابنه ، تجمع أمهات الحكم ، وتستلزم
ما لم يذكر منها .

وكل وصية يقرب بها ، ما يدعو إلى فعلها ، إن كانت أمراً ، وإلى تركها ،
إن كانت نهياً .

وهذا يدل على ما ذكرنا فى تفسير الحكمة ، أنها العلم بالأحكام ، وحكمها
ومناسباتها .

فأمره بأصل الدين ، وهو التوحيد ، ونهاه عن الشرك ، وبين له
الموجب لتركه .

وأمره ببر الوالدين ، وبين له السبب الموجب لبرها ، وأمره بشكره
وشكرها .

ثم احتدز بأن محل برها وامتنال أو أمرها ، ما لم يأمر بمعصية ، ومع
ذلك ، فلا يعقهما ، بل يحسن إليهما ، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه
على الشرك .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

وأمره بمراقبة الله ، وخوفه القدوم عليه .

وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر ، إلا أتى بها .
ونهاه عن التكبر ، وأمره بالتواضع ، ونهاه عن البطر والأشر ،
والرح ،

وأمره بالسكون في الحركات والأصوات ، ونهاه عن ضد ذلك .
وأمره بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإقامة الصلاة ، وبالصبر
الذين يسهل بهما كل أمر ، كما قال تعالى « واستمعينوا بالصبر والصلاة » .
محقق بمن أوصى بهذه الوصايا ، أن يكون مخصوصاً بالحكمة ،
مشهوراً بها .

ولهذا من منة الله على عباده ، أن قص عليهم من حكمته ، ما يكون
لهم به أسوة حسنة .

* يمتن تعالى على عباده بنعمه ، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها ؛ وعدم
الغفلة عنها فقال :

[أَلَمْ تَرَوْا] أى : تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم ؛ وقلوبكم .

[أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ] من الشمس والقمر

والنجوم ، كلها مسخرات لنفع العباد .

[وَمَا فِي الْأَرْضِ] من الحيوانات والأشجار والزرع ، والأنهار

يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ

والمعادن ونحوها كما قال تعالى « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » .

[وأسبغ عليكم] أى عممكم وغرركم بوافر [نعمه ظاهرة وباطنة] التى نعلم بها ؛ التى تخفى علينا ، نعم الدنيا ، ونعم الدين ، حصول المنافع ، ودفع المضار .

فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم ؛ بحمجة المنعم والخضوع له ؛ وصرفها فى الاستعانة على طاعته ، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته .

[و] لكن مع توالى هذه النعم ؛ فإن [من الناس من] لم يشكرها ؛ بل كفرها ؛ وكفر بمن أنعم بها ؛ ووجد الحق الذى أنزل به كتبه ؛ وأرسل به رسله .

فجعل [يجادل فى الله] أى : يجادل عن الباطل ؛ ليدحض به الحق ؛ ويدفع به ما جاء به الرسول ؛ من الأمر بعبادة الله وحده .

وهذا المجادل يجادل [بغير علم] وعلى غير بصيرة .

فليس جداله عن علم ، فيترك شأنه ، ويسمح له فى الكلام [ولاهدى] يقتدى به بالمهتدين [ولا كتاب منير] أى نيرٌ مُبَيِّنٌ للحق ، فلا معقول ، ولا منقول ، ولا اقتداء بالمهتدين .

وإنما جداله فى الله ، مبنى على تقليد آباء غير مهتدين ، بل ضالين مضلين .

لَهُمْ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ تَدَّبِعُوا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾
﴿٢١﴾ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ

ولهذا قال : [وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله] على أيدي رسله ،
فإنه الحق ، وبينت لهم أدلته الظاهرة [قالوا] معارضين ذلك :
[بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا] فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول
أحد ، كائنا من كان .

قال تعالى في الرد عليهم وعلى آباءهم : [أو لو كان الشيطان يدعوهم
إلى عذاب السعير] .

فاستجاب له آباؤهم ، ومشوا خلفه ، وصاروا من تلاميذ الشيطان ،
واستولت عليهم الحيرة .

فهل هذا ، موجب لاتباعهم ومشيمهم على طريقتهم ، أم ذلك يرهيبهم
من سلوك سبيلهم ، وينادي على ضلالهم ، وضلال من تبعهم .

وليس دعوة الشيطان لآبائهم ولم ، محبة لهم ومودة ، وإنما ذلك ،
عداوة لهم ومكر لهم ، وبالْحَقِيقَةِ أتباعه من أعدائه ، الذين تمسك منهم ،
وظفر بهم ، وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير ، بقبول دعوته .

* [ومن يسلم وجهه إلى الله] أي : يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع
مخلصاً له دينه .

[وهو محسن] في ذلك الإسلام بأن كان علمه مشروعاً ، قد اتبع
فيه الرسول .

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ
فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ

أو من يسلم وجهه إلى الله ، بفعل جميع العبادات ، وهو محسن فيها ،
بأن يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فإنه يراه .

أو ومن يسلم وجهه إلى الله ، بالقيام بحقوقه ، وهو محسن إلى عباد الله ،
قائم بحقوقهم .

والمعاني متلازمة ، لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظين .

وإلا فكلها منفعة على القيام بجميع شرائع الدين ، على وجه تقبل
به وتكامل .

فمن فعل ذلك ، [فقد استمسك بالعروة الوثقى] أى : بالعروة التى من
تمسك بها ، توثق ونجا ، وسلم من الهلاك ، وفاز بكل خير .

ومن لم يسلم وجهه لله ، أو لم يحسن لم يستمسك بالعروة الوثقى ، وإذا
لم يستمسك لم يكن ثمَّ إلا الهلاك والبوار .

[وإلى الله عاقبة الأمور] أى : رجوعها ، وموتلها ، ومنتهاها .

فيحكم فى عباده ، ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم ، ووصلت إليه
عواقبهم ، فليستمدوا لذلك الامر .

[ومن كفر فلا يحزنك كفره] لأنك أدبت ما عليك ، من الدعوة
والبلاغ .

فإذا لم يهتد ، فقد وجب أجرك على الله ، ولم يبق للحزن موضع على عدم
اهتدائه ، لأنه لو كان فيه خير ، لهداه الله .

عَلَيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نَمَتَّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ

غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

وَلَنِ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي

ولا تحزن أيضا ، على كونهم تجرأوا عليك بالعداوة ، وناذوك
المحاربة ، واستمروا على غيهم وكفرهم ، ولا تتحرق عليهم ، بسبب أنهم
ما بودروا^(١) بالعذاب .

[إن إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا] من كفرهم وعداوتهم ، وسعيهم
في إطفاء نور الله ، وأذى رسله .

[إن الله عليم بذات الصدور] التي ما نطق بها الناطقون ، فكيف
بما ظهر ، وكان شهادة؟! !!

[نمتهم قليلا] في الدنيا ، ليزداد إثمهم ، ويتوفر عذابهم .
[ثم نضطّرهم] أي نلجئهم [إلى عذاب غليظ] أي انتهى في عظمه ،
وكبره ، وفضاعته ، وألمه ، وشدته .

* [ولن سألهم] أي : سألت هؤلاء المشركين المكذابين بالحق .
[من خلق السموات والأرض] لعلوا أن أصنامهم ، ما خلقت شيئا
من ذلك [ليقولن الله] الذي خلقها وحده .

[قل] لهم ، ملزما لهم ، ومحتجا عليهم بما أقروا به ، على ما أنكروا :
[الحمد لله] الذي بين النور ، وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم .

(١) ما بودروا . أي : لم يجعل الله عليهم العذاب .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا
فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ

فلو كانوا يعلمون ، لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير ، هو الذى يفرد
بالعبادة والتوحيد .

[بل أكثرهم لا يعلمون] فلذلك أشركوا به غيره ، ورضوا بتناقض
ما ذهبوا إليه ، على وجه الحيرة والشك ، لا على وجه البصيرة .
ثم ذكر هاتين الآيتين ، نموذجا من سعة أوصاف الله سبحانه ، ليدعو
عباده إلى معرفته ، ومحبته ، وإخلاص الدين له .

فذكر عموم ملكه ، وأن جميع ما فى السموات والأرض - وهذا شامل
لجميع العالم العلوى والسفلى - أنه ملكه ، يتصرف فيهم بأحكام الملك القدرية ،
وأحكامه الأمرية ، وأحكامه الجزائية .

فكلهم عبيد ممالك ، مدبرون مسخرون ، ليس لهم من الملك شيء .
وأنه واسع الغنى ، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق .
« ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » .
وأن أعمال النبيين والصدّيقين ، والشهداء والصالحين ، لا تنفع الله
شيئا وإنما تنفع عامليها ، والله غنى عنهم ، وعن أعمالهم .
ومن غناه ، أن أغناهم وأقناهم^(١) فى دنياهم وأخراهم .

(١) أقناهم . أى : أعطاه ما يقتضى من القنية والنسب . واقتناه أيضا ،
رضاه . ا ه . من المختار من الصحاح ، ومثله فى المصباح .

وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفِيسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٨﴾

ثم أخبر تعالى عن سمة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميدا من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته .
فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكل حمد وأتمة، لكونها صفات عظيمة وكال .

وجميع ما فعله وخلقه، يحمد عليه، وجميع ما أمر به، ونهى عنه، يحمد عليه .

وجميع ما حكم به في العباد، وبين العباد، في هذه الحياة الدنيا، وفي الآخرة، يحمد عليه .

ثم أخبر عن سمة كلامه عز وجل، وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبهر له العقول، وتتجبر فيه الأفئدة، وتسيح في معرفته أولو الأبواب والبصائر، فقال :

[ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام] يكتب بها [والبحر يمده من بعده سبعة أبحر] مدادا يستمد بها، لتكسرت تلك الأقلام ولفنى ذلك المداد، و [ما نفدت كلمات الله] .

وهذا ليس بمبالغة، لا حقيقة له .

بل لما علم تبارك وتعالى، أن العقول تقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى، أن معرفته لعباده، أفضل نعمة، أنعم بها عليهم، وأجل منقبة^(١) حصلوها، وهي لا تمكن على وجبها، ولكن ما لا يدرك كله، لا يترك كله .

(١) منقبة . أى : الشرف والمفخرة . وفي المختار من الصحاح «المنقبة»

بون المتربة : ضد المثلبة (أى العيب) .

فنبههم تعالى على بعضها تنبيها تستنير به قلوبهم ، وتنشرح له صدورهم ، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه ، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه : « لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

[وإلا ، فالأمر أجل من ذلك ، وأعظم .

وهذا التمثيل ، من باب تقريب المعنى ، الذى لا يطاق الوصول به إلى الأفهام والأذهان .

وإلا ، فالأشجار ، وإن تضاعفت على ما ذكر ، أضعافا كثيرة ، والبحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة ، فإنه يتصور نفاذها واتقضاؤها ، نكونها مخلوقة .

وأما كلام الله تعالى ، فلا يتصور نفاذه ، بل دلنا الدليل الشرعى والعقل ، على أنه لا نفاذ له ولا منتهى ، فكل شيء ينتهى إلا البارى وصفاته « وإن إلى ربك المنتهى » .

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وآخريته ، وأن كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة ، مهما تسلسل الفرض والتقدير ، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية .

وأنه مهما فرض الذهن والعقل ، من الأزمان المتأخرة ، وتسلسل الفرض والتقدير ، وساعد على ذلك من ساعد ، بقلبه ولسانه ، فأنه تعالى ، بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية .

والله فى جميع الأوقات ، يحكم ، ويتكلم ، ويقول ، ويفعل كيف أراد ، وإذا أراد ، لا مانع له من شيء ، من أقواله وأفعاله .

فإذا تصور العقل ذلك ، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه ،
ليدرك العباد شيئا منه ، وإلا ، فالأمر أعظم وأجل .

ثم ذكر جلالته عزته وكمال حكمته فقال :

[إن الله عزيز حكيم] أى : له العزة جميعا ، الذى ما فى العالم العلوى
والسفلى من القوة ، إلا هى منه ، هو الذى أعطاها للخلق ، فلا حول
ولا قوة إلا به .

وبعزته قهر الخلق كلهم ، وتصرف فيهم ، ودبرهم .

وبحكمته خلق الخلق ، وابتدأ بالحكمة ، وجعل غايته ، والقصود
منه ، الحكمة .

وكذلك الأمر والنهى ، وجد بالحكمة ، وكانت غايته المقصودة ،
الحكمة ، فهو الحكيم فى خلقه وأمره .

ثم ذكر عظمة قدرته وكألا وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل فقال :

[ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة] وهذا شئ يحير العقول .

إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم ، بعد تفرقهم
فى لحظة واحدة - كخلقهم نفسا واحدة .

فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور ، والجزاء على الأعمال ، إلا الجهل
بعمضة الله وقوة قدرته .

ثم ذكر عموم سمعه لجميع السموعات ، وبصره لجميع البصرات فقال :
[إن الله سميع بصير] .

﴿قَدْ عَلِمَ أَنْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ

* وهذا فيه أيضا ، انفراده بالتصرف والتدبير ، وسعة تصرفه بإيلاج الليل
في النهار ، وإيلاج النهار في الليل ، أى : إدخال أحدهما على الآخر ، فإذا
دخل أحدهما ، ذهب الآخر .

وتسخيره للشمس والقمر ، يجريان بتدبير ونظام ، لم يختل منذ خلقهما ،
ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم ، في دينهم ودنياهم ، ما به يعتقدون
وينتفعون .

و [كل] منها [يجرى إلى أجل مسمى] إذا جاء ذلك الأجل ، انقطع
جريانها ، وتعطل سلطانها ، وذلك في يوم القيامة ، حين تكور الشمس ،
ويحسف القمر ، وتنتهى دار الدنيا ، وتبتدىء الدار الآخرة .

[وأن الله بما تعملون] من خير وشر [خبير] لا يخفى عليه شيء من
ذلك ، وسيجازيكم على تلك الأعمال ، بالثواب للمطيعين ، والمعقاب
للمعاصين .

[ذلك] الذى بين لكم من عظمته وصفاته ، ما بين [بأن الله هو الحق]
في ذاته وفي صفاته ، ودينه حق ، ورسله حق ، ووعدته حق ، ووعدته حق ،
وعبادته هي الحق .

أَلْحَقْ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ أَلْبَطُلٌ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ
لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

[وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ .

فَلَوْلَا إِيجَادُ اللَّهِ لَهُ ، لَمَا وَجَدَ ، وَلَوْلَا إِعْدَادُهُ ، لَمَا بَقِيَ .

فَإِذَا كَانَ بَاطِلًا ، كَانَتْ عِبَادَتُهُ أَبْطُلًا وَأَبْطُلًا .

[وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ] بِذَاتِهِ ، فَوْقَ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ ، الَّذِي عُلْتُ صِفَاتِهِ ،

عَنْ أَنْ يُقَاسَ بِهَا صِفَاتٌ ، وَعَلَى الْخَلْقِ فَتَهْرَمُ [الْكَبِيرُ] الَّذِي لَهُ

الْكِبْرِيَاءُ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي قُلُوبِ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

* أَى : أَلَمْ تَرَ مِنْ آثَارِ قُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ ، أَنْ سَخَّرَ الْبَحْرَ ،

تَجْرِي فِيهِ الْفُلُكَ ، بِأَمْرِهِ الْقُدْرَى ، وَلَطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ .

[لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ] فَفِيهَا الْإِنْتِفَاعُ وَالْإِعْتِبَارُ .

[إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ] . الْمُتَنَفِعُونَ بِالْآيَاتِ ، كُلِّ

صَبَّارٍ عَلَى الضَّرَاءِ ، شَكُورٍ عَلَى السَّرَاءِ ، صَبَّارٍ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعَنْ مَعْصِيَتِهِ ،

وَعَلَى أَقْدَارِهِ ، شَكُورٍ لِلَّهِ ، عَلَى نِعْمَةِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ .

وَذَكَرَ تَعَالَى حَالَ النَّاسِ ، عِنْدَ رُكُوبِهِمُ الْبَحْرَ ، وَغَشْيَانِ الْأَمْوَاجِ

كَالظَّلِّ فَوْقَهُمْ ، أَنَّهُمْ يَخْلُصُونَ الدُّعَاءَ لِلَّهِ وَالْعِبَادَةَ فَقَالَ :

[فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ] انْقَسَمُوا فَرِيقَيْنِ :

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا
نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ
كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا
لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنِ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا

[فمِنْهُمْ] فريق [مقتصد] ، أى : لم يقيم بشكر الله على وجه الكمال ، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم .

وفريق كافر بنعمة الله ، جاحد لها ، ولهذا قال : [وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار] أى غدار ، ومن غدره ، أنه عاهد ربه ، لئن أنجيتنا من البحر وشدته ، لنكونن من الشاكرين .

فقدر هذا الفريق ، ولم يف بذلك ، وهو ومع ذلك [كفور] بغم الله .
فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة ، إلا القيام التام بشكر نعم الله ؟
* يأمر تعالى الناس بتقواه ، التى هى : امتثال أوامره ، وترك زواجره .

ويستلقتهم نخشية يوم القيامة ، اليوم الشديد ، الذى فيه كل أحد ،
لا يهمه إلا نفسه [واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو
جاز عن والده شيئا] يزيد فى حسناته ولا ينقص من سيئاته ، قد تم على
كل عبد ، عمله ، وتحقق عليه جزاؤه .

فلت النظر لهذا اليوم المهول ، مما يقوى العبد ، ويسهل عليه
تقوى الله .

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ
الْفُرُورُ ﴿٣٣﴾

وهذا من رحمة الله بالعباد ، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم ، ويعدهم
عليها الثواب ، ويحذرهم من العقاب ، ويزجرهم عنه بالمواعظ والخوفات .
فلك الحمد يارب العالمين .

[إن وعد الله حق] فلا تمتدوا فيه ، ولا تعملوا عمل غير الصدق ،
فلهذا قال :

[فلا تغرنكم الحياة الدنيا] بزینتها وزخارفها ، وما فيها ، من
الفتن والحسن .

[ولا يغرنكم بالله الغرور] الذى هو الشيطان ، ما زال يخدع الإنسان
ولا يغفل عنه فى جميع الأوقات .

فإن لله على عباده حقا ، وقد وعدهم موعدا يجازيهم فيه بأعمالهم ، وهل
وفوا حقه ، أم قصروا فيه .

وهذا أمر يجب الاهتمام به ، وأن يجعله العبد نصب عينيه ، ورأس
مال تجارته ، التي يسعى إليها .

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه ، الدنيا الفتانة ، والشيطان
الموسوس المَسْوَل .

فنهى تعالى عباده ، أن تغرم الدنيا ، أو يغرم بالله الغرور « يعدهم
ويمتنهم وما يعدهم الشيطان إلا غورا » .

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ

* قد تقرر أن الله تعالى ، أحاط علمه بالغيب والشهادة ، والظواهر والبواطن ، وقد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية .

وهذه الأمور الحمسة ، من الأمور التي طوى علمها عن جميع الخلق ، فلا يعلمها نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ، فضلا عن غيرها ، فقال :

[إن الله عنده علم الساعة] أى : يعلم متى مرساها ، كما قال تعالى :
« يسألونك عن الساعة أيان مرساها * قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ، لا تأنيكم إلا بفتة » الآية .

[وينزل الغيث] أى : هو المنفرد بإنزاله ، وعلم وقت نزوله .
[ويعلم ما فى الأرحام] فهو الذى أنشأ ما فيها ، وعلم ما هو ، هل هو ذكر أم أنثى .

ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربه : هل هو ذكر أم أنثى ؟ فيقتضى الله ما يشاء .

[وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا] من كسب دينها ودنياها .
[وما تدرى نفس بأى أرض تموت] بل الله تعالى ، هو المختص بعلم ذلك جميعه .

ولما خصص هذه الأشياء ، عم علمه بجميع الأشياء فقال :

بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

[إن الله عليم خبير] محيط بالظواهر والبواطن ، والخفايا والخبايا ،
والسرائر .

ومن حكمته التامة ، أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد ، لأن في ذلك
من المصالح ، ما لا يخفى على من تدبر ذلك .

تم تفسير سورة لقمان - بفضل الله وعونه ، والحمد لله

تفسير

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ أَلَمْ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْخَلْقُ مِنْ رَبِّكَ لَتُنذِرَ

* يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم ، تنزيل من رب العالمين ، الذى رباهم بنعمته .

ومن أعظم ما رباهم به ، هذا الكتاب ، الذى فيه كل ما يصلح أحوالهم ، ويتمم أخلاقهم .

وأنة لا ريب فيه ، ولا شك ، ولا امتراء ، ومع ذلك قال المكذبون للرسول الظالمون فى ذلك : افتراه محمد ، واختلقه من عند نفسه .

وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله ، ورمى محمد صلى الله عليه وسلم ، بأعظم الكذب ، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق .

وكل واحد من هذه من الأمور العظام ، قال الله — راداً على من قال : افتراه : —

[بل هو الحق] الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴿٣﴾
﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ

[من ربك] أنزله رحمة للعباد [لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك]
أى فى حالة ضرورة وفاقه لإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب ، لعدم النذير .
بل هم فى جهلهم يعمهون ، وفى ظلمة ضلالم يترددون .
فأنزلنا الكتاب عليك [لعلمهم يهتدون] من ضلالمهم ، فيعرفون الحق
ويؤثرونه .

وهذه الأشياء التى ذكرها الله كلها ، مناقضة لتكذيبهم له : وإنها
تقتضى منهم الإيمان والتصديق التام به ، وهو كونه [من رب العالمين]
وأنه [الحق] .

والحق مقبول على كل حال ، وأنه [لا ريب فيه] بوجه من الوجوه .
فليس فيه ، ما يوجب الريبة ، لا بخبر غير مطابق للواقع ، ولا بخفاء
واشتباه معانيه .

وأنهم فى ضرورة وحاجة إلى الرسالة ، وأن فيه الهداية لكل خير
وإحسان .

• يخبر تعالى عن كمال قدرته بأنه [الذى خلق السموات والأرض وما
بينهما فى ستة أيام] أولها ، يوم الأحد ، وآخرها الجمعة ، مع قدرته على خلقها
بلحظة ، ولكنه تعالى رفيق حكيم .

[ثم استوى على العرش] الذى هو سقف المخلوقات ، استواء يليق بجلاله .

وَلَا شَفِيعَ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ
ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾
ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ

[مالكم من دونه من ولى] يتولاكم ، فى أموركم ، فىنفعكم [ولاشفيع]
يشفع لكم ، إن توجه عليكم العقاب .

[أفلا تتذكرون] فتعلمون أن خالق الأرض والسموات ، المستوى
على العرش العظيم ، الذى انفرد بتدبيركم ، وتوليكم ، وله الشفاعة كلها ،
هو المستحق لجميع أنواع العبادة .

[يدبر الأمر] القدرى والأمر الشرعى ، الجميع هو المتفرد بتدبيره ،
نازلة تلك التدابير من عند الملك القدير [من السماء إلى الأرض] فَيَسْعُدُ بِهَا
وَيُشْقِي ، وَيُغْنِي وَيُقْفِرُ ، وَيُعِزُّ ، وَيُدِلُّ ، وَيُكْرِمُ ، وَيُهِنُّ ، ويرفع أقواما ،
ويضع آخرين ، وَيُنزِلُ الْأَرْزَاقَ .

[ثم يعرج إليه] أى : الأمر ينزل من عنده ، ويعرج إليه [فى يوم
كان مقداره ألف سنة مما تعدون] وهو يعرج إليه ، ويصله فى لحظة .

[ذلك] الذى خلق تلك المخلوقات العظيمة ، الذى استوى على العرش
العظيم ، وانفرد بالتدبير فى المملكة [عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم] .
فبسة علمه ، وكال عزته ، وعموم رحمته ، أوجدها ، وأودع فيها ،
من المنافع ما أودع ، ولم يعسر عليه تدبيرها .

[الذى أحسن كل شىء خلقه] أى : كل مخلوق خلقه الله ، فإن الله
أحسن خلقه ، وخلقه خلقا يليق به ، ويوافقه — فهذا عام .

كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ
سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

ثم خص الأدمى لشرفه وفضله فقال .

[وبدأ خلق الإنسان من طين] وذلك بخلق آدم عليه السلام ، أبي

البشر .

[ثم جعل نسله] أى : ذرية آدم ناشئة [من سلالة من ماء مهين]

وهو النطفة المستقررة الضعيفة .

[ثم سواه] بلحمه ، وأعضائه ، وأعصابه ، وعروقه ، وأحسن خلقته ،

ووضع كل عضو منه ، بالمحل الذى لا يليق به غيره .

[ونفخ فيه من روحه] بأن أرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، فيعود

ياذن الله ، حيوانا ، بعد أن كان جمادا .

[وجعل لكم السمع والأبصار] أى : ما زال يعطيكم من المنافع شيئا

فشيئا ، حتى أعطاكم السمع والأبصار [والأفئدة قليلا ما تشكرون] الذى

خلقكم وصوركم .

﴿ وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأَنَّا لِنُحْيِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾
بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ
الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴿﴾

أى : قال المكذوبون بالبعث على وجه الاستبعاد : [إذا ضلنا في الأرض] أى : بديننا وتمزقنا ، وتفرقنا في المواضع التي لا تعلم .
[أإنا لنف خلق جديد] أى : لمبعوثون بعثا جديدا .
بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء ، وذلك بقياسهم قدرة الخالق ، على قدرهم .

وكلامهم هذا ، ليس لطلب الحقيقة ، وإنما هو ظلم ، وعناد ، وكفر بقاء ربهم وجحد ، ولهذا قال :

[بل هم بقاء ربهم كافرون] فكلامهم علم مصدره وغايته .
وإلا ، فلو كان قصدهم بيان الحق ، لبين لهم من الأدلة القاطعة على ذلك ، ما يجعله مشاهدا للبصيرة ، بمنزلة الشمس للبصر .
ويكفيهم ، علمهم أنهم قد ابتدؤوا من العدم ، فالإعادة أسهل من الابتداء .

وكذلك الأرض الميتة ، ينزل الله عليها المطر ، فتحيا بعد موتها ، وينبت به متفرق بذورها .

[قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم] أى : جعله الله وكيلا على قبض الأرواح ، وله أعوان .

[ثم إلى ربكم ترجعون] فيجازيكم بأعمالكم ، وقد أنكرتم البعث ، فانظروا ماذا يفعل الله بكم .

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (١٢)
وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ

* لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة ، ذكر حالهم في مقامه بين يديه ، فقال :

[ولو ترى إذ المجرمون] الذين أصرروا على الذنوب العظيمة .

[ناكسوا رؤوسهم عند ربهم] خاشعين خاضعين أذلاء ، مقرين بجرمهم ، سائلين الرجعة قائلين : [ربنا أبصرنا وسمعنا] أى : بان لنا الأمر ، ورأينا عيانا ، فصار عين يقين .

[فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون] أى : صار عندنا الآن ، يقين بما كنا نكذب به .

أى : رأيت أمراً فظيماً ، وحالاً مزعجة ، أقواماً خاسرين ، وسؤالاً غير مجاب ، لأنه قد مضى وقت الإمهال .

وكل هذا بقضاء الله وقدره ، حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصي ، فلماذا قال :

[ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها] أى : لهدينا الناس كلهم ، وجمعناهم على الهدى .

فشئتنا صالحة لذلك ، ولكن الحكمة ، تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى ، ولهذا قال .

[ولكن حق القول مني] أى : وجب ، وثبت ثبوتاً لا تغير فيه .

جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

[لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين] فهذا الوعد ، لا بد منه ،
ولا محيد عنه .

فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصي .

[فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا] أي : يقال للمجرمين ، الذين
ملكهم الذل ، وسألوا الرجعة إلى الدنيا ، ليستدرکوا ما فاتهم : قد فات
وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب ، فذوقوا العذاب الأليم ، بما نسيتم لقاء
يومكم هذا .

وهذا النسيان نسيان ترك ، أي : بما أعرضتم عنه ، وتركتم العمل له ،
وكانكم غير قادمين عليه ، ولا ملاقيه .

[إنا نسيناكم] أي : تركناكم بالعذاب ، جزاء من جنس عملكم ،
فكما نسيتم نسيناكم .

[وذوقوا عذاب الخلد] أي : العذاب غير المنقطع .

فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية ، كان فيه بعض العنفس والتخفيف
وأما عذاب جهنم — أعاذنا الله منه — فليس فيه روح راحة ،
ولا انقطاع لعذابهم فيها .

[بما كنتم تعملون] من الكفر والفسوق والمعاصي .

﴿١٥﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا
سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى
جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

* لما ذكر الكافرين بآياته ، وما أعد لهم من العذاب ، ذكر المؤمنون
بها ، ووصفهم ، وما أعد لهم من الثواب فقال :
[إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا] أى : إيماناً حقيقياً ، من يوجد منه شواهد
الإيمان .

وهم : [الذين إذا ذكروا بها] فتليت عليهم آيات القرآن ، وأنتهم
النصائح على أيدي رسل الله ، وَدُعُوا إِلَى التذكرة ، سمعواها وقبلوها ، وانقادوا ،
و [خروا سجداً] أى : خاضعين لها ، خضوع ذكر الله ، وفرح بمعرفته .
[وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون] لا يفلحهم ، ولا بأبدانهم ،
فيمتنعون من الانقياد لها ، بل متواضعون لها ، قد تلوها وقبلوا ، وقابلوها
بالانشراح والتسليم ، وتوصلوا بها ، إلى مرضاة الرب الرحيم ، واهتدوا
بها إلى الصراط المستقيم .

[تتجافى جنوبهم عن المضاجع] أى : ترتفع جنوبهم ، وتنزعج عن
مضاجعها اللذيذة ، إلى ما هو ألد عندهم منه وأحب إليهم ، وهو : الصلاة
في الليل ، ومناجاة الله تعالى .

ولهذا قال : [يدعون ربهم] أى : فى جلب مصالحهم الدينية والدينية ،
ودفع مضارها .

[خَوْفًا وَطَمَعًا] أى : جامعين بين الوصفين ، خوفاً أن ترد أعمالهم ،
وطمعا فى قبولها .

يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

خوفا من عذاب الله ، وطمعا في ثوابه .

[ومما رزقناهم] من الرزق ، قليلا أو كثيرا [ينفقون] ولم يذكر قيد النفقة ، ولا المنفق عليه ، ليدل على العموم .
فإنه يدخل فيه ، النفقة الواجبة ، كالأزكوات ، والكفارات ، و نفقة الزوجات والأقارب .

والنفقة المستحبة في وجوه الخير ، والنفقة والإحسان المالى ، خير مطلقا ، سواء وافق فقيرا ، أو غنيا ، قريبا ، أو بعيدا ، ولكن الأجر يتفاوت ، بتفاوت النفع ، فهذا عملهم .

وأما جزاؤهم ، فقال : [فلا تعلم نفس] يدخل فيه جميع نفوس الخلق ، لكونه نكرة في سياق النفي .

أى : فلا يعلم أحد [ما أخفى لهم من قرّة أعين] من الخير الكثير ، والنعيم الغزير ، والفرح والسرور ، واللذة والحبور .

كما قال تعالى على لسان رسوله « أعددت لعبادى الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فكما صلوا في الليل ، ودعوا ، وأخفوا العمل ، جازاهم من جنس عملهم ، فأخفى أجرهم ، ولهذا قال : [جزاء بما كانوا يعملون] .

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ (١٨)

أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا

* ينبه تعالى ، المقول على ما تقرر فيها ، من عدم تساوى المتفاوتين المتباينين ، وأن حكمته تقتضى عدم تساويهما فقال :

[أفمن كان مؤمنا] قد عمر قلبه الإيمان ، وانقادت جوارحه لشرائعه ، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته ، من ترك مساخط الله ، التى يضر وجودها بالإيمان .

[كمن كان فاسقا] قد خرب قلبه ، وتعطل من الإيمان ، فلم يكن فيه وازع دينى ، فأسرعت عنه جوارحه بموجبات الجهل والظلم ، فى كل إثم ومعصية ، وخرج بنفسه عن طاعة ربه .
أفيستوى هذان الشخصان ؟ .

[لا يستون] عقلا وشرعا ، كما لا يستوى الليل والنهار ، والضياء ، والظلمة ، وكذلك لا يستوى ثوابهما فى الآخرة .

[وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات] من فروض ونوافل [فلهم جنات المأوى] أى : الجنات التى هى مأوى اللذات ، ومعدن الخيرات ، ومحل الأفراح ، ونعيم القلوب ، والنفوس ، والأرواح ، ومحل الخلود ، وجوار الملك المعبود ، والتمتع بقربه ، والنظر إلى وجهه ، وسماع خطابه .
[نزلا] لهم أى : ضيافة ، وقرى [بما كانوا يعملون] .

فأعمالهم التى تفضل الله بها عليهم ، هى التى أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية ، التى لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال ، ولا بالجنود

كَانُوا يَمْلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَا وَهُمْ النَّارُ كَلَّمَآ
أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ
النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

والخدم ، ولا بالأولاد ، بل ولا بالنفوس والأرواح ، ولا يتقرب إليها بشيء ،
أصلاً ، سوى الإيمان والعمل الصالح .

[وأما الذين فسقوا فماوهم النار] أى : مقرهم ومحل خلودهم ، النار
التي جمعت كل عذاب وشقاء ، ولا يُفترُّ عنهم العقاب ساعة .

[كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها] فكلمنا حديثهم إرادتهم
بالخروج ، لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ ، ردوا إليها ، فذهب عنهم روح
ذلك الفرج ، واشتد عليهم السكرب .

[وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون] فهذا عذاب
النار ، الذي يكون فيه مقرهم وماوهم .

وأما العذاب الذي قبل ذلك ، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ ، فقد
ذكر بقوله :

[ولنذيقنهم] إلى [يرجعون] .

﴿٢١﴾ وَلَنذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

* أى : ولنذيقن الناسقين المكذبين ، نموذجاً من العذاب الأدنى ، وهو عذاب البرزخ ، فنذيقهم طرفاً منه ، قبل أن يموتوا .

إما بعذاب بالقتل ونحوه ، كما جرى لأهل بدر من اللشركين .

وإما عند الموت ، كما في قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم ، اليوم تجزون عذاب الهون » ثم يسكل لهم العذاب الأدنى في برزخهم .

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر ، ودلالاتها ظاهرة ، فإنه قال :

[ولنذيقنهم من العذاب الأدنى] أى : بعض وجزء منه .

فدل على أن نَمَّ عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر ، وهو عذاب النار .

ولما كانت الإذاعة من العذاب الأدنى في الدنيا ، قد لا يتصل بها الموت ، أخبر تعالى ، أنه يذيقهم ذلك لعلمهم يرجعون إليه ويقبون من ذنوبهم كما قال تعالى « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلمهم يرجعون » .

﴿٢٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا
إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ
مِّن لِّقَاءِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً

* أى : لا أحد أظلم ، وأزيد تعديا ، ممن ذكر آيات ربه ، التى أوصلها إليه ربه ، الذى يريد تربيته ، وتكميل نعمته على أيدى رسله ، تأمره ، وتذكره بمصالحه الدينية والدينية ، ونهاه عن مضاره الدينية والدينية ، التى تقتضى أن يقابلها بالإيمان والتسليم ، والالتقياد والشكر .

فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغى ، فلم يؤمن بها ، ولا اتبعها ، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره ، فهذا من أكبر المجرمين ، الذين يستحقون شديد العقوبة .

ولهذا قال : [إنا من المجرمين منتقمون] .

* لما ذكر تعالى ، آياته التى ذكر بها عباده ، وهو : القرآن ، الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، ذكر أنه ليس بيدع من الكتب ، ولا من جاء به ، بغريب من الرسل .

[ولقد آتينا موسى الكتاب] الذى هو التوراة المصدقة للقرآن ، والتى قد صدقها القرآن ، فقطابق حقيهما ، وثبت برهانهما .

[فلا تكن فى مريّة من لقائه] لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته ، فلم يبق للشك والمريّة ، محل .

[وجعلناه] أى : الكتاب الذى آتينا موسى [هدى لبني إسرائيل]

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

يهتدون به في أصول دينهم ، وفروعه ، وشرائعه موافقة لذلك الزمان ،
في بنى إسرائيل .

وأما هذا القرآن الكريم ، فجعله الله هداية للناس كلهم ، لأنه هداية
للخلق ، في أمر دينهم وديناهم ، إلى يوم القيامة ، وذلك لجماله وعلوه
« وأنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم » .

[وجعلنا منهم] أى : من بنى إسرائيل [أئمة يهدون بأمرنا] .

أى : علماء بالشرع ، وطرق الهداية ، مهتدين في أنفسهم ،
يهدون غيرهم بذلك الهدى .

فالكتاب الذى أنزل إليهم ، هدى ، والمؤمنون به منهم ، على قسمين :

أئمة يهدون بأمر الله ، وأتباع مهتدون بهم .

والقسم الأول ، أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة ، وهى

درجة الصديقين .

وإنما نالوا هذه الدرجة العالية [بما صبروا] على التعلم والتعليم ، والدعوة

إلى الله ، والأذى فى سبيله ، وكفوا نفوسهم عن جماها فى العاصى ،

واسترسالها فى الشهوات .

[وكانوا بآياتنا يوقنون] أى : وصلوا فى الإيمان بآيات الله ، إلى

درجة اليقين ، وهو العلم التام ، الموجب للعمل .

وإنما وصلوا إلى درجة اليقين ، لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا ، وأخذوا

المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين .

يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٥﴾
﴿٢٦﴾ أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْقُرُونِ
يَنْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوْلَمْ

فما زالوا يتعلمون المسائل ، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل ، حتى
وصلوا لذلك .

فبالصبر واليقين ، تُنَالُ الإمامة في الدين .

وتمَّ مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل ، منهم من أصاب فيها الحق ،
ومنهم من أخطأ خطأ ، أو عمداً ، والله تعالى [يفصل بينهم يوم القيامة
فيما كانوا فيه يختلفون] وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل ، بعض الذي
يختلفون فيه .

فكل خلاف وقع بينهم ، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين ،
فهو الحق ، وما عداه مما خالفه ، باطل .

* معنى : أو لم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول ، ويهدم إلى الصواب .

[كم أهلكنا قبلهم من القرون] الذين سلكوا مسلكهم .

[يمشون في مساكنهم] فيشاهدونها عياناً ، كقوم هود ، وصالح ،
وقوم لوط .

[إن في ذلك لآيات] يستدل بها ، على صدق الرسل ، التي جاءتهم ،
وبطلان ما هم عليه ، من الشرك والشر ، وعلى أن من فعل مثل فعلهم ،
فُعل به ، كما فعل بأشباعه من قبل .

يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

وعلى أن الله تعالى مجازى العباد ، وباعثهم للحشر والتناد .

[أفلا يسمعون] آيات الله ، فيعونها ، فينتفعون بها .

فلو كان لهم سمع صحيح ، وعقل رجيح ، لم يقيموا على حالة ، يحزم بها ،

بالهلاك

[أولم يروا] بأبصارهم نعمتنا ، وكال حكمتنا [أنا نسوق الماء

إلى الأرض الجرز] التي لا نبات فيها ، فيسوق الله المطر ، الذي لم يكن قبل

موجودا فيها ، فيفرغه فيها ، من السحاب ، أو من الأنهار .

[فنخرج به زرعاً] أى نباتا ، مختلف الأنواع [تأكل منه أنعامهم]

وهو نبات البهائم [وأنفسهم] وهو طعام الآدميين .

[أفلا يبصرون] تلك المنة ، التي أحيا الله بها البلاد والعباد ، فيستبصرون

فيهتدون بذلك البصر ، وتلك البصيرة ، إلى الصراط المستقيم .

ولكن غلب عليهم العمى ، واستولت عليهم الغفلة ، فلم يبصروا

في ذلك ، بصر الرجال .

وإنما نظروا إلى ذلك ، نظر الغفلة ، ومجرد العادة ، فلم يوقفوا للخير

﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾
قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴿٣٠﴾

* أى : يستعجل المجرمون بالعذاب ، الذى وعدوا به على التكذيب ،
جهلا منهم ومعاندة .

[ويقولون متى هذا الفتح] الذى يفتح بيننا وبينكم ، بعمدينا على
زعمكم [إن كنتم صادقين] فى دعواكم .

[قل يوم الفتح] الذى يحصل به عقابكم ، لا تستفيدون به شيئا .
فلو كان إذا حصل ، حصل إيمانكم ، لتستدركوا ما فاتكم ، حين
صار الأمر عندكم يقينا ، لكان لذلك وجه .

ولكن إذا جاء يوم الفتح ، انقضى الأمر ، ولم يبق للحنه والابتلاء محل
إذ [لا ينفع الذين كفروا إيمانهم] لأنه صار إيمان ضرورة .
[ولا هم ينظرون] أى : يمهلون ، فيؤخر عنهم العذاب ، فيستدركون
أمرهم .

[فأعرض عنهم] لما وصل خطابهم لك ، وظلمهم إلى حالة الجهل ،
واستعجال العذاب .

[وانتظر] الأمر الذى يحل بهم ، فإنه لا بد منه ، ولكن له أجل ،
إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر .

[إنهم منتظرون] بك ريب المنون ، ومتربصون بكم دوائر السوء ،
والعاقبة للتموى .

تم تفسير سورة السجدة — بحول الله ومنه

تفسير

سُورَةُ الْأَعْرَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ

أى : يا أيها الذى ، من الله عليه بالنبوة ، واختصه بوحيه ، وفضله على سائر الخلق .

أشكر نعمة ربك عليك ، باستعمال تقواه ، التى أنت أولى بها من غيرك ، والتى يجب عليك منها ، أعظم من سواك .

فامتثل أوامره ونواهيه ، وبلغ رسالاته ، وأدِّ إلى عباده وحيه ، وابدل النصيحة للخلق .

ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد ، ولا يردك عنه راد .

فلا تطع كل كافر ، قد أظهر العداوة لله ورسوله ، ولا منافق ، قد اسبطن التكذيب والكفر ، وأظهر ضده .

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة ، فلا تطعمهم فى بعض الأمور ، التى تنقض القوى ، وتناقضها ، ولا تتبع أهواءهم ، فيضلوك عن الصواب .

وَأْمَنِّفَيْنَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

[و] لكن [اتبع ما أوحى إليك من ربك] فإنه هو الهدى والرحمة .
وَأَرْجُ بذلك ثواب ربك [إنه كان بما تعملون خبيراً] يجازيكم بحسب
ما يعلمه منكم ، من الخير والشر .

فإن وقع في قلبك ، أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلة ، حصل عليك
منهم ضرر ، أو حصل نقص في هداية الخلق ، فادفع ذلك عن نفسك ،
واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره ، وهو التوكل على الله ، بأن تعتمد على
ربك ، اعتماد من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ،
ولا نشوراً ، في سلامتك من شرهم ، وفي إقامة الدين ، الذي أمرت به ،
وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان .

[وكفى بالله وكيلاً] توكل إليه الأمور ، فيقوم بها ، وبما هو
أصلح للعبد .

وذلك لعلمه بمصالح عبده ، من حيث لا يعلم العبد ، وقدرته على إيصالها
إليه ، من حيث لا يقدر عليها العبد ، وأنه أرحم بعبده من نفسه ، ومن
والديه ، وأرأف به من كل أحد ، خصوصاً خواص عبيده ، الذين لم يزل
يربيهم ببره ، ويُدِرُّ عليهم بركاته الظاهرة والباطنة .

خصوصاً وقد أمره بإلقاء أموره إليه ، ووعده أن يقوم بها .

فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر ، وصعب يتسهل ، وخطوب تهون

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ
أَزْوَاجَكُمْ أَلْسِنَى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ

وكروب تزول ، وأحوال وحوائج تقضى ، وبركات تنزل ، ونقم تدفع
وشرور ترفع .

وهناك ترى العبد الضعيف ، الذى يفوض أمره لسيده ، قد قام بأمور ،
لا تقوم بها أمة من الناس ، وقد سهل الله عليه ، ما كان يصعب على فحول
الرجال وبالله المستعان .

* يعاتب تعالى عباده ، عن التكلم بما لاحقيقة له ، من الأقوال ، ولم يجعله
الله تعالى كما قالوا ، فإن ذلك القول منهم ، كذب وزور ، يترتب عليه
منكرات من الشرع .

وهذه قاعدة عامة فى التكلم فى كل شىء ، والإخبار بوقوع ووجود ،
ما لم يجعله الله تعالى .

ولكن خص هذه الأشياء المذكورة ، لوقوعها ، وشدة الحاجة إلى
بيانها فقال :

[ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه] هذا لا يوجد .

فإياكم أن تقولوا عن أحد : إن له قلبين فى جوفه ، فتكونوا كاذبين
على الخلق الإلهية .

[وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن] بأن يقول أحدكم لزوجته
« أنت على كظهر أمى أو كأمى » ، فاجعلن الله [أمهاتكم] ، أمك من
ولدتك ، وصارت أعظم النساء عليك ، حرمة وتحريما .

أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ

وزوجتك أحل النساء لك ، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر ؟

هذا أمر لا يجوز ، كما قال تعالى « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً » .

[وما جعل أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ] والأدعياء ، جمع «دَعِيَ» وهو : الولد الذى كان الرجل يدعيه ، وهو ليس له ، أو يدعى إليه ، بسبب تبنيه إياه ، كما كان الأمر فى الجاهلية ، وأول الإسلام .

فأراد الله تعالى أن يبطله ويزيله ، فقدم بين يدي ذلك بيان قبحه ، وأنه باطل وكذب .

وكل باطل وكذب ، لا يوجد فى شرع الله ، ولا يتصف به عباد الله . يقول تعالى : فإله لم يجعل الأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ ، أو يدعون إليكم ، أَبْنَاءَكُمْ .

فإن أبناءكم فى الحقيقة ، من ولدتموهم ، وكانوا منكم .

وأما هؤلاء الأَدْعِيَاءَ من غيركم ، فلا جعل الله هذا كهذا .

[ذَٰلِكُمْ] القول ، الذى تقولون فى الدعى : إنه ابن فلان ، الذى ادعاه ، أو والده فلان [قولكم بأفواهكم] أي : قول لا حقيقة له ولا معنى له .

[والله يقول الحق] أي : اليقين والصدق ، فلذلك أسركم باتباعه ، على قوله وشرعه .

يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ اُدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

فقوله ، حق ، وشرعه حق ، والأقوال والأفعال الباطلة ، لا تنسب إليه بوجه من الوجوه وليست من هدايته ، لأنه لا يهدي إلا إلى السبيل للمستقيمة ، والطرق الصادقة

وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته ، فمشيئته عامة ، لكل ما وجد من خير وشر .

ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى ، المتضمنة للتول الباطل فقال : [ادعواهم] أى الأعدياء [لآبائهم] الذين ولدوهم [هو أقسط عند الله] أى : أعدل ، وأقوم ، وأهدى .

[فإن لم تعلموا آبائهم] الحقيقيين [فإخوانكم في الدين ومواليكم] أى : إخوانكم في دين الله ، ومواليكم في ذلك ، فادعواهم بالأخوة الإيمانية الصادقة ، والموالاتة على ذلك ، فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم ، لا يجوز فعلها .

وأما دعاؤهم لآبائهم ، فإن علموا ، دعوا إليهم ، وإن لم يعلموا ، اقتصر على ما يعلم منهم ، وهو أخوة الدين والموالاتة .

فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بآبائهم ، عذر في دعوتهم إلى من تبناهم ، لأن المحذور لا يزول بذلك .

جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾

النَّبِيِّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ

[وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به] بأن سبق على لسان أحدكم ،
دعوته إلى من تبناه ، فهذا غير مؤاخذ به ، أو علم أبوه ظاهراً ، فدعوتومه
إليه وهو في الباطن ، غير أبيه ، فليس في ذلك حرج ، إذا كان خطأ .
[ولكن] يؤاخذكم في [ماتعمدت قلوبكم] من الكلام ، بما
لا يجوز .

[وكان الله غفورا رحيمًا] غفر لكم ، ورحمكم ، حيث لم يعاقبكم
بما سلف ، وسمح لكم بما أخطأتم به ، ورحمكم حيث بين لكم أحكامه ،
التي تصلح دينكم ودينكم ، فله الحمد تعالى .

* يخبر تعالى المؤمنين ، خيرا يعرفون به حالة الرسول صلى الله عليه وسلم ،
ومرتبه ، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة فقال :

[النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم] أقرب ما للإنسان ، وأولى
ماله نفسه .

فالرسول ، أولى بالمؤمن من نفسه ، لأنه عليه الصلاة والسلام ، بذل
لهم من النصح ، والشفقة ، والرأفة ، ما كان به أرحم الخلق ، وأرأفهم .
فرسول الله ، أعظم الخلق منة عليهم ، من كل احد ، فإنه لم يصل
إليهم مثقال ذرة من الخير ، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر ، إلا على
يديه وبسببه .

فذلك ، وجب عليهم إذا تعارض مراد النفس ، أو مراد أحد من الناس ، مع مراد الرسول ، أن يقدم مراد الرسول ، وأن لا يعارض قول الرسول ، بقول أحد ، كائنا من كان ، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ، ويقدموا محبته على الخلق كلهم ، وألا يقولوا حتى يقول ، ولا يتقدموا بين يديه .

وهو صلى الله عليه وسلم ، أب للمؤمنين ، كما في قراءة بعض الصحابة ، بريهم كما يربي الوالد أولاده .

فترتب على هذه الأبوة ، أن كان نساؤه أمهاتهم ، أى : فى الحرمة والاحترام ، والإكرام ، لافى الخلوة والمحرمية ، وكأن هذا مقدمة ، لماسياتى فى قصة زيد بن حارثة ، الذى كان يدعى قبلاً « زيد بن محمد » حتى أنزل الله [ما كان محمد أباً أحد من رجالكم] .

فقطع نسبه ، وانتسابه منه .

فأخبر فى هذه الآية ، أن المؤمنين كلهم ، أولاد للرسول ، فلا مزية لأحد عن أحد .

وإن انتقطع عن أحدهم انتساب الدعوة ، فإن النسب الإيماني لم يقطع عنه ، فلا يحزن ولا يأسف .

وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين ، أنهن لا يحلن لأحد من بعده ، كما صرح بذلك فى قوله : [ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً] .

وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ
فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

[وأولو الأرحام] أى الأقارب ، قربوا أو بعدوا [بعضهم أولى
ببعض فى كتاب الله] أى : فى حكمه ، فيرث بعضهم بعضا ، ويير بعضهم
بعضا ، فهم أولى من الحلف والنصرة .
والأدعياء الذين كانوا من قبل ، يرثون بهذه الأسباب ، دون
ذوى الأرحام .

فقطع تعالى ، التوارث بذلك ، وجعله للأقارب ، لطفًا منه وحكمة ،
فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة ، لحصل من الفساد والشر ، والتحيل
لحرمان الأقارب من الميراث ، شىء كثير .

[من المؤمنين والمهاجرين] أى : سواء كان الأقارب مؤمنين أو مهاجرين ،
أو غير مهاجرين ، فإن ذوى الأرحام مقدمون فى ذلك .

وهذه الآية حجة على ولاية ذوى الأرحام ، فى جميع الولايات ، كولاية
النكاح ، والمال ، وغير ذلك .

[إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا] أى : ليس لهم حق مفروض ،
وإنما هو بإرادتكم .

إن شئتم أن تتبرعوا لهم تبرعا ، وتعطوهم معروفًا منكم ، [كان] ذلك
الحكم المذكور [فى الكتاب مسطورا] أى : قد سطر ، وكتب ، وقدره
الله ، فلا بد من نفوذه .

﴿٧﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ
وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا
غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴿٨﴾

﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

* يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً ، ومن أولى العزم — وهم هؤلاء الخمسة المذكورون — خصوصاً ، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد ، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله ، وأن هذا سبيل ، قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون ، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمر الناس بالاعتداء بهم .

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم ، عن هذا العهد الغليظ هل وفوا فيه ، وصدقوا ؟ فيثيبهم جنات النعيم ؟ أم كفروا ، فيعذبهم العذاب الأليم ؟ قال تعالى : [من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه] .

* يذكر تعالى عباده المؤمنين ، نعمته عليهم ، ويحثهم على شكرها ، حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز ، من فوقهم ، وأهل نجد ، من أسفل منهم ، وتعاقدوا ، وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة ، وذلك في وقعة الخندق .

وملائتهم طوائف اليهود ، الذين حوالى المدينة ، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة .

إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ
وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
زُلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على المدينة ، فحصرها المدينة ،
واشتد الأمر ، وبلغت القلوب الحناجر ، حتى بلغ الظن من كثير من الناس
كل مبلغ ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة ، والشدائد الشديدة ، فلم يزل
الحصار على المدينة ، مدة طويلة ، والأمر كما وصف الله في قوله :

[وإذا زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا] .

أى : الظنون السيئة ، أن الله لا ينصر دينه ، ولا يتم كلمته .

[هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ] بهذه الفتنة العظيمة [وزلزلوا زلزالاً شديداً]

بالخوف والقلق ، والجوع ، ليتبين إيمانهم ، ويزيد إيمانهم .

فظهر — والله الحمد — من إيمانهم ، وشدة يقينهم ، ما فاقوا فيه

الأولين والآخرين .

وعندما اشتد الكرب ، وتفاقت الشدائد ، صار إيمانهم عين اليقين .

« فلما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق

الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » .

وهنالكَ تبين نفاق المنافقين ، وظهر ما كانوا يضررون قال تعالى :

[وإذ يقول المنافقون] إلى [إلا غروراً] .

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ
مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [١٢] وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ
يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

* وهذه عادة المنافق عند الشدة والحنة ، لا يثبت إيمانه ، وينظر بعقله
القاصر ، إلى الحالة الحاضرة ، وبصدق ظنه .

[وإذ قالت طائفة منهم] أى : من المنافقين ، بعد ما جزعوا وقلَّ
صبرهم ، وصاروا أيضا من الخذولين ، فلا صبروا بأنفسهم ، ولا تركوا
الناس من شرهم .

فقال هذه الطائفة : [يا أهل يثرب] يريدون « يا أهل المدينة » .

فنادوهم باسم الوطن النبوي ، عن التسمية فيه ، إشارة إلى أن الدين
والأخوة الإيمانية ، ليس لهما في قلوبهم قدر ، وأن الذى حملهم على ذلك ،
مجرد الخور الطبيعي .

[يا أهل يثرب لا مقام لكم] أى : فى موضعكم الذى خرجتم إليه
خارج المدينة .

وكانوا عسكروا دون الخندق ، وخارج المدينة [فارجعوا] إلى المدينة .
فهذه الطائفة تحذل عن الجهاد ، وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم ،
ويأمروهم بترك القتال .

فهذه الطائفة ، شر الطوائف وأضرها .

وطائفة أخرى دونهم ، أصابهم الجبن والجزع ، وأحبوا أن يتخذوا

عن الصفوف

النَّبِيِّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا
فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ
لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ

فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة ، وهم الذين قال الله فيهم : [ويستأذن
فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة] أى : عليها الخطر ، ونخاف
عليها أن يهجم عليها الأعداء ، ونحن غُيِّبُ عنها ، فَأَذَنَ لنا نرجع إليها ،
فنحرسها ، وهم كذبة في ذلك .

[وما هي بعورة ، إن يريدون] أى : ما قصدهم [إلا فراراً] ولكن
جعلوا هذا الكلام ، وسيلة وعذرا لهم .

فهؤلاء قل إيمانهم ، وليس لهم ثبوت عند اشتداد المحن .

[ولو دخلت عليهم] المدينة [من أقطارها] أى : لو دخل الكفار
إليها من نواحيها ، واستولوا عليها [ثم] سئل هؤلاء [الفتنة] أى : الانقلاب
عن دينهم ، والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين [لأتوها] أى : لأعطوها
مبادرين .

[وما تلبثوا بها إلا يسيراً] أى : ليس لهم منعة ولا تَصَلُّبٌ على الدين ،
بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء ، يعطونهم ما طلبوا ، ويوافقونهم
على كفرهم ، هذه حالهم .

والحال أنهم [كانوا عاهدوا الله من قبل ، لا يولون الأديار ، وكان
عهد الله مستولاً] سيسألهم عن ذلك العهد ، فيجدهم قد نقضوه ، فما ظنهم
إذاً ، بربهم ؟

مِنْ قَبْلِ لَا يُؤْتُونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ
يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْتَمُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ

[قل] لهم — لائما على فرارهم ، ونخبراً أنهم لا يفيدهم ذلك شيئاً :
[لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل] فلو كنتم في بيوتكم ،
لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعكم .

والأسباب تنفع ، إذا لم يعارضها القضاء والقدر ، فإذا جاء القضاء
والقدر ، تلاشى كل سبب ، وبطلت كل وسيلة ، ظنّها الإنسان تنجيه .

[وإذا] حين فررتم لتسلموا من الموت والقتل ، ولتنعموا في الدنيا
فإنكم [لا تنتمون إلا قليلاً] متاعاً ، لا يسوى فراركم ، وترككم أمر
الله ، وتنويبتكم على أنفسكم ، التمتع الأبدي ، في النعيم السرمدي .
ثم بين أن الأسباب كلها ، لا تغني عن العبد شيئاً ، إذا أَرَادَهُ اللهُ
بسوء فقال :

[قل من ذا الذي يعصمكم] أي : يمنعكم من [الله إن أراد بكم
سوءاً] أي : شراً .

[أو أراد بكم رحمة] فإنه هو المعطى المانع ، الضار النافع ، الذي
لا يأتي بالخير إلا هو ، ولا يدفع السوء إلا هو .

[ولا يجدون لهم من دون الله ولياً] يتولاهم ، فيجلب لهم المنافع
[ولا نصيراً] ينصرهم ، فيدفع عنهم المضار .

سَوْءًا أَوْ أَرَدَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْرُوقِينَ مِنْكُمْ وَأَقْبَابِينَ
لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ
فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي

فَلَيْمَتَشَلُّوا طاعة المنفرد بالأمر كلها ، الذي نفذت مشيئته ، ومضى قدره ،
ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته ، وليٌّ ولا ناصر .

ثم توعد تعالى الخذلين الموقين ، وتهدهم فقال :

[قد يعلم الله الموقين منكم] عن الخروج ، لمن لم يخرجوا [والقائلين
لإخوانهم] الذين خرجوا [هلم إلينا] أى : ارجعوا ، كما تقدم من قولهم
« يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » .

وهم مع تعويقهم وتحذيلهم [لا يأتون البأس] أى : القتال والجهاد ،
بأنفسهم [إلا قليلا] فهم أشد الناس حرصا على التخلف ، لعدم الداعى
لذلك ، من الإيمان والصبر .

ولوجود المقتضى للجن ، من النفاق ، وعدم الإيمان .

[أشحّة عليكم] بأبدانهم عند القتال ، وبأموالهم عند النفقة فيه ،
فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم .

[فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى
عليه] أى : نظر المغشى عليه [من الموت] من شدة الجبن ، الذى خلع
قلوبهم ، والقلق الذى أذهلهم ، وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون ،
من القتال .

يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ
أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ

[فإذا ذهب الخوف] وصاروا في حال الأمن والطمأنينة .

[سلقوكم بالسنة حداد] أى : خاطبوكم ، وتكلموا معكم ، بكلام
حديد ، ودعاوى غير صحيحة .

وحين تسمعهم ، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام ، [أشحة على الخير]
الذى يراد منهم .

وهذا شر ما فى الإنسان ، أن يكون شحيجا بما أمر به ، شحيجا بما له
أن ينفقه فى وجهه ، شحيجا فى بدنه أن يجاهد أعداء الله ، أو يدعو إلى سبيل
الله ، شحيجا بجاهه ، شحيجا بعلمه ، ونصيحته ، ورأيه .

[أولئك] الذين بتلك الحالة [لم يؤمنوا ، فأحبط الله أعمالهم] بسبب
عدم إيمانهم ، [وكان ذلك على الله يسيرا] .

وأما المؤمنون ، فقد وقاهم الله ، شح أنفسهم ، ووقفهم لبذل ما أمروا
به ، من بذل أبدانهم فى القتال فى سبيله ، وإعلاء كلمته ، وأموالهم ، للنفقة
فى طرق الخير ، وجاههم وعلمهم .

[يحسبون الأحزاب لم يذهبوا] أى : يظنون أن هؤلاء الأحزاب ،
الذين تحزبوا على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، لم يذهبوا
حتى يستأصلوهم ، نغاب ظنهم ، وبطل حسابهم .

الْأَحْزَابُ يَوْمَ يَوْمًا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَاءِكُمْ
وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ
فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ

[وإن يأت الأحزاب] مرة أخرى [يودوا لو أنهم بادون في الأعراب
يسألون عن أنباءكم] أى : لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة ،
ودَّ هؤلاء المنافقون ، أنهم ليسوا في المدينة ، ولا في القرب منها ، وأنهم
مع الأعراب في البادية ، يستخبرون عن أخباركم ، ويسألون عن أنباءكم ،
ماذا حصل عليكم ؟

فتبأ لهم . وبعدا ، فليسوا ممن يغالى بحضورهم [ولو كانوا فيكم ما قاتلوا
إلا قليلا] فلا تبالوهم ، ولا تأسوا عليهم .

* [لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة] حيث حضر الهيحاء بنفسه
الكريمة ، وبأشر موقف الحرب ، وهو الشريف الكامل ، والبطل الباسل .
فكيف تشجون بأنفسكم ، عن أمر جاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
بنفسه فيه !!؟

فتأسوا به في هذا الأمر وغيره .

واستدل الأصوليون في هذه الآية ، على الاحتجاج بأفعال الرسول
صلى الله عليه وسلم ، وأن الأصل ، أن أمته أسوته في الأحكام ، إلا ما دل
الدليل الشرعى على الاختصاص به .

فالأسوة نوعان : أسوة حسنة ، وأسوة سيئة .

فالأسوة الحسنة ، في الرسول صلى الله عليه وسلم .

وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا

فإن المتأسى به ، سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله ، وهو الصراط
المستقيم .

وأما الأسوة بغيره ، إذا خالفه ، فهو الأسوة السيئة ، كقول المشركين
حين دعيتهم الرسل للتأسى بهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على
آثارهم مهتدون » .

وهذه الأسوة الحسنة ، إنما يسلكها ويوفق لها ، من كان يرجو الله ،
واليوم الآخر .

فإن ما معه من الإيمان ، وخوف الله ، ورجاء ثوابه ، وخوف
عقابه ، يحثه على التأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم .

لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف ، ذكر حال المؤمنين فقال :
[ولما رأى المؤمنون الأحزاب] الذين تحزبوا ، ونزلوا منازلهم ،
وانتهى الخوف .

[قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله] في قوله « أم حسبتم أن تدخلوا
الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء
وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر
الله قريب » .

[وصدق الله ورسوله] ، فإننا رأينا ، ما أخبرنا به [وما زادهم] ذلك

وَتَسْلِيماً ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ
فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾
لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ

الأمر [إلا إيماناً] في قلوبهم [وتسليماً] في جوارحهم ، واتباعاً
لأمر الله .

ولما ذكر أن المنافقين ، عاهدوا الله ، لا يولون الأديار ، وتقصوا ذلك
العهد ، ذكر وفاء المؤمنين به ، فقال :

[من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله] أي : وفوا به ، وأتموه ،
وأكلوه .

فبدلوا مهجهم في مرضاته ، وسبّلوا نفوسهم في طاعته .

[فمنهم من قضى نحبه] أي : إرادته ومطلوبه ، وما عليه من الحق ،
فقتل في سبيل الله ، أو مات مؤدياً لحقه ، لم ينقصه شيئاً .

[ومنهم من ينتظر] تكميل ما عليه ، فهو شارع في قضاء ما عليه ،
ووفاء نحبه ولما يكمله ، وهو في رجاء تكميله ، ساع في ذلك ، مجد .

[وما بدلوا تبديلاً] كما بدل غيرهم ، بل لم يزالوا على العهد ، لا يولون ،
ولا يتغيرون .

فهؤلاء ، هم الرجال على الحقيقة ، ومن عداهم ، فصورهم صور رجال ،
وأما الصفات ، فقد قصرت عن صفات الرجال .

[ليجزى الله الصادقين بصدقهم] أي : بسبب صدقهم ، في أقوالهم ،

أَوْ يُتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ

وأحوالهم ، ومعاملتهم مع الله ، واستواء ظاهرهم وباطنهم ، قال
الله تعالى :

« هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها أبدا » الآية .

أى : قدرنا ما قدرنا ، من هذه الفتن والمحن ، والزلازل ، ليتبين
الصادق من الكاذب .

فيجزى الله الصادقين بصدقهم [ويعذب المنافقين] الذين تغيرت قلوبهم
وأعمالهم ، عند حلول الفتن ، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه .

[إن شاء] تعذيبهم ، بأن لم يشأ هدايتهم ، بل علم أنهم لا خير فيهم ،
فلم يوقفهم .

[أو يتوب عليهم] بأن يوقفهم للتوبة والإجابة .

وهذه هو الغالب ، على كرم الكرم ، ولهذا ختم الآية باسمين دالين
على المغفرة ، والفضل ، والإحسان فقال :

[إن الله كان غفورا] لذنوب المسرفين على أنفسهم ، ولو أ كثروا
من العصيان ، إذا أتوا بالتائب .

[رحيمًا] بهم ، حيث وقفهم للتوبة ، ثم قبلها منهم ، وستر عليهم
ما اجترحوه .

[ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا] أى : ردم خائبين ،
لم يحصل لهم الأمر الذى كانوا حريصين عليه ، مفتاظين قادرين عليه جازمين ،

كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمَ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ
وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ قَرِيبًا تَتَقْتُلُونَ

بأن لهم الدائرة ، قد غرتهم جموعهم ، وأعجبوا بتجزئهم ، وفرحوا
بمعددهم وعددهم .

فأرسل الله عليهم ، ريحا عظيمة ، وهي ريح الصبا ، فزعزعت سرا كرمهم ،
وقوّضت خيامهم ، وكفأت قدورهم وأزعجتهم ، وضر بهم الله بالرعب ،
فانصرفوا بغیظهم ، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين .

[وكفى الله المؤمنين القتال] بما صنع لهم من الأسباب العادية
والقدرية .

[وكان الله قويا عزيزا] لا يقالبه أحد . إلا غلب ، ولا يستنصره
أحد ، إلا غلب ، ولا يعجزه أمر أراد ، ولا ينفع أهل القوة والعزة ،
قوتهم وعزتهم ، إن لم يعينهم الله بقوته وعزته .

[وأنزل الذين ظاهروهم] أى عاونوهم [من أهل الكتاب] .
أى : من اليهود [من صاصيهم] أى : أنزلهم من حصونهم ، نزولا
مظفورا بهم ، مجعولين تحت حكم الإسلام .

[وقذف في قلوبهم الرعب] فلم يقووا على القتال ، بل استسلموا
وخضعوا وذلوا .

[فريقتا تقتلون] وهم الرجال المقاتلون [وتأسرون فريقتا] من عدام
من النساء والصبيان .

وَتَأْسِرُونَ قَرِيبًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْزَتَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
وَأَرْضًا لَمْ تَطَّئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾

[وأورثكم] أى : غنمكم [أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا
لم تطئوها] .

أى : أرضا كانت من قبل ، من شرفها وعزتها عند أهلها ، لا يتمكنون
من وطنها .

فكنكم الله منها ، ومن أهلها ، وخذلهم ، وغنمتم أموالهم ، وقتلتموهم ،
وأستموهم .

[وكان الله على كل شيء قديرا] لا يعجزه شيء ، ومن قدرته ، قدر
لكم ما قدر .

وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب ، هم بنو قريظة من اليهود ،
في قرية خارج المدينة ، غير بعيدة .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، حين هاجر إلى المدينة ، وادعهم ،
وهاذهم ، فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه ، وهم باقون على دينهم ، لم يغير
عليهم شيئا .

فلما رأوا يوم الخندق ، الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله
وكثرتهم ، وقلة المسلمين ، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين ،
وساعد على ذلك ، تدجيل بعض رؤسائهم عليهم ، نقضوا العهد الذى بينهم
وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما لأوا المشركين على قتاله .

فلما خذل الله المشركين ، تفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقتالهم ،
فحاصرهم في حصنهم .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتَمِكُنَّ وَأَسْرَحِكُنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾

فزلوا على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فحكم فيهم ، أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبي ذراريهم ، وتغنم أموالهم .

فآثم الله لرسوله والمؤمنين ، المنة ، وأسبغ عليهم النعمة ، وأقر أعينهم ، مخذلان من المخذل من أعدائهم ، وقتل من قتلوا ، وأسر من أسروا ، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمرا .

* لما اجتمع نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغيرة ، وطلبن منه أمرا لا يقدر عليه في كل وقت ، ولم يزلن في طلبهن متفتحات ، وفي مرادهن متمنتات ، شق ذلك على الرسول ، حتى وصلت به الحال إلى أنه ، آلى منهن شهرا .

فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله ، ، وأن يرفع درجة زوجاته ، ويذهب عنهن كل أمر ينقص أجرهن ، فأمر رسوله أن يخبرهن فقال :

[يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتم تردن الحياة الدنيا وزينتها]
أى : ليس لكن في غيرها مطلب ، وصرتن ترضين لوجودها ، وتغضبن لفقدها ، فليس لى فيكن أرب وحاجة ، وأنتن بهذه الحال .

[فتعالين أمتمكن] شيئا مما عندى ، من الدنيا [وأسرحكن] .

أى : أفارقكن [سراحا جميلا] من دون مغاضبة ولا مشاتمة ، بل

بسعة صدر ، وانسراح بال ، قبل أن تبلغ الحال إلى مالا ينبغى .

وَإِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ
لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

[وَإِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالدارَ الْآخِرَةَ] أى : هذه الأشياء
مراد كن ، وغاية مقصود كن ، وإذا حصل لَكُنَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالجنة ،
لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها ، ويسرها وعسرها ، وقمعتن من رسول الله
بما تيسر ، ولم تطلبن منه ما يشق عليه .

[فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا] رتب الأجر على وصفهن
بالإحسان ، لأنه السبب الموجب لذلك ، لا لكونهن زوجات الرسول فإن
مجرد ذلك ، لا يكفي ، بل لا يفيد شيئا ، مع عدم الإحسان .

فخبرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، فاخترن كلهن الله
ورسوله ، والدار الآخرة ، لم يتخلف منهن واحدة ، رضى الله عنهن .
وفي هذا التخيير فوائد عديدة :

منها : الاعتناء برسوله ، والغيرة عليه ، أن يكون بحالة يشق عليه
كثرة مطالب زوجاته الدنيوية .

ومنها : سلامته صلى الله عليه وسلم ، بهذا التخيير من تبعة حقوق
الزوجات ، وأنه يبقى في حرية نفسه ، إن شاء أعطى ، وإن شاء منع « ما كان
على النبي من حرج فيما فرض الله له » .

ومنها : تنزيهه عما لو كان فيهن ، من تؤثر الدنيا على الله ورسوله ،
والدار الآخرة ، وعن مقارنتها .

ومنها : سلامة زوجاته ، رضى الله عنهن ، عن الإثم ، والتعرض لسخط
الله ورسوله .

يُنِسَاءُ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفُ
لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ

فحسب الله بهذا التخيير عنهن ، التسنخ على الرسول ، الموجب لسنخه ،
المسنخ لربه ، الموجب لعقابه .

ومنها : إظهار رفعتهم ، وعلو درجاتهم ، وبيان علو هممهم ، أن كان
الله ورسوله والدار الآخرة ، مرادهن ومقصودهن ، دون الدنيا وحطامها .

ومنها : استعدادهن بهذا الاختيار ، للأمر المختار للوصول إلى خيار
درجات الجنة ، وأن يكن زوجاته في الدنيا والآخرة .

ومنها : ظهور المناسبة بينه وبينهن ، فإنه أكمل ، وأراد الله أن تكون
نساؤه ، كاملات مكملات ، طيبات مطيبات « الطيبات للطيبين والطيبون
للطيبات » .

ومنها : أن هذا التخيير داع ، وموجب للقناعة ، التي يطمئن لها القلب ،
وينشرح لها الصدر ، ويزول عنهن جشع الحرص ، وعدم الرضا الموجب
لقلق القلب واضطرابه ، وهمه وغمه .

ومنها : أن يكون اختيارهن هذا ، سببا لزيادة أجرهن ومضاعفته ،
وأن يكن بمرتبة ، ليس فيها أحد من النساء ، ولهذا قال : [يا نساء النبي]
إلى [رزقا كريما] .

* لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، ذكر مضاعفة أجرهن ،
ومضاعفة وزرهن وإثمنهن ، لو جرى منهن ، ليزداد حذرهن ، وشكرهن
الله تعالى ، فجعل لمن أتى منهن بفاحشة ظاهرة ، العذاب ضعفين .

مِنْكَنَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلُ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا

هَآ رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

يُنْسَاءُ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ

فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا

[ومن يقنت منكن] أى : تطيع [لله ورسوله وتعمل صالحا] قليلا

أو كثيرا .

[نؤتها أجرها مرتين] أى : مثل ما تعطى غيرها مرتين [وأعتدنا

ها رزقا كريما] وهى الجنة .

قنتن لله ورسوله ، وعملن صالحا ، فعلم بذلك أجرهن .

* يقول تعالى : [يا نساء النبي] خطاب لمن كلهن [لستن كأحد من

النساء إن اتقيتن] الله ، فإنكن بذلك ، تفقن النساء ، ولا يلحقكن أحد

من النساء ، فكلن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها .

فلهذا أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم فقال : [فلا تخضعن بالقول]

أى : فى مخاطبة الرجال ، أو بحيث يسمعون فتلن فى ذلك ، وتتكلمن

بكلام رقيق .

[فيطمع الذى فى قلبه مرض] أى : مرض شهوة الحرام ، فإنه مستعد ،

ينتظر أدنى محرك يحركه ، لأن قلبه غير صحيح فإن القلب الصحيح ، ليس

فيه شهوة لما حرم الله ، فإن ذلك لا تسكاد تميئه ولا تحركه الأسباب ، لصحة

قلبه ، وسلامته من المرض .

مخلاف مريض القلب ، الذى لا يتحمل ما يتحمل الصحيح ، ولا يبصر على ما يبصر عليه .

فأذى سبب يوجد ، ويدعوه إلى الحرام ، يجيب دعوته ، ولا يتعاصى عليه .

فهذا دليل على أن الوسائل ، لها أحكام المقاصد .

فإن الخضوع بالقول ، واللين فيه ، فى الأصل مباح .

ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم ، منع منه .

ولهذا ينبغى للمرأة فى مخاطبة الرجال ، أن لا تَلينَ لهم القول .

ولما نهان عن الخضوع فى القول ، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ

القول ، دفع هذا بقوله : [وقلن قولا معروفا] أى : غير غليظ ، ولا جاف كما أنه ليس بليِّنٍ خاضع .

وتأمل كيف قال : [فلا تخضعن بالقول] ولم يقل « فلا تَلينَ بالقول »

وذلك لأن المنهى عنه ، القول اللين ، الذى فيه خضوع المرأة للرجل ، وانكسارها عنده .

والخاضع ، هو الذى يطمع فيه .

بمخلاف من تكلم كلاما ليئا ، ليس فيه خضوع ، بل ربما صار فيه ترفع

وقهر للخصم ، فإن هذا ، لا يطمع فيه خصمه .

ولهذا مدح الله رسوله باللين فقال : « فبما رحمة من الله لنت لهم » وقال

لموسى وهرون « اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » .

مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنٌ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ
الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

ودل قوله [فيطمع الذي في قلبه مرضى] مع أمره بحفظ الفرج ومثاقبه
على الحافظين لفروجهم ، والحافظات ، ونهيه عن قربان الزنا ، أنه ينبغي
للعبد ، إذا رأى من نفسه هذه الحالة ، وأنه يهش لفعل المحرم عندما يرى ،
أو يسمع كلام من يهواه ، ويمجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام .

فَلْيَعْرِفْ أَنْ ذَلِكَ مَرَضٌ .

فَلْيَجْتَهِدْ فِي إِضْعَافِ هَذَا الْمَرَضِ وَحَسْمِ الْخَوَاطِرِ الرَّدِيَّةِ ، وَمُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ
عَلَى سَلَامَتِهَا مِنْ هَذَا الْمَرَضِ الْخَطِرِ ، وَسُؤَالِ اللَّهِ الْعِصْمَةَ وَالتَّوْفِيقَ ، وَأَنْ ذَلِكَ
مِنْ حِفْظِ الْفَرْجِ لِلْأُمُورِ بِهِ .

[وقرن في بيوتكن] أي : اقررن فيها ، لأنه أسلم وأحفظ لكن .

[ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى] أي : لا تكترن الخروج متجملات

أو متطييات ، كعادة أهل الجاهلية الأولى ، الذين لا علم عندهم ولا دين ،
فكل هذا دفع للشر وأسبابه .

ولما أمرهن بالتقوى عموماً ، وبجزئيات من التقوى ، نص عليها لحاجة

النساء إليها كذلك ، أمرهن بالطاعة ، خصوصاً الصلاة والزكاة ، اللتان
محتاجهما ، ويضطر إليهما كل أحد ، وهما أكبر العبادات ، وأجل الطاعات .

وفي الصلاة ، الإخلاص المعبود ، وفي الزكاة ، الإحسان إلى العبيد .

ثم أمرهن بالطاعة عموماً ، فقال : [وأطعن الله ورسوله] يدخل في

طاعة الله ورسوله ، كل أمر ، أمراً به أمر إيجاب أو استحباب .

[إنما يريد الله] بأمركن بما أمركن به ، ونهيكن عما نهاكن عنه .

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

[ليذهب عنكم الرجس [أى : الأذى ، والشر ، والخبث ، يا [أهل
البيت ويطهركم تطهيرا] حتى تكونوا طاهرين مطهرين .

أى : فاحمدوا ربكم ، واشكروه على هذه الأوامر والنواهي ، التي
أخبركم بمصلحتها ، وأنها محض مصلحتكم ، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك
حرجا ولا مشقة ، بل لتتزكى نفوسكم ، وتتطهر أخلاقكم ، وتحسن أعمالكم
ويعظم بذلك أجركم .

ولما أمرهن بالعمل ، الذي هو فعل وترك ، أمرهن بالعلم ، وبين لهن
طريقه فقال :

[واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة] والمراد بآيات
الله ، القرآن ، والحكمة : أسراره ، وسنة رسوله .

وأمرهن بذكره ، يشمل ذكر لفظه ، بتلاوته ، وذكرا معناه ، بقدره
والتفكير فيه ، واستخراج أحكامه وحكمه ، وذكرا العمل به وتأويله .

[إن الله كان لطيفا خبيرا] يدرك سرائر الأمور ، وخفايا الصدور ،
وخبايا السموات والأرض ، والأعمال التي تبين وتسرى .

فلطفه وخبيرته ، يقف على حثمن على الإخلاص وإسرار الأعمال ، ومجازاة
الله على تلك الأعمال .

ومن معانى « اللطيف » الذى يسوق عبده إلى الخير ، ويعصمه من

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ
وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ

الشر ، بطرق خفية لا يشعر بها ، ويسوق إليه من الرزق ، مالا يدرىه ،
ويريه من الأسباب ، التي تسكرها النفوس : ما يكون ذلك طريقا له ، إلى
أعلى الدرجات ، وأرفع المنازل .

* لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعقابهن
لو قدر عدم الامتثال ، وأنه ليس مثلهن أحد من النساء ، ذكر بقية
النساء غيرهن .

ولما كان حكمهن وحكم الرجال واحد ، جعل الحكم مشتركا فقال :
[إن المسلمين والمسلمات] وهذا في الشرائع الظاهرة ، إذا كانوا
قائمين بها .

[والمؤمنين والمؤمنات] وهذا في الأمور الباطنة ، من عقائد
القلب وأعماله .

[والقانتين] أى : المطيعين لله ورسوله [والقانتات والصادقين] في
مقالمهم وفعالهم [والصادقات] .

[والصابرين] على الشدائد والمصائب [والصابرات والخاشعين]
في جميع أحوالهم ، خصوصا في عباداتهم ، ولا سيما في صلواتهم
[واخاشعات] .

[والمتصدقين] فرضا ونفلا [والمتصدقات والصامتين والصائمات]
شمل ذلك ، الفرض والنفل .

وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ وَاللَّذَا كَرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴿٣٥﴾
﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ

[والحافظين فروجهم] عن الزنا ومقدماته ، [والحافظات] .

[والذَّاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا] أى : فى أ كثر الأوقات ، خصوصا أوقات
الأوراد المقيدة ، كالصباح والمساء ، أو بالصلوات المكتوبات [والذَّاكِرَاتِ] .

[أعد الله لهم] أى : لهؤلاء الوصوفين بتلك الصفات الجميلة ، والمناقب
الجليلة ، التى هى ، ما بين اعتقادات ، وأعمال قلوب ، وأعمال جوارح ،
وأقوال لسان ، ونفع متعد وقاصر ، وما بين أفعال الخير ، وترك الشر ،
الذى من قام بهن ، فقد قام بالدين كله ، ظاهره وباطنه ، بالإسلام والإيمان
والإحسان .

فجازاهم على عملهم [مغفرة] لذنوبهم ، لأن الحسنات يذهبن
السيئات .

[وأجرا عظيما] لا يقدر قدره ، إلا الذى أعطاه ، بما لا عين رأت ،
ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، نسأل الله أن يجعلنا منهم .

* [وما كان لمؤمن ولا مؤمنة] أى : لا ينبغي ولا يليق ، من اتصف
بالإيمان ، إلا الإسراع فى مرضاة الله ورسوله ، والهرب من سخط الله ورسوله ،
وامتثال أمرها ، واجتناب نهيبها :

فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة [إذا قضى الله ورسوله أمرا] من الأمور ،

أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ﴿٣٦﴾
وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ

وَحَتْمًا بِهِ وَأُزْمًا بِهِ [أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ] أَي : الْخِيَارُ ، هَلْ
يَفْعَلُوهُ أَمْ لَا ؟

بَلْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُؤْمِنَةُ ، أَنَّ الرَّسُولَ أَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِهِ .

فَلَا يَجْعَلُ بَعْضُ أَهْوَاءِ نَفْسِهِ حُجَابًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

[وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا] أَي : بَيِّنًا ، لِأَنَّهُ تَرَكَ

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الْمَوْصِلَةَ إِلَى كَرَامَةِ اللَّهِ ، إِلَى غَيْرِهَا ، مِنَ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةَ
لِلْعَذَابِ الْأَلِيمِ .

فَذَكَرَ أَوَّلًا ، السَّبَبَ الْمَوْجِبَ لِعَدَمِ مَعَارِضَةِ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ،

وَهُوَ الْإِيْتَانُ .

ثُمَّ ذَكَرَ الْمَسَانِعَ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ التَّخْوِيفُ بِالضَّلَالِ ، الدَّالُّ عَلَى الْعُقُوبَةِ

وَالنَّكَالِ .

* وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ، أَرَادَ أَنْ يَشْرَعَ شَرْعًا

عَامًّا لِلْمُؤْمِنِينَ ، أَنَّ الْأَدْعِيَاءَ لَيْسُوا فِي حُكْمِ الْأَبْنَاءِ حَقِيقَةً ، مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ

وَأَنَّ أَزْوَاجَهُمْ ، لَا جَنَاحَ عَلَى مَنْ تَبَنَاهُمْ ، فِي نِكَاحِهِمْ .

وَكَانَ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمَعْتَادَةِ ، الَّتِي لَا تَكَادُ تَزُولُ إِلَّا بِمُحَادَثِ كَبِيرٍ ،

فَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الشَّرْعُ قَوْلًا مِنْ رَسُولِهِ ، وَفِعْلًا ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا ،

جَعَلَ لَهُ سَبَبًا .

أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ

فكان زيد بن حارثة يدعى « زيد بن محمد » قد تبناه النبي صلى الله عليه وسلم ، فصار يدعى إليه حتى نزل [ادعوهم لأبائهم] فقيل له « زيد ابن حارثة » .

وكانت تحتها ، زينب بنت جحش ، ابنة عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد وقع في قلب الرسول ، لو طلقها زيد ، لتزوجها .

فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ، ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة ، يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في فراقها .

قال الله :

[وإذ تقول للذي أنعم الله عليه [أى : بالإسلام] وأنعمت عليه]

بالتق والإرشاد ، والتعليم ، حين جاءك مشاورا في فراقها :

فقلت له - ناصحا له ونخبرا بمصلحته ، مقدا لها على رغبتك ، مع

وقوعها في قلبك :

[أمسك عليك زوجك] أى : لا تنارقها ، واصبر على ما جاءك منها

[واتق الله] تعالى في أمورك عامة ، وفي أمر زوجك خاصة فإن التقوى ،

تحث على الصبر ، وتأمرك به .

[وتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ] والذي أخفاه ، أنه لو طلقها زيد ،

لتزوجها صلى الله عليه وسلم .

وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا
زَوَّجْنَاكِهَا لِكُنَى لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ
أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

[وتخشى الناس] في عدم إبداء ما في نفسك [والله أحق أن تخشاه] .
فإن خشيته ، جالبة لكل خير ، مانعة من كل شر .
[فلما قضى زيد منها وطرا] أى : طابت نفسه ، وورغب عنها ،
وفارقها .

[زوجنا كها] وإنما فعلنا ذلك ، لفائدة عظيمة ، وهى :

[لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم] حيث رأوك
تزوجت ، زوج زيد بن حارثة ، الذى كان من قبل ، ينتسب إليك .

ولما كان قوله [لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم]
عاما فى جميع الأحوال ، وكان من الأحوال ، مالا يجوز ذلك ، وهى قبل
انقضاء وطره منها ، قيد ذلك بقوله : [إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر
الله مفعولا] أى : لا بد من فعله ، ولا عائق له ولا مانع .

وفى هذه الآيات المشتملات على هذه القصة ، فوائد :

منها : الثناء على زيد ابن حارثة ، وذلك من وجهين :

أحدهما : أن الله سماه فى القرآن ، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره .

والثانى : أن الله أخبر أنه أنعم عليه ، أى : بنعمة الإسلام والإيمان .

وهذه شهادة من الله له ، أنه مسلم مؤمن ، ظاهرا وباطنا ، وإلا ، فلا وجه

لتخصيصه بالنعمة ، إلا أن المراد بها ، النعمة الخاصة .
ومنها : أن المُتَمَتِّقَ في نعمة المُتَمَتِّقِ .
ومنها : جواز تزوج زوجة الدَّعِيِّ ، كما صرح به .
ومنها : أن التعليم الفعلي ، أبلغ من القولى ، خصوصا ، إذا اقترن
بالقول ، فإن ذلك ، نور على نور .
ومنها : أن المحبة في قلب العبد ، لغير زوجته ومملوكته ، ومحارمه ،
إذا لم يقترن بها محذور ، لا يَأْتُمُ عليها العبد ، ولو اقترن بذلك أمنيته ، أن
لو طلقها زوجها ، لتزوجها من غير أن يسعى في فرقة بينهما ، أو يتسبب
بأى سبب كان .
لأن الله أخبر ، الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنه أخفى ذلك في نفسه .
ومنها : أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد بلغ البلاغ المبين ، فلم
يدع شيئا مما أوحى إليه ، إلا وبلغه ، حتى هذا الأمر ، الذى فيه
عتابه .
وهذا يدل ، على أنه رسول الله ، ولا يقول إلا ما أوحى إليه ،
ولا يريد تعظيم نفسه .
ومنها : أن المستشار مؤتمن ، يجب عليه — إذا استشير فى أمر من
الأموار — أن يشير بما يعالجه أصلح للمستشير ، ولو لم يكن للمستشار حظ
نفس ، بتقديم مصلحة المستشار على هوى نفسه وغرضه .
ومنها : أن الرأى الحسن لمن استشار فى فراق زوجة أن يؤمر بإمسائها
مهما أمكن صلاح الحال ، فهو أحسن من الفرقة .

﴿٣٨﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾

ومنها : أنه يتعين ، أن يقدم العبد خشية الله ، على خشية الناس ، وأنها أحق منها وأولى .

ومنها : فضيلة أم المؤمنين ، زينب رضی الله عنها ، حيث تولى الله تزويجها ، من رسوله صلى الله عليه وسلم ، دون خطبة ولاشهود ، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات .

ومنها : أن المرأة ، إذا كانت ذات زوج ، لايجوز نكاحها ، ولا السعى فيه وفي أسبابه ، حتى يقضى زوجها وطره منها ، ولا يقضى وطره ، حتى تنقضى عدتها ، لأنها قبل انقضاء عدتها ، هي في عصمتها ، أو في حقه الذي له وطر إليها ، ولو من بعض الوجوه .

* هذا دفع لظن من ظن في الرسول صلى الله عليه وسلم ، في كثرة أزواجه ، وأنه ظن ، بما لا مظن فيه فقال : [ما كان على النبي من حرج] أى : إثم وذنب .

[فيما فرض الله له] أى : قدر له من الزوجات ، فإن هذا ، قد أباحه الله له ، كما أباحه للأنبيا قبله ، ولهذا قال : [سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا] أى : لا بد من وقوعه .

ثم ذكر من هم الذين قد خلوا من قبل ، وهذه سنتهم وعاداتهم ، وأنهم .

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ
وَكُنِيَ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾

﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن

[الذين يبلغون رسالات الله] فيتلون على العباد آيات الله ، وحججه
وبراهينه ، ويدعونهم إلى الله [ويخشونه] وحده لا شريك له [ولا يخشون
أحدًا] إلا الله .

فإذا كان هذا ، سنة في الأنبياء المعصومين ، الذين وظيفتهم قد أدوها
وقاموا بها ، أتم القيام ، وهو : دعوة الخلق إلى الله ، والخشية منه وحده
التي تقتضى فعل كل أمور ، وترك كل محذور .

[وكنى بالله حسيبا] محاسبا عباده ، مراقبا أعمالهم .

وعلم من هذا ، أن النكاح ، من سنن المرسلين .

* أى : [ما كان] الرسول [محمد] صلى الله عليه وسلم [أبا أحد من
رجالكم] أيها الأمة .

فقطع انتساب زيد بن حارثة منه ، من هذا الباب .

ولما كان هذا النفي عاما في جميع الأحوال ، إن ظاهر اللفظ على
ظاهره ، أى : أى لا أبوة نسب ، ولا أبوة ادعاء ، وكان قد تقرر فيما تقدم
أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أب للمؤمنين كلهم ، وأزواجه أمهاتهم
احتراز أن يدخل هذا النوع ، بعموم النهى المذكور فقال :

رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾
وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ

[ولكن رسول الله وخاتم النبيين] أى : هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع ، المهتدى به ، المؤمن له الذى يجب تقديم محبته ، على محبة كل كل أحد ، الناصح الذى لهم ، أى : للمؤمنين ، من بره ونصحه ، كأنه أب لهم .

[وكان الله بكل شيء علما] أى : قد أحاط علمه بجميع الأشياء ، ويعلم حيث يجعل رسالاته ، ومن يصلح لفضله ، ومن لا يصلح .
* يأمر تعالى المؤمنين ، بذكره ذكرا كثيرا ، من تهليل ، وتحميد ، وتسبيح ، وتكبير وغير ذلك ، من كل قول فيه قربة إلى الله .
وأقل ذلك ، أن يلازم الإنسان ، أورد الصباح ، والمساء ، وأدبار الصلوات الخمس ، وعند العوارض والأسباب .

وينبغي مداومة ذلك ، فى جميع الأوقات ، على جميع الأحوال .
فإن ذلك ، عبادة يسبق بها العامل ، وهو مستريح ، وداع إلى محبة الله ومعرفته ، وعون على الخير ، وكف اللسان عن الكلام القبيح .
[وسبحوه بكرة وأصيلا] أى : أول النهار وآخره ، لفضلهما ، وشرفهما ، وسهولة العمل فيهما .

[هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور

وَمَلَائِكَتُهُ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ
رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

وكان بالمؤمنين رحيمًا .

أى : من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم ، أن جعل من صلاته عليهم ،
وثنائه ، وصلاة ملائكته ودعائهم ، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب
والجهل ، إلى نور الإيمان ، والتوفيق ، والعلم ، والعمل .

فهذه أعظم نعمة ، أنعم بها على العباد الطائعين ، تستدعى منهم
شكرها ، والإكثار من ذكر الله ، الذى لطف بهم ورحمهم .

وجمل حملة عرشه ، أفضل الملائكة ، ومن حوله ، يسبحون بحمد ربهم
ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً
فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك . وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم
جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ،
إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد
رحمته ، وذلك الفوز العظيم » .

فهذه رحمته ونعمته عليهم فى الدنيا .

وأما رحمته بهم فى الآخرة ، فأجل رحمة ، وأفضل ثواب ، وهو الفوز
برضا ربهم ، وتحيته ، واستماع كلامه الجليل ، ورؤية وجهه الجميل ، وحصول
الأجر الكبير ، الذى لا يدرىه ولا يعرف كنهه ، إلا من أعطاهم إياه ،
ولهذا قال : [تحييتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريماً] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا

* هذه الأشياء ، التي وصف بها رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، هي المقصود من رسالته ، وزبدها وأصولها ، التي اختص بها وهي خمسة أشياء : أحدها كونه [شاهدا] أى : شاهدا على أمته بما عملوه ، من خير وشر ، كما قال تعالى « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا * وجئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » .

فهو صلى الله عليه وسلم شاهد عدل مقبول .

الثانى ، والثالث : كونه [مبشراً ونذيراً] وهذا يستلزم ذكر المبشر والنذر ، وما يبشر به وينذر ، والأعمال الموجبة لذلك .

فالمبشرون : المؤمنون المتقون ، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، وترك المعاصى .

لهم البشرى فى الحياة الدنيا ، بكل ثواب دنيوى ودينى ، رتب على الإيمان والتقوى .

وفى الآخرة بالنعيم المقيم .

وذلك كله يستلزم ، ذكر تفصيل المذكور ، من تفاصيل الأعمال ، وخصال التقوى ، وأنواع الثواب .

والمُنذَرُونَ ، هم : المجرمون الظالمون ، أهل الظلم والجهل .

لهم النذارة فى الدنيا ، من العقوبات الدنيوية والدينية ، المترتبة على الجهل والظلم .

وفى الآخرة ، بالعقاب الوبيل ، والمذاب الطويل .

وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِيرٍ
الْمُؤْمِنِينَ بَأَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تَطِعْ

وهذه الجملة تفصيلها ، ما جاء به صلى الله عليه وسلم ، من الكتاب
والسنة ، المشتمل على ذلك .

الرابع : كونه [داعيا إلى الله] أى : أرسله الله ، يدعو الخلق إلى ربهم ،
ويشوقهم لكرامته ، ويأمرهم بعبادته ، التي خلقوا لها .

وذلك يستلزم استقامته ، على ما يدعو إليه ، وذكر تفاصيل ما يدعو
إليه ، بتعريفهم لربه ، بصفاته المقدسة ، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله ، وذكر
أنواع العبودية ، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه ، وإعطاء
كل ذى حق حقه ، وإخلاص الدعوة إلى الله ، لا إلى نفسه وتعظيمها ،
كما قد يعرض ذلك لكثير من الففوس في هذا المقام .

وذلك كله [بإذنه] تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره .

الخامس : كونه [سراجاً منيراً] ، وذلك يقتضى أن الخلق في ظلمة
عظيمة ، لا نور ، يهتدى به في ظلماتها ، ولا علم ، يستدل به في جهاتها .
حتى جاء الله بهذا النبي الكريم ، فأضاء الله به تلك الظلمات ، وعلم
به من الجهالات ، وهدى به ضللاً إلى الصراط المستقيم .

فأصبح أهل الاستقامة ، قد وضح لهم الطريق ، فمشوا خلف هذا الإمام
وعرفوا به الخير والشر ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة ، واستناروا به ،
لمعرفة معبودهم ، وعرفوه بأوصافه الحميدة ، وأفعاله السديدة ، وأحكامه
الرشيدة .

وقوله [وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً] ذكر في هذه

الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَدْهَمُ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ

الجملة ، المبشّرين ، وهم المؤمنون ، وعند ذكر الإيمان بمفرده ، تدخل فيه الأعمال الصالحة .

وذكر المبشّره ، وهو الفضل الكبير ، أى : العظيم الجليل ، الذى لا يقادر قدره ، من النصر فى الدنيا ، وهداية القلوب ، وغفران الذنوب ، وكشف الكروب ، وكثرة الأرزاق الدارّة ، وحصول النعم السارة ، والغور برضا ربهم وثوابه ، والنجاة من سخطه وعقابه .

وهذا مما ينشط العاملين ، أن يذكر لهم ، من ثواب الله على أعمالهم ، ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم .

وهذا من جملة حكم المشرع ، كما أن من حكمه ، أن يذكر فى مقام الترهيب ، العقوبات المترتبة على ما يرهب منه ، ليكون عوناً على الكف ، عما حرم الله .

ولما كان ثمّ طائفة من الناس ، مستعمدة للقيام بصد الداعين إلى الله ، من الرسل وأتباعهم ، وهم للنافقون ، الذين أظهروا الموافقة فى الإيمان ، وهم كفرة فجرة فى الباطن ، والكفار ظاهراً وباطناً ، نهى الله رسوله عن طاعتهم ، وحذره ذلك فقال :

[ولا تطع الكافرين والمنافقين] أى : فى كل أمر يصدعن سبيل الله . ولكن لا يقتضى هذا أذاهم ، بل لا تطعمهم [ودع أذاهم] فإن ذلك ، جالب لهم ، وداع إلى قبول الإسلام ، وإلى كف كثير من أذيتهم له ، ولأهله .

[وتوكل على الله] فى إتمام أمرك ، وخذلان عدوك .

وَكَيلاً ﴿٤٨﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ
طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ

[وكنى بالله وكيلاً] تُوكَلُ إليه الأمور المهمة ، فيقوم بها ، ويسهلها
على عبده .

* يخبر تعالى المؤمنين ، أنهم إذا نكحوا المؤمنات ، ثم طلقوهن من
قبل أن يمسوهن ، فليس عليهن في ذلك ، عدة تعتدها أزواجهن عليهن .
وأمرهم بتمتعهم بهذه الحالة ، بشيء من متاع الدنيا ، الذي يكون فيه
جبر لخواطرهن ، لأجل فراقهن ، وأن يفارقوهن فراقاً جميلاً ، من غير
مخاصمة ، ولا مشامة ، ولا مطالبة ، ولا غير ذلك .

ويستدل بهذه الآية ، على أن الطلاق ، لا يكون إلا بعد النكاح .
فلو طلقها قبل أن ينكحها ، أو علق طلاقها على نكاحها ، لم يقع ،
لقوله : [إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ] فجعل الطلاق بعد النكاح .
فدل على أنه قبل ذلك ، لا محل له .

وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة ، وتحريم تام ، لا يقع قبل النكاح ،
فالتحريم الناقص ، لظهار ، أو إيلاء ونحوه ، من باب أولى وأحرى ،
أن لا يقع قبل النكاح ، كما هو أصح قَوْلِي العلماء .

وعلى جواز الطلاق ، لأن الله أخبر به عن المؤمنين ، على وجه لم يلهم
عليه ، ولم يؤنبهم ، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين .

تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ

وعلى جوازه قبل المسيس ، كما قال في الآية الأخرى « لا جناح عليكم إن طلقتم النساء من قبل أن تمسوهن » .

وعلى أن المطلقة قبل الدخول ، لا عدة لها ، بل بمجرد طلاقها ، يجوز لها التزوج ، حيث لا مانع .

وعلى أن عليها العدة ، بعد الدخول .

وهل المراد بالدخول والمسيس ، الوطء كما هو مجمع عليه ؟

أر ، وكذلك الخلوة ، ولو لم يحصل معها وطء ، كما أفتي بذلك الخلفاء الراشدون ، وهو الصحيح .

فمتى دخل عليها ، وطئها ، أم لا ، إذا خلاها ، وجب عليها العدة .
وعلى أن المطلقة قبل المسيس ، تتمتع على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره .

ولكن هذا ، إذا لم يفرض لها مهر ، فإن كان لها مهر مفروض ، فإنه إذا طلق قبل الدخول ، تَنَصَّفَ المهر ، وكفى عن المتعة .

وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده ، أن يكون الفراق جميلا ، يحمد فيه كل منهما الآخر .

ولا يكون غير جميل ، فإن في ذلك ، من الشر المترتب عليه ، من قدح كل منهما بالآخر ، شيء كثير .

وعلى أن العدة حق للزوج .

إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينِكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ
خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأُمَّرَاءً مَثُومِينَ

فقوله [فما لكم عليهن من عدة] دل مفهومه ، أن لو طلقها بعد المسيس ،
كان له عليها عدة .

وعلى أن المفارقة بالوفاة ، تعدد مطلقا ، لقوله [ثم طلقتموهن] الآية .
وعلى أن من عدا غير المدخول بها ، من المفارقات من الزوجات ،
بموت أو حياة ، عليهن العدة .

* يقول تعالى ، متمنا على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك فيه ، هو
والمؤمنون ، وما ينفرد به ، ويختص : [يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك
اللاتي آتيت أجورهن] أي : أعطيتهن مهورهن ، من الزوجات .
وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين ، فإن المؤمنين كذلك ،
يباح لهم من آتوهن أجورهن ، من الأزواج .

[و] كذلك أحللنا لك [ما مَلَكَت يَمِينِكَ] أي الإماء التي مَلَكَت
[مما أفاء الله عليك] من غنيمة الكفار من عبيدهم ، والأحرار من لمن
زوج منهم ، ومن لا زوج لمن ، وهذا أيضا مشترك .

وكذلك من المشترك ، قوله [وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك
وبنات خالاتك] شمل العم والعمة ، والنخال والنخالة ، القريين والبعدين ،
وهذا حصر المحللات .

إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ
مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ

يؤخذ من مفهومه ، أن ما عداهن من الأقارب ، غير محلل ، كما تقدم
في سورة النساء .

فإنه لا يباح من الأقارب من النساء ، غير هؤلاء الأربع ، وما عداهن
من الفروع مطلقا ، والأصول مطلقا ، إلا فروع الأب والأم ، وإن نزلوا ،
وفروع من فوقهم لصلبه ، فإنه لا يباح .

وقوله [اللأى هاجرن] قيد لحل هؤلاء للرسول ، كما هو الصواب
من القولين ، في تفسير هذه الآية .

وأما غيره عليه الصلاة والسلام ، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة .

[و] أحلنا لك [امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي] بمجرد
هبتها نفسها .

[إن أراد النبي أن يستنكحها] أى : هذا تحت الإرادة والرغبة .

[خالصة لك من دون المؤمنين] يعنى : إباحة الموهوبة .

وأما المؤمنون ، فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة ، بمجرد هبتها
نفسها لهم .

[قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم] أى :
قد علمنا ما على المؤمنين ، وما يحل لهم ، وما لا يحل ، من الزوجات
وملك اليمين .

وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلًا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

﴿٥٠﴾ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ

وقد أعلمناهم بذلك ، وبيننا فرائضه .

فما في هذه الآية ، مما يخالف ذلك ، فإنه خاص ، لكون الله جعله
خطابا للرسول وحده بقوله [يا أيها النبي إنا أحلنا لك] إلى آخر الآية .
وقوله [خالصة لك من دون المؤمنين] أي : وأبجنا لك يا أيها النبي
ما لم نبيح لهم ، ووسعنا عليك ما لم نوسع على غيرك .

[لسكيلا يكون عليك حرج] وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله
صلى الله عليه وسلم .

[وكان الله غفورا رحيما] أي : لم يزل متصفا بالمغفرة والرحمة ، وينزل
على عباده من مغفرتة ورحمته ، وجوده وإحسانه ، ما اقتضته حكيمته ، ووجدت
منهم أسبابه .

* وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به ، أن أباح له ترك
القسم بين زوجته ، على وجه الوجوب ، وأنه إن فعل ذلك ، فهو ذرع منه .
ومع ذلك ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يجتهد في القسم بينهن في كل
شيء ، ويقول « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلني فيما لا أملك » .

فقال هنا : [ترجي من تشاء منهن] أي : تؤخر من أردت من
زوجاتك فلا تؤويها إليك ، ولا تبئت عندها .

[وتؤوي إليك من تشاء] أي : تضمها وتبئت عندها .

وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ
أَعْيُنُهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي
قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٥١﴾

[و] مع ذلك لا يتعين هذا الأمر [من ابتغيت] أى : أن تؤويها
[من عزلت فلا جناح عليك] .

والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله .

وقال كثير من المفسرين : إن هذا خاص بالواهبات ، له أن يرجى من
يشاء ، ويؤوى من يشاء .

أى : إن شاء قبل من وهبت نفسها له ، وإن شاء لم يقبلها ، والله أعلم .
ثم بين الحكمة في ذلك فقال [ذلك] أى : التوسعة عليك ، وكون
الأمر راجعاً إليك وبيدك ، وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك [أذنى
أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن] لعلمهن أنك لم تترك
واجباً ، ولم تفرط في حق لازم .

[والله يعلم ما في قلوبكم] أى : ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة
والمستحبة ، وعند الزاخرة في الحقوق ، فلذلك شرع لك التوسعة بإرسول
الله ، لتطمئن قلوب زوجاتك .

[وكان الله عليماً حكيماً] أى : واسع العلم ، كثير الحلم .
ومن علمه ، أن شرع لكم ما هو أصح لأموالكم ، وأكثر لأجوركم .
ومن حلمه ، أن لم يعاقبكم بما صدر منكم ، وما أصرت عليه قلوبكم
من الشر .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ (٥٢)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا

* وهذا شكر من الله ، الذى لم يزل شكوراً ، لزوجات رسوله ، رضى الله عنهن ، حيث اخترن الله ورسوله ، والدار الآخرة ، أن رحمن ، وقصر رسوله عليهن فقال :

[لا يحل لك النساء من بعد] زوجاتك الموجودات [ولا أن تبدل بهن من أزواج] أى : ولا أن تطلق بعضهن ، فتأخذ بدلها .

فحصل بهذا ، أمنهن من الضرائر ، ومن الطلاق ، لأن الله قضى أمنهن زوجاته فى الدنيا والآخرة ، لا يكون بينه وبينهن فرقة .

[ولو أعجبك حسنهن] أى : حسن غيرهن ، فلا يحلن لك [إلا ما ملكت يمينك] أى السرارى ، فذلك جائز لك ، لأن المملوكات ، فى كراهة الزوجات ، لسن بمنزلة الزوجات ، فى الإضرار للزوجات .

[وكان الله على كل شىء رقيباً] أى : مراقباً للأمر ، وعالماً بما إليه تنول ، وقائماً بتديدها على أكل نظام ، وأحسن أحكام .

* يأمر تعالى عباده المؤمنين ، بالتأدب مع رسول الله صل الله عليه وسلم ، فى دخول بيوته فقال :

[يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام] .

أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْخَلْقِ وَإِذَا

أى : لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها ، لأجل الطعام .

وأيضاً [غير : ناظرين إياه] أى : منتظرين استوائه ، ومتحيين نضجه ، أو سعة صدر بعد الفراغ منه .

والمعنى : إنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين :

الإذن لكم بالدخول ، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة ، ولهذا قال :

[ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث] أى : قبل الطعام وبعده .

ثم بين حكمة النهى وفائدته فقال : [إن ذلكم] أى : انتظاركم الزائد على الحاجة .

[كان يؤذى النبي] أى : يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شئون بيته ، وإشغاله فيه [فيستحي منكم] أن يقول لكم « اخرجوا » كما هو جارى العادة ، أن الناس - وخصوصاً أهل الكرم منهم - يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم .

[و] لكن [الله لا يستحي من الحق] .

فالأمر الشرعى ، ولو كان يتوهم أن فى تركه أدبا وحياء ، فإن الحزم

سَأَلْتُمُوهُمْ مَتَعًا فَسَأَلُوهُمْ مِنْ وَّرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ
لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ

كل الحزم ، اتباع الأمر الشرعى ، وأن يجزم أن ما خالفه ، ليس من
الأدب فى شىء .

والله تعالى لا يستحى أن يأمركم ، بما فيه الخير لكم ، والرفق لرسوله
كائنا ما كان .

فهذا أدبهم فى الدخول فى بيوته .

وأما أدبهم معه فى خطاب زوجاته ، فإنه ، إما أن يحتاج إلى ذلك ،
أو لا يحتاج إليه .

فإن لم يحتاج إليه ، فلا حاجة إليه ، والأدب تركه .

وإن احتجج إليه ، كأن يسألن متاعا ، أو غيره من أوانى البيت
أو نحوها ، فإنهن يسألن [من وراء حجاب] أى : يكون بينكم وبينهن
ستر ، يستر عن النظر ، لعدم الحاجة إليه .

فصار النظر إليهن ممنوعا بكل حال ، وكلامهن فيه التفصيل ، الذى
ذكره الله .

ثم ذكر حكمة ذلك بقوله : [ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن] لأنه أبعد
عن الريبة .

وكلمة بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر ، فإنه أسلم له ،
وأطهر لقلبه .

تَنكحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ
عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تُبَدُّوْا شَيْئًا أَوْ تُخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

فهذا ، من الأمور الشرعية التي بين الله كثيراً من تفاصيلها ، أن
جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ، ممنوعة ، وأنه مشروع ، البعد
عنها ، بكل طريق .

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة : [وما كان لكم] يامعشر المؤمنين ،
أى : غير لائق ولا مستحسن منكم ، بل هو أقبح شيء .

[أن تؤذوا رسول الله] أى : أذية قولية أو فعلية ، بجميع ما يتعلق به .
[ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً] هذا من جملة ما يؤذيه ،
فإنه صلى الله عليه وسلم ، له مقام التعظيم ، والرفعة والإكرام ، وتزوج
زوجاته بعده ، محل بهذا المقام .

وأيضاً ، فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة ، والزوجية باقية بعد موته ،
قل ذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده ، لأحد من أمته .

[إن ذلكم كان عند الله عظيماً] وقد امتثلت هذه الأمة ، هذا الأمر ،
واجتنبت ما نهى الله عنه منه ، والله الحمد والشكر .

ثم قال تعالى [إن تبدوا شيئاً أى تظهروه] أو تخفوه فإن الله كان
بكل شيء عليماً [يعلم ما فى قلوبكم ، وما أظهرتموه ، فيجازيكم عليه .

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِنَا وَلَا أَبْنَاؤِنَا وَلَا إِخْوَانِنَا وَلَا أُمَّهَاتِنَا وَلَا أَوْلَادِنَا وَلَا إِخْوَانِنَا وَلَا أُمَّهَاتِنَا وَلَا أَوْلَادِنَا وَلَا نِسَائِنَا وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُنَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٥٥)

لما ذكر أنهم لا يسألن متاعا إلا من وراء حجاب ، وكان اللفظ عاما لكل أحد ، احتيج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون ، من المحارم ، وأنه [لا جناح عليهن] في عدم الاحتجاب عنهم .

ولم يذكر فيها الأعمام ، والأخوال ، لأنهن إذا لم يحتجبن عنهن عماتهن وخالاتهن ، من أبناء الإخوة والأخوات ، مع رفعتن عليهم ، فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن ، من باب أولى ، ولأن منطوق الآية الأخرى ، المصروفة بذكر العم والخال ، مقدمة ، على ما يفهم من هذه الآية .

وقوله [ولا نسائهن] أى اللاتي بن جنسهن في الدين ، فيكون ذلك مخرجا لنساء الكفار .

ويحتمل أن المراد جنس النساء ، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة .

[ولا ما ملكت إيمانهن] ما دام العبد في ملكها جميعه .

ولما رفع الجناح عن هؤلاء ، شرط فيه وفي غيره ، لزوم تقوى الله ، وأن لا يكون في ذلك محذور شرعى فقال :

[واتقوا الله] أى : استعملن تقواه في جميع الأحوال [إن الله كان

على كل شيء شهيدا] يشهد أعمال العباد ، ظاهرها وباطنها ، ويسمع أقوالهم ، ويرى حركاتهم ، ثم يجازيهم على ذلك ، أتم الجزاء وأوفاه .

﴿٥٦﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴿٥٦﴾

وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفعة
درجته ، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه ، ورفع ذكره .

و [إن الله] تعالى [وملائكته يصلون على النبي] أي : يثنى الله عليه
بين الملائكة ، وفي الملائكة الأعلى ، لمحبتته تعالى إياه .

ويثنى عليه الملائكة المقربون . ويدعون له يتضرعون .

[يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما] اقتداء بالله وملائكته ،
وجزاء له على بعض حقوقه عليكم ، وتكميلا لإيمانكم ، وتعظيما له صلى الله
عليه وسلم ، ومحبة وإكراما ، وزيادة في حسناتكم ، وتكفيرا عن سيئاتكم .
وأفضل هيئات الصلاة عليه^(١) عليه الصلاة والسلام ، ما علمه أصحابه
« اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد »
وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات وأوجبة كثير
من العلماء في الصلاة .

(١) قوله « وأفضل هيئات الصلاة عليه الخ . » يعني : كيفية الصلاة
عليه صلى الله عليه وسلم ولكن الرواية التي ذكرها مبتورة والكيفية التي
ذكرها البخاري في صحيحه هي « اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت
على آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على
آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

﴿٥٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا
مُهِينًا ﴿٥٨﴾ ﴿٥٨﴾

لما أمر تعالى بتعظيم رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبالصلاة والسلام
عليه ، نهى عن أذيته ، وتوعد عليها فقال :
[إن الذين يؤذون الله ورسوله] وهذا يشمل كل أذية ، قولية
أو فعلية ، من سب و شتم ، أو تنقص له ، أو لدينه ، أو ما يعود إليه بالأذى .
[لعنهم الله في الدنيا] أى : أبعدهم وطردهم ، ومن لعنهم في الدنيا ،
أنه يتحتم قتل من شتم الرسول ، وآذاه .
[والآخرة وأعد لهم عذابا أليما] جزاء له على آذاه ، أن يؤذى
بالعذاب الأليم .
فأذية الرسول ، ليست كأذية غيره ، لأنه لا يؤمن العبد بالله ، حتى
يؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم .
وله من التعظيم ، الذى هو من لوازم الإيمان ، ما يقتضى ذلك ، أن
لا يكون مثل غيره .
وإن كان أذية المؤمنين عظيمة ، وإثمها عظيما ، ولهذا قال فيها :
[والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا] أى : بغير جنابة
منهم موجبة للأذى [فقد احتملوا] على ظهورهم [بهتاناً] حيث آذوهم
بغير سب [وإثما مبينا] حيث تعدوا عليهم ، وانتهكوا حرمة أمر الله
باحترامها .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ
الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ

ولهذا كان سب آحاد المؤمنين ، موجبا للتعزير ، بحسب حالته
وعلو مرتبته .

فتعزير من سب الصحابة أبلغ ، وتعزير من سب العلماء ، وأهل
الدين ، أعظم من غيرهم .

* هذه الآية ، هي التي تسمى آية الحجاب ، فأمر الله نبيه ، أن يأمر النساء
عموماً ، ويبدأ بزوجاته وبناته ، لأنهن أكد من غيرهن ، ولأن الأمر لغيره ،
ينبغي أن يبدأ بأهله ، قبل غيرهم كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا
أنفسكم وأهليكم ناراً » .

أن [يدنين عليهن من جلابيبهن] وهن اللاتي^(١) يكن فوق الثياب
من ملحفة وخمار ورداء ونحوه ، أي : يغطين بها ، وجوههن وصدورهن .
ثم ذكر حكمة ذلك فقال : [ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين] دل على
وجود أذية ، إن لم يحتجبن ، وذلك ، لأنهن إذا لم يحتجبن ، ربما ظن أنهن
غير عفيفات ، فيتعرض لهن من في قلبه مرض ، فيؤذيهن .

(١) قوله « وهن اللاتي الخ » الصواب أن يقال « وهي التي تكون
فوق الثياب الخ » لأن كلمة « هن » لا تستعمل إلا في العقلاء ، فلا يقال
« الثياب اللاتي اشتريتهن والكتب اللاتي بعتهن » بل يقال : « الثياب
التي اشتريتها والكتب التي بعتهن » .

فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَنْ لَمْ يَنْتَهَ الْمُنَافِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ

وربما استهين بهم ، وظن أنهم إماماء ، فتهاون بهم من يريد الشر .
فلاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن .

[وكان الله غفوراً رحيماً] حيث غفر لكم ماسلف ، ورحمكم ، بأن
بين لكم الأحكام ، وأوضح الحلال والحرام ، فهذا سد للباب من جهتين .
وأما من جهة أهل الشر فقد توعدهم بقوله [لئن لم ينته المنافقون والذين
في قلوبهم مرض] أى : مرض شك أو شهوة [والمرجفون في المدينة]
أى : الخوفون المرهبون الأعداء ، المتحدثون بكثرتهم وقوتهم ، وضعف
المسلمين .

ولم يذكر الممول الذي يتتهون عنه ، ليعم ذلك ، كل ما توحى
به أنفسهم إليهم ، وتوسوس به ، وتدعو إليه من الشر ، من التعريض
بسب الإسلام وأهله ، والإرجاف بالمسلمين ، وتوهين قواهم ، والتعرض
للمؤمنات بالسوء والفاحشة ، وغير ذلك من المعاصي الصادرة ، من
أمثال هؤلاء .

[لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ] أى : نأسرك بعقوبتهم وقتالهم ، ونسلطك عليهم .
ثم إذا فعلنا ذلك ، لا طاقة لهم بك ، وليس لهم قوة ولا امتناع .

لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَ مَا تُقْفُوا أَخِذُوا
وَقْتُلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سَنَةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ
لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ

ولهذا قال : [ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا] أى : لا يجاورونك
في المدينة إلا قليلا ، بأن تقتلهم أو تنفيهم .

وهذا فيه دليل ، لنفى أهل الشر ، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر
المسلمين ، فإن ذلك أحسم للشر ، وأبعد منه ، ويكونون [ملعونين أيضا
تقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا] .

أى مبعدين ، حيث وجدوا ، لا يحصل لهم أمن ، ولا يقر لهم قرار ،
يخشون أن يقتلوا ، أن يجسوا ، أو يعاقبوا .

[سنة الله في الذين خلوا من قبل] أن من تهادى في العصيان ، وتجرأ
على الأذى ، ولم ينته منه ، فإنه يعاقب عقوبة بليغة .

[ولن تجد لسنة الله تبديلا] أى تغييراً ، بل سنته تعالى وعادته ، جارية
مع الأسباب المتقضية لمسيباتها .

* أى يستخبرك الناس عن الساعة ، استعجالا لها ، وبعضهم ، تكذيبا
لوقوعها ، وتمجيزا للذى أخبر بها .

[قل] لهم : [إنما علمها عند الله] أى : لا يعلمها إلا الله ، فليس لي ،
ولا لغيري بها علم .

وَمَا يُذْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ
الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ

ومع هذا ، فلا تستبطنوها .

[وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً] ومجرد مجيء الساعة ، قرباً
وبعداً ، ليس تحته نتيجة ولا فائدة ، وإنما النتيجة والخسار ، والريح ،
والشقاوة والسعادة ، هل يستحق العبد العذاب ، أو يستحق الثواب ؟
فهذه سأخبركم بها ، وأصف لكم مستحقها .

فوصف مستحق العذاب ، ووصف العذاب ، لأن الوصف المذكور ،
منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة فقال :

[إن الله لعن الكافرين] أى : الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم
الكفر بالله وبرسوله ، وبما جاءوا به من عند الله ، فأبعدهم الله في الدنيا
والآخرة من رحمته ، وكفى بذلك عقاباً .

[وأعد لهم سعيراً] أى : ناراً موقدة ، تسعر في أجسامهم ، ويبلغ
العذاب إلى أفئدتهم ، ويخلدون في ذلك العذاب الشديد ، فلا يخرجون منه ،
ولا يُقَتَّرُ عنهم ساعة .

[ولا يجدون لهم ولياً] فيعطيهم ما طلبوه [ولا نصيراً] يدفع عنهم العذاب .
بل قد تخلى عنهم إلى النصير ، وأحاط بهم عذاب السعير ، وبلغ منهم
مبلغاً عظيماً .

ولهذا قال : [يوم تقلب وجوههم في النار] فيذوقون حرها ، ويشقد

يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا
سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ
الْعَذَابِ وَأَلْعَنهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

عليهم أمرها ، ويتحسرون على ما أسلفوا .

[يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول] فسلمنا من هذا العذاب ،
واسعحقتنا ، كالمطيعين ، جزيل الثواب .

ولكن أمنية فات وقتها ، فلم تقدم إلا حسرة وندما ، وهما ،
وغما ، وألما .

[وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا] وقلدناهم على ضلالهم .

[فأضلونا السبيلا] .

كقوله تعالى « ويوم بعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع
الرسول سبيلا * ياويلتي ليتني لم اتخذ فلانا خليلا * لقد أضلني عن الذكر »
الآية .

ولما علموا أنهم ، وكبراءهم ، مستحقون للعقاب ، أرادوا أن يشتموا
من أضلهم ، فقالوا :

[ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا] فيقول الله لكل
ضعف ، فكلكم اشركتم في الكفر والمعاصي ، فتشتركون في العقاب ،
وإن تناوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا
مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

* يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم ، محمد صلى الله عليه وسلم ،
النبي الكريم ، الرؤوف الرحيم ، لئلا يقابله بصد ما يجب له من الإكرام
والاحترام ، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران ، كليم الرحمن ،
فبرأه الله مما قالوا من الأذية ، أى أظهر الله لهم براءته .

والحال أنه عليه الصلاة والسلام ، ليس محل التهمة والأذية ، فإنه كان
وجيها عند الله ، مقربا لديه ، من خواص المرسلين ، ومن عباد الله المخلصين .
فلم يزرهم ماله ، من الفضائل ، عن أذيته ، والتعرض له بما يكره .
فاحذروا أيها المؤمنون ، أن تشبهوا بهم في ذلك .

والأذية المشار إليها هي قول بنى إسرائيل عن موسى ، لما رأوا شدة
حياته وتستره عنهم : « إنه ما يمنعنا من ذلك إلا أنه آدر » أى كبير
الخصيتين ، واشتهر ذلك عندهم .

فأراد أن يبرئه منهم ، فاغتسل يوما ، ووضع ثوبه على حجر ، ففر
الحجر بثوبه ، فأعمى موسى عليه السلام فى طلبه ، فبربه على مجالس بنى
إسرائيل ، فأروه أحسن خلق الله ، فزال عنه ما رموه به .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

* يأمر تعالى المؤمنين بتقواه ، في جميع أحوالهم ، في السر والعلانية ، ويخص منها ، ويندب للقول السديد ، وهو القول الموافق للصواب ، أو المقارب له ، عند تعذر اليقين ، من قراءة ، وذكر ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وتعلم علم وتعليمه ، والحرص على إصابة الصواب ، في المسائل العلمية ، وسلوك كل طريق يوصل لذلك ، وكل وسيلة تعين عليه .
ومن القول السديد ، ابن الكلام ولطفه ، في مخاطبة الأنام ، والقول المتضمن للنصح والإشارة ، بما هو الأصلح .

ثم ذكر ما يترتب على تقواه ، وقول القول السديد فقال :

[يصلح لكم أعمالكم] أى يكون ذلك سببا لصلاحها ، وطريقا لقبولها ، لأن استعمال التقوى ، تتقبل به الأعمال كما قال تعالى : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح ، ويصلح الله الأعمال أيضا ، بحفظها عما يفسدها ، وحفظ ثوابها ومضاعفته .

كما أن الإخلال بالتقوى ، والقول السديد سبب لفساد الأعمال ، وعدم قبولها ، وعدم ترتب آثارها عليها .

[ويغفر لكم] أيضاً [ذنوبكم] التي هي السبب في هلاككم .

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴿٧١﴾
﴿٧٢﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ
فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا
جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ

فبالتقوى تستقيم الأمور ، ويندفع بها كل محذور ولهذا قال :
[ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما] .

* يعظم تعالى شأن الأمانة ، التي ائتمن الله عليها المكلفين ، التي هي
امتثال الأوامر ، واجتناب المحارم ، في حال السر والخفية ، كحال
العلاية .

وأنة تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة ، السموات والأرض والجبال ،
عرض تخيير لا تحتيم ، وأنك إن قمت بها وأدبتيها . على وجهها ، فلك
الثواب ، وإن لم تقوى بها ، ولم تؤديها ، فعليك العقاب .

[فأبين أن يحملنها وأشفقن منها] أى : خوفا أن لا يقمن بما أُئتمنن ،
لا عصيانا لربهن ، ولا زهدا فى ثوابه .

وعرضها الله على الإنسان ، على ذلك الشرط المذكور ، قبلها ، وحملها
مع ظلمه وجهله ، وحمل هذا الحمل الثقيل .

فانقسم الناس — بحسب قيامهم بها وعدمه — إلى ثلاثة أقسام .

مناقضون ، قاموا بها ظاهراً لا باطنا ، ومشركون ، تركوها ظاهراً
وباظنا .

وَالْمُشْرِكِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

ومؤمنون ، قائلون بها ظاهرا وباطنا .

فذكر الله تعالى أعمال هؤلاء الأقسام الثلاثة ، وما لهم من الثواب
والعقاب فقال :

[ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله
على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيمًا] .

فله تعالى الحمد ، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين ،
الدالين على تمام مغفرة الله ، وسعة رحمته ، وعموم جوده .

مع أن المحكوم عليهم ، كثير منهم ، لم يستحق المغفرة والرحمة ، لنفاقه
وشركه .

تم تفسير سورة الأحزاب — بحمد الله وعونه

تفسير

سُورَةُ سَبَأٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ

* الحمد: الثناء بالصفات الحميدة، والأفعال الحسنة، فله تعالى الحمد، لأن جميع صفاته، يحمد عليها، لكونها صفات كمال، وأفعاله، يحمد عليها، لأنها دائرة بين الفضل الذي يحمد عليه ويشكر، والحمد الذي يحمد عليه ويعترف بحكمته فيه.

وحمد نفسه هنا، على أن [له ما في السموات وما في الأرض] ملكا وعبيدا، يتصرف فيهم بحمده.

[وله الحمد في الآخرة] لأن في الآخرة، يظهر من حمده، والثناء عليه، ما لا يكون في الدنيا.

فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم، ورأى الناس والخلق كلهم، ما حكم به، وكال عدله وقسطه، وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك.

حتى أهل العقاب ما دخلوا النار ، إلا وقلوبهم ممتلئة من حده ، وأن عذابهم من جراء أعمالهم ، وأنه عادل في حكمه بعقابهم .

وأما ظهور حده في دار النعيم والثواب ، فذلك شيء ، قد تواردت وتواترت به الأخبار ، وتوافق عليه الدليل السمعي والعقلي .

فإنهم في الجنة ، يرون من توالى نعم الله ، وإدراك خيره ، وكثرة بركاته ، وسعة عطايه ، التي لا يبقى في قلوب أهل الجنة أمنية ، ولا إرادة ، إلا وقد أعطى منها كل واحد منهم ، فوق ما تمنى وأراد .

بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيتهم ، ولم يخطر بقلوبهم .

فما ظنك بمحمدم ربهم في هذه الحال ، مع أن في الجنة ، تضمحل الموارض والتواطع ، التي تقطع عن معرفة الله ، ومحبته ، والثناء عليه ، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم ، وألذ عليهم من كل لذة .

ولهذا إذا رأوا الله تعالى ، وسمعوا كلامه عند خطابه لهم ، أذهلهم ذلك عن كل نعيم ، ويكون الذكر لهم في الجنة ، كالتنفس ، متواصل في جميع الأوقات .

هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة ، في الجنة ، كل وقت ، من عظمة ربهم ، وجلاله ، وجماله ، وسعة كماله ، ما يوجب لهم كمال الحمد ، والثناء عليه .

[وهو الحكيم] في ملكه وتدييره ، الحكيم في أمره ونهيه .

[الخبير] المطلع على سرائر الأمور وخفاياها ولهذا فصل علمه بقوله .

فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴿٢﴾
﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي

[يعلم ما يبلج في الأرض] أى : من مطر ، وبذر ، وحيوان [وما يخرج منها] من أنواع النباتات ، وأصناف الحيوانات [وما ينزل من السماء] من الأملاك والأرزاق ، والأقذار [وما يعرج فيها] من الملائكة والأرواح وغير ذلك .

ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها ، وعلمه بأحوالها ، ذكر مغفرته ورحمته لها ، فقال :

[وهو الرحيم الغفور] أى : الذى الرحمة والمغفرة وصفه ، ولم تنزل آثارها تنزل على العباد كل وقت بحسب ما قاموا به ، من مقتضياتهما .

* لما بين تعالى ، عظمته ، بما وصف به نفسه ، وكان هذا موجبا لتعظيمه وتقديسه ، والإيمان به ، ذكر أن من أصناف الناس ، طائفة لم تقدر ربها حق قدره ، ولم تعظمه حق عظمته ، بل كفروا به ، وأنكروا قدرته على إعادة الأموات ، وقيام الساعة ، وعارضوا بذلك رسله فقال :

[وقال الذين كفروا] أى بالله ورسله ، وبما جاءوا به .

فقالوا بسبب كفرهم : [لا تأتينا الساعة] أى : ما هى ، إلا هذه الحياة الدنيا ، نموت ونحيا .

فأمر الله رسوله ، أن يرد قوله ويبطله ، ويقسم على البعث ، وأنه سيأتينهم فقال :

تَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ

[قل نبي وربي لناينكم] ، واستدل على ذلك بدليل من أقره به ، لزمه
أن يصدق بالبعث ضرورة ، وهو علمه تعالى الواسع العام فقال :
[علم الغيب] أي : الأمور الغائبة عن أبصارنا ، وعن علمنا ، فكيف
بالشهادة !!؟ .

ثم أكد علمه فقال : [لا يعزب عنه] أي : لا يفيب عن علمه [مثقال
ذرة في السموات ولا في الأرض] أي : جميع الأشياء بذواتها وأجزائها ،
حتى أصغر ما يكون من الأجزاء ، وهي المثاقيل منها .

[ولا أصفر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين] أي : قد أحاط
به علمه ، وجرى به قلمه ، وتضمنه الكتاب المبين ، الذي هو اللوح المحفوظ .
فالذي لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه ، في جميع الأوقات ، ويعلم
ما تنقص الأرض من الأموات ، وما يبقى من أجسادهم ، قادر على بعثهم ،
من باب أولى ، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط .

ثم ذكر المقصود من البعث فقال :

[ليجزى الذين آمنوا] بقلوبهم ، وصدقوا الله ، وصدقوا رسوله تصديقاً جازماً
[وعملوا الصالحات] تصديقاً لإيمانهم .

[أولئك لهم مغفرة] لذنوبهم ، بسبب إيمانهم وعملهم ، يندفع بها كل
شر وعقاب .

مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ ﴿٥﴾
وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ
هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾

[ورزق كريم] بإحسانهم ، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب ،
وأمنية .

[والذين سعوا في آياتنا معاجزين] أي : سعوا فيها كفراً بها ،
وتمجيزاً لمن جاء بها ، وتمجيزاً لمن أنزلها ، كما عجزوه في الإعادة بعد الموت .

[أولئك لهم عذاب من رجز أليم] أي مؤلم لأبدانهم ، وقلوبهم .

* لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث ، وأنهم يرون ما أنزل على
رسوله ليس بحق .

ذكر حالة الموقنين من العباد ، وهم أهل العلم ، وأنهم يرون ما أنزل
الله على رسوله ، من الكتاب ، وما اشتمل عليه من الأخبار ، هو الحق ،
منحصر فيه ، وما خالفه وناقضه ، فإنه باطل ، لأنهم وصلوا من العلم
إلى درجة اليقين

ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيه [يهدي إلى صراط العزيز الحميد]
وذلك لأنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة .

من جهة علمهم ، بصدق من أخبر به .

ومن جهة موافقته للأموال الواقعة ، والكتب السابقة .

.

ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها ، التي تقع عياناً .
ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق ،
وفي أنفسهم .

ومن جهة موافقتها ، لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه .
ويرون في الأوامر والنواهي ، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم ، وبر
الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلى عموم الخلق ، ونحو ذلك .
وتنهي عن كل صفة قبيحة ، تدنس النفس ، وتحبط الأجر ، وتوجب
الإثم والوزر ، من الشرك ، والزنا ، والربا ، والظلم في الدماء والأموال ،
والأعراض .

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة ، وعلامة لهم ، وأنه كلما كان العبد
أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول ، وأعظم معرفة بحكم أوامره
ونواهي ، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول ،
احتج الله بهم على المكذبين المعاندين ، كما في هذه الآية وغيرها .

﴿٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ
إِذَا مَرُّتُمْ كُلَّ مُمَرَّقٍ إِنَّكُمْ لَنِی خَلَقَ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ

* أى : [وقال الذين كفروا] على وجه التكذيب والاستهزاء
والاستبعاد .

أى : قال بعضهم لبعض : [هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مررتكم كل
ممرق إنكم لني خلق جديد] يعنون بذلك الرجل ، رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه ، حتى صار — بزعمهم — فرجة
يتفرجون عليه ، وأعجوبة يسخرون منه .

وأنه كيف يقول « إنكم مبعوثون » بعد ما مررتكم البلى ، وتفرقت
أوصالكم ، واضمحت أعضاؤكم ؟!

فهذا الرجل الذى أتى بذلك ، هل [افترى على الله كذباً] فتجراً عليه
وقال ما قال ، [أم به جنه] ؟ فلا يستغرب منه ، فإن الجنون فنون .

وكل هذا منهم ، على وجه العناد والظلم ، ولقد علموا ، أنه أصدق خلق
الله وأعقلهم ، ومن علمهم ، أنهم أبدأوا وأعادوا فى معاداتهم ، وبدلوا
أنفسهم وأموالهم ، فى صد الناس عنه .

فلو كان كاذباً مجنوناً — يا أهل العقول غير الزاكية — لم ينبغ أن
تصنوا لما قال ، ولا أن تحتفلوا بدعوته .

فإن المجنون ، لا ينبغى للعاقل أن يلفت إليه نظره ، أو يبلغ قوله منه ،
كل مبلغ .

ولولا عنادكم وظلمكم ، لبادرتم لإجابته ، ولبيتم دعوته ، ولكن « ما

كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ
وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنْ

تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون « ولهذا قال تعالى :

[بل الذين لا يؤمنون بالآخرة] ومنهم الذين قالوا تلك المقالة .

[في العذاب والضلال البعيد] أى : فى الشقاء العظيم ، والضلال البعيد ،

الذى ليس بقريب من الصواب .

وأى شقاء وضلال ، أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث ، وتكذيبهم
لرسوله ، الذى جاء به ، واستهزأهم به ، وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق ،
فأروا الحق باطلا ، والباطل والضلال ، حقا وهدى .

ثم نبههم على الدليل العتلى ، الدال على عدم استبعاد البعث ، الذى
استبعدوه ، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ، من السماء
والأرض لرأوا من قدرة الله فيهما ، ما يبهر العقول ، ومن عظمته ما يذهل
العلاء الفحول ، وأن خلقهما وعظمتما ، وما فيهما من الخلوقات ، أعظم
من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم .

فما الحامل لهم ، على ذلك التكذيب مع التصديق ، بما هو أكبر منه؟

نعم ذلك خبر غيبى إلى الآن ، ما شاهدوه ، فلذلك كذبوا به .

قال الله : [إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء] .

أى : من العذاب ، لأن الأرض والسماء ، تحت تديرنا ، فإن أمرناهما ،
لم يستعصيا .

فاحذروا إصراركم على تكذيبكم ، فنعاقبكم أشد العقوبة .

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا
مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴿٩﴾
﴿٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أُوتِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ

[إن في ذلك] أى : خلق السموات والأرض ، وما فيها من المخلوقات
[لآية لكل عبد منيب] راجع إلى ربه ، مطيع له ، فيجزم بأن الله قادر
على البعث .

فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله ، كان انتفاعه بالآيات أعظم ،
لأن المنيب مقبل إلى ربه ، قد توجهت إراداته وهامته لربه ، ورجع إليه في كل
أمر من أموره ، فصار قريبا من ربه ، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته .

فيكون نظره للمخلوقات ، نظر فكر وعبرة ، لا نظر غفلة غير نافعة .

* أى ولقد مننا على عبدنا ورسولنا ، داود عليه الصلاة والسلام ، وآتيناه
فضلا من العلم النافع ، والعمل الصالح ، والنعم الدينية والدنيوية .

ومن نعمه عليه ، ما خصه من أمره تعالى الجمادات ، كالجبال
والحيوانات ، من الطيور ، أن تُؤَوَّبَ معه ، وتُرَجَّعَ التسبيح بحمد ربه ،
مجاوبة له .

وفى هذا من النعمة عليه ، أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن
لأحد قبله ولا بعده ، وأن ذلك يكون منهضاه وتغيره ، على التسبيح إذا
رأوا هذه الجمادات والحيوانات ، تتجاوب بتسبيح ربه ، وتمجيده ،
وتكبيره ، وتمجيده ، كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى .

ومنها : أن ذلك - كما قال كثير من العلماء ، أنه طرب لصوت داود .

وَأَلْنَا لَهُ أَلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيحَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا
صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﷻ

فإن الله تعالى ، قد أعطاه من حسن الصوت ، ما فاق به غيره ، وكان
إذا رجَّع التسبيح والتهليل والتعجيد بذلك الصوت الرحيم الشجي المطرب ،
طرب كل من سمعه ، من الإنس ، والجن ، حتى الطيور والجبال ، وسبحت
بمحمد ربها .

ومنها : أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها ، لأنه سبب ذلك ، وتسبح
تبعاً له .

ومن فضله عليه ، أن ألان له الحديد ، ليعمل الدروع السابقات ،
وعلمه تعالى كيفية صنعه ، بأن يقدره في السرد ، أي : يقدره حلقاً ، ويصنعه
كذلك ، ثم يدخل ببعضها ببعض .

قال تعالى : « وعلّمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم
شاكرون » .

ولما ذكر ما امتن به عليه وعلى آله ، أمره بشكره ، وأن يعملوا صالحاً ،
ويراقبوا الله تعالى فيه ، بإصلاحه وحفظه من المفسدات ، فإنه بصير بأعمالهم ،
مطلع عليهم ، لا يخفى عليه منها شيء .

وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحَهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا
لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ
مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّمِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ
مِنَ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلَ وَجِفَانٍ كَأَلْجَوَابِ قُدُورٍ رَأْسِيَّتِ أَعْمَلُوا

* لما ذكر فضله على داود عليه السلام ، ذكر فضله على ابنه سليمان ،
عليه الصلاة والسلام ، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره ، وتحمله ،
وتحمل جميع ما معه ، وتقطع المسافة البعيدة جدا ، في مدة يسيرة ، فسير
في اليوم ، مسيرة شهرين .

[غدوها شهر] أى : أول النهار إلى الزوال [ورواحها شهر]
من الزوال ، إلى آخر النهار [وأسلنا له عين القطر] أى : سخرنا له عين
النحاس ، وسهلنا له الأسباب ، في استخراج ما يستخرج منها من الأواني
وغيرها .

وسخر الله له أيضا ، الشياطين والجن ، لا يقدر أن يستمعوا عن
أمره ، « ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير » وأعمالهم ،
كل ما شاء سليمان ، عملوه .

[من محارِب] وهو : كل بناء يعقد ، وتحكم به الأبنية ، فهذا فيه ،
ذكر الأبنية النخمة .

[وتمثيل] أى : صور الحيوانات والجمادات ، من إتيان صنعتهم ،
وقدرتهم على ذلك .

[وجفان كالجواب] أى : كالبرك السكبار ، يعملونها لسليمان للطعام ،

ءَالِ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا قَضَيْنَا

لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره .

[و] يعملون له من [قدور راسيات] لا تزول عن أمانها ،
من عظامها .

فما ذكر منته عليهم ، أمرهم بشكرها فقال : [اعملوا آل داود]
وهم داود ، وأولاده ، وأهله ، لأن المنة على الجميع ، وكثير من هذه المصالح
عائد لسكهم .

[شكراً] لله على ما أعطاهم ، ومقابلة لما أولاهم .

[وقليل من عبادة الشكور] فأكثرهم ، لم يشكروا الله تعالى على ما
أولاهم ، من النعم ، ودفع عنهم من النقم .

والشكر : اعتراف القلب بمنة الله تعالى ، وتلقيها افتقاراً ، إليها ، وصرافها
في طاعة الله تعالى ، وصورها عن صرفها في العصية .

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان ، عليه الصلاة والسلام ، كل بناء .
وكانوا قد موهوا على الإنس ، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب ،
ويطلعون على المكنونات .

فأراد الله تعالى أن يري العباد كذبهم في هذه الدعوى ، فكثروا يعملون
على عملهم .

وقضى الله بالموت على سليمان عليه السلام ، واتكأ على عصاه ، وهي
المنسأة .

فصاروا إذا مروا به وهو متسكى عليها ، ظنوه حياً ، وهايوه .

عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ
فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْمَلُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا
فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ

فقدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل ، حتى سلطت دابة
الأرض على عصاه ، فلم تزل ترعاها ، حتى بادت ، وسقطت ، فيسقط سليمان
وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن [أن لو كانوا يعلمون الغيب
ما لبثوا في العذاب المهين] وهو العمل الشاق عليهم .
فلو علموا الغيب ، لعلوا موت سليمان ، الذي هم أحرص شيء عليه ،
ليسلوا مما هم فيه .

* سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن ، ومسكنهم بلدة يقال لها « مأرب » .
ومن نعم الله ولطفه بالناس عموماً ، وبالغرب خصوصاً ، أنه قص
في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين ، ممن كان يجاور العرب ، ويشاهد
آثارهم ، ويتناقل الناس أخبارهم ، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق ،
وأقرب للموعظة فقال :

[لقد كان لسبأ في مسكنهم] أي : محالهم الذي يسكنون فيه [آية] .
والآية هنا : ما أدر الله عليهم من النعم ، وصرف عنهم من النقم ،
الذي يقتضى ذلك منهم ، أن يعبدوا الله ويشكروه .
ثم فسر الآية بقوله [جنتان عن يمين وشمال] وكان لهم واد عظيم ،
تأتيه سيول كثيرة ، وكانوا بنوا سداً محكماً ، يكون مجعاً للماء .

وَشِمَالٍ كُلُّوْا مِنْ رَزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ
غُفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ

فكانت السيول تأتيه ، فيجتمع هناك ماء عظيم ، فيفرقونه على بساينهم ،
التي عن يمين ذلك الوادي وشماله .

وتُغْلِي لهم تلك الجنتان العظيمتان ، من الثمار ، ما يكفيهم ، ويحصل لهم
الغبطة والسرور .

فأمرهم الله بشكر نعمه ، التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة .

منها : هاتان الجنتان ، اللتان غالب أقاتهم منهما .

ومنها : أن الله جعل بلادهم ، بلدة طيبة ، لحسن هوائها ، وقلة وخبها ،
وحصول الرزق الرغد فيها .

ومنها : أن الله تعالى وعدمه — إن شكروه — أن يفرهم ويرحمهم ،
ولهذا قال : [بلدة طيبة ورب غفور] .

ومنها : أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم ، إلى الأرض
المباركة ، الظاهر أنها : قرى صنعاء ، كما قاله غير واحد من السلف ، وقيل :
لأنها الشام ، هيأ لهم^(١) من الأسباب ، ما به يتيسر وصولهم إليها ، بغاية
السهولة ، من الأمن ، وعدم الخوف ، وتواصل القرى بينهم وبينها ، بحيث
لا يكون عايمهم مشقة ، بحمل الزاد والمزاد .

(١) قوله « هيأ لهم » جملة فعلية في محل رفع خبر « أن » في قوله
« أن الله لما علم الخ » .

جَتَيْنِ ذَوَاتِي أَكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلِ وَشَىءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ
جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا
السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيًّ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ

ولهذا قال : [وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة
وقدرنا فيها السير] أى : سيراً مقدراً يعرفونه ، ويحكمون عليه ، بحيث
لا يتيهون عنه [سيروا فيها ليالى وأياماً] آمنين [أى : مطمئنين فى السير،
فى تلك الليالى والأيام ، غير خائفين .

وهذا من تمام نعمة الله عليهم ، أن أمنهم من الخوف .
فأعرضوا عن المنعم ، وعن عبادته ، وبطروا النعمة ، وملوها .
حتى إنهم طلبوا وتمنوا ، أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى ، التى
كان السير فيها متيسراً .

[وظلموا أنفسهم] بكفرهم بالله وبنعمته ، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة ،
التى أطقهم ، فأبادها عليهم ، فأرسل عليها سيل العرم ، أى : السيل المتوعر ،
الذى خرب سدهم ، وأتلف جناتهم ، وخرب بسايتهم .

فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة ، والأشجار الثمرة ، وصار
بدلها ، أشجار لا نفع فيها ، ولهذا قال :

[وبدلناهم بجناتهم جنتين ذواتى أكل] أى : شىء قليل من الأكل

أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ

الذي لا يقع منهم موقعا [خط (١) وأثل (٢) وشيء من سدر (٣) قليل] وهذا

(١) خط : أى : ثمر بشع ، مر ، أو حامض ، لا يمكن أكله .
وقيل : هو ثمرة شجرة يقال لها « فسوة الضبع » على صورة الخشخاش ،
لا ينتفع بها ، أو كل شجر ذى شوك ، مر ، بشع ، وقيل : شجر الأراك .

(٢) أثل ، أى : شجر لا ثمر له ، شبيه بالطرفاء .

(٣) سدر ، أى : شجر قليل الغناء عند الأكل وهو نوع من الضال

(نوع من الشجر) لا ينتفع به .

وفي المصباح : « قال الحجة فى التفسير: والسدر نوعان ، أحدهما : ينبت

فى الأرياف : فينتفع بورقه فى الغسل ، وثمرته طيبة .

والآخر ، ينبت فى البر ، ولا ينتفع بورقه فى الغسل ، وثمرته

عفصة » اهـ .

وهذا المعنى الأخير هو المراد هنا بدليل ما قال أبو السعود فى تفسيره

« قيل وصف السدر بالقللة لما أن جناه [أى : ثمرته] وهو النبق مما يطيب

أكله ولذلك يفرس فى البساتين .

والصحيح أن السدر صنفان ، صنف يؤكل من ثمره وينتفع بورقه

لغسل اليد ، وصنف له ثمرة عفصة لا تؤكل أصلا ، ولا ينتفع بورقه ،

وهو الضال ، والمراد ههنا : هو الثانى حتماً .

وقال قتادة : كان شجرهم خير الشجر ، فصيره الله تعالى من شر الشجر

بأعمالهم ، وتسمية البذل « جنتين » للمشاكله والتهمك » اهـ .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ

كله شجر معروف ، وهذا من جنس عملهم .

فكما بدلوا الشكر الحسن ، بالكفر القبيح ، بدلوا تلك النعمة بما ذكر ،
ولهذا قال :

[ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور] أى: وهل نجازي
جزاء العقوبة — بدليل السياق — إلا من كفر بالله وبطر النعمة ؟

فلما أصابهم ما أصابهم ، تفرقوا وتمزقوا ، بعد ما كانوا مجتمعين ،
وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم ، وأسماراً للناس ، وكان يضرب بهم
المثل فيقال « تفرقوا أيدي سبا » فكل أحد ، يتحدث بما جرى لهم .

ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا من قال الله فيهم [إن في ذلك لآيات لكل
صبار شكور] صبار على الكاره والشدائد ، يتحملها لوجه الله ، ولا يتسخطها
بل يصبر عليها .

شكور لنعمة الله تعالى يُقرُّ بها ، ويعترف ، ويشقى على من أولاهها ،
ويصرفها في طاعته .

فهذا إذا سمع بقصتهم ، وما جرى منهم وعليهم ، عرف بذلك أن تلك
العقوبة ، جزاء لكفرهم نعمة الله ، وأن من فعل مثلهم ، ففعل به ،
كما فعل بهم .

وأن شكر الله تعالى ، حافظ للنعمة ، دافع للنقمة .

وأن رسل الله ، صادقون فيما أخبروا به .

وأن الجزاء حق ، كما رأى أنموذجه في دار الدنيا .

إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ
عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا

ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدق عليهم إبليس ظنه ، حيث قال
ربه : « فبِعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين » .

وهذا ظن من إبليس ، لا يقين ، لأنه لا يعلم الغيب ، ولم يأته خبر من
الله ، أنه سيفويهم أجمعين ، إلا من استثنى .

فهولاء وأمثالهم ، ممن صدق عليه إبليس ظنه ، ودعاهم وأغواهم
[فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين] ممن لم يكفر بنعمة الله ، فإنه لم يدخل تحت
ظن إبليس .

ويحتمل أن قصة سبأ ، انتهت عند قوله [إن في ذلك لآيات لكل
صبار شكور] .

ثم ابتداء فقال : [ولقد صدق عليهم] أى على جنس الناس ، فتكون
الآية عامة ، فى كل من اتبعه .

ثم قال تعالى : [وما كان له] أى : لإبليس [عليهم من سلطان]
أى : تسلط ، وقهر ، وقسر على ما يريد منهم ، ولكن حكمة الله تعالى ،
اقتضت تسليطه ، وتسويله لبني آدم .

[لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك] أى : ليقوم سوق
الامتحان ، ويعلم به الصادق من الكاذب ، ويعرف من كان إيمانه صحيحا ،
يثبت عند الامتحان والاختبار ، وإلقاء الشبه الشيطانية ، ممن إيمانه غير

فِي شَكِّ وَرَبِّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾
﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شِرْكٍَ

ثابت ، يتزلزل بأدنى شبهة ، ويزول بأقل داع يدعوهُ إلى ضده .

فإنه تعالى جملة امتحاناً ، يمتحن به عباده ، ويظهر الخبيث من الطيب .
[وربك على كل شيء حفيظ] يحفظ العباد ، ويحفظ عليهم أعمالهم ،
ويحفظ تعالى جزاءها ، فيوفيهما إياها ، كاملة موفرة .

* أى : [قل] يا أيها الرسول ، للمشركين بالله غيره من المخلوقات ، التي
لا تنفع ولا تضر ، ملزما لهم بعبادتها ، ومبيناً بطلان عبادتها :
[ادعوا الذين زعتم من دون الله] أى : زعتموهم شركاء لله ، إن كان
دعاؤكم ينفع .

فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز ، وعدم إجابة الدعاء من
كل وجه .

فإنهم ليس لهم أدنى ملك [لا يملكون مثقال ذرة في السموات
والأرض] على وجه الاستقلال ، ولا على وجه الاشتراك ، ولهذا قال :

[وما لهم] أى : لتلك الآلهة الذين زعتم [فيهما] أى : في السموات
والأرض .

[من شرك] أى : لا شرك قليل ولا كثير ، فليس لهم ملك ،
ولا شركة ملك .

وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ

بقي أن يقال : ومع ذلك ، فقد يكونون أعواناً للمالك ، ووزراء له ، فدعاؤهم يكون نافعاً ، لأنهم — بسبب حاجة الملك إليهم — يقضون حوائج من تعلق بهم .

فنفى تعالى هذه المرتبة فقال : [وماله] أى : الله تعالى الواحد القهار [منهم] أى : من هؤلاء المعبودين [من ظهير] أى : معاون ووزير ، يساعده على الملك والتدبير .

فلم يبق إلا الشفاعة ، فنفاها بقوله : [ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له] .

فهذه أنواع التعلقات ، التي يتعلق بها المشركون بأنسادهم ، وأوثانهم ، من البشر ، والشجر ، وغيرهم ، قطعها الله وبين بطلانها ، تبيننا حاسماً لمواد الشرك ، قاطعاً لأصوله .

لأن المشرك ، إنما يدعو ويعبد غير الله ، لما يرجو منه من النفع ، فهذا الرجاء ، هو الذي أوجب له الشرك .

فإذا كان من يدعو غير الله ، لا مالكا للنفع والضر ، ولا شريكا للمالك ، ولا عوناً وظهيرا للمالك ، ولا يقدر أن يشعم بدون إذن المالك ، كان هذا الدعاء ، وهذه العبادة ، ضلالا في العقل ، باطلة في الشرع .

بل ينعكس على المشرك مطلوبه ، ومقصوده ، فإنه يريد منها النفع . فبين الله بطلانه ، وعدمه ، وبين في آيات أخر ، ضررها على عابديها ، وأنه يوم القيامة ، يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، ومأواهم

حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

النار « وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .
والعجب ، أن المشرك استكبر عن الاقنياد للرسول ، بزعمه أنهم بشر ،
ورضى أن يعبد ويدعو الشجر ، والحجر ، استكبر عن الإخلاص للملك
الرحمن الديان ، ورضى بعبادة من ضره أقرب من نفعه ، طاعة لأعدى عدو
له وهو الشيطان .

وقوله [حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو
العلي الكبير] .

يحتمل أن الضمير في هذا الموضع ، يعود إلى المشركين ، لأنهم مذكورون
في اللفظ .

والقاعدة في الضمائر ، أن تعود إلى أقرب مذكور .

ويكون المعنى « إذا كان يوم القيامة ، وفزع عن قلوب المشركين ،
أى : زال الفزع ، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم ، عن حالهم في الدنيا ،
وتسكذبهم للحق الذي جاءت به الرسل ، أنهم يقرون ، أن ما هم عليه من
الكفر والشرك ، باطل ، وأن ما قال الله ، وأخبرت به عنه رسله ، هو
الحق » فبدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل « وعلموا أن الحق لله ،
واعترفوا بذنوبهم .

[وهو العلي] بذاته ، فوق جميع المخلوقات ، وقهره لهم ، وعلو قدره ،
بما له من الصفات العظيمة ، الجليلة المقدار [الكبير] في ذاته وصفاته .

ومن علوه ، أن حكمه تعالى ، يعلو ، وتدعن له النفوس ، حتى نفوس المتكبرين والمشركين .

وهذا المعنى ، أظهر ، وهو الذى يدل عليه السياق .

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة ، وذلك أن الله تعالى إذ أتاكم بالوحي ، سمعته الملائكة ، فصعقوا ، وخرروا لله سجدا .

فيكون أول من يرفع رأسه ، جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد .

فإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة ، وزال الفزع ، فيسأل بعضهم بعضا عن ذلك الكلام ، الذى صعقوا منه : ماذا قال ربكم ؟

فيقول بعضهم لبعض : قال الحق ، إما إجمالا ، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقا .

وإما أن يقولوا : قال كذا وكذا ، للكلام الذى سمعوه منه ، وذلك من الحق .

فيكون المعنى على هذا : أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة ، التى وصفنا لكم عجزها ونقصها ، وعدم نفعها بوجه من الوجوه ، كيف صدقوا وصرقوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم ، العلى الكبير ، الذى — من عظمته وجلاله — أن الملائكة السكرام ، والمقربين من الخلق ، يبلغ بهم الخضوع والصعق ، عند سماع كلامه هذا المبلغ ، ويقرون كلهم لله ، أنه لا يقول إلا الحق .

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ

فما بال هؤلاء المشركين ، استكبروا عن عبادة من هذا شأنه ، وعظمة ملكه وسلطانه .

فتعالى العلي الكبير ، عن شرك المشركين ، وإفكهم ، وكذبهم .
* يأمر تعالى ، نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن صحة شركه :

[قل من يرزقكم من السموات والأرض] فإنهم ، لا بد أن يقولوا أنه الله .

ولئن لم يقولوا [قل الله] فإنك لا تجد من يدفع هذا القول .
فإذا تبين أن الله وحده ، الذي يرزقكم من السموات والأرض ، وينزل لكم المطر ، وينبت لكم النبات ، ويفجر لكم الأنهار ، ويطلع لكم من ثمار الأشجار ، وجعل لكم الحيوانات جميعها ، لنفعمكم ورزقكم ، فلم تعبدون من لا يرزقكم شيئا ، ولا يفيدكم نفعا ؟

وقوله [وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين] أى : إحدى الطائفتين ، منا ومنكم ، على الهدى ، مستعملة عليه ، أو فى ضلال بين ، منغمرة فيه .

وهذا الكلام ، يقوله من تبين له الحق ، واتضح له الصواب ، وجزم بالحق الذى هو عليه ، وبطلان ما عليه خصمه .

أى : قد شرحنا من الأدلة الواضحة ، عندنا وعندكم ، ما به يعلم علما

يقينياً لاشك فيه ، من الحق منا ، ومن المبطل ، ومن المهتدى ومن الضال ؟
حتى إنه يصير اليقين بعد ذلك ، لا فائدة فيه .

فإنك إذا وازنت^(١) بين من يدعو إلى عبادة الخالق ، بسائر المخلوقات
التصرف فيها ، بجميع أنواع التصرفات ، المسدى جميع النعم ، الذى رزقهم ،
وأوصل إليهم كل نعمة ، ودفع عنهم كل نقمة ، الذى له الحمد كله ، والملك
كله ، وكل أحد من الملائكة فمن دونهم ، خاضعون لهيبته ، متذللون لعظمته ،
وكل الشفعاء تخافه ، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه .

العلى الكبير ، فى ذاته ، وأوصافه ، وأفعاله ، الذى له كل كمال ، وكل
جلال ، وكل جمال ، وكل حمد وثناء ومجد .

يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه ، وإخلاص العمل له ، وينهى عن
عبادة من سواه ، وبين^(٢) من يقترب إلى أوئان ، وأصنام ، وقبور ، لا تخلق ،
ولا ترزق ، ولا تملك لأنفسها ، ولا لمن عبدها ، نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً
ولا حياة ، ولا نشوراً .

بل هى جمادات ، لا تعقل ، ولا تسمع دعاء عابديها ، ولو سمعته ،
ما استجابت لهم .

ويوم القيامة يكفرون بشركهم ، ويتبرأون منهم ، ويتلاعنون بينهم .
ليس لهم قسط من الملك ، ولا شركة فيه ، ولا لهم شفاعة يستقلون بها
دون الله .

(١) فعل الشرط لـ « إذا » .

(٢) قوله « وبين » معطوف على قوله السابق « فإذا وازنت بين الخ » .

عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ

فهو يدعو ، مَنْ هذا وصفه ، ويتقرب إليه مهما أمكنه ، ويعادى من أخلص الدين لله ، ويحاربه ، ويكذب رسل الله ، الذين جاءوا بالإخلاص لله وحده .

تبين لك^(١) أى الفريقين ، المهتدى من الضال ، والشقى من السعيد؟ .
ولم يحتج^(٢) إلى أن يعين لك ذلك ، لأن وصف الحال ، أوضح من لسان المقال .

[قل] لهم [لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون] أى : كل منا ومنكم ، له عمله .

أنتم لا تسألون عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا ، ونحن لا نسأل عن أعمالكم .

فليكن المقصود منا ومنكم ، طلب الحق^(٣) ، وسلوك طريق الإنصاف .
ودعوا ما كنا نعمل ، ولا يكون مانعا لكم من اتباع الحق .
فإن أحكام الدنيا ، تجرى على الظواهر ، ويتبع فيها الحق ، ويجتنب الباطل

-
- (١) جواب الشرط . لـ « إذا » فى قوله المتقدم « فإذا وازنت الخ » .
(٢) قوله « ولم يحتج الخ » الأرشق فى الأسلوب أن يقال « ولم يحتج إلى أن يبين لك بلسانه ذلك لأن لسان الحال أفصح وأوضح من لسان المقال »
(٣) فى الأصل « الحقائق » وهو غير متلائم بما بعده فلذا أبدلناها بـ « الحق » .

يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَنْحَقْتُمْ
بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

وأما الأعمال، فلها دار أخرى، يحكم فيها أحكم الحاكمين ، ويفصل
بين المختصين ، أعدل العادلين .

ولهذا قال : [قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا] أى : يحكم بيننا حكما ،
يتبين به الصادق من الكاذب ، والمستحق للثواب ، من المستحق للعقاب
[وهو الفتاح] أى : الحاكم فى القضايا المغلقة [العليم] . بما ينبغى
أن يقضى به .

[قل] لهم يا أيها الرسول ، ومن ناب منابك : [أرونى الذين أنحتم
به شركاء] أى : أين هم ؟ وأين السبيل إلى معرفتهم ؟ وهل هم فى الأرض ،
أم فى السماء ؟

فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس فى الوجود له شريك .
« ويمبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء
شفعاؤنا عند الله قل أتنبثون الله بما لا يعلم » الآية « وما يتبع الذين يدعون
من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » .
وكذلك خواص خلقه ، من الأنبياء والمرسلين ، لا يعلمون له شريكا .
فيا أيها المشركون .

أرونى الذين أنحتم بزعمكم الباطل [به] أى : بالله [شركاء] .

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه ، ولهذا قال :

[كلا] أى ليس لله شريك ، ولا ند ، ولا ضد .

[بل هو الله] الذى لا يستحق التآله والتعبد ، إلا هو

﴿٢٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ

[العزير] الذى قهر كل شىء فكل ما سواه ، فهو مقهور له ،
مسخر مدبر .

[الحكيم] الذى أتقن ما خلقه ، وأحسن ما شرعه .

ولو لم يكن فى حكمته فى شرعه إلا أنه أمر بتوحيده ، وإخلاص
الدين له ، وأحب ذلك ، وجعله طريقاً للنجاة ، ونهى عن الشرك به ، واتخاذ
الأنداد من دونه ، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك ، لكفى بذلك برهاناً
على كمال حكمته .

فكيف ، وجميع ما أمر به ونهى عنه ، مشتمل على الحكمة؟! !

* يخبر تعالى ، أنه ما أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم ، إلا ليشر جميع
الناس بثواب الله ، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك .

وينذرهم عقاب الله ، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له ، فليس لك من
الأمر شىء .

وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعدا ، فليس من وظيفتك ،
إنما ذلك بيد الله تعالى .

[ولكن أكثر الناس لا يعلمون] أى : ليس لهم علم صحيح ، بل
إما جهال ، أو معاندون لم يعملوا بعلمهم ، فكأنهم لا علم لهم .

ومن عدم علمهم ، جعلهم عدم الإجابة لا اقترحوه على الرسول ،
موجباً لدعوته .

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَفْخِرُونَ عَنْهُ
سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

فما اقترحوه ، استعجالهم العذاب ، الذى أنذرهم به فقال : [ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين] وهذا ظلم منهم .

فأى ملازمة بين صدقه ، وبين الإخبار بوقت وقوعه ؟
وهل هذا ، إلا رد للحق ، وسفه فى العقل ؟

أليس التنذير فى أمر من أحوال الدنيا ، لو جاء قومًا ، يعلمون صدقه ونصحه ، ولهم عدو ، ينتهز الفرصة منهم ويُعدُّ لهم فقال لهم : تركت عدوكم قد سار ، يريد اجتياحكم واستئصالكم .

فلو قال بعضهم : إن كنت صادقًا ، فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا ، وأين مكانه الآن ؟

فهل يعد هذا القائل عاقلا ، أم يحكم بسفهه وجنونه ؟
هذا ، والمخبر يمكن صدقه وكذبه ، والعدو ، قد يبدو له غيرهم ، وقد تنحل عزمته .

وهم قد يكون بهم منعة ، يدافعون بها عن أنفسهم .
فكيف بمن كذب أصدق الخلق ، المصوم فى خبره ، الذى لا ينطق عن الهوى ، بالعذاب اليقين ، الذى لا مدفع له ، ولا ناصر منه ؟ !!

أليس رد خبره ، بحجة عدم بيان وقت وقوعه ، من أسفه السفه ؟ !!
[قل] لهم - مخبرا بوقت وقوعه ، الذى لا شك فيه - : [لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ولا تستقدمون] فاحذروا ذلك اليوم ، وأعدوا له عدته .

﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ
وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنَّمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ

* لما ذكر تعالى ، أن ميعاد المستعجلين بالعذاب ، لا بد من وقوعه عند
حلول أجله .

ذكر هنا ، حالهم في ذلك اليوم ، وأنتك لو رأيت حالهم ، إذ وقفوا عند
ربهم ، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال ، لرأيت أمرا عظيما
وهولا جسيما .

ورأيت كيف يتراجعون ، ويرجع بعضهم الى بعض ، القول .
[يقول الذين استضعفوا] وهم الأتباع [للذين استكبروا] وهم القادة .
[لولا أنتم لكننا مؤمنين] ولكنكم حُلُمْتُمْ بيننا وبين الإيمان ، وزينتم
لنا الكفران ، فتبعناكم على ذلك .

ومقصودهم بذلك ، أن يكون العذاب على الرؤساء ، دونهم .
[وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا] مستفهمين لهم ونخبيرين أن
الجميع مشتركون في الجزم :

[أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم] أي : بقوتنا وقهرنا
إياكم .

بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوْا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ
أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ

[بل كنتم مجرمين] أى : مختارين للاجرام ، لستم مقهورين عليه ،
وإن كنا قد زينا لكم ، فما كان لنا عليكم من سلطان .

[وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ
تأمرونا أن نكفر بالله وبجعل له أندادا] أى : بل الذى دهانا منكم ،
ووصل إلينا من إضلالكم ، ما دبرتموه من المكر ، فى الليل والنهار ، إذ
تُحَسِّنُونَ لنا الكفر ، وتدعوننا إليه ، وتقولون : إنه الحق ، وتقدحون
فى الحق ، وتهجنونه ، وتزعمون أنه الباطل .

فما زال مكركم بنا ، وكيدكم إيانا ، حتى أغويتمونا وفتنتمونا .

فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئا إلا براءة بعضهم من بعض ، والندامة
العظيمة ، ولهذا قال :

[وأسروا الندامة لما رأوا العذاب] أى : زال عنهم ذلك الاحتجاج
الذى احتج به بعضهم ، لينجو من العذاب ، وعلم أنه ظالم مستحق له .

فندم كل منهم غاية الندم ، وتمنى أن لو كان على الحق ، وأنه ترك
الباطل الذى أوصله إلى هذا العذاب ، سرا فى أنفسهم ، لخوفهم من الفضيحة
فى إقرارهم على أنفسهم .

وفى بعض مواقف القيامة ، وعند دخولهم النار ، يظهرون ذلك الندم

جهرًا .

الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٣﴾
﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا
إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا

« ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ،
يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلانا خليلا » الأيات « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل
ما كنا في أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير . »

[وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا] يفلون كما يفعل المسجون ،
الذى سيهان في سجنه كما قال تعالى « إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل
يسحبون * في الحميم ثم في النار يسجرون » الآيات .

[هل يجزون] في هذا العذاب والنكال ، وتلك الأغلال النقال
[إلما كانوا يعملون] من الكفر والفسوق والعصيان .

* يخبر تعالى . عن حالة الأمم للماضية المكذبة للرسول ، أنها كحال هؤلاء
الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الله إذا أرسل
رسولا في قرية من القرى ، كفر به مترفوها ، وأبطرتهم نعمتهم ،
ونفروا بها .

[وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا] أى : بمن اتبع الحق [وما نحن
بمعديين] .

أى : أولا ، لسنا بمبعوثين ، فإن بعثنا ، فالذى أعطانا الأموال والأولاد
في الدنيا ، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعدبنا .

وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسُدُّ الرُّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَضْعِفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ

فأجابهم الله تعالى ، بأن بسط الرزق وتضييقه ، ليس دليلاً على ما زعمتم .

فإن الرزق تحت مشيئة الله ، إن شاء بسطه لعبده ، وإن شاء ضيقه .

[وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم إلى الله زلفى] وتدنى إليه .

وإنما الذى يقرب منه زلفى ، الإيمان بما جاء به المرسلون ، والعمل الصالح الذى هو من لوازم الإيمان ، فإن أولئك ، لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، لا يعلمها إلا الله .

[وهم فى الغرفات آمنون] أى : فى المنازل العاليات المرتفعات جدا ، ساكنين فيها ، مطمئنين ، آمنين من المكدرات والمنغصات ، لما فيه من اللذات ، وأنواع المشتبهات ، وآمنين من الخروج منها ، او الحزن فيها .

[والذين يسمعون فى آياتنا معجزين] أى : على وجه التعجيز لنا ، ولسلنا ، والتكذيب .

فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ
الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا مِمَّن يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْوَاءُ
إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَإِنَّا مِنْ دُونِهِمْ

[أولئك في العذاب محضرون] تحضرم الزبانية فلا يجديهم ما عولوا
عليه نفعا .

ثم أعاد تعالى أنه [يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له] ليرتب
عليه قوله :

[وما أنفقتم من شيء] نفقة واجبة ، أو مستحبة ، على قريب ، أو جار ،
أو مسكين ، أو يتيم ، أو غير ذلك .

[فهو] تعالى [يخلفه] فلا تقوهوا أن الإنفاق مما ينقص الرزق ، بل
وعد بالخلف للمنفق ، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر [وهو خير الرازقين]
فاطلبوا الرزق منه ، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها .

[ويوم يحشرهم جميعاً] أي : العابدين لغير الله والمعبودين ، من درته ،
من الملائكة .

[ثم يقول] الله [للملائكة] على وجه التوبيخ لمن عبدتم .

[أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون] فقبروا من عبادتهم .

[قالوا سبحانك] أي : تنزيها لك وتقديسا ، أن يكون لك شريك ، أو ند

[أنت ولينا من دونهم] أي : أنت الذي نواليه من دونهم ، لا موالاة

بيننا وبينهم .

بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ
لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

فنحن مفتقرون إلى ولايتك ، مضطرون إليها ، فكيف ندعو غيرنا
إلى عبادتنا ؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء !!؟
[بل] هؤلاء المشركون [كانوا يعبدون الجن] أى : الشياطين ،
يأمرونهم بعبادتنا^(١) أو عبادة غيرنا ، فيطيعونهم بذلك .

وطاعتهم ، هى عبادتهم ، لأن العبادة ، الطاعة ، كما قال تعالى مخاطبا
لكل من اتخذ معه آلهة « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان
إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم » .

[أكثرهم بهم مؤمنون] أى : مصدقون للجن ، متقادون لهم ، لأن
الإيمان هو : التصديق الموجب للانقياد .

فلما تبرأوا منهم ، قال تعالى مخاطبا لهم : [فالיום لا يملك بعضهم بعض
نفعاً ولا ضراً] تقطعت بينكم الأسباب ، وانقطع بعضهم من بعض .
[ونقول للذين ظلموا] بالكفر والمعاصى - بعد ما ندخلهم النار -

(١) قوله « بعبادتنا أو عبادة غيرنا » تعبير غامض غير واضح . والأصح
الأوضح أن يقال « يأمرونهم بأن يعبدوننا أو يعبدوا غيرنا » حتى ينجلي
المعنى للقراء على اختلاف طبقاتهم العلمية .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَيَّتْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ
يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا

[ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون] فاليوم عاينتموها، ودخلتموها ،
جزاء لتكذيبكم ، وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب ، من عدم الهرب
من أسبابها .

* يخبر تعالى عن حالة المشركين ، عندما تتلى عليهم آيات الله الينيات ،
وحججه الظاهرات ، وبراهينه القاطعات ، الدالة على كل خير ، الفأهية عن
كل شر ، التي هي أعظم نعمة جاءتهم ، ومِنَّةٍ وصلت إليهم ، الموجبة لمقابلتها
بالإيمان والتصديق ، والانتقاد ، والتسليم ، أنهم يقابلونها بضد ما ينبغي ،
ويسكذبون من جاءهم بها ويقولون :

[ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم] أي : هذا
قصده ، حين يأمركم بالإخلاص لله ، لتتركوا عوائد آباءكم ، الذين تعظمونهم ،
وتمشون خلفهم .

فردوا الحق ، بقوة الضالين ، ولم يوردوا برهاناً ، ولا شبهة .
فأى شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين ، باتباع الحق ، فادّعوا أن
إخوانهم ، الذين على طريقتهم ، لم يزالوا عليه ؟ .

وهذه السفاهة ، ورد الحق ، بأقوال الضالين ، إذا تأملت كل حق
رد ، فإذا هذا ، مآله لا يرد ، إلا بأقوال الضالين من المشركين ، والدهريين ،
والفلاسفة ، والصابئين ، والملحدون في دين الله ، المارقين ، فهم أسوة كل
من رد الحق إلى يوم القيامة .

إِنِّكَ مُفْتَرِيٌّ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ

ولما احتجوا بفعل آبائهم ، وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل ، طعنوا بعد هذا ، بالحق .

[وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى] أى : كذب افتراه هذا الرجل ، الذى جاء به .

[وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين] أى : سحر ظاهر لكل أحد ، تكذيباً بالحق ، وترويحاً على السفهاء .

ولما بين ما ردوا به الحق ، وأنها أقوال ، دون مرتبة الشبهة ، فضلاً عن أن تكون حجة ، ذكر أنهم ، وإن أراد أحد أن يحتج لهم ، فإنهم لا مستند لهم ، ولا لهم شيء يعتمد عليه أصلاً ، فقال :

[وما آتيناهم من كتب يدرسونها] حتى تكون عمدة لهم [وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير] حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ، ما يدفعون به ، ما جئتهم به .

فليس عندهم علم ، ولا أمانة من علم .

ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين قبلهم فقال : [وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا] .

أى : ما بلغ هؤلاء المخاطبون [معشار ما آتيناهم] أى : الأمم الذين من قبلهم .

مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٥﴾
﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ
وَفَرَادَىٰ تُنْمُ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ

[فكذبوا رسلى فكيف كان نكير] أى : إنكارى عليهم ،
وعقوبتى إياهم .

وقد أعلمنا ما فعل بهم من النكال ، وأن منهم ، من أغرقه ، ومنهم
من أهلكه بالريح العقيم ، وبالصيحة ، وبالرجفة ، وبالخسف بالأرض ، وبإرسال
الخاصب من السماء .

فاحذروا ياهؤلاء المكذبون ، أن تدوموا على التكذيب ، فيأخذكم
كما أخذ من قبلكم ، ويصيبكم ما أصابهم .

* أى [قل] يأيها الرسول ، لهؤلاء المكذبين للعاندين ، المتصددين لرد
الحق وتكذيبه ، والقدح بمن جاء به :

[إنما أعظم بواحدة] أى : بمصلحة واحدة ، أشير عليكم بها ، وأنصح
لكم فى سلوكها .

وهى طريق نصف ، لست أدعوكم بها ، إلى اتباع قولى ، ولا إلى ترك
قولكم ، من دون موجب لذلك ، وهى :

[أن تقوموا لله مثنى وفرادى] أى : نهضوا بهمة ، ونشاط ، وقصد
لاتباع الصواب ، وإخلاص لله ، مجتمعين ، ومتباحثين فى ذلك ، ومتناظرين ،
وفرادى ، كل واحد يخاطب نفسه بذلك .

فإذا قمتم لله ، مثنى وفردى ، استعملتم فكركم ، وأجلتموه ، وتدبرتم
أحوال رسولكم : هل هو مجنون ، فيه صفات المجانين من كلامه ، وهيئته ،
وصفته ؟ .

أم هو نبي صادق ، منذر لكم ما يضركم ، مما أمامكم من العذاب
الشديد ؟

فلو قبلوا هذه الموعظة ، واستعملوها ، لتبين لهم أكثر من غيرهم ، أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بمجنون ، لأن هيئته ، ليست كهيئة
المجانين ، في خنقهم ، واختلاجهم ، ونظرهم .

بل هيئته أحسن الهيئات ، وحركاته ، أجل الحركات ، وهو أكل
الخلق ، أدباً ، وسكينة ، وتواضعاً ، ووقاراً ، لا يكون إلا لأرزن الرجال
عقلاً .

ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح ، ولفظه المليح ، وكلماته التي تملأ القلوب ،
أمناً ، وإيماناً ، وتزكى النفوس ، وتطهر القلوب ، وتبعث على مكارم الأخلاق ،
وتحث على محاسن الشيم ، وتزجر عن مساوىء الأخلاق ورذائلها .

إذا تكلم ، رمقته العيون ، هيبة وإجلالا ، وتعظيماً .

فهل هذا يشبه هذيان المجانين ، وعربدتهم ، وكلامهم الذى يشبه
أحوالهم !!؟

فكل من تدبر أحواله وقصده استعلام هل هو رسول الله أم لا ؟
سواء تفكر وحده ، أم معه غيره ، جزم بأنه رسول الله حقاً ، ونبيه صدقاً ،
خصوصاً المخاطبين ، وهو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره .

لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ
لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾

وتم مانع للنفوس آخر ، عن اتباع الداعي إلى الحق ، وهو أنه يأخذ
أموال من يستجيب له ، ويأخذ أجره على دعوته .

فبين الله تعالى نزاهة رسوله عن هذا الأمر فقال : [قل ما سألتكم
من أجر] أى : على اتباعكم للحق [فهو لكم] أى : فأشهدكم أن ذلك
الأجر - على التقدير - أنه لكم .

[إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد] أى : محيط علمه
بما أدعو اليه .

فلو كنت كاذباً ، لأخذنى بمقوبته .

وشهيد أيضاً على أعمالكم ، سيحفظها عليكم ، ثم يجازيكم بها .

ولما بين البراهين الدالة على صحة الحق ، وبطلان الباطل ، أخبر تعالى
أن هذه سنته وعادته أن [يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق] ،
لأنه بين من الحق في هذا الموضع ، ورد به أقوال المكذبين ، ما كان عبرة
للمعتبرين ، وآية للتأملين .

فإنك كما ترى ، كيف اضمحلت أقوال المكذبين ، وتبين كذبهم
وعنادهم ، وظهر الحق وسطع ، وبطل الباطل وانقمع .

وذلك بسبب بيان [علام الغيوب] الذى يعلم ما تنطوى عليه القلوب ،
من الوسوس والشبه ، ويعلم ما يقابل ذلك ، ويدفعه من الحجج .

فيعلم بها عباداه ، ويبينها لهم ، ولهذا قال :

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغَيْبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ
وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتَ فَإِنَّمَا أَضِلُّ
عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ
قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

[قل جاء الحق] أى : ظهر وبان ، وصار بمنزلة الشمس ، وظهر
سلطانه .

[وما يبديء الباطل وما يعيد] أى : اضمحل وبطل أمره ، وذهب
سلطانه ، فلا يبديء ولا يعيد .

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول ، وكان الكذبيون له ، يرمونه
بالضلال ، أخبرهم بالحق ، ووضحه لهم ، وبين لهم عجزهم عن مقاومته ، وأخبرهم
أن رميهم له بالضلال ، ليس بضائر الحق شيئاً ، ولا دافع ما جاء به .
وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك ، لكن على سبيل التنزل فى المجادلة -
فإنما يضل على نفسه ، أى : ضلاله قاصر على نفسه ، غير متعد إلى غيره .

[وإن اهتديت] فليس ذلك من نفسى ، وحولى ، وقوتى ، وإنما
هدايتى بما [يوحى إلى ربي] فهو مادة هدايتى ، كما هو مادة
هداية غيرى .

إن ربي [سميع] للأقوال والأصوات كلها [قريب] من دعاه ،
وسأله ، وعبده .

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ فَزَعُوا۟ فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا۟ مِنْ مَّكَانٍ
قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ
بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ

* يقول تعالى [ولو ترى] أيها الرسول ، ومن قام مقامك ، حال هؤلاء المكذبين .

[إذ فزعوا] حين رأوا العذاب ، وما أخبرتهم به الرسل ، وما كذبوا به ، لرأيت أمرا هائلا ، ومنظرا مفضعا ، وحالة منكرة ، وشدة شديدة ، وذلك حين يحق عليهم العذاب .

[فلا قوت] لهم وليس لهم عنه مهرب .

[وأخذوا من مكان قريب] أي : ليس بعيدا عن محل العذاب ، بل يؤخذون ، ثم يقذفون في النار .

[وقالوا] في تلك الحال : [آمنا بالله] وصدقنا ، ما به كذبنا [و] لكن [أنى لهم التناوش] أي : تناول الإيمان [من مكان بعيد] قد حيل بينهم وبينه ، وصار من الأمور المحالة في هذه الحالة .

فلو أنهم آمنوا وقت الإمكان ، لكان إيمانهم مقبولا .

ولكنهم [كفروا به من قبل ويقذفون] أي : يرمون [بالغيب من مكان بعيد] بتدفعهم الباطل ، ليدحضوا به الحق .

ولكن لا سبيل إلى ذلك ، كما لا سبيل للرامي ، من مكان بعيد إلى إصابة الغرض .

بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاءِهِمْ
مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٤﴾

فكذلك الباطل ، من المحال أن يقلب الحق أو يدفعه ، وإنما يكون
له صولة ، وقت غفلة الحق عنه ، فإذا برز الحق ، وقاوم الباطل ، قعه .
[وحيل بينهم وبين ما يشتهون] من الشهوات واللذات ، والأولاد ،
والأموال ، والخدم ، والجنود .
وقد انفردوا بأعمالهم ، وجاءوا فرادى ، كما خلقوا ، وتركوا ما خولوا ،
وراء ظهورهم .

[كما فعل بأشيائهم من قبل] أى : من الأمم السابقين ، حين جاءهم
الهلاك ، حيل بينهم وبين ما يشتهون .
[إنهم كانوا فى شك مرىب] أى : يحدث الريبة وقلق القلب ، فلذلك ،
لم يؤمنوا ، ولم يعقبوا حين استعقبوا .

تم تفسير سورة سبأ - والله الحمد والمنة ، والفضل ، ومنه العون ، وعليه
التوكل ، وبه الثقة .

تفسير

سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ

يمدح تعالى نفسه الكريمة المقدسة ، على خلقه السموات والأرض ، وما اشتملتا عليه ، من المخلوقات ، لأن ذلك ، دليل على كمال قدرته ، وسعة ملكه ، وعموم رحمته ، وبديع حكيمته ، وإحاطة علمه .

ولما ذكر الخلق ، ذكر بعده ، ما يتضمن الأمر ، وهو : أنه [جاعل الملائكة رسلا] في تدبير أوامره القدرية ، ووسائط بينه وبين خلقه ، في تبليغ أوامره الدينية .

وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلا ، ولم يستثن منهم أحدا ، دليل على كمال طاعتهم لربهم ، وانقيادهم لأمره ، كما قال تعالى : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

ولما كانت الملائكة مدبرات ، بإذن الله ، ما جعلهم الله موكابين فيه ،

رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَتُلْكَ وَرَبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ
فَلَا تُمَسِّكُ لَهَا وَمَا يُمَسِّكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٢﴾

ذكر قوتهم على ذلك ، وسرعة سيرهم ، بأن جعلهم [أولى أجنحة] تطير
بها ، فتسرع بتنفيذ ما أمرت به .
[مثنى وثلاث ورباع] أى : منهم من له جناحان ، وثلاثة ، وأربعة ،
بحسب ما اقتضته حكمته .

[يزيد فى الخلق ما يشاء] أى : يزيد بعض مخلوقاته على بعض ، فى صفة
خلقها ، وفى القوة ، وفى الحسن ، وفى زيادة الأعضاء المهدودة ، وفى حسن
الأصوات ، ولذة النعمات .
[إن الله على كل شيء قدير] فقدرته تعالى ، تأتى على ما يشاؤه ،
ولا يستعصى عليها شيء ، ومن ذلك ، زيادة مخلوقاته ، بعضها على بعض .

ثم ذكر انفراده تعالى ، بالتدبير ، والعطاء ، والمنع فقال :

[ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك] من رحمته
عنهم [فلا مرسل له من بعده] فهذا يوجب التعلق بالله تعالى ، والافتقار
إليه من جميع الوجوه ، وأن لا يدعى إلا هو ، ولا يخاف ويرجى ،
إلا هو .

[وهو العزيز] الذى قهر الأشياء كلها [الحكيم] الذى يضع الأشياء
مواضعها وينزلها منازلها .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴿﴾

* يأمر تعالى ، جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم .

وهذا شامل لذكورها بالقلب ، اعترافا ، وباللسان ثناء ، وبالجوارح انقيادا ، فإن ذكر نعمه تعالى ، داع لشكره .

ثم نبههم على أصول النعم ، وهى : الخلق ، والرزق فقال : [هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض] .

ولما كان من المعلوم ، أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله ، نتج من ذلك ، أن كان ذلك ، دليلا على ألوهيته وعبوديته ، ولهذا قال :

[لا إله إلا هو فأنى تؤفكون] أى : تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق .

[وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ] يا أيها الرسول ، فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين .

[فقد كذبت رسل من قبلك] فأهلك المكذبون ، ونجى الله الرسل وأتباعهم .

[وإلى الله ترجع الأمور] فى الآخرة ، فيجازى المكذبين ، وينصر المرسلين وأتباعهم .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ
عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ
السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا

* يقول تعالى: [يا أيها الناس إن وعد الله] بالبعث ، والجزاء على
الأعمال [حق] أى : لا شك فيه ، ولا مرية ، ولا تردد، قد دلت على ذلك
الأدلة السمعية ، والبراهين العقلية .

فإذا كان وعده حقا ، فتمهثوا له وبادروا أوقاتكم الشريفة ، بالأعمال
الصالحة ، ولا يقظكم عن ذلك قاطع .

[فلا تغرنكم الحياة الدنيا] بذاتها وشهواتها ، ومطالبها النفسية ،
فتلهيكم عما خلقتم له .

[ولا يغرنكم بالله الغرور] الذى هو : [الشيطان] وهو [لكم عدو]
في الحقيقة [فاتخذوه عدوا] أى : لتكن منكم عداوته ، ولا تهملوا محاربتة
كل وقت ، فإنه يراكم ، وأنتم لا ترونه ، وهو دائما لكم بالمرصاد .

[إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير] هذا غايته ومقصوده ،
من تبعه ، أن يهان غاية الإهانة ، بالمذاب الشديد .

ثم ذكر أن الناس ، انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها ، إلى
قسمين ، وذكر جزاء كل منهما فقال : [الذين كفروا] أى : جعلوا
ما جاءت به الرسل ، ودلت عليه الكتب [لهم عذاب شديد] في نار جهنم ،

وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴿٧﴾
﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴿٨﴾

شديد في ذاته ، ووصفه ، وأنهم خالدون فيها أبدا .

[والذين آمنوا] بقلوبهم ، بما دعا الله إلى الإيمان به [وعملوا] بمقتضى ذلك الإيمان ، بجوارحهم ، الأعمال [الصالحات لهم مغفرة] لذنوبهم ، يزول بها عنهم الشر والمسكروه [وأجر كبير] يحصل به المطلوب .

* يقول تعالى : [أفمن زين له سوء عمله] التقيح ، زينه له الشيطان ، وحسنه في عينه .

[فرآه حسنا] أى : كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم ، والدين التويم ، فهل يستوى هذا وهذا ؟

فالأول : عمل السيء ، ورأى الحق باطلا ، والباطل حقا .

والثانى : عمل الحسن ، ورأى الحق حقا ، والباطل باطلا .

ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى .

[فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم] أى على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم ، وصددهم الشيطان عن الحق [حسرات] أى : فلا تهلك نفسك حزنا على الضالين وحسرة عليهم .

فليس عليك إلا البلاغ ، وليس عليك من هداهم ، من شيء ، والله هو الذى يجازيهم بأعمالهم [إن الله عليم بما يصنعون] فيجازيهم عليها .

﴿٩﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ
إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ
النُّشُورُ ﴿٩﴾

﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ

* يخبر تعالى عن كمال اقتداره ، وسعة جوده ، وأنه الذى [أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت] فأنزله الله عليها [فأحينا به الأرض بعد موتها] .

نحييت البلاد والعباد ، وارتزقت الحيوانات ، ورتعت فى تلك الخيرات .

[كذلك] الذى أحيا الأرض بعد موتها ، ينشر الأموات من قبورهم ، بعد ما مزقهم البلاء ، فيسوق إليهم مطرا ، كما ساقه إلى الأرض الميتة ، فينزله عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور ، ويكون [النشور] فيأتون للقيام بين يدى الله ليحكم بينهم ، ويفصل بحكمه العدل .

* أى : يا من يريد العزة ، اطلبها من هى بيده ، فإن العزة بيد الله ، ولا تنال إلا بطاعته .

وقد ذكرها بقوله : [إليه يصعد الكلم الطيب] من قراءة ، وتسبيح ، وتحميد ، وتهليل ، وكل كلام حسن طيب ، فيرفع إلى الله ، ويعرض عليه ، ويثنى الله على صاحبه ، بين الملائ الأعلى ، [والعمل الصالح] من أعمال القلوب وأعمال الجوارح [يرفعه] الله تعالى إليه أيضا ، كالكلم الطيب .

وقيل : العمل الصالح ، يرفع الكلم الطيب ، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة ، فهى التى ترفع كله الطيب .

الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ
أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ

فإذا لم يكن له عمل صالح ، لم يرفع له قول إلى الله تعالى .
فهذه الأعمال ، التي ترفع إلى الله تعالى ، ويرفع الله صاحبها ويعزه .
وأما السيئات ، فإنها بالعكس ، يريد صاحبها الرفعة بها ، ويمكر ويكيد
ويعود ذلك عليه ، ولا يزداد إلا هواناً ، ونزولاً ، ولهذا قال : [والذين
يمكرون السيئات لهم عذاب شديد] يهانون فيه غاية الإهانة .
[ومكر أولئك هو يبور] أي : يهلك ويضمحل ، ولا يفيدهم شيئاً ،
لأنه مكر بالباطل ، لأجل الباطل .

يذكر تعالى خلقه الآدمي ، وتنقله في هذه الأوطار ، من تراب إلى نطفة
وما بعدها .

* [ثم جعلكم أزواجاً] أي : لم يزل ينقلكم ، طورا بعد طور ، حتى
أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً ، ذكر يتزوج أنثى ، ويراد بالزواج ،
الذرية والأولاد .

فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه ، فإنه مقترن بقضاء الله
وقدره ، وعلمه .

[وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه] وكذلك أطوار الآدمي ،
كلها ، بعلمه وقضائه .

مِن مَّعْمَرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرٌ ﴿١١﴾

[وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره] أى : عمر الذى كان معمرًا ، عمرا طويلا [إلا] بعلمه تعالى ، أو ما ينقص من عمر الإنسان الذى هو بصدد أن يصل إليه ، لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر ، كالزنا ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الأرحام ، ونحو ذلك ، مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر .

والمعنى : أن طول العمر وقصره ، بسبب ، وبغير سبب ، كله بعلمه تعالى ، وقد أثبت ذلك [فى كتاب] حوى ما يجرى على العبد ، فى جميع أوقاته ، وأيام حياته .

[إن ذلك على الله يسير] أى : إحاطة علمه بملك المعلومات الكثيرة ، وإحاطة كتابه بها .

فهذه ثلاثة أدلة ، من أدلة البعث والنشور ، كلها عقلية ، نبه الله عليها فى هذه الآيات : إحياء الأرض بعد موتها ، وأن الذى أحيها سيحى الموتى وتنقل الآدمى فى تلك الأطوار .

فالذى أوجده ونقله ، طبقا بعد طبق ، وحالا بعد حال ، حتى بلغ ما قدر له ، فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى ، أقدر ، وهو أهون عليه ، وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم ، العلوى ، والسفلى ، وجليها ، الذى فى القلوب ، والأجنة ، التى فى البطون ، وزيادة الأعمار ونقصها ، وإثبات ذلك كله فى كتاب .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ
شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ
حَبِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ

فالذي كان هذا يسيرا عليه ، فأعادته للأموات ، أيسر وأيسر .

فتبارك من كثر خيره ، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم ، في معاشهم ،
ومعادهم .

• هذا إخبار عن قدرته ، وتوالي حكمته ورحمته أنه جعل البحرين لمصالح
العالم الأرضي كلهم ، وأنه لم يسوِّ بينهما ، لأن المصلحة تقتضى أن تكون
الأنهار ، عذبة فراتا ، سائغا شرابها ، لينتفع بها الشاربون ، والفارسون ،
والزارعون .

وأن يكون البحر ، ملحا أجاجا ، لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض ،
بروائح ما يموت في البحر ، من الحيوانات ، ولأنه ساكن لا يجرى ،
فلوحته ، تمنعه من التغير ، ولتكون حيواناته ، أحسن وأذ ، ولهذا قال :
[ومن كل] من البحر الملح والعذب [تأكلون لحما طريا] وهو السمك
التيسر صيده في البحر .

[وتستخرجون حاية تلبسونها] من لؤلؤ ، ومرجان ، وغيره ، مما يوجد
في البحر .

فهذه مصالح عظيمة للعباد .

ومن المصالح أيضا والمنافع في البحر ، أن سخره الله تعالى لحل الفلك ،

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى

من السفن، والمراكب، فتراها تمر البحر وتشقه، فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم، وتجاراتهم، فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه، شيء كثير، ولهذا قال :

[ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون] على النعم المتقدم ذكرها .

ومن ذلك أيضا إيلاجه تعالى ، الليل بالنهار ، والنهار بالليل ، يدخل هذا على هذا ، كلما أتى أحدهما ، ذهب الآخر ، ويزيد أحدهما ، وينقص الآخر ، ويتساويان فيقوم بذلك ، ما يقوم من مصالح العباد في أبدانهم ، وحيواناتهم وأشجارهم ، وزروعهم .

وكذلك ماجعل الله في تسخير الشمس والقمر، من مصالح الضياء والنور والحركة والسكون ، وانتشار العباد في طلب فضله ، وما فيهما من إنضاج الثمار وتجفيف ما يجفف ، وغير ذلك ، مما هو من الضروريات ، التي لو فقدت للاحق الناس الضرر .

وقوله [كل يجري لأجل مسمى] أى : كل من الشمس والقمر، يسيران في فلكهما ، ما شاء الله أن يسيرا .

فإذا جاء الأجل، وقرب انتضاء الدنيا ، انتطع سيرهما، وتعطل سلطانهما وخسف القمر ، وكورت الشمس ، وانتثرت النجوم .

فلما بين تعالى ؛ ما بين من هذه المخلوقات العظيمة ، وما فيها من العبر الدالة على كماله وإحسانه ، قال :

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ
مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ
وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِيرِكُمْ

[ذلکم اللہ ربکم له الملك] أى : الذى انفرد بخلق هذه المذكورات
وتسخيرها ، هو الرب المألوه المعبود ، الذى له الملك كله .

[والذين تدعون من دونه] من الأوثان والأصنام [لا يملكون من
قطمير^(١)] أى لا يملكون شيئا ، لا قليلا ، ولا كثيرا ؛ حتى ولا القطمير
الذى هو أحقر الأشياء .

وهذا من تنصص النفي وعمومه ، فكيف يُدْعُونَ ، وهم غير مالكين
لشيء ، من ملك السموات والأرض ؟

ومع هذا [إن تدعوهم لا يسمعو دُعَاءَكُمْ] لأنهم ما بين جادوأموات
وملائكة مشغولين بطاعة ربهم .

[ولو سمعوا] على وجه الفرض والتقدير [ما استجابوا لكم] لأنهم
لا يملكون شيئا ، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده ، ولهذا قال :

[ويوم القيامة يكفرون بشرككم] أى : يتبرأون منكم ؛ ويقولون
« سبحانك أنت ولينا من دونهم » .

(١) القطمير : القشرة الرقيقة على نواة التمر : أو بتعبير آخر : « لفافة
نواة التمر » .

وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

يَسْأَلُهَا النَّاسُ أَتَمُّ الْفُقَرَاءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ

[ولا ينبئك مثل خبير] أى : لا أحد ينبئك ؛ أصدق من الله
العليم الخبير .

فاجزم بأن هذا الأمر ، الذى نبأ به ؛ كأنه رأى عين ؛ فلا تشك
ولا تتمر .

فتضمنت هذه الآيات ؛ الأدلة والبراهين الساطعة ، الدالة على أنه تعالى
المألوه المعبود ؛ الذى لا يستحق شيئاً من العبادة سواء ، وأن عبادة ما سواه
باطلة متعلقة بباطل ؛ لا تفيد عابده شيئاً .

* يخاطب تعالى ؛ جميع الناس ؛ ويخبرهم بحالهم ووصفهم ؛ وأنهم فقراء
إلى الله من جميع الوجوه :

فقراء فى إيجادهم ، فلولا إيجاده إياهم ؛ لم يوجدوا .

فقراء فى إعدادهم ؛ بالقوى ؛ والأعضاء ؛ والجوارح ؛ التى لولا إعداده
إياهم بها ؛ لما استعدوا لأى عمل كان .

فقراء فى إمدادهم ؛ بالأقوات ؛ والأرزاق والنعم ؛ الظاهرة والباطنة .
فلولا فضله وإحسانه ، وتيسيره الأمور ، لما حصل لهم من الرزق
والنعم ، شىء .

فقراء فى صرف النقم عنهم ، ودفع المكاره ، وإزالة الكرب
والشدائد .

فلولا دفعه عنهم ، وتفريجه لسكرباتهم ، وإزالته لسرهم ، لاستمرت
عليهم المكاره والشدائد .

الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية ، وأجناس التدبير .
فقراء إليه ، في تألههم له وحبهم له ، وتعبدهم له ، وإخلاص العبادة
له تعالى .

فلو لم يوفقهم لذلك ، هللكوا ، وفسدت أرواحهم ، وقلوبهم ،
وأحوالهم .

فقراء إليه ، في تعليمهم ما لا يعلمون ، وعملهم بما يصلحهم .
فلولا تعليمه ، لم يتعلموا ، ولولا توفيقه ، لم يصلحوا .

فهم فقراء بالذات إليه ، بكل معنى ، وبكل اعتبار ، سواء شعر أو ببعض
أنواع الفقر ، أم لم يشعروا .

ولكن الموفق منهم ، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور
دينه ودنياه ، ويتضرع له ، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين ، وأن
يعينه على جميع أموره ، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت ، فهذا حَرِيٌّ
بالإعانة التامة من ربه وإلهه ، الذي هو أرحم به من الوالدة بوالدها .

[والله هو الغنى الحميد] أى : الذى له الغنى التام ، من جميع الوجوه ،
فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه ، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق ،
وذلك لكمال صفاته ، وكونها كلها ، صفات كمال ؛ ونعوت جلال .

ومن غناه تعالى ، أن قد أغنى الخلق في الدنيا والآخرة .

فهو الحميد في ذاته ، وأسمائه ، لأنها حسنى ، وأوصافه ، لكونها عليا
وأفعاله ، لأنها فضل وإحسان ، وعدل ، وحكمة ، ورحمة .

عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ

وفي أواسره ونواهيه ، فهو الحميد على ما فيه من الصفات ، وعلى مامنه من الفضل والإنعام ، وعلى الجزاء بالعدل ، وهو الحميد في غناه ، الغنى في حمله .

[إن يشأ يذهبكم ويأت بغيركم من الناس ، أطوع الله منكم .
ويكون في هذا ، تهديد لهم بالهلاك والإبادة ، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك .

ويحتمل أن المراد بذلك ، إثبات البعث والنشور ، وأن مشيئة الله تعالى ، نافذة في كل شيء ، وفي إعادتكم بدموتكم ، خلقا جديدا ، ولكن لذلك الوقت أجل ، قدره الله ، لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

[وما ذلك على الله بعزيز] أي : بممتنع ، ولا معجز له

ويدل على المعنى الأخير ، ما ذكره بعده في قوله : [ولا تزر وازرة وزو أخرى] أي : في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله ، ولا يحمل أحد ذنب أحد .

[وإن تدع مثقلة] أي : نفس مثقلة بالخطايا والذنوب [إلى حملها]

أي : تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها [لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى] فإنه لا يحمل قريب عن قريب .

فليست حال الآخرة ، بمنزلة حال الدنيا ، يساعد الحميم حميمه ، والصديق

إِلَىٰ جِهْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ
لِنَفْسِهِ وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

بل يوم القيامة ، يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد ، ولو على
والديه وأقاربه .

[إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة] أى : هؤلاء
الذين يقبلون النذارة ، وينتفعون بها ، هم أهل الخشية لله بالغيب ، الذين
يخشونه فى حال السر والعلانية ، والمشهد والغيب ، وأهل إقامة الصلاة ،
بحدودها ، وشروطها ، وأركانها ، وواجباتها ، وخشوعها .

لأن الخشية لله ، تستدعى من العبد ، العمل بما يخشى من تضييعه العقاب
والهرب ، مما يخشى من ارتكابه العذاب .

والصلاة تدعو إلى الخير ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر .

[ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه] أى : ومن زكى نفسه بالتقوى من العيوب ،
كالرياء والكبر ، والكذب والغش ، والمكر والخداع ، والنفاق ، ونحو
ذلك من الأخلاق الرذيلة ، وتحلّى بالأخلاق الجميلة ، من الصدق ، والإخلاص
والتواضع ، ولين الجانب ، والنصح للعباد ، وسلامة الصدر ، من الحسد
والحسد ، وغيرهما من مساوىء الأخلاق ، فإن تزكيتك ، يعود نفعها إليه ،
ويصل مقصودها إليه ، ليس يضيع من عمله شيء .

[وإلى الله الصير] فيجازى الخلائق على ما أسلفوه ، ويحاسبهم على
ما قدموه وعملوه ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا أحصاها .

﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ
وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ وَلَا النُّورُ
وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ
وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن
فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ

* يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله ، وفيما أودعه في فطر
عباده .

[وما يستوى الأعمى] فاقد البصر [والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ،
ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات] .

فكما أنه من المقرر عندكم ، الذي لا يقبل الشك ، أن هذه المذكورات
لا تتساوى ، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوى المتضادات المعنوية ، أولى
وأولى .

فلا يستوى المؤمن والكافر ، ولا المهتدى والضال ، ولا العالم والجاهل ،
ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار ، ولا أحياء القلوب وأمواتها ، فإن
بين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ، ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

فإذا علمت المراتب ، وميزت الأشياء ، وبان الذي ينبغي أن يتنافس
في تحصيله من ضده ، فليختر الحازم لنفسه ، ما هو أولى به ، وأحق
بالإيثار .

[إن الله يسمع من يشاء] سماع فهم وقبول ، لأنه تعالى هو الهادى
للولف .

[وما أنت بمسمع من في القبور] أى : أموات القلوب .

بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٤﴾

أو كما أن دعائك لا يفيد سكان التبور شيئاً ، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً .

ولكن وظيفتك النذارة ، وإبلاغ ما أرسلت به ، قبل منك ، أم لا .

ولهذا قال : [إن أنت إلا نذير * إنا أرسلناك بالحق] أى : مجرد إرسالنا إياك بالحق ، لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، واندراس من العلم ، وضرورة عظيمة إلى بعثك ، فبعثك الله رحمة للعالمين .

وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم . والصراط المستقيم ، حق لا باطل .

وكذلك ما أرسلناك به ، من هذا القرآن العظيم ، وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم ، حق وصدق .

[بشيراً] لمن أطاعك يشواب الله ، العاجل والآجل .

[ونذيراً] لمن عصاك ، بعقاب الله العاجل والآجل ، ولست بيدع من الرسل .

[وإِنْ مِنْ أُمَّةٍ] من الأمم الماضية والقرون الخالية [إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ^(١)]
يقم عليهم حجة الله « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة » .

(١) أى : وما من أمة من الأمم فيما سلف ومضى إلا جاءها من قبل الله من يحذر عاقبته ، ويخوفها وخامة الطغيان ، وسوء عاقبة الكفران .

﴿٢٥﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ
الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٦﴾

* أى وإن يكذبك أيها الرسول ، هؤلاء المشركون ، فلتست أول
رسول كذب .

[فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات] على الحق ،
وعلى صدقهم ، فيما أخبروهم به [والزر] أى الكتب المكتوبة ، المجموع
فيها كثير من الأحكام .

[والكتاب المنير] أى : المضيء فى أخباره الصادقة ، وأحكامه
العادلة .

فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئا عن اشتباه ، أو قصور بما جاءتهم به
الرسل ، بل بسبب ظلمهم وعنادهم .

[ثم أخذت الذين كفروا] بأنواع العقوبات [فكيف كان نكير^(١)]
عليهم ؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل .

فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم ، فيصيبكم كما أصاب أولئك ،
من العذاب الأليم ، والخزى الوخيم .

(١) أى : فانظر كيف كان إنكارى لعمالمهم ، وغضبى عليهم
وتعذيبى إياهم .

﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ

* يذكر تعالى خلقه للأشياء والمتضادات ، التي أصلها واحد ، ومادتها
واحدة ، وفيها من التفاوت والفرق ، ما هو مشاهد معروف ، ليدل العباد ،
على كمال قدرته ، وبديع حكمته .

فن ذلك : أن الله تعالى أنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات
المختلفات ، والنباتات المتنوعات ، ما هو مشاهد للناظرين ، والماء واحد ،
والأرض واحدة .

ومن ذلك ، الجبال التي جعلها الله أوتادا للأرض ، تجدها جبالا
مشتبكة ، بل جبلا واحدا .

وفيها ألوان متعددة ، فيها جدد بيض أى : طرائق بيض ، وفيها طرائق
صفر وحر ، وفيها غرابيب سود أى : شديدة السواد جدا .

ومن ذلك ، الناس والدواب ، والأنعام ، فيها من اختلاف الألوان
والأوصاف ، والأصوات ، والهيات ، ما هو مرئى بالأبصار ، مشهود
للنظار ، والسكل ، من أصل واحد ، ومادة واحدة .

فتفاوتها دليل عقلى على مشيئة الله تعالى ، التي خصصت ما خصصت
منها ، بلونه ، ووصفه ، وقدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك ، وحكمته
ورحمته ، حيث كان ذلك الاختلاف ، وذلك التفاوت ، فيه من المصالح
والمنافع ، ومعرفة الطرق ، ومعرفة الناس بعضهم بعضا ، ما هو معلوم .

مُخْتَلِفُ الْوَأْوَاهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

وذلك أيضاً ، دليل على سعة علم الله تعالى ، وأنه يبعث من في القبور .
ولكن الغافل ، ينظر في هذه الأشياء وغيرها ، نظر غفلة ، لا يتحدث
له تذكرا .

وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى ، ويعلم بفكره الصائب ، وجه
الحكمة فيها .

ولهذا قال : [إنما يخشى الله من عباده العلماء] فكل من كان بالله
أعلم ، كان أكثر له خشية .

وأوجبت له خشية الله ، الانكفاف عن المعاصي ، والاستعداد للقاء
من يخشاه .

وهذا دليل على فضيلة العلم ، فإنه داع إلى خشية الله .

وأهل خشيته هم أهل كرامته كما قال تعالى « رضى الله عنهم ورضوا
عنه ذلك لمن خشى ربه » .

[إن الله عزيز] كامل العزة ، ومن عزته ، خلق هذه المخلوقات
المتضادات .

[غفور] لذنوب العائنين .

﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا
مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِّيَهُمْ
أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴿٣٠﴾

* إن الذين يتلون كتاب الله [أى : يتبعونه فى أوامره ، فيمتثلونها ،
وفى نواهيه ، فيتركونها ، وفى أخباره ، فيصدقونها ويعتقدونها ، ولا يقدمون
عليه ما خالفه من الأقوال .

ويتلون أيضا ألفاظه ، بدراسته ، ومعانيه ، بتتبعها واستخراجها .

ثم خص من التلاوة بعد ما عمم ، الصلاة التى هى عماد الدين ، ونور
المسلمين ، وميزان الإيمان ، وعلامة صدق الإسلام ، والنفقة على الأقارب
والمساكين ، واليتامى ، وغيرهم ، من الزكاة والكفارات ، والنذور ،
والصدقات [سرا وعلانية] فى جميع الأوقات .

[يرجون] بذلك [تجارة لن تبور] أى : لن تكسد وتفسد . بل تجارة ،
هى أجل التجارات ، وأعلاها ، وأفضلها ، ألا وهى رضا ربهم ، والفوز
بجزيل ثوابه ، والنجاة من سخطه وعقابه .

وهذا فيه الإخلاص بأعمالهم ، وأنهم لا يرجون بها ، من المقاصد
السيئة ، والنيات الفاسدة ، شيئا .

وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال : [ليوفيههم أجورهم] أى : أجور
أعمالهم ، وعلى حسب قلتها ، وكثرتها ، وحسنها ، وعدمه [ويزيدهم من فضله]
زيادة عن أجورهم .

[إنه غفور شكور] غفر لهم السيئات ، وقبل منهم القليل من الحسنات .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا

• يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله [هو الحق] من كثرة ما اشتمل عليه ، من الحق ، وإحاطته بأصوله ، كأن الحق منحصر فيه ، فلا يكن في قلوبكم حرج منه ، ولا تتبرموا منه ، ولا تستهينوا به .

فإذا كان هو الحق ، لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية ، والغيبية وغيرها ، مطابق لما في الواقع ، فلا يجوز أن يراد به ، ما يخالف ظاهره ، وما دل عليه .

[مصدقا لما بين يديه] من الكتب والرسول ، لأنها أخبرت به ، فلما وجد وظهر ، ظهر به صدقها .

فهى بشرت به وأخبرت ، وهو مصدقها ، ولهذا لا يمكن أحدا ، أن يؤمن بالكتب السابقة ، وهو كافر بالقرآن أبدا .

لأن كفره به ، ينقض إيمانه بها ، لأن من جملة أخبارها ، الخبر عن القرآن ، ولأن أخبارها ، مطابقة لأخبار القرآن .

[إن الله بعباده لخبير بصير] فيعطى كل أمة ، وكل شخص ، ما هو اللائق بماله .

ومن ذلك ، أن الشرائع السابقة ، لا تليق إلا بوقتها وزمانها .

ولهذا ، ما زال الله يرسل الرسل رسولا بعد رسول ، حتى ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

فجاء بهذا الشرع ، الذى يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة ويتكفل بما هو الخير فى كل وقت .

الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ

ولهذا لما كانت هذه الأمة ، أكل عقولا ، وأحسنهم أفكارا ، وأرقهم قلوباً ، وأزكاهم أنفساً .

اصطفاهم تعالى ، واصطفى لهم دين الإسلام ، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب ، ولهذا قال :

[ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا] وهم هذه الأمة .

[فمنهم ظالم لنفسه] بالمعاصي ، التي هي دون الكفر .

[ومنهم مقتصد] مقتصر على ما يجب عليه ، تارك للمحرم .

[ومنهم سابق بالخيرات] أى : سارع فيها واجتهد ؛ فسبق غيره ؛ وهو

المؤدى للفرائض ، المكثّر من النوافل ، التارك للمحرم والمكروه .

فكلهم اصطفاه الله تعالى ، لوراثته هذا الكتاب ، وإن تفاوتت مراتبهم ،

وتميزت أحوالهم .

فلكل منهم ، قسط من وراثته ، حتى الظالم لنفسه ، فإن مامعه من أصل

الإيمان ، وعلوم الإيمان ، وأعمال الإيمان ، من وراثته الكتاب .

لأن المراد بوراثته الكتاب ، وراثته علمه وعمله ، ودراسة ألفاظه ،

واستخراج معانيه .

وقوله [بإذن الله] راجع إلى السابق إلى الخيرات ، لثلا يفتر بعمله ،

بل ما سبق إلى الخيرات ، إلا بتوفيق الله تعالى ومعاونته ، فينبغى له أن

يشغل بشكر الله تعالى ، على ما أنعم به عليه .

الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ

[وذلك هو الفضل الكبير] أى : ورائة الكتاب الجليل ، لمن اصطفى
تعالى من عباده ، هو الفضل الكبير ، الذى جميع النعم بالنسبة إليه ،
كالعدم .

فأجل النعم على الإطلاق ، وأكبر الفضل ، ورائة هذا الكتاب .

ثم ذكر جزاء الذين أورشهم كتابه فقال : [جنات عدن يدخلونها]
أى : جنات مشتملات ، على الأشجار ، والظل ، والظليل ، والحدائق
الحسنة ، والأنهار المتدفقة ، والقصور العالية ، والمنازل المزخرفة ، فى أبد
لا يزول ، وعيش لا ينفد .

والعدن « الإقامة » جنات عدن أى : جنات إقامة ، أضافها للإقامة ،
لأن الإقامة والخلود ، وصفها ووصف أهلها .

[يحلون فيها من أساور من ذهب] وهو الحلى الذى يجعل فى اليدين ،
على ما يحبون ، ويرون أنه أحسن من غيره ، الرجال والنساء فى الحلية
فى الجنة سواء .

[و] [يحلون فيها [لؤلؤا] ينظم فى ثيابهم وأجسادهم .

[ولباسهم فيها حرير] من سندس ، ومن إستبرق أخضر .

[و] لما تم نعمتهم ، وكتلت لذتهم [قالوا الحمد لله الذى أذهب عنا

الحزن] وهذا يشمل كل حزن ، فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص فى جمالهم ،

الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي
أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا
لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

ولا في طعامهم وشرابهم ، ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم ، ولا في دوام
لبثهم .

فهم في نعيم ، ما يرون عليه مزيدا ، وهو في تزايد أبد الآباد .

[إن ربنا لغفور] حيث غفر لنا الزلات [شكور] حيث قبل منا
الحسنات ، وضاعفها ، وأعطانا من فضله ، ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا .
فبمغفرته نجوا ، من كل مكروه ومرهوب .

وبشكره وفضله . حصل لهم كل مرغوب محبوب .

[الذي أحلنا] أى : أنزلنا نزول حلول واستقرار ، لا نزول معبر
واعتبار .

[دار المقامة] أى : الدار التي تدوم فيها الإقامة ، والدار التي يرغب
في المقام فيها ، لكثرة خيراتها ، وتوالي مسراتها ؛ وزوال كدوراتها .
وذلك الإحلال [من فضله] علينا ، وكرمه ؛ لا بأعمالنا .

فلولا فضله ؛ لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه .

[لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب] أى : لا تعب في الأبدان
ولا في القلب والقوى ؛ ولا في كثرة التمتع .

وهذا يدل ؛ على أن الله تعالى يجعل أبدانهم ؛ في نشأة كاملة ؛ ويهيئ

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ (۳۶)

لهم من أسباب الراحة على الدوام ، ما يكونون بهذه الصفة ، بحيث لا يسهم نصب ولا لغوب ؛ ولا هم ولا حزن .

ويدل على أنهم ؛ لا ينامون في الجنة ؛ لأن النوم فائدته ؛ زوال التعب ؛ وحصول الراحة به .

وأهل الجنة ؛ بخلاف ذلك .

ولأنه موت أصغر ؛ وأهل الجنة لا يموتون ؛ جعلنا الله منهم ؛ بمنه وكرمه .

* لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم ، ذكر حال أهل النار وعذابهم فقال :

[والذين كفروا] أى : جعلوا ما جاءهم به رسلهم من الآيات ؛ وأنكروا لقاء ربهم .

[لهم نار جهنم] يعذبون فيها أشد العذاب ؛ وأبلغ العقاب .

[لا يقضى عليهم] بالموت [فيموتوا] فيستريحوا .

[ولا يخفف عنهم من عذابها] فشدّة العذاب وعظمه ؛ مستمر

عليهم في جميع الآناء واللحظات .

[كذلك نجزي كل كفور] أى : كذلك نجزي به كل متادّر في

الكفر ، مصر عليه [وهم يصطرخون فيها] أى يصرخون ويتصايحون

ويستغيثون ويقولون : [ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل] .

وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا
نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ
فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾

فاعترفوا بذنوبهم ، وعرفوا أن الله عدل فيهم ، ولكن سألوها الرجعة
في غير وقتها .

فيقال لهم : [أولم نعمركم ما] أى : دهرًا وعمرا [يتذكروا فيه من تذكروا]
أى : يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل ؛ متعناكم في الدنيا ؛ وأدررنا
عليكم الأرزاق ؛ وقبضنا لكم أسباب الراحة ؛ ومددنا لكم في العمر ؛
وتابعنا عليكم الآيات [وجاءكم النذير] وواصلنا إليكم النذر ؛ وابتليناكم
بالسراء والضراء ، لتنبهوا إلينا ، وترجعوا إلينا .

فلم ينجع فيكم إنذار ، ولم تفد فيكم موعظة ، وأخرنا عنكم العقوبة ،
حتى إذا انقضت آجالكم ، وتمت أعماركم ، ورحلتم عن دار الإمكان ، بأشر
الحالات ، ووصلتم إلى هذه الدار ، دار الجزاء على الأعمال ، سألتهم الرجعة .

هيهات هيهات ، فات وقت الإمكان ، وغضب عليكم الرحيم الرحمن ،
واشدد عليكم عذاب النار ، ونسيكم أهل الجنة ، فامكنوا في جهنم ، خالدين
مخلدين ، وفي العذاب مهانين ، ولهذا قال :

[فذوقوا فما للظالمين من نصير] ينصرهم ، فيخرجهم منها ، أو يخفف
عنهم من عذابها .

﴿٣٨﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ

بذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾

﴿٣٩﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ

فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا

وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴿٣٩﴾

* لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين ، وذكر أعمال الفريقين ، أخبر عن سعة علمه تعالى ، وإطلاعه على غيب السموات والأرض ، التي غابت عن أبصار الخلق ، وعن علمهم ، وأنه عالم بالسرائر ، وما تنطوى عليه الصدور ، من الخير والشر ، والزكاء وغيره ، فيعطى كلا ، ما يستحقه ، وينزل كل أحد منزلته .

* يخبر تعالى عن كمال حكمته ، ورحمته بعباده ، أنه قدر بقضائه السابق ، أن يجعل بعضهم ، يخلف بعضاً في الأرض ، ويرسل لكل أمة من الأمم ، النذر ، فينظر كيف يعملون .

فن كفر بالله ، وبما جاءت به رسله ، فإن كفره عليه ، وعليه إيمه وعقوبته .

ولا يحمل عنه أحد ، ولا يزداد الكافر بكفره ، إلا مقت ربه له ، وبغضه إياه .

وأى عقوبة ، أعظم من مقت الرب الكريم !؟

[ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً] أى : يخسرون أنفسهم ،

وأهلهم ، وأعالمهم ، ومنازلهم في الجنة .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ

فالكافر لا يزال في زيادة من الشتاء والخسران ، والحزى عند الله ،
وعند خلقه والحرمات .

* يقول تعالى ، مُعْجِزًا لآلهة المشركين ، ومبينًا نقصها ، وبطلان شركهم
من جميع الوجوه .

[قل] يا أيها الرسول لهم : [أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله]
أى : أخبروني عنهم ، هل هم مستحقون للدعاء والعبادة .

[أروني ماذا خلقوا من الأرض] هل خلقوا بحراً ، أم خلقوا جبالا ،
أو خلقوا حيوانا ، أو خلقوا جمادا ؟ .

سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء ، هو الله تعالى .

[أم لهم] أى : لشركائكم [شرك في السموات] أى : مشاركة
في خلقها وتديرها ؟ .

سيقولون : ليس لهم شركة في ذلك .

فإذا لم يخلق شيئا ، ولم يشركوا الخالق في خلقه ، فلم عبدتموهم ،
ودعوتهم مع إقراركم بعجزهم ؟

فانتفى الدليل العقلي ، على صحة عبادتهم ، ودل على بطلانها .

ثم ذكر الدليل السمعي ، وأنه أيضا منتف ، فلهذا قال :

أَمْ أَتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴿٤٠﴾

[أم آتيناهم كتابا] يتكلم بما كانوا به يشركون ، يأمرهم بالشرك ،
وعبادة الأوثان .

[فهم] في شركهم [على بينة منه] أى : من ذلك الكتاب الذى
نزل عليهم فى صحة الشرك ؟ .

ليس الأمر كذلك ؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن ، ولا جاءهم
نذير قبل رسول الله ، محمد صلى الله عليه وسلم .

ولو قدر نزول كتاب إليهم ، وإرسال رسول إليهم ، وزعموا أنه
أمرهم بشركهم ، فإننا نجزم بكذبهم ، لأن الله قال :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا
فاعبدون » .

فالرسل والكتب ، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى
« وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » .

[فإن قيل : إذا كان الدليل العتلى ، والدليل النقلى ، قد دل على بطلان
الشرك ، فما الذى حمل المشركين على الشرك ، وفيهم ذرور العقول والذكاء
والفطنة ؟ .

أجاب تعالى بقوله : [بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غرورا]
أى : ذلك الذى مشوا عليه ، ليس لهم فيه حجة ، وإنما ذلك ، توصية
بعضهم لبعض به ، وتزيين بعضهم لبعض واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال ،
وأمانى مَنَّاها الشياطين ، وزينت لهم سوء أعمالهم .

﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُنْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا
وَلَنْ زَلَّتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا
غَفُورًا ﴿٤١﴾

فنشأت في قلوبهم ، وصارت صفة من صفاتها ، ففسر زوالها ، وتعسر
انفصالها ، فحصل ما حصل ، من الإقامة على الكفر ، والشرك الباطل
الضمحل .

* يخبر تعالى ، عن كمال قدرته ، وتمام رحمته ، وسعة حلمه ومغفرته ،
وأنه تعالى ، يمسك السموات والأرض ، عن الزوال ، فإنهما لو زالتا ،
ما أمسكهما أحد من الخلق ، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما .
ولكنه تعالى ، قضى أن يكونا كما وجدا ، ليحصل للخلق القرار ،
والنفع ، والاعتبار .

وليعلموا من عظيم سلطانه ، وقوة قدرته ، مابه تمتلى قلوبهم له ، إجلالا
وتعظيما ، ومحبة ، وتكريما .

وليعلموا كمال حلمه ومغفرته ، بامهال المذنبين ، وعدم معاجلته للعاصين .

مع أنه لو أمر السماء ، لحصبتهم ، ولو أذن للأرض ، لابتلعتهم .

ولكن وسعتهم مغفرته ، وحلمه ، وكرمه [إنه كان حلِيمًا] في تأخير

عقاب الكفار ، [غفوراً] لمن تاب .

﴿٤٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ
لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ
إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ
الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَن

* أى وأقسم هؤلاء ، الذين كذبوك يا رسول الله ، قسما اجتهدوا فيه
بالإيمان الغليظة .

[لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم] أى : أهدى من
اليهود والنصارى ، أهل الكتب ، فلم يفوا بتلك الأقسام والعهود .
[فلما جاءهم نذير] لم يهتدوا ، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم ،
بل لم يدوموا على ضلالهم الذى كان .

بل [ما زادهم] ذلك [إلا نفورا] وزيادة ضلال ، وبغى ، وعناد .
وليس إقسامهم المذكور ، لتصد حسن ، وطلب للحق ، وإلا لوقفوا له .
ولكنه صادر عن استكبار فى الأرض على الخلق ، وعلى الحق ،
وبهجة فى كلامهم هذا ، يريدون به المكر والخداع ، وأنهم أهل الحق ،
الحرصون على طلبه ، فيغتر بهم المغترون ، ويمشى خلفهم المقتدون .
[ولا يحيق المكر السيئ] الذى مقصوده ، مقصود سيئ ، وما له
وما یرى إليه ، سيئ ، باطل [إلا بأهله] ، فكرهم إنما يعود عليهم .
وقد أبان الله لعباده فى هذه المقالات ، وتلك الأقسام ، أنهم كذبة
فى ذلك ومزورون .

تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴿٤٣﴾
﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ
مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴿٤٤﴾

فاستبان خزيمهم ، وظهرت فضيحتهم ، وتبين قصدهم السيئ .
فعاد مكرهم في منحورهم ، ورد الله كيدهم في صدورهم .

فلم يبق لهم ، إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب ، الذي هو سنة الله
في الأولين ، التي لا تبدل ولا تغير ، أن كل من سار في الظلم ، والعدا ،
والاستكبار على العباد ، أن تحمل به نقمته ، وتسلب عنه نعمته ، فَلْيَتَرَّقَبْ
هؤلاء ، ما فعل بأولئك .

* يحض تعالى الناس ، على السير في الأرض ، بالقلوب والأبدان ، للاعتبار
لا لمجرد النظر والغفلة ، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ، ممن كذبوا
الرسول ، وكانوا أكثر منهم أموالا وأولادا ، وأشد قوة ، وعمرؤا الأرض
أكثر مما عمرها هؤلاء .

فلما جاءهم العذاب ، لم تنفعهم قوتهم ، ولم تنفعهم أموالهم ولا أولادهم
من الله شيئا ، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيئته .

[وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض] لكمال
علمه وقدرته [إنه كان عليما] بالأشياء كلها [قديراً] عليها .

ثم ذكر تعالى ، كمال حلمه ، وشدة إيماله وإنظاره ، أرباب الجرائم

وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ
وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

والذنوب فقال :

[ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا] من الذنوب [ما ترك على ظهرها
من دابة] أى : لاستوعبت العقوبة ، حتى الحيوانات غير المكلفة .

[ولكن] يمهلمهم تعالى ولا يمهلمهم [ويؤخرهم إلى أجل مسمى ،
فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً] فيجازيهم بحسب ما علمه منهم ،
من خير وشر .

تم تفسير سورة فاطر — والحمد لله رب العالمين

تفسير

سُورَةُ بَسُرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ يَسْ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَئِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾

* هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم ، الذى وصفه الحكمة ، وهى
وضع كل شىء موضعه : وضع الأمر والنهى ، فى المحل اللائق بهما .
فأحكامه الشرعية والجزائية ، كلها ، مشتملة على غاية الحكمة .
ومن حكمة هذا القرآن ، أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته ، فينبه
العقول على المناسبات والأوصاف القبيضية لترتيب الحكم عليها .
[إنك لمن المرسلين] هذا هو المقسم عليه ، وهو رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ،
وإنك يا محمد ، من جملة المرسلين ، فلست بيدع من الرسل .
وأيضا فجتت بما جاء به الرسل من الأصول الدينية .
وأيضا فمن تأمل أحوال المرسلين وأوصافهم ، وعرف الفرق بينهم
وبين غيرهم ، عرف أنك من خيار المرسلين ، بما فيك من الصفات الكاملة ،
والأخلاق الفاضلة .

ولا يخفى ما بين المقسم به ، وهو القرآن الحكيم ، وبين المقسم عليه ، وهو رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، من الاتصال ، وأنه لو لم يكن لرسالته ، دليل ولا شاهد ، إلا هذا القرآن الحكيم ، لكنني به دليلا وشاهدا ، على رسالة محمد .

بل القرآن العظيم ، أقوى الأدلة المتصلة المستمرة ، على رسالة الرسول .
فأدلة القرآن كلها ، أدلة لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم ، الدالة على رسالته ، وهو أنه [على صراط مستقيم] معتدل موصل إلى الله وإلى دار كرامته .

وذلك الصراط المستقيم ، مشتمل على أعمال ، وهي الأعمال الصالحة ، المصلحة للقلب والبدن ، والدنيا والآخرة ، والأخلاق الفاضلة المزكية للنفس المطهرة للقلب ، المنمية للأجر .

فهذا الصراط المستقيم ، الذى هو وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووصف دينه الذى جاء به .

فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم ، كيف جمع بين القسم بأشرف الأقسام ، على أجل مقسم عليه .

وخبّر الله وحده ، كاف ، ولكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة فى هذا الموضع ، على صحة ما أقسم عليه ، من رسالة رسوله ، وما نهينا عليه ، وأشرنا إشارة لطيفة لسلوك طريقه .

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ، أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ

وهذا الصراط المستقيم [تنزيل العزيز الرحيم] فهو الذي أنزل به كتابه ،
وأنزله طريقاً لعباده ، موصلاً لهم إليه .

لحماء بعزته ، عن التفسير والتبديل ، ورحم به عباده ، رحمة اتصلت
بهم ، حتى أوصلتهم إلى دار رحمته .

ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين ، العزيز ، الرحيم .

فلما أقسم تعالى على رسالته ، وأقام الأدلة عليها ، ذكر شدة الحاجة إليها
واقضاء الضرورة لها فقال :

[لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون] وهم العرب الأميون ، الذين
لم يزالوا خالين من الكتب ، عادمين الرسل ، قد عمتهم الجهالة ،
وغرتهم الضلالة .

فأرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم ، يزكهم ، ويعلمهم الكتاب
والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

فينذر العرب الأميين ، ومن لحق بهم من كل أمى .

ويذكر أهل الكتب ، بما عندهم من الكتب ، فنعمة الله به على
العرب خصوصا ، وعلى غيرهم عموماً .

ولكن هؤلاء الذين بعثت لإنذارهم ، بعدما أنذرتهم ، انقسموا قسمين .

قسم رد لما جئت به ، ولم يقبل الندارة ، وهم الذين قال الله فيهم
[لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون] أى : نفذ فيهم القضاء
والمشيئة ، أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم .

عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي آعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا
فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ

وإنما حق عليهم القول ، بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه ، فحينئذ
عوقبوا بالطبع على قلوبهم .

وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم فقال :

[إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا] هي جمع « غل » و « الغل » ما يغل

به العنق ، فهو للعنق ، بمنزلة القيد للرجل .

وهذه الأغلال ، التي في الأعناق ، عظيمة [فهي] قد وصلت [إلى

الأذقان] قد رفعت رؤوسهم ، إلى فوق [فهم مقمحون] أي رافعوا رؤوسهم
من شدة الغل الذي في أعناقهم ، فلا يستطيعون أن يخفصوها .

[وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا] أي : حاجزا يحجزهم

عن الإيمان .

[فأغشيناهم فهم لا يبصرون] قد غمهم الجهل والشقاء ، من جميع

جوانبهم ، فلم تفد فيهم النذارة .

[وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون] وكيف يؤمن من

طبع على قلبه ، ورأى الحق باطلا ، والباطل حقا ؟!

والقسم الثاني : الذين قبلوا النذارة ، وقد ذكرهم بقوله :

ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ
الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ

[إنما تنذر] أى : إنما تنفع نذارتك ، ويتمظ بنصحك [من اتبع
الذكر^(١)] أى : من قصده اتباع الحق ، وما ذكر به [وخشى الرحمن
بالغيب] أى : من اتصف بهذين الأمرين ، القصد الحسن فى طلب الحق ،
وخشية الله تعالى ، فهم الذين ينتفعون برسالتك ، ويزكون بتعليمك .

ومن وفق لهذين الأمرين [فبشره بمغفرة] لذنوبه [وأجر كريم]
لأعماله الصالحة ، ونبته الحسنة

[إنما نحن نحيي الموتى] أى : نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال .
[ونكتب ما قدموا] من الخير والشر ، وهو : أعمالهم التى عملوها
وباثروها ، فى حال حياتهم .

[وآثارهم] وهى : آثار الخير ، وآثار الشر ، التى كانوا هم السبب
فى إيجادها ، فى حال حياتهم ، وبعد وفاتهم وتلك الأعمال التى نشأت من
أقوالهم وأفعالهم ، وأحوالهم .

فكل خير عمل به أحد من الناس ، بسبب علم العبد ، وتعليمه ،
أو نصحه ، أو أمره بالمعروف ، أو نهيه عن المنكر ، أو علم أودعه عند
المتعلمين ، أو فى كتب ينتفع بها فى حياته وبعد موته ، أو عمل خيرا ، من

أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا

صلاة ، أو زكاة ، أو صدقة ، أو إحسان ، فاقتدى به غيره ، أو عمل مسجداً ، أو محلا من المحال ، التي يرتفق بها الناس ، وما أشبه ذلك ، فإنها من آثاره ، التي تكتب له ، وكذلك عمل الشر .

ولهذا^(١) « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

وهذا الموضع ، يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله ، والهداية إلى سبيله ، بكل وسيلة ، وطريق موصل إلى ذلك ، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه ، وأنه أسفل الخليفة ، وأشدهم جرماً ، وأعظمهم إثماً .

[وكل شيء] من الأعمال والنيات وغيرها [أحصيناه في إمام مبین]
أى : كتاب هو أم الكتب ، وإليه مرجع الكتب ، التي تكون بأيدي الملائكة ، وهو اللوح المحفوظ .

• أى : واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك ، الرادين لدعوتك ، مثلاً يعتبرون به ، ويكون لهم موعظة إن وفقتموا للخير .

وذلك المثل : أصحاب القرية ، وما جرى منهم من التكذيب لرسول الله ، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله .

وتعيين تلك القرية ، لو كان فيه فائدة ، لعينها الله ، فالتعرض لذلك ،

(١) قوله « ولهذا » أى : ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أَمْرُسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَتَمُّ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَتَمُّ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾

وما أشبهه من باب التكلف ، والتكلم بلا علم .
ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذا الأمر ، تجد عنده من الخبط والخلط .
والاختلاف الذي لا يستقر له قرار ، ما تعرف به ، أن طريق العلم الصحيح ، الوقوف مع الحقائق ، وترك التعرض لما لا فائدة فيه .

وبذلك تزكو النفس ، ويزيد العلم ، من حيث يظن الجاهل ، أن زيادته ، بذكر الأقوال التي لا دليل عليها ، ولا حجة عليها ، ولا يحصل منها من الفائدة ، إلا تشويش الذهن ، واعتياد الأمور المشكوك فيها .

والشاهد أن هذه القرية جعلها الله ، مثلا للمخاطبين .

[إذ جاءها المرسلون] من الله تعالى يأمرونهم بعبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، وينهونهم عن الشرك والمعاصي .

[إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث] أي قويناهما بثالث ، فصاروا ثلاثة رسل ، اعتناء من الله بهم ، وإقامة للحجة ؛ بتوالي الرسل إليهم .

[فقالوا] لهم : [إنا إليكم مرسلون] فأجابوهم بالجواب ، الذي ما زال مشهورا عند من رد دعوة الرسل .

[قالوا ما أتمم إلا بشر مثلنا] أي : فما الذي فضلكم علينا ، وخصكم

من دوننا ؟

قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ

قالت الرسل لأممهم « إن نحن إلا بشر مثليكم ولكن الله يمن على من
يشاء من عباده » .

[وما أنزل الرحمن من شيء] أى : أنكروا عموم الرسالة .

ثم أنكروا أيضاً المخاطبين لهم فقالوا : [إن أنتم إلا تكذبون] .

فقال هؤلاء الرسل الثلاثة : [ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون] فلو كنا
كاذبين ، لأظهر الله خزينا ، ولبادرنا بالعقوبة .

[وما علينا إلا البلاغ المبين] أى : البلاغ المبين الذى يحصل به ،
توضيح الأمور المطلوب بيانها .

وما عدا هذا من آيات الاقتراح ، أو من سرعة العذاب ، فليس إلينا .

وإنما وظيفتنا ، التى هى البلاغ المبين ، قننا بها ، وبينناها لكم .

فإن اهتديتم ، فهو حظكم وتوفيقكم ، وإن ضلتم ، فليس لنا من
الأمر شيء .

فقال أصحاب القرية لرسولهم : [إنا تطيرنا بكم] أى : لم نر على قدمكم
علينا ، واتصالكم بنا ، إلا الشر .

وهذا من أعجب المعائب ، أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة ينعم
الله بها على العباد ، وأجل كرامة يكرمهم بها ، وضرورتهم إليها فوق
كل ضرورة ، قد قدم بحالة شر ، زادت على الشر الذى هم عليه ، واستشأموها بها .

وَلَيْمَسَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ
أَإِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ
رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ

ولكن الخذلان ، وعدم التوفيق ، يصنع بصاحبه أعظم مما يصنع
به عدوه .

ثم توعدهم فقالوا : [لئن لم تنتهوا لنرجنكم] أى : لنقتلنكم رجما
بالحجارة ، أشنع القتلات [وليسنكم منا عذاب أليم] .

فقلت لهم رسلكم [طائرکم معکم] وهو : ما معهم من الشرك والشر ،
المقتضى لوقوع المكروه والنقمة ، وارتفاع المحبوب والنعمة .

[ألم إن ذكركم] أى : بسبب أنا ذكرناكم ما فيه صلاحكم وحظكم ،
قلتم لنا ما قلتم .

[بل أنتم قوم مسرفون] متجاوزون للحد ، متجرهون^(١) فى قولكم ،
فلم يزدكم دعاؤهم إلا نفورا واستكبارا .

[وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى] حرصا على نصيح قومه ، حين
سمع ما دعت إليه الرسل ، وآمن به وعلم ، ما رد به قومه عليهم فقال :

[يا قوم اتبعوا المرسلين] فأمرهم باتباعهم ، ونصحهم على ذلك ، وشهد
لهم بالرسالة .

ثم ذكر تأييدا لما شهد به ودعا إليه ، فقال :

(١) متجرهون . أى : أخذتكم الهدية فى ردكم قولنا .

لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ

[اتبعوا من لا يسألكم أجراً] أى : اتبعوا من نصحكم نصحا ،
يعود عليكم بالخير ، وليس يريد منكم أموالكم ، ولا أجراً على نصحه
لكم ، وإرشاده إياكم ، فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه .

بقي أن يقال : فلعله يدعو ولا يأخذ أجرة ، ولكنه ليس على الحق .
فدفع هذا الاحتراز بقوله : [وهم مهتدون] لأنهم لا يدعون
إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه ، ولا ينهون إلا عما يشهد العقل
الصحيح بقبحه .

فكأن قومه لم يقبلوا نصحه ، بل عادوا لاثمين له ، على اتباع الرسل ،
وإخلاص الدين لله وحده فقال : [ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه
ترجعون] .

أى : وما المانع لى ، من عبادة من هو المستحق للعبادة ، لأنه الذى
فطرنى ، وخلقنى ، ورزقنى ، وإليه مال جميع الخلق ، فيجازيهم بأعمالهم .
فالذى بيده الخلق والرزق ، والحكم بين العباد ، فى الدنيا والآخرة ،
هو الذى يستحق أن يعبد ، ويثنى عليه ويمجد ، دون من لا يملك نعماً
ولا ضراً ، ولا عطاء ولا منعا ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً ،
ولهذا قال :

[أأتخذ من دونه آلهة إن يردنى الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم
شيئاً] لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه ، فلا تغنى شفاعتهم عنى شيئاً
[ولا هم ينقذون] من الضر الذى أراده الله بى .

بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُقِيدُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذَا لَفِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ
الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ

[إني إذا] أي : إن عبت آلهة هذا وصفها [لني ضلال مبين]
تجمع في هذا الكلام ، بين نصحهم ، والشهادة للرسول بالرسالة ، والاهتداء
والإخبار ، بتعمين عبادة الله وحده .

وذكر الأدلة عليها ، وأن عبادة غيره باطلة ، وذكر البراهين عليها ،
والإخبار بضلال من عبدها ، والإعلان بإيمانه جهراً ، مع خوفه الشديد
من قتلهم فقال :

[إني آمنت بربكم فاسمعون] فقتله قومه ، لما سمعوا منه ، وراجعهم
بما راجعهم به .

[قيل] له في الحال [ادخل الجنة ، قال] مخبراً بما وصل إليه من
الكرامة على توحيده ، وإخلاصه ، وناصحاً لقومه بعد وفاته ، كما نصح
لهم في حياته .

[يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي] أي : بأي شيء غفر لي ، فأزال
عني أنواع العقوبات .

[وجعلني من المكرمين] بأنواع المثوبات والمسرات .

أي : لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم ، لم يقيموا على شركهم .

السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ
خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْسَرُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾

قال الله في عقوبة قومه : [وما أنزلنا على قومه من بعده من جند
من السماء] أى : ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم ، فنزل جندا من
السماء لإتلافهم

[وما كنا منزلين] لعدم الحاجة إلى ذلك ، وعظمة اقتدار الله تعالى ،
وشدة ضعف بنى آدم ، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله ، يكفهم .

[إن كانت] أى ما كانت عقوبتهم [إلا صيحة واحدة] أى : صوتا
واحدا ، تكلم به بعض ملائكة الله [فإذا هم خامدون] قد تقطعت قلوبهم
في أجوافهم ، وانزعجوا لتلك الصيحة ، فأصبحوا خامدين ، لا صوت
ولا حركة ، ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار ، ومقابلة أشرف الخلق ،
بذلك الكلام القبيح ، وتجرهم عليهم .

قال الله مترحما للعباد [يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا
به يستهزئون] أى : ما أعظم شقاءهم ، وأطول عنادهم ، وأشد جهلهم ،
حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة ، التي هي سبب لكل شقاء ، وعذاب ،
ونكال !!

﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ
أَنَّهُمْ إِلَيْنِهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُنتُمْ لَتَّمَا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا
مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

﴿٣٣﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا

* يقول تعالى : ألم يروا هؤلاء ، ويمتدحوا بمن قبلهم ، من القرون المكذبة ،
التي أهلكها تعالى ، وأوقع بها عقابه ، وأن جميعهم قد باد وهلك ،
فلم يرجع إلى الدنيا ، ولن يرجع إليها .

وسيعيد الله الجميع ، خلقا جديدا ، ويبعثهم بعد موتهم ، ويحضرون
بين يديه تعالى ، ليحكم بينهم بحكمه العدل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة « وإن
تلك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيما » .

* أى [وآية لهم] على البعث والنشور ، والقيام بين يدي الله تعالى ،
للجزاء على الأعمال ، هذه [الأرض الميتة] التي أنزل الله عليها المطر ، فأحياها
بعد موتها .

[وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون] من جميع أصناف الزروع ، ومن
جميع أصناف النبات ، التي تأكله أنعامهم [وجعلنا فيها] أى : فى تلك
الأرض الميتة .

[جنات] أى : بساتين ، فيها أشجار كثيرة ، وخصوصا النخيل
والأعناب ، اللذان هما أشرف الأشجار [وفجرنا فيها] أى : فى الأرض
[من العيون] .

فِيهَا مِنَ الْعَمِيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ
أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ
الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

جعلنا في الأرض تلك الأشجار ، والنخيل ، والأعناب [ليأكلوا من
ثمره] قوتنا وفاكهة ، وأذماً ، ولذة .

[و] الحال أن ذلك الثمر [ما عملته أيديهم] وليس لهم فيه صنع
ولا عمل ، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين ، وخير الرازقين .

وأيضاً فلم تعمله أيديهم ، بطبخ ولا غيره ، بل أوجد الله هذه الثمار ،
غير محتاجة لطبخ ، ولا شئ ، تؤخذ من أشجارها ، فتؤكل في الحال .

[أفلا يشكرون] من ساق لهم هذه النعم ، وأسبغ عليهم من جوده
وإحسانه ، ما به تصلح أمور دينهم وديابهم .

أليس الذي أحيا الأرض بعد موتها ، فأنبت فيها الزروع والأشجار ،
وأودع فيها لذيذ الثمار ، وأظهر ذلك الجنى من تلك الفصون ، وفجر الأرض
اليابسة الميتة بالعميون ، بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى ، إنه على كل
شئ قدير .

[سبحان الذي خلق الأزواج كلها] أي : الأصناف كلها [مما تنبت

الأرض] فنوع فيها من الأصناف ، ما يعسر تعداده .

[ومن أنفسهم] فنوعهم إلى ذكر وأنثى ، وفاوت بين خلقهم ،
وخلقتهم ، وأوصافهم الظاهرة والباطنة .

[ومما لا يعلمون] من المخلوقات ، التي قد خلقت ، وغابت عن علمنا ،

والتي لم تخلق بعد .

﴿٣٧﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ
مُظْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ

فسيحانه وتعالى ، أن يكون له شريك ، أو ظهير ، أو عوين ، أو وزير ،
أو صاحبة ، أو ولد ، أو سبي ، أو شبيه ، أو مثيل في صفات كماله ، ونعوت
جلاله ، أو يعجزه شيء . يريده .

• أي [وآية لهم] على نفوذ مشيئة الله ، وكل قدرته ، وإحيائه الموتى
بعد موتهم .

[الليل نسلخ منه النهار] أي : نزيل منه الضياء العظيم ، الذي طبق
الأرض ، فنبذله بالظلمة ، ونحلها محلها [فإذا هم مظلمون] .

وكذلك نزيل هذه الظلمة ، التي عمتهم وشملتهم ، فنطاع الشمس ،
فقتضى الأقطار ، وينتشر الخلق لما يشتمهم ومصالحهم ، ولهذا قال :

[والشمس تجري لمستقر لها] أي : دائما تجري لمستقر لها ، قدره الله
لها ، لا تتعداه ، ولا تقصر عنه ، وليس لها تصرف في نفسها ، ولا استعصاء
على قدرة الله تعالى .

[ذلك تقدير العزيز] الذي بعزته ، دبر هذه الخبوات العظيمة ، بأكل
تدبير ، وأحسن نظام .

[العليم] الذي بعلمه ، جعلها مصالح لعباده ، ومنافع في دينهم ودنياهم .
[والقمر قدرناه منازل] ينزلها ، كل ليلة ، ينزل منها واحدة ، [حتى]
صفر جدا و [عاد كالعرجون القديم] أي : عرجون النخلة ، الذي من

أَقْدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ
سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

قدمه ، نش ، وصغر حجمه ، وانحنى ، ثم بعد ذلك ، ما زال يزيد شيئا
فشيئا ، حتى يتم نوره ، ويتسق ضياؤه .

[وكل] من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، قدره الله تقديرا
لا يتعداه ، وكل له سلطان ووقت ، إذا وجد ، عدم الآخر ، ولهذا قال
[لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر] أى : فى سلطانه الذى هو الليل ،
فلا يمكن أن توجد الشمس فى الليل .

[ولا الليل سابق النهار] فيدخل عليه قبل انتضاء سلطانه .

[وكل من] الشمس والقمر والنجوم [فى فلك يسبحون] أى :
يترددون على الدوام .

فكل هذا دليل ظاهر ، وبرهان باهر ، على عظمة الخالق ، وعظمة
أوصافه .

خصوصا ، وصف القدرة والحكمة ، والعلم فى هذا الموضع .

﴿٤١﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾
وَوَلَدْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْفِرْ لَهُمْ فَمَا صَرَیحَ

* أی : ودلیل لهم وبرهان ، على أن الله وحده المعبود ، لأنه المنعم بالنعمة ،
الصارف للنعمة ، الذي من جملة نعمه [أنا حملنا ذريتهم] قال كثير من
المفسرين : المراد بذلك : آباؤهم .

[وخلقنا لهم] أی : للوجودين من بعدهم [من مثله] أی : من مثل
ذلك ، أی : جنسه [ما يركبون] به .
فذكر نعمته على الآباء ، بحملهم في السفن ، لأن النعمة عليهم ، نعمة
على الذرية .

وهذا الموضع من أشكال المواضع على في التفسير .

فإن ما ذكره كثير من المفسرين ، من أن المراد بالذرية الآباء ، مما
لا يعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء .

بل فيه من الإبهام ، وإخراج الكلام عن موضوعه ، ما يباهه كلام
رب العالمين ، وإرادته البيان والتوضيح لعباده .

وتم احتمال أحسن من هذا ، وهو أن المراد بالذرية ، الجنس ، وأنهم
هم بأنفسهم ، لأنهم هم ، من ذرية بنى آدم .

ولكن ينقض هذا المعنى قوله [وخلقنا لهم من مثله ما يركبون]
إن أريد : وخلقنا من مثل ذلك الفلك ، أی لهؤلاء المخاطبين ، ما يركبون
من أنواع الفلك ، فيكون ذلك توكيداً للمعنى ، تأباه فصاحة القرآن .

فإن أريد بقوله [وخلقنا لهم من مثله ما يركبون] الإبل ، التي هي
سفن البر ، استقام المعنى واتضح .

إلا أنه يبقى أيضاً ، أن يكون الكلام فيه تشويش ، فإنه لو أريد هذا المعنى ، لقال : « وآية لهم أنا حملناهم في الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » .

فأما أن يقول في الأول : حملنا ذريتهم ، وفي الثاني : حملناهم ، فإنه لا يظهر المعنى .

إلا أن يقال : الضمير عائد إلى الذرية ، والله أعلم بحقيقة الحال .

فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضوع ، ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى .

وذلك أن من عرف جلالة كتاب الله ، وبيانه التام من كل وجه ، للأموال الحاضرة والماضية ، والمستقبلية ، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله ، وكانت الفلك من آياته تعالى ، ونعمه على عباده ، من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة ، ولم تزل موجودة في كل زمان ، إلى زمان المواجهين بالقرآن .

فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن ، وذكر حالة الفلك ، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك ، في غير وقهم ، وفي غير زمانهم ، حين يعلمهم صنعة الفلك البحرية ، الشراعية منها والبخارية ، والجوية السابحة في الجو ، كالطيور ونحوها ، والمراكب البرية ، مما كانت الآية العظمى فيه لا توجد إلا في الذرية ، نبّه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها فقال : [وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون] أى المملوء ركباناً وأمتعة .

لَهُمْ وَلَا هُمْ يَنْقُذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾
وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَةِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾

فعلمهم الله تعالى ، ونجاهم بالأسباب التي علمهم الله إياها ، من الفرق .
ولهذا نهبهم على نعمته عليهم ، حيث أنجاهم من الفرق ، مع قدرته على
ذلك فقال :

[وإن نشأ نفرقهم فلا صريح لهم] أى : لا أحد يصرخ لهم ، فيعاونهم
على الشدة ، ولا يزيل عنهم المشقة [ولا هم ينقذون] مما هم فيه .
[إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين] حيث لم نفرقهم ، لطفًا بهم ، وتمتيعا
لهم ، إلى حين ، لعلمهم يرجعون ، أو يستدركون ما فرط منهم .
[وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم] أى : من أحوال
البرزخ والقيامة ، وما فى الدنيا من العقوبات [لعلكم ترحمون] .
أعرضوا عن ذلك ، فلم يرفعوا به رأسا ، ولو جاءتهم كل آية ،
ولهذا قال :

[وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين] .
وفى إضافة الآيات إلى ربهم ، دليل على كمالها ووضوحها ، لأنه ما أبين
من آيات الله ، ولا أعظم بيانا .

وإن من جملة تربية الله لعباده ، أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون
بها على ما ينفعهم ، فى دينهم ودنياهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾

[وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله] أى : من الرزق الذى من به
الله عليكم ، ولو شاء لسلبكم إياه .

[قال الذين كفروا للذين آمنوا] معارضين للحق ، محتجين بالمشيئة :
[أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم] أيها المؤمنون [إلا فى ضلال مبين]
حيث تأمروننا بذلك .

وهذا مما يدل على جهلهم العظيم ، أو تجاهلهم الوخيم ، فإن المشيئة ،
ليست حجة لعاص أبدا .

فإيه وإن كان ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فإنه تعالى مكن
العباد ، وأعطاهم من القوة ، ما يقدر على فعل الأمر ، واجتناب
النهى .

فإذ تركوا ما أمروا به ، كان ذلك اختيارا منهم ، لا جبرا لهم
ولا قهرا .

[ويقولون] على وجه التكذيب والاستعجال : [متى هذا الوعد إن
كنتم صادقين] .

مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿٥٠﴾
﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ

قال الله تعالى : لا يستبعدوا ذلك ، فإنه عن قريب [ما ينظرون إلا صيحة
واحدة] وهى نفخة الصور [تأخذهم] أى : تصيبهم [وهم يخصمون]
أى : وهم لاهون عنها ، لم تحظر على قلوبهم فى حال خصومتهم ، وتشاجرهم
فما بينهم ، الذى لا يوجد فى الغالب ، إلا وقت الغفلة .

وإذا أخذتهم وقت غفلتهم ، فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون [فلا يستطيعون
توصية] أى : لاقليلة ولا كثيرة [ولا إلى أهلهم يرجعون ^(١)] .

* النفخة الأولى ، نفخة الفزع والموت ، وهذه نفخة البعث والنشور .
فإذا نفخ فى الصور ، خرجوا من الأجداث والقبور ، ينسلون إلى ربهم
أى يسرعون للحضور بين يديه ، لا يتمكنون من العائى والتأخر .
وفى تلك الحال ، يحزن المكذبون ، ويظهرون الحسرة والندم ،
ويقولون :

[يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا] أى : من رقدتنا فى القبور ، لأنه ورد

(١) قوله « ولا إلى أهلهم يرجعون » أى : من أسواقهم وأشغالهم ،
بلى يموتون فيها .

الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

في بعض الأحاديث ، أن لأهل القبور رقدة ، قبيل النفخ في الصور .
فيجابون ، ويقال لهم : [هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون] .
أى : هذا الذى الذى وعدكم الله به ، ووعدتكم به الرسل ، فظهر صدقهم ، رأى العين .
ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع ، لمجرد الخبر عن وعده ، وإنما ذلك للإخبار ، بأنه في ذلك اليوم العظيم ، سيرون من رحمته ، مالا يخطر في الظنون ، ولا حسب الحاسبون ، كقوله « الملك يومئذ الحق للرحمن » ، « وخشعت الأصوات للرحمن » ونحو ذلك ، مما يذكر اسمه الرحمن ، في هذا .
[إن كانت] أى : ما كانت البعثة من القبور [إلا صيحة واحدة] ينفخ إسرافيل في الصور ، فتحيا الأجساد .
[فإذا هم جميع لدينا محضرون] الأولون والآخرون ، والإنس والجن ليحاسبوا على أعمالهم .
[فاليوم لا تظلم نفس شيئا] لا ينقص من حسناتها ، ولا يزداد في سيئاتها .
[ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون] من خير أو شر .
فمن وجد خيرا ، فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه .

﴿٥٥﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ
وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّيلٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ مَمْسِكُونِ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ

* لما ذكر تعالى أن كل أحد لا يجزى إلا ما عمله ، ذكر جزاء الفريقين .

فبدأ بجزاء أهل الجنة ، وأخبر أنهم في ذلك اليوم [في شغل فاكهون] .

أى : في شغل مفكه للنفس ، مُلذِّ لها ، من كل ما تهواه النفوس ، وتلذذه العيون ، ويتمناه اللمنون .

ومن ذلك لقاء العذارى الجميلات ، كما قال : [هم وأزواجهم] من الحور العين ، اللاتي قد جمن حسن الوجوه والأبدان ، وحسن الأخلاق .

[في ظلال على الأرائك] أى : السرر المزينة ، باللباس المزخرف الحسن .

[ممتكئون] عليها ، اتكاء دالاعلى كمال الراحة ، والطمانينة ، واللذة .

[لهم فيها فاكهة] كثيرة ، من جميع أنواع الثمار اللذيذة ، من عنب وتين ، ورمان ، وغيرها .

[ولهم ما يدعون] أى : يطلبون ، فهما طلبوه وتمنوه ، أدر كوه .

ولهم أيضاً [سلام] حاصل لهم [قولاً من رب رحيم] .

ففى هذا ، كلام الرب تعالى لأهل الجنة ، وسلامه عليهم ، وأكده

بقوله :

وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾
﴿٥٩﴾ وَأَمْتَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ
إِلَيْكُمْ يَبْنَئِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

[قولاً] وإذا سلم عليهم الرب الرحيم ، حصلت لهم السلامة التامة ،
من جميع الوجوه ، وحصلت لهم التحية ، التي لا تحية أعلى منها ،
ولانعيم مثلها .

فاظنك بتحية ملك الملوك ، الرب العظيم ، الرؤوف الرحيم ، لأهل
دار كرامته ، الذين أحل عليهم رضوانه ، فلا يسخط عليهم أبداً .

فلولا أن الله تعالى ، قدر أن يموتوا ، أو تزول قلوبهم عن أماكنها
من الفرح ، والبهجة ، والسرور ، لحصل ذلك .

فمرجو ربنا ، أن لا يحرمنا ذلك النعيم ، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه
الكريم .

* لما ذكر تعالى جزاء المتقين ، ذكر جزاء المجرمين [و] أنهم يقال لهم
يوم القيامة :

[وامتازوا اليوم أيها المجرمون] أي : تميزوا عن المؤمنين ،
وكونوا على حدة ، ليوبخهم ، ويقرعههم على رهوس الإشهاد ، قبل أن
يدخلهم النار ، فيقول لهم :

[ألم أعهد إليكم] أي : ألم آمركم وأوصيكم ، على السنة رسلي ،
وأقول لكم :

[يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان] أي : لا تطيعوه ؟

مُثَبِّينَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ

وهذا التوبيخ ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي ، لأنها كلها ، طاعة للشيطان ، وعبادة له .

[إنه لكم عدو مبين] فحذرتكم منه ، غاية التحذير ، وأذرتكم عن طاعته ، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه ، [و] أمرتكم [أن اعبدوني] بامتنال أو امرى وترك زواجرى .

[هذا] أى : عبادتى وطاعتى ، ومعصية الشيطان [صراط مستقيم] .

فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ، ترجع إلى هذين الأمرين .

أى : فلم تحفظوا عهدى ، ولم تعملوا بوصيتى ، [ولقد] واليتم عدوكم ، وهو الشيطان ، الذى [أضل منكم جبلا كثيرا] أى : خلقا كثيرا .

[أفلم تكونوا تعقلون] .

أى : فلا كان لكم عقل ، يأمركم بموالاة ربكم ، ووليكم الحق ، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ، وليا ، فلو كان لكم عقل صحيح ، لما فعلتم ذلك .

فإذا أطعتم الشيطان ، وعاديتم الرحمن ، وكذبتهم بلقائه ، ووردتم القيامة دار الجزاء ، وحق عليكم القول بالعذاب [هذه جهنم التى كنتم توعدون] وتسكذبون بها ، فانظروا إليها عيانا ، فهناك تنزعج منهم القلوب ، وتنبوغ الأبصار ، ويحصل الفزع الأكبر .

ثم يكمل ذلك ، بأن يؤمر بهم إلى النار ، ويقال لهم :

مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَفْقَهُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ
الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ

[اصلوها^(١) اليوم بما كنتم تكفرون] أى : ادخلوها على وجه
تصلاكم ، ويحيط بكم حرها ، ويبلغ منكم كل مبلغ ، بسبب كفركم بآيات
الله ، وتكذيبكم لرسول الله .

قال تعالى فى بيان وصفهم الفظيع ، فى دار الشقاء [اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ]
بأن نجعلهم خرسا ، فلا يتكلمون ، فلا يقدرّون على إنكار ما عملوه ، من
الكفر ، والتكذيب .

[وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون] أى : تشهد
عليهم أعضاؤهم بما عملوه ، وينطقها الذى أنطق كل شىء .

[فلو نشاء لطمسنا على أعينهم] بأن نذهب أبصارهم ، كما طمسنا
على نطقهم .

[فاستبقوا الصراط] أى : فبادروا إليه ، لأنه الطريق إلى الوصول
إلى الجنة [فأنى يبصرون] وقد طمست أبصارهم .

[ولونشاء لمسنخام^(٢) على مكاتهم] أى لأذهبنا حركتهم [فما استطاعوا
مضيا] إلى الأمام [ولا يرجعون] إلى ورائهم ، ليبعدوا عن النار .

(١) اصلوها . أى : قاسوا وذوقوا حرها الشديد .

(٢) قوله « لمسنخام » أى : لغيرنا صورهم إلى صور قبيحة ، كالقردة
والخنازير ونحوها من الصور القبيحة .

وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى
أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ
عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا أَسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾
﴿٦٨﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

والمعنى : أن هؤلاء الكفار ، حقت عليهم كلمة العذاب ، ولم يكن بد من عقابهم .

وفي ذلك الموطن ، ما تمَّ إلا النار ، قد برزت ، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط .

وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان ، الذين يمشون في نورهم .

وأما هؤلاء ، فليس لهم عند الله في عهد في النجاة من النار .

فإن شاء طمس أعينهم ، وأبقى حركتهم ، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه .

وإن شاء ، أذهب حراكمهم ، فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر .

والمقصود : أنهم لا يعبرونه ، فلا تحصل لهم النجاة .

* يقول تعالى : [ومن نعمره] من بني آدم [ننكسه في الخلق] .

أى : يعود إلى الحالة التي ابتدأ منها ، حالة الضعف ، ضعف العقل ، وضعف القوة .

[أفلا يعقلون] أن الآدمي ناقص من كل وجه ، فيتداركوا قولهم وعقولهم ، فيستعملوها في طاعة ربهم .

﴿٦٩﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى
الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴿٧٠﴾

* ينزه تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، عما رماه به المشركون ، من أنه شاعر ، وأن الذى جاء به شعر فقال :

[وما علمناه الشعر وما ينبغي له] أن : يكون شاعرا ، أى : هذا من جنس المحال ، أن يكون شاعرا ، لأنه رشيد مهتد ، والشعراء غاؤون ، يتبعهم الغاؤون .

ولأن الله تعالى ، حسم جميع الشبه ، التى يتعلق بها الضالون ، عن رسوله .

فحسم أن يكون ، يكتب أو يقرأ ، وأخبر أنه ، ما علمه الشعر ، وما ينبغي له ^(١) [إن هو إلا ذكر وقرآن مبين] أى : ما هذا الذى جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب ، جميع المطالب الدينية ، فهو مشتمل عليها ، أتم اشتمال وهو يذكر العقول ، ما ركز الله فى فطرها من الأمر ، بكل حسن ، والنهى عن كل قبيح .

[وقرآن مبين] أى مبين لما يطلب بيانه ، ولهذا حذف الممول ، ليدل على أنه مبين لجميع الحق ، بأدلته التفصيلية ، والإجمالية ، والباطل وأدلة بطلانه ، أنزله الله كذلك على رسوله .

(١) أى : لا يصح ولا يليق - لسكانته السامية ومنزلته الرفيعة - أن يكون شاعراً ، لأن الشعراء من الطبقة المنحطة الغاوية .

﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ
لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَا لَهُم فِئَهَا رُكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٣﴾

[لينذر مين كان حيا] أى : حى القلب واعيه ، فهو الذى يزكو على
هذا القرآن ، وهو الذى يزداد من العلم منه والعمل ، ويكون القرآن لقلبه ،
بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية .

[ويحق القول على الكافرين] لأنهم قامت عليهم به حجة الله ، وانقطع
احتجاجهم ، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يُدلون بها .

* يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذلها ، وجعلهم
مالكين لها ، مطاوعة لهم فى كل أمر يريدونه منها ، وأنه جعل لهم فيها
منافع كثيرة من حملهم ، وحمل أمتالهم ، ومحاملهم ، وأمتعتهم ، من محل
إلى محل ، ومن أكلهم منها ، وفيها دفء ، ومن أوبارها وأصوافها
وأشعارها أئانا ومتاعا إلى حين .
وفيها زينة وجمال ، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها .

[أفلا يشكرون] الله تعالى الذى أنعم بهذه النعم ، ويخلصون له العبادة
ولا يتمتعون بها تمتعا خاليا من العبرة والفكرة .

﴿٧٤﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾

لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٥﴾

﴿٧٦﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنََّّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ

وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾

* هذا بيان لبطلان آلهة المشركين ، التي اتخذوها مع الله تعالى ، ورجوا نصرها وشفعها « أى : شفاعتها ووساطتها بينهم وبين الله » .

فإنها في غاية العجز [لا يستطيعون نصرهم] ولا أنفسهم ينصرون .

فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم ، فكيف ينصرونهم ؟

والنصر له شرطان : الاستطاعة ، والقدرة .

فإذا استطاع ، يبقى ؛ هل يريد نصره من عبده أم لا ؟

فنفى الاستطاعة ، بنفى الأمرين كليهما .

[وهم لم جند منحضون] أى : منحضون ، هم وهم في العذاب ، ومقبري ،

بعضهم من بعض .

أفلا تبرأوا في الدنيا ، من عبادة هؤلاء ، وأخلصوا العبادة ، للذي

بيده الملك والنفع والضر ، والعطاء والمنع ، وهو الولي النصير ؟

* أى فلا يحزنك ، يا أيها الرسول ، قول المكذبين ، والمراد بالقول :

ما دل عليه السياق ، كل قول يقدهون به في الرسول ، أو فيما جاء به .

أى : فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم [إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون]

فنجازيهم على حسب علمنا بهم ، وإلا فقولهم لا يضرك شيئاً .

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ

* وهذه الآيات الكريمات ، فيها ، ذكر شبهة منكرو البعث ، والجواب عنها ، بآتم جواب ، وأحسنه ، وأوضحه ، فقال تعالى :

[أو لم ير الإنسان] المنكر للبعث أو الشاك فيه ، أمرا يفيد اليقين التام بوقوعه وهو : [أنا خلقناه] ابتداء [من نطفة] ثم تنقله في الأطوار شيئا فشيئا ، حتى كبر وشب ، وتم عقله ، واستقرب .

[فإذا هو خصيم مبين] بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة .
فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين ، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم ، قادر على أن يعيده بعد ما تفرق وتمزق ، من باب أولى .

[وضرب لنا مثلا] لا ينبغي لأحد أن يضربه ، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق ، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق ، مستبعد على قدرة الخالق .

فسر هذا المثل بقوله [قال] ذلك الإنسان [من يحيي العظام وهي رميم] .

أى : هل أحد يحياها ؟ استفهام إنكار ، أى : لا أحد يحياها بعد ما بليت وتلاشت .

هذا وجه الشبهة والمثل ، وهو أن هذا أمر ، في غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر .

وهذا القول الذى صدر من هذا الإنسان ، غفلة منه ، ونسيان لا ابتداء خلقه .

رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ

فلو فطن لخلقه ، بعد أن لم يكن شيئا مذكورا ، فوجد عيانا، لم يضرب هذا المثل .

فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد ، بجواب شاف كاف فقال :

[قل يحييها الذي أنشأها أول مرة] وهذا بمجرد تصويره ، يعلم به علما يقينا لا شبهة فيه ، أن الذي أنشأها أول مرة قادر على الإعادة ، ثاني مرة ، وهو أهون على القدرة ، إذا تصويره المتصور [وهو بكل خلق عليم] .

هذا أيضا دليل ثان من صفات الله تعالى ، وهو أن علمه تعالى ، محيط بجميع مخلوقاته في جميع أحوالها ، في جميع الأوقات .

ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات ، وما يبقى ، ويعلم الغيب والشهادة

فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم ، علم أنه أعظم وأجل من إحياء الله الموتى من قبورهم .

ثم ذكر دليلا ثالثا فقال : [الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون] فإذا أخرج النار اليابسة ، من الشجر الأخضر ، الذي هو غاية الرطوبة ، مع تضادها ، وشدة تخالفهما ، فأخرجه الموتى من قبورهم ، مثل ذلك .

ثم ذكر دليلا رابعا فقال : [أوليس الذي خلق السموات والأرض] على سعتيها وعظمتيها [بتقدير على أن يخلق مثلهم] أي : أن يعيدهم بأعيانهم .

عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَتُمُّ
مِنْهُ تُوْقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ
عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ
إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي

[بلى] قادر على ذلك ، فإن خلق السموات والأرض ، أكبر من خلق
الناس .

[وهو الخلاق العليم] وهذا دليل خاص ، فإنه تعالى الخلاق ، الذي جمع
المخلوقات ، متقدمها ، ومتأخرها ، صغيرها ، وكبيرها - كلها أثر من آثار
خلقه وقدرته ، وأنه لا يستعصى عليه مخلوق أراد خلقه .

فإعادته للأموات ، فرد من أفراد آثار خلقه ، ولهذا قال :

[إنما أمره إذا أراد شيئاً] نكرة في سياق الشرط ، فتعم كل شيء .

[أن يقول له كن فيكون] أى : في الحال من غير تمناع .

[فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء] وهذا دليل سادس ، فإنه
تعالى هو الملك المالك لكل شيء ، الذي جمع ما سكن في العالم العلوى والسفلى
ملك له ، وعبيد مسخرون مدبرون ، يتصرف فيهم بأقداره الحكيمة ،
وأحكامه الشرعية ، وأحكامه الجزائية .

فإعادته إليهم بعد موتهم ، لينفذ فيهم حكم الجزاء ، من تمام ملكه ،
ولهذا قال :

بِيَدِهِ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

[وإليه ترجعون] من غير امتراء ولا شك ، لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة ، على ذلك .

فتبارك الذى جعل فى كلامه ، الهدى والشفاء ، والنور .

تم تفسير سورة « يس » فله تعالى الحمد كما ينبغى لجلاله

وله الشناء كما يليق بكلامه ، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه

وصل الله على محمد وآله وسلم

تفسير

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿٢﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٣﴾
فَأَتَّيَلَّيْتِ ذِكْرًا ﴿٤﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ

* هذا قسم منه تعالى ، بالملائكة الكرام ، في حال عباداتها ، وتديرها ما تدبره ياذن ربها ، على ألوهيته تعالى ، وربوبيته فقال :

[والصفافات صفا] أى : صفوفاً في خدمة ربهم ، وهم الملائكة .

[فالزاجرات زجراً] وهم الملائكة ، يزجرون السحاب وغيره ، بأمر الله .

[فالتاليات ذكراً] وهم : الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى .

فلما كانوا متأهلين لربهم ، ومتعبدين في خدمته ، ولا يعصونه طرفه عين ، أقسم بهم على ألوهيته فقال :

[إن إلهكم لواحد] ليس له شريك في الإلهية ، فأخلصوا له الحب ، والخوف ، والرجاء ، وسائر أنواع العبادة .

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيْنًا أَلَسَّمَا الدُّنْيَا بِزِينَةِ
الْكُوكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ
إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَالْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ

[رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق] أى : هو الخالق
لهذه المخلوقات ، الرازق لها ، المذل لها .

فكما أنه لا شريك له فى ربوبيته إياها ، فكذلك لا شريك له
فى ألوهيته .

وكثيرا ما يقرن تعالى ، توحيد الإلهية ، بتوحيد الربوبية ، لأنه
دال عليه .

وقد أقر به أيضا المشركون فى العبادة ، فيلزمهم بما أقروا به على
ما أنكروه .

وخص الله المشارق بالذكر ، لدالاتها على المغرب ، أو لأنها مشارق
النجوم ، التى سيدكرها ، فلهذا قال :

[إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد
لا يسمعون إلى الملائكة الأعلى] .

ذكر الله فى الكواكب ، هاتين الفائدتين العظيمتين :
إحداها : كونها زينة للسماء ، إذ لولاها ، لكانت السماء مظلمة ،
لاضوء فيها .

ولكن زينها بها لتستنير أرجاؤها ، وتحسن صورتها ، ويهتدى بها فى
ظلمات البر والبحر ، ويحصل فيها من الصالح ما يحصل .

عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾
فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ

والثانية :حراسة السماء، عن كل شيطان مارد، يصل بتمرده إلى استماع
الملا الأعلى، وهم: الملائكة .

فإذا استمعوا [بقذفون] بالشهب الثواقب [من كل جانب] طردا
لهم ، وإبعادا إليهم ، عن استماع ما يقول الملا الأعلى .

[ولهم عذاب واصل] أى : دائم ، معد لهم ، لتمردهم عن طاعة ربهم .
ولولا أنه تعالى استثنى ، لكان ذلك دليلا على أنهم لا يستمعون شيئا
أصلا ، ولكن قال :

[إلا من خطف الخطفة] أى : إلا من تلقف من الشياطين المردة ،
الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة [فأتبعه شهاب ثاقب] تارة ،
يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه ، فينقطع خبر السماء .

وتارة ينحربها ، قبل أن يدركه الشهاب ، فيكذبون معها مائة كذبة ،
يروجونها بسبب الكلمة ، التي سمعت من السماء .

ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال : [فاستفتهم] أى : اسأل منكري
خلقهم بعد موتهم .

[أم أشد خلقا] أى : إيجادهم بعد موتهم ، أشد خلقا وأشق ؟ .

[أم من خلقنا] من هذه المخلوقات ؟

فلا بد أن يقروا أن خلق السموات والأرض ، أكبر من خلق الناس .

فيلزمهم إذاً ، الإقرار بالبعث ، بل لو رجعوا إلى أنفسهم ، وفكروا

طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا

لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن

فيها ، لعلوا أن ابتداء خلقهم من طين لازب ، أصعب عند الفكر من
إنشائهم بعد موتهم ، ولهذا قال :

[إنا خلقناهم من طين لازب ^(١)] أى : قوى شديد كقوله تعالى :
« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » .

* [بل عجت] أيها الرسول ، أو أيها الإنسان ، من تكذيب من
كذب بالبعث ، بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة ، والأدلة المستقيمة .
وهو حقيقة ، محل عجب واستغراب ، لأنه مما لا يقبل الإنكار .

[و] أعجب من إنكارهم وأبلغ منه ، أنهم [يسخرون] ممن جاء
بالخبر عن البعث .

فلم يكفهم مجرد الإنكار ، حتى زادوا السخرية ، بالقول الحق .
[و] من العجب أيضاً أنهم [إذا ذكروا] ما يعرفون في فطرم
وعقولهم ، وفتنوا له ، ولت نظرهم إليه [لا يذكرون] ذلك .

فإن كان جهلاً ، فهو من أدل الدلائل على شدة بلائهم العظيمة ، حيث
ذكروا ما هو مستقر في الفطرة ، معلوم بالعقل ، لا يقبل الإشكال

(١) لازب . أى : ملتزق بعض ببعضه ويلتزق باليد ، لاشتداده .

هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْمَاءًا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ
دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾

وإن كان تجاهلا وعناداً ، فهو أعجب وأغرب .
ومن العجب أيضاً ، أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة . وذكروا الآيات
التي يخضع لها فحول الرجال ، وألباب الألباء ، يسخرون منها ويمجبون .
ومن العجب أيضاً ، قولهم للحق لما جاءهم : [إن هذا إلا سحر
مبين] .

فجعلوا أعلى الأشياء ، وأجلها ، وهو الحق ، في رتبة أخس الأشياء
وأحقها .

ومن العجب أيضاً ، قياسهم قدرة رب الأرض والسموات ، على قدرة
الآدمي الناقص من جميع الوجوه ، فقالوا استبعاداً وإنكاراً :

[أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون * أوآبأونا الأولون] .

ولما كان هذا منتهى ما عندهم ، وغاية ما لديهم ، أمر الله رسوله أن
يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم فقال :

[قل نعم] سستبعثون ، أنتم وآبأؤكم الأولون [وأنتم داخرون]
ذليون صاغرون ، لا تمعنون ، ولا تستمعون على قدرة الله .

[فإنما هي زجرة واحدة] ينفخ إسرافيل فيها في الصور [فإذا هم]
مبعوثون من قبورهم [ينظرون] كما ابتدء خلقهم ، بعثوا بجميع أجزائهم ،
حفاة عراة غرلا .

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِمُّ
بِهِ تَكْذُوبُونَ ﴿٢١﴾

﴿٢١﴾ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا
يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾

وفي تلك الحال ، يظهرون الندم ، والحزى ، والخسار ، ويدعون بالويل
والشبور .

[وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين] « أى : هذا يوم الحساب والجزاء
على الأعمال » فقد أقروا بما كانوا فى الدنيا به يهزأون .

فيقال لهم [هذا يوم الفصل] بين العباد فيما بينهم ، وبين ربهم
من الحقوق ، وفيما بينهم ، وبين غيرهم من الخلق .

* أى إذا حضروا يوم القيامة ، وعانوا ما به يكذبون ، ورأوا ما به
يستسخرون ، يؤمر بهم إلى النار ؛ التى بها كانوا يكذبون ؛ فيقال :

[احشروا الذين ظلموا] أنفسهم بالكفر والشرك ؛ والمعاصى
[وأزواجهم] الذين من جنس عملهم ، كل يضم إلى من يجانسه فى العمل .

[وما كانوا يعبدون من دون الله] من الأصنام والأنداد . التى
زعموها .

اجمعوهم جميعاً [فاهدوهم إلى صراط الجحيم] أى : سوقوهم سوقاً
عنيفاً إلى جهنم .

وَقِفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ
الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾
وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا

[و] بعد ما يتعين أسرهم إلى النار ، ويعرفون أنهم من أهل دار
البوار ، يقال : [وقفوهم] قبل أن تصلوهم إلى جهنم [إنهم مستولون]
عما كانوا يفترونه في الدنيا ، ليظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم .
فيقال لهم : [ما لكم لا تناصرون] أي : ما الذي جرى عليكم اليوم ؟
وما الذي طرقكم حتى لا ينصر بعضهم بعضا ، ولا يفيث بعضهم بعضا ، بعد
ما كنتم تزعمون في الدنيا ، أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب ، وتفيثكم ،
أو تشفع لكم عند الله .

فكانهم لا يجيبون على هذا السؤال ، لأنهم قد علام الذل والصفار ،
واستسلموا للعذاب النار ، وخشعوا وخضعوا ، وأبلسوا ، فلم ينطقوا .
ولهذا قال : [بل هم اليوم مستسلمون] « أي : منقادون أذلاء ، فكلهم
مستسلم غير منتصر » .

* لما جمعوا هم وأزواجهم وآلهتهم ، وهدوا إلى صراط الجحيم ،
ووقفوا ، فسلوا ، فلم يجيبوا ، وأقبلوا فيما بينهم ، يلوم بعضهم بعضا ، على
إضلالهم وضلالهم .

فقال الأتباع للمتبعين الرؤساء : [إنكم كنتم تاتوننا عن اليمين]
أي : بالقوة والغلبة ، فتضلوننا^(١) ، ولو لا أنتم لكننا مؤمنين .

(١) يعني أنكم كنتم تحملوننا على الضلال وتجبروننا - بالقوة - عليه .

إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا
طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰلِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ
إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾

[قالوا] لهم [بل لم تكونوا مؤمنين] أى : ما زلتُم مشركين ، كما
نحن مشركون .

فأى شىء فضلكم علينا؟ وأى شىء يوجب لومنا [و] الحال أنه
[ما كان عليكم من سلطان] أى قهر لكم على اختيار الكفر [بل كنتم
قوما طاغين] متجاوزين للحق .

[فحق علينا] « فلزمنا جميعا » نحن وإياكم [قول ربنا إنا لذائقون]
العذاب .

أى : حق علينا قدر ربنا ، وقضاؤه ، أنا وإياكم سندوق العذاب ،
ونشترك في العقاب .

[ف] لذلك [أغويناكم إنا كنا غاوين] أى : دعوناكم إلى طريقتنا
التي نحن عليها ، وهى الغواية ، فاستجبتم لنا ، فلا تلومونا ، ولوموا
أنفسكم .

قال تعالى : [فإنهم يومئذ] أى يوم القيامة [فى العذاب مشتركون]
وإن تفاوتت مقادير عذابهم ، بحسب جرمهم .

كما اشتركوا فى الدنيا على الكفر ، اشتركوا فى الآخرة بجزائه ،
ولهذا قال :

إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا
الْهَيْتَانَ لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

[إنا كذلك نفعل بالمجرمين^(١)] ثم ذكر أن إجرامهم ، قد بلغ الغاية
وجاوز النهاية فقال :

[إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله] فدعوا إليها ، وأمروا بترك
إلهية ما سواه [يستكبرون] عنها ، وعلى من جاء بها .

[ويقولون] معارضة لها [إنا لتاركوا آلهتنا] التي لم نزل نعبدها ،
نحن وآباؤنا [لتقول شاعر مجنون] يعنون : محمد صلى الله عليه وسلم .

فلم يكفهم قبحهم الله ، الإعراض عنه ، ولا مجرد تكذيبه ، حتى
حكوا عليه بأظلم الأحكام ، وجعلوه شاعرا مجنونا ، وهم يعلمون ، أنه
لا يعرف الشعر والشعراء ، ولا وصفه وصفهم ، وأنه أعقل خلق الله ،
وأعظمهم رأيا .

ولهذا قال تعالى ، ناقضا لقولهم : [بل جاء] محمد [بالحق] أي : بحجته
حقا ، وما جاء به من الشرع والكتاب حق .

[وصدق المرسلين] أي : وحجته صدق المرسلين ، فلو لا حجته وإرساله
لم يكن الرسل صادقين ، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله ، لأنهم أخبروا
به وبشروا ، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق ، لئن جاءهم ، ليؤمنن به
ولينصرنه ، وأخذوا ذلك على أعمهم .

(١) أي : إن مثل ذلك العذاب نفعل بالذين أجرموا في حق الله بالشرك
وفعل المعاصي .

إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

فلما جاء ، ظهر صدق الرسل الذين قبله ، وتبين كذب من خالفهم .

فلو قدر عدم مجيئه ، وهم قد أخبروا به ، لكان ذلك قادحا في صدقهم .

وصدق أيضاً المرسلين ، بأن جاء بما جاءوا به ، ودعا إلى ما يدعو إليه ، وآمن بهم ، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم ، وشرعهم .

ولما كان قولهم السابق [إنا لذائقون] قولاً صادراً منهم ، يحتمل أن يكون صدقاً أو غيره ، أخبر تعالى بالقول الفصل الذى لا يحتمل غير الصدق واليقين ، وهو الخبر الصادق منه تعالى فقال :

[إنكم لذائقو العذاب الأليم] أى المؤلم الموجه [وما تجزون] فى إذاعة العذاب الأليم [إلا ما كنتم تعملون] فلم نظلمكم ، وإنما عدلنا فيكم ؟

ولما كان هذا الخطاب ، لفظه عاماً ، والمراد به : المشركون ؛ استثنى تعالى المؤمنين فقال :

[إلا عباد الله الخالصين] إلى [مكنون] .

﴿٤٠﴾ أَوْلَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ
مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهَ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾

* يقول تعالى : [إلاباد الله المخلصين] فإنهم غير ذائق العذاب الأليم ، لأنهم أخلصوا لله الأعمال ، فأخلصهم ، واختصهم برحمته ، وجاد عليهم بلطفه .

[أولئك لهم رزق معلوم] أى : غير مجهول ، وإنما هو رزق عظيم جليل ، لا يجهل أمره ، ولا يبلغ كنهه .

فسره بقوله : [فواكه] من جميع أنواع الفواكه ، التى تنفكه بها النفس ، للذتها فى لونها وطعمها .

[وهم مكرمون] لا مهانون محتقرون ، بل معظمون مبعجلون موقرون .

قد أكرم بعضهم بعضاً ، وأكرمتهم الملائكة الكرام ، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب ، ويهتئونهم ببلوغ أهنا الثواب .

وأكرمهم أكرم الأكرمين ، وجاد عليهم بأنواع الكرامات ، من نعيم القلوب والأرواح والأبدان .

[فى جنات النعيم] أى : الجنات ، التى النعيم وصفها ، والسرور نعتها .

وذلك لما جمعته ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وسلمت من كل ما يخل بنعيمها ، من جميع المكدرات والمنفصات .

عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بِيضَاءَ
لَذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ

ومن كرامتهم عند ربهم ، وإكرام بعضهم بعضا ، أنهم على [سرور]
وهي المجالس المرتفعة ، المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة ، المزخرفة الجملة ،
فهم متكئون عليها ، على وجه الراحة والطمأنينة ، والفرح .
[متقابلين] فيما بينهم .

قد صفت قلوبهم ، ومحبتهم فيما بينهم ، ونعموا باجتماع بعضهم مع
بعض .

فإن مقابلة وجوههم ، تدل على تقابل قلوبهم ، وتآدب بعضهم مع بعض
فلم يستدبره ، أو يجعاه إلى جانبه .

بل من كمال السرور والأدب ، ما دل عليه ذلك التقابل .

[يطاف عليهم بكأس من معين] أي : يتردد الولدان المستعدون
لخدمتهم عليهم ، بالأشربة اللذيذة ، بالكاسات الجميلة المنظر ، المترعة من
الرحيق المحقوم بالسك ، وهي كاسات الخمر .

وتلك الخمر ، تخالف خمر الدنيا من كل وجه ، فإنها في لونها [بيضاء]
من أحسن الألوان ، وفي طعمها [لذة للشاربين] بلقذ شاربها بها وقت
شربها وبعده .

وأنها سالمة [لا فيها غول] العقل وذهابه ، ونزفه ، ونزف مال
صاحبها ، وليس فيها صداع ولا كدر .

فلما ذكر طعامهم وشربهم ، ومجالسهم ، وعموم النعيم وتفصيله ،
داخلة في قوله « جنات النعيم » .

قَصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيَاضٌ مَّكَتُونٌ ﴿٤٩﴾

لكن فصل هذه الأشياء ، لتعلم ، فتشاقق النفوس إليها ، ذكر أزواجهم فقال :

[وعندهم قاصرات الطرف عين] أى : وعند أهل دار النعيم ، فى محلاتهم القريبة ، حور حسان ، كاملات الأوصاف ، قاصرات الطرف .

إما أنها قصرت طرفها على زوجها ، لعفتها ، وعدم مجاوزته لغيره ، ولجمال زوجها وكاله ، بحيث لا تطلب فى الجنة سواه ، ولا ترغب إلا به .

وإما ، لأنها قصرت طرف زوجها عليها ، وذلك يدل على كمالها ، وجمالها الفائق ، الذى أوجب لزوجها ، أن يقصر طرفه عليها .

وقصر الطرف أيضا ، يدل على قصر النفس والمحبة عليها .

وكلا المعنيين محتمل ، وكلاهما صحيح .

وكل هذا ، يدل على جمال الرجال والنساء فى الجنة ، ومحبة بعضهم بعضاً ، محبة لا يطمح معها أحد إلى غيره .

ويدل على شدة عفتهم كلهم ، وأنه لا حسد فيها ولا تباغض ، ولا تشاحن وذلك لانقضاء أسبابه .

[عين] أى : حسان الأعين جميلاتنا ، ملاح الحدق .

[كأنهن] أى : الحور [بيض مكنون] أى : مستور ، وذلك من

حسنهن وصفائهن وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها ، ليس فيه كيدر ولا شين .

﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ
مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾
أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءَنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ

* لما ذكر تعالى نعيمهم ، وتمام سرورهم ، بالمآكل والشارب ،
والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، وصف تذاكرهم فيما بينهم، ومطارتحتهم
للأحاديث ، عن الأمور الماضية ، وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل ،
حتى أفصى ذلك بهم ، إلى أن قال قائل منهم :

[إني كان لي قرين] في الدنيا ، ينكر البعث ، ويلومني على
تصديقي به و [يقول أإنك لمن المصدقين] إذا متنا وكنا ترابا وعظاما
أإننا لمدينون [أي : مجازون بأعمالنا ؟

أي : كيف تصدق بهذا الأمر البعيد ، الذي في غاية الاستغراب ، وهو
أننا ، إذا تمزقنا ، فصرنا ترابا وعظاما ، أننا نبعث ونعاد ، ثم نحاسب
ونجازى بأعمالنا !! .

أي : يقول صاحب الجنة لإخوانه : هذه قصتي ، وهذا خيري ،
أنا وقريني .

مازلت أنا مؤمنا مصدقا ، وهو ما زال مكذبا منكرا للبعث ، حتى
متنا ، ثم بعثنا .

فوصلت أنا إلى ماترون ، من النعيم ، الذي أخبرتنا به الرسل ، وهو
لا شك ، أنه قد وصل إلى العذاب .

مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ
إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ
الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ

[قال هل أنتم مطلعون] لننظر إليه ، فنزداد غبطة وسروراً بما نحن فيه ، ويكون ذلك رأى عين ؟

والظاهر من حال أهل الجنة ، وسرور بعضهم ببعض ، وموافقة بعضهم بعضاً ، أنهم أجابوه لما قال ، وذهبوا تبعاً له ، للاطلاع على قرينه .

[فاطلع فرآه] أى : رأى قرينه [فى سواء الجحيم] ، أى : فى وسط العذاب وغمراته ، والعذاب قد أحاط به .

[قال] له ، لا تما على حاله وشا كراً لله ، على أن نجاه من كيده .
[تالله إن كدت لتردين] أى : تهاكنى بسبب ما أدخلت على من الشبهة بزعمك .

[ولولا نعمة ربي] على أن ثبتنى على الإسلام [لكنت من المحضرين] فى العذاب معك [أفما نحن بميتين .] إلا موتتنا الأولى وما نحن بممضين [.
أى : يقوله المؤمن ، مبهتجا بنعمة الله ؛ على أهل الجنة ؛ بالخلود الدائم فيها ؛ والسلامة من العذاب : استفهام بمعنى الإثبات والتقدير .

وقوله [فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون] وحذف المعمول ؛ والمقام مقام لذة وسرور ؛ بدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به ؛ والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال .

بِمَعْدَيْنِ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيُمَثَلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ

الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾

ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم ، والبحث عنه ، فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا ؛ فاهم من هذا النوع ، النصيب الوافر . ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ، مالا يمكن التعبير عنه .

فلما ذكر تعالى نعيم الجنة ، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة ، مدحه ، وشوق العاملين ، وحثهم على العمل له فقال :

[إن هذا هو الفوز العظيم] الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوى النفوس وتشتهى ، واندفع عنهم به ، كل محذور ومكروه .

فهل فوز يطلب فوقه ؟ أم هو غاية الغايات ، ونهاية النهايات ، حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسموات ، وفرحوا بقربه ، وتغنموا بمعرفته وسروا برؤيته ، وطربوا الكلامه ؟ .

[لمثل هذا فليعمل العاملون] فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس .

والحسرة كل الحسرة ، أن يمضى على الحازم ، وقت من أوقاته ، وهو غير مشغول بالعمل ، الذي يقرب هذه الدار ، فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار !!! .

﴿٦٢﴾ اذْكَرَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا
فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا
كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَأَلْوَانٌ مِنْهَا
الْبُطُونُ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ

* [أذلك خير نزلا] أى : ذلك النعيم الذى وصفناه لأهل الجنة ، خير ،
أم العذاب الذى يكون فى الجحيم ، من جميع أصناف العذاب ؟ .

فأى الطعامين أولى ؟ الطعام الذى وصف فى الجنة [أم] طعام أهل
النار ؟ وهو [شجرة الزقوم . إنا جعلنا فتنه] أى عذابا ونكالا [للظالمين]
أنفسهم بالكفر والمعاصى .

[إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم] أى : وسطه فهذا مخرجها ،
ومعدنها شر المعادن وأسوأها .

وشر المغرس ، يدل على شر الغراس وخسته ، ولهذا نبهنا الله على شرها ،
بما ذكر أين تنبت به ، وبما ذكر من صفة ثمرتها .

وأن [طلوعها كأنه رؤوس الشياطين] فلا تسأل بعد هذا ، عن طعامها ،
وما تفعل فى أجوافهم وبطونهم ، وليس لهم عنها مندوحة ولا معدل .

ولهذا قال : [فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون] فهذا طعام
أهل النار ، فبئس الطعام طعامهم ، ثم ذكر شرابهم فقال :

[ثم إن لهم عليها] أى : على أثر هذا الطعام [لشوبا من حميم] .

أى : ماء حارا ، قد تناهى حره ، كما قال تعالى « وإن يستغيثوا يغاثوا

مَرْجِعُهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾
فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ

بماء كالهلل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا « وكما قال تعالى
« وسقوا ماء حيا فقطع أمعاءهم » .

[ثم إن مرجعهم] أى مآلهم ومقرهم ومأواهم [لإلى الجحيم] ، ليدوقوا
من عذابه الشديد ، وحره العظيم ، ما ليس عليه مزيد من الشقاء .

وكانه قيل : ما الذى أوصلهم إلى هذه الدار ؟ فقال :

[إنهم أَلْفَوْا] أى وجدوا [آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون]
أى . يسرعون فى الضلال .

فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل ، ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب
ولا إلى أقوال الناصحين .

بل عارضوهم بأن قالوا « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم
مقتدون » .

[ولقد ضل قبلهم] أى : قبل هؤلاء المخاطبين [أكثر الأولين] وقليل
منهم ، من آمن واحتدى .

[ولقد أرسلنا فيهم منذرين] يندرونهم من غيهم وضلالهم [فانظرو
كيف كان عاقبة المنذرين] كانت عاقبتهم الهلاك ، والخزى ، والفضيحة .
فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم ، فيصيبهم مثل ما أصابهم .

عَقِبَهُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٧٤﴾
وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾

ولما كان المنذرون ليسوا كلهم ضالين . بل منهم من آمن ، وأخلص
الدين لله ، استثناهم الله من الهلاك فقال :
[إلا عباد الله المخلصين] أى : الذين أخلصهم الله ، وخصهم برحمته
لإخلاصهم ، فإن عواقبهم صارت حميدة .

ثم ذكر نموذجاً من عواقب الأمم المكذبة فقال : [ولقد نادانا نوح]
إلى [ثم أغرقنا الآخرين] .

* يخبر تعالى عن عبده ورسوله ، نوح عليه السلام ، أول الرسل . أنه
لسادعا قومه إلى الله ، تلك المدة الطويلة فلم يزدحم دعاؤه ، إلا فراراً ، أنه
نادى ربه فقال : « رب لا نذر على الأرض من الكافرين دياراً » الآية .
وقال [رب انصرنى على القوم المنسدين] .

فاستجاب الله له ، ومدح تعالى نفسه فقال [فلنعم المجيبون] لدعاء
الداعين ، وسماع تبثلمهم وتضرعهم .

أجابه إجابة ، طابقت ما سأل ، فنجاه وأهله من الكرب العظيم ،
وأغرق جميع الكافرين ، وأبقى نسله وذريته متسلسلين ، فجميع الناس
من ذرية نوح عليه السلام .

وجعل له ثناء حسناً مستمراً إلى وقت الآخرين ، وذلك لأنه محسن
في عبادة الخالق ، محسن إلى الخلق .

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَامِينَ ﴿٧٩﴾
إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾
مُتَّعًا غَرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَكُلَّاءِ الْهِتَةِ

وهذه سنته تعالى في المحسنين ، أن ينشر لهم من الثناء ، على حسب
إحسانهم .

ودل قوله : [إنه من عبادنا المؤمنين] أن الإيمان أرفع منازل العباد
وأنه مشتمل على جميع شرائع الدين ، وأصوله ، وفروعه ، لأن الله مدح به
خواص خلقه .

* أي : وإن من شيعة نوح عليه السلام ، ومن هو على طريقتة في النبوة
والرسالة ، ودعوة الخلق إلى الله ، وإجابة الدعاء ، إبراهيم الخليل عليه السلام
[إذ جاء ربه بقلب سليم] من الشرك والشبه ، والشهوات المانعة
من تصور الحق ، والعمل به .

وإذا كان قلب العبد سليماً ، سلم من كل شر ، وحصل له كل خير .
ومن سلامته ، أنه سليم من غش الخلق وحسدكم ، وغير ذلك
من مساويء الأخلاق ، ولهذا نصح الخلق في الله ، وبدأ بأبيه وقومه فقال :
[إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون] هذا استفهام على وجه الإنكار ،
وإلزام لهم بالحجة .

دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَانظُرْ نَظْرَةً
فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾
فَرَاغَ إِلَى آهَاتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾

[أإفكا آلهة دون الله تريدون] أى : أتعبدون من دون الله آلهة
كذباً ، ليست بآلهة ، ولا تصلح للعبادة ، فما ظنكم برب العالمين ، أن يفعل
بكم وقد عبدتم معه غيره ؟

وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب ، على الإقامة على شركهم .

[فما ظنكم برب العالمين] أى : وما الذى ظننتم برب العالمين ، من النقص
حتى جعلتم له أندادا وشركاء .

فأراد عليه السلام ، أن يكسر أصنامهم ، ويتمكن من ذلك ، فانتهاز
الفرصة ، فى حين غفلة منهم ، لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم ، فخرج معهم
[فنظر نظرة فى النجوم * فقال إني سقيم] .

فى الحديث الصحيح « لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات :
قوله « إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم هذا » ، وقوله عن زوجته « إنها
أختى » .

والقصد أنه تخلف عنهم ، ليتم له الكيد بأهنتهم [ف] لهذا [تولوا عنه
مدبرين] فوجد الفرصة .

[فراغ إلى آهتهم] أى : أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة .

[فقال] متهمكاً بها [ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون] أى : فكيف

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾
قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾
قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا

يليق أن تعبد ، وهي أنقص من الحيوانات ، التي تأكل وتكلم ؟ وهذه جمادات لا تأكل ولا تكلم .

[فراغ^(١) عليهم ضربا باليمين] أى : جعل يضربها بتوته ونشاطه ، حتى جعلها جذاذا ، إلا كبيرا لهم ، لعلمهم إليه يرجعون .

[فأقبلوا إليه يزفون] أى : يسرعون ويهرعون ، ويريدون أن يوقعوا به ، بعد ما بحثوا وقالوا : « من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين » .

وقيل لهم « سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » يقول « تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » فوجوه ولاموه ، فقال « بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال أتعبدون من دون الله مالا ينفعكم ولا يضركم « الآية .

[قال] هتا : [أتعبدون ما تنحتون] أى : تنحتونه بأيديكم وتصنعونه ؟

فكيف تعبدونهم ، وأنتم الذين صنعتموهم ، وتتركون الإخلاص لله؟
[والله خلقكم وما تعملون * قالوا ابنوا له بيانا] أى . عاليا مرتعاً ،

(١) فراغ . أى : مال إليها خفية ليحطمها .

فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّئِينَ ﴿٩٩﴾
رَبُّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

وأوقدوا فيه النار [فألقوه في الجحيم] جزاء على ما فعل ، من تكسير
آلهتهم .

[فأرادوا به كيدا] ليقنلوه ، أشنع قتلة [لجعلناهم الأسفانين] رد الله
كيدهم في محورهم ، وجعل النار على إبراهيم بردا وسلاما .

[و] لما فعلوا فيه هذا الفعل ، وأقام عليهم الحجة ، وأعذر منهم
[قال إني ذاهب إلى ربي] أي : مهاجر إليه ، قاصد إلى الأرض المباركة ،
أرض الشام .

[سيهدين] يدلني على ما فيه الخير لي ، من أمر ديني ودنياي .
وقال في الآية الأخرى « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو
ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا » .

[رب هب لي] ولدا يكون [من الصالحين] وذلك ، عند ما يس
من قومه ، ولم يرفيهم خيراً ، دعا الله أن يهب له غلاما صالحا ، ينفع الله
به في حياته ، وبعد مماته .

فاستجاب الله له وقال : [فبشرناه بغلام حلیم] وهذا إسماعيل عليه
السلام بلا شك ، فإنه ذكر بعده البشارة ، وبإسحق ، ولأن الله تعالى قال
في بشرائه بإسحق « فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب » .

فدل على أن إسحق غير الذبيح .

ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم ، وهو يتضمن الصبر ، وحسن

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ
فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا بَتِ افْعَلِ مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ
مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْتُهُ

الخلق ، وسعة الصدر والعفو ، عن جنى .

[فلما بلغ] الغلام [معة السعى] أى : أدرك أن يسعى معه ، وبلغ
سنا يكون فى الغالب ، أحب ما يكون لوالديه ، قد ذهبت مشتقته ، وأقبلت
منفتمته .

فقال له إبراهيم عليه السلام : [إني أرى فى المنام أنى أذبحك] .
أى : قدرأبت فى النوم . والرؤيا ، أن الله يأمرنى بذبحك ، ورؤيا الأنبياء
وحى [فانظر ماذا ترى] فإن أمر الله تعالى ، لا بد من تنفيذه .
[قال] إسماعيل صابرا محتسبا ، مرضيا لربه ، وبارا بولده :
[يا أبت افعل ما تؤمر] أى : امض لما أمرك الله [ستجدنى إن شاء
الله من الصابرين] .

أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر ، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى ،
لأنه لا يكون شىء بدون مشيئة الله .

[فلما أسلما] أى : إبراهيم وابنه إسماعيل : إبراهيم جازما بقتل ابنه
وثمره فؤاده ، امتثالاً لأمر ربه ، وخوفاً من عقابه .

والابن قد وطئ نفسه على الصبر ، وهانت عليه فى طاعة ربه ،
ورضا والده .

أَنْ يَسَابِرْهُمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْأَمِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ

[وتله^(١) للجبين] أى : تل إبراهيم إسماعيل على جبينه ، ليضعه
فيذبحه ، وقد انكب لوجهه ، لثلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه .
[وناديناه] فى تلك الحال المزعجة ، والأمر المدهش [أن يا إبراهيم قد
صدقت الرؤيا] أى قد فعلت ما أمرت به ، فإنك وطنت نفسك على ذلك ،
وفعلت كل سبب ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه [إنا كذلك نجزي
المحسنين] فى عبادتنا ، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم .

[إن هذا] الذى امتحننا به إبراهيم عليه السلام [هو البلاء المبين]
أى : الواضح ، الذى تبين به صفاء إبراهيم ، وكمال محبته لربه ، وخلته .
فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم ، أحبه حبا شديداً ،
وهو خليل الرحمن ، والخلة أعلى أنواع المحبة ، وهو منصب لا يقبل المشاركة
ويقضى أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالحبوب .
فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه ، بابنه إسماعيل ، أراد تعالى أن يصفى
وُدّه ويختبر خلته .

فأمره أن يذبح ، من زاحم حبه ، حب ربه .
فلما قدم حب الله ، وآثره على هواه ، وعزم على ذبحه ، وزال ما فى
القلب من الزاحم ، بقى الذبح لا فائدة فيه ، فلهذا قال : [إن هذا هو البلاء
المبين * وفديناه بذبح عظيم] أى : صار بدله ذبح من الغنم عظيم ، ذبحه إبراهيم .

(١) تله . أى : صرعه وألقاه على إحدى جبينيه . ولكل إنسان

جبينان ، بينهما الجبهة .

يَذْبَحُ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَيَّ
إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

فكان عظيماً من جهة أنه كان فداءً لإسماعيل .

ومن جهة أنه ، من جملة العبادات الجليلة .

ومن جهة أنه كان قرباناً وسنة إلى يوم القيامة .

[وتركنا عليه في الآخِرِينَ * سلام على إبراهيم] أى : وأبقينا عليه

ثناء صادقاً في الآخِرِينَ ، كما كان في الأولين .

فكل^(١) وقت بعد إبراهيم عليه السلام ، فإنه فيه محبوب معظم

مُتَّئِيٌّ عَلَيْهِ .

[سلام على إبراهيم] أى : تحية عليه كقوله : « قل الحمد لله وسلام

على عباده الذين اصطفى » .

[إنا كذلك نجزي المحسنين] فى عبادة الله ، ومعاملة خلقه ، أن نفرج

عنهم الشدائد ، ونجعل لهم العاقبة ، والثناء الحسن .

[إنه من عبادنا المؤمنين] بما أمر الله بالإيمان به ، الذين بلغ بهم

الإيمان إلى درجة اليقين ، كما قال تعالى « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت

السماوات والأرض وليكون من الموقنين » .

(١) قوله « فكل وقت الخ » تعبير فيه ارتباك ، ولو قال « فكل

وقت يذكر فيه إبراهيم عليه السلام ، يذكر بالتعظيم والثناء الجليل لأنه

محبوب ومعظم عند جميع الناس على اختلاف أديانهم وشرائهم » لكان

أوضح للقراء ، على اختلاف طبقاتهم .

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾
وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ
مُتَّبِعٌ ﴿١١٣﴾

[وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين] هذه البشارة الثانية بإسحاق ،
الذي من ورائه يعقوب .

فبشر بوجوده وبقائه ، ووجود ذريته ، وكونه نبيا من الصالحين .
فهي بشارات متعددة .

[وباركنا عليه وعلى إسحاق] أى : أنزلنا عليهما البركة ، التى هى
النمو والزيادة فى علمهما ، وعملهما وذريتهما ، فنشر الله من ذريتهما ، ثلاث
أمم عظيمة .

أمة العرب من ذرية إسماعيل ، وأمة بنى إسرائيل ، وأمة الروم من
ذرية إسحاق .

[ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين] أى : منهم الصالح والطالح ،
والعادل والظالم الذى تبين ظلمه ، بكفره وشركه .

ولعل هذا من باب دفع الإيهام ، فإنه لما قال « وباركنا عليهما »
اقتضى ذلك ، البركة فى ذريتهما ، وأن من تمام البركة ، أن تكون الذرية
كلهم محسنين .

فأخبر الله تعالى أن منهم محسنا ، وظالما . والله أعلم .

﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا
وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ
الْفَالِحِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ
عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾
إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

• يذكر تعالى منته على عبديه ، ورسوليه ، موسى ، وهرون ابني عمران ،
بالنبوة والرسالة ، والدعوة إلى الله تعالى ، ونجاتهما وقومهما من عدوهما ،
فرعون ، ونصرهما عليه ، حتى أغرقه الله ، وهم ينظرون ، وإنزال الله عليهما
الكتاب المستبين ، وهو التوراة التي فيها الأحكام ، والمواعظ ، وتفصيل
كل شيء ، وأن الله هداها الصراط المستقيم ، بأن شرع لها ديناً ، ذا أحكام
وشرائع مستتية ، موصلة إلى الله ، ومن عليهما بسلوكة .

[وتركنا عليهما في الآخرين * وسلام على موسى وهرون] أي أبقى
عليهما ، ثناء حسناً ، وتحمية في الآخرين ، ومن باب أولى وأحرى ، في الأوائل
[إنا كذلك نجزي المحسنين ^(١)] إنهما من عبادنا المؤمنين ^(٢)] .

(١) المحسنين . أي : لأنفسهم ، اللذين هما من جملتهم ، لاجزاء
قاصراً عنه .

(٢) أي : الراسخين في الإيمان على وجه الإيقان والاطمئنان .

﴿١٢٣﴾ وَإِنَّ إِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾
اللَّهِ رَبِّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ
لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ
فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمَ عَلَيَّ إِنْ يَأْسِنَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَّلِكَ نَجْزِي

* يمدح تعالى ، عبده ورسوله ، إيلياس عليه الصلاة والسلام ، بالنبوة
والرسالة ، والدعوة إلى الله .

وأنه أمر قومه بالتقوى ، وعبادة الله وحده ، ونهاهم عن عبادتهم ، صنما
لهم يقال له « بعل » وتركهم عبادة الله ، الذى خلق الخلق ، وأحسن خلقهم ،
وربهم فأحسن تربيتهم ، وأدرّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة .

وأنكم كيف تركتم عبادة من هذا شأنه ، إلى عبادة صنم ، لا يضر ،
ولا ينفع ، ولا يخلق ، ولا يرزق ، بل لا يأكل ولا يتكلم ؟!! وهل هذا
إلا من أعظم الضلال ، والسفه ، والغبى ؟!!

[فكذبوه] فيما دعاهم إليه ، فلم يتفادوا له ، قال الله متوعدا له :

[فإنهم لمحضرون] أى يوم القيامة فى العذاب ولم يذكر لهم عقوبة
دنيوية .

[إلا عباد الله المخلصين] أى : الذين أخلصهم الله ، ومنّ عليهم باتِّباع
نبيهم ، فإنهم غير محضرين فى العذاب ، وإنما لهم من الله ، جزيل الثواب .
[وتركنا عليه] أى : على إيلياس [فى الآخِرِينَ] ثناء حسنا .

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴿١٣٣﴾ وَإِنْ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا
الْآخِرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنَكْمُ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْيَلِيلِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴿١٣٨﴾

[سلام على إلياسين] أى: تحية من الله، ومن عباده عليه .
[إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين] فأثنى الله عليه
كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .
* وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله ، لوط بالنبوة والرسالة ، ودعوته
إلى الله قومه ، ونهيبهم عن الشرك ، وفعل الفاحشة .
فلما لم ينتهوا ، نجاه الله وأهله أجمعين ، فسروا ليلا فنجوا .
[إلا عجوزا فى الغابرين] أى : الباقين المذنبين ، وهى زوجة لوط
لم تكن على دينه .
[ثم دمرنا الآخريين] بأن قلبنا عليهم ديارهم « فجعلنا عاليها سافلها ،
وأمطرنا عليها حجارة من سجليل منضود » حتى همدوا وخذوا .
[إنكم لتمررون عليهم] أى : على ديار قوم لوط [مصبحين وبالليل]
أى : فى هذه الأوقات ، يكثر ترددكم إليها ومسوركم بها ، فلم تقبل الشك
واللرية [أفلا تعقلون] الآيات والمعبر ، وتنزجرون عما يوجب الهلاك ؟

﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى

* وهذا ثناء منه تعالى ، على عبده ورسوله ، يونس بن متى ، كما أثنى على إخوانه المرسلين ، بالنبوة والرسالة ، والدعوة إلى الله .

وذكر تعالى عنه ، أنه عاقبه عقوبة دنيوية ، أنجاه منها ، بسبب إيمانه وأعماله الصالحة ، فقال :

[إذ أبق^(١)] أي : من ربه مغاضبا له ظانا أنه لا يقدر عليه ، ويحبسه في بطن الحوت .

(١) قوله « إذ أبق » أي « من ربه مغاضبا له » إلى قوله « وهو مغاضبه لربه » .

أقول : ذكر المؤلف هنا كلاما ، خلاف ما ذكره المفسرون .

فأوهم كلامه أن يونس عليه السلام هرب من ربه مغاضبا له ، ظانا أن الله لا يقدر أن يدركه ولا يستطيع حبسه في بطن الحوت ، وأنه ارتكب ذنبا .

ومعلوم أن الإجماع قد انعقد على أن الأنبياء معصومون بعد النبوة من صفائر الذنوب وكبائرها .

والمؤلف هنا جملة مرتكبا ذنبا ، مستندا إلى قوله تعالى (أبق) مع أن إياقه لم يكن عن قصد مخالفة الله بل كان لتأخر نزول العذاب الذي كان وعد قومه بنزوله عليهم ، فلما تأخر نزول العذاب ، أداه اجتهاده أن يهجر قومه ويهيش بعيدا عنهم ، متيقنا أن الله لا يضيق عليهم في حياته المعيشية . وهذا من اجتهادات الأنبياء التي تحمل الخطأ والصواب . =

ولم يذكر الله ما غاضب عليه ، ولا ذنبه الذي ارتكبه ، لعدم فائدتنا
بذكره .

= مع العلم بأن الوحي ينزل عليهم فوراً ويردون إلى الصواب ، ولا يقرون
على الخطأ .

ومثاله : اجتهاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في أمر أسرى « بدر »
واجتهاده في النهي عن تلقيح النخل .

فما قررنا بتضح أن يونس اجتهد في هجران قومه ، لا أنه عمد إلى مخالفة
أمر ربه حتى نقول : إنه ارتكب ذنباً كما صرح المؤلف هنا .

كما أنه فسر « الظن » في قوله تعالى : (فظن أن لن نقدر عليه) على
حقيقته وهو إدراك الطرف الراجح ، مع أن الظن هنا بمعنى اليقين .

ونظيره قوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملائكة ربهم) أي : يعتقدون
ويتيقنون .

وأيضاً فسر القدرة في قوله تعالى (لن نقدر عليه) على حقيقته الذي هو
ضد المعجز .

مع أن معنى « لن نقدر » لن نصيق ، ونظيره قوله تعالى « ومن قدر
عليه رزقه فلْيُلَيِّنْهُ مَا آتَاهُ اللَّهُ » أي : من نصيق عليه رزقه .

وكذا فسر « مفاضياً » بقوله « مفاضياً له » (أي لربه) .

مع أن المعنى : مفاضياً لقومه أي : غضبان عليهم ، مما قاسى منهم ،
= من معاندتهم وعدم استجابتهم لدعوته .

أَفْلُكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾

وإنما فائدتنا بما ذكر لنا عنه ، أنه أذنب ، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام ، وأنه نجاه بعد ذلك ، وأزال عنه اللام ، وقبض له ما هو سبب صلاحه .

فلما أبق لجأ [إلى الفلك المشحون] بالركاب والأهتمة ، فلما ركب مع غيره ، والفلك شاحن ، ثقلت السفينة فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركاب ، وكانهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك ، فاقترعوا على أن من قرع وغلب ، ألقى في البحر عدلا من أهل السفينة ، وإذا أراد الله أمرا ، هيا أسبابه . فلما اقترعوا ، أصابت التربة يونس [فكان من المدحضين] .

أى : المغلوبين ، فألقى في البحر [فالتقمه الحوت وهو] وقت التقامه [ملئم] .
أى : فاعل ما يلام عليه ، وهو مفاضبته لربه .

[فلولا أنه كان من المسبحين] أى : في وقته السابق ^(١) بكثرة عبادته

= ومن أراد الاستقصاء والوقوف على الحقيقة ، فليرجع إلى كتاب « عصمة الأنبياء » للرازي ، وإلى المفسرين ، كأبي السعود ، والنسفي ، وابن كثير . يجد ما يؤيد كلامنا وتعقيبنا هذا . وكنت أود أن أذكر خلاصة ما قاله المفسرون في هذه الآية ، ولكن وجدت نفسى أمام كلام طويل وروايات شتى ، مما لا يتسع المقام هنا لاستيعابه واستقصائه .

(١) قوله في وقته السابق . أى : قبل وقوعه في بطن الحوت ، لأنه

عليه السلام ، كان كثير الصلاة في الرخاء .

ولا شك أن من أقبل على ربه في السراء ، أخذ بيده عند الضراء .

وهذا ما يؤيده قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : « تعرف إلى الله في

الرخاء ، يعرفك في الشدة » .

فَأَلْتَمَمَهُ الْخُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ
الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَّبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنبَذْنَاهُ
بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾

لربه ، وتسبيحه ، وتحميده ، وفي بطن الخوت حيث قال « لا إله إلا أنت ، سبحانك إني كنت من الظالمين » .

[للبث في بطنه إلى يوم يبعثون] أى : لكانت مقبرته ، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله ، نجاه الله تعالى .

وكذلك ينجى الله المؤمنين ، عند وقوعهم في الشدائد .

[فنبذناه بالعراء] بأن : قذفه الخوت من بطنه بالعراء ، وهى الأرض الخالية العارية من كل أحد ، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال [وهو سقيم] أى قد سقم ومرض ، بسبب حبسه فى بطن الخوت ، حتى صار مثل الفرخ المعوط من البيضة .

[وأنبتنا عليه شجرة من يقطين^(١) تظله بظلمها الظليل ، لأنها باردة الظلال ، ولا يسقط عليها ذباب ، وهذا من لطفه به ، وبره .

(١) يقطين . أى : القرع كما ذهب إليه الجمهور . وفائدته ، أن الذباب لا يجتمع عنده . وأنه أسرع الأشجار نباتا وامتداداً ، وارتفاعاً ، قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتحب القرع . قال : « أجل : هى شجرة أخى يونس » هـ . تفسير النسفى .

وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَأَمَّنُوا فَمَرَّعْنَاهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾
فَأَسْتَفْتِهِمَ أَلَرَّبُّكَ أَلْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾

ثم لطف به لطفًا آخر، وأمنَّ عليه مِنَّةً عظيمةً، وهو أنه أرسله
[إلى مائة ألف] من الناس [أو يزيدون] عنها .

والمعنى أنهم إن لم يزيدوا عنها ، لم ينقصوا ، فدعاهم إلى الله تعالى [فأمَّنوا]
فصاروا في موازينه ، لأنه الداعي لهم .

[فمَرَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ] بأن صرف الله عنهم العذاب ، بعد ما انقعدت
أسبابه .

قال تعالى . « فلولاً كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس
لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين . »

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . [فأسْتَفْتِهِمْ] أى : أسأل المشركين
بالله غيره ، الذين عبدوا الملائكة ، وزعموا أنها بنات الله ، فجمعوا بين
الشرك بالله ، ووصفه بما لا يليق بجلاله .

[أَلَرَّبُّكَ أَلْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ] أى : هذه قسمة ضيزى . وقول جائز ،
من جهة جعلهم الولد لله تعالى ، ومن جهة جعلهم ، أرداداً القسمين وأخسهما له
وهو البنات اللاتي لا يرضونهن لأنفسهم ، كما قال في الآية الأخرى « ويجعلون
للَّهِ الْبَنَاتَ سَبْحَانَهِ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ » .

ومن جهة جعلهم الملائكة بنات الله ، وحكمهم بذلك .

أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ
إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٥٢﴾
أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾

قال تعالى في بيان كذبهم: [أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون]
خلقهم؟ أى: ليس الأمر كذلك، فإنهم ما شهدوا خلقهم.
فدل على أنهم قالوا هذا القول، بلا علم، بل افتراء على الله، ولهذا
قال تعالى:

[ألا إنهم من إفكهم] أى: كذبهم الواضح [ليقولون ولد الله
وإنهم لكاذبون] « في قولهم ذلك كذبا بينا لا ريب فيه » .
[أصطفى] أى: اختار [البنات على البنين . ما لكم كيف تحكمون]
هذا الحكم الجائر [أفلا تذكرون] وتميزون هذا القول الباطل الجائر .
[فإنكم لو تذكروتم ، لم تقولوا هذا القول .
[أم لكم سلطان مبين] أى: حجة ظاهرة على قولكم ، من كتاب ،
أو رسول .

وكل هذا غير واقع ولهذا قال: [فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين]
فإن من يقول قولا ، لا يقيم عليه حجة شرعية ، فإنه كاذب متعمد ،
أو قائل على الله ، بلا علم .

﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ
الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾
﴿١٦١﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ
بِقَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾

* أى : جعل هؤلاء المشركون بالله ، بين الله وبين الجنة نسباً ، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله ، وأن أمهاتهم سروات الجن .

والحال أن الجنة ، قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله ، ليجازيهم ، فهم عباد أذلاء فلو كان بينهم وبينه نسب ، لم يكونوا كذلك .

[سبحان الله] الملك العظيم ، والسكامل الحليم [عما يصفون] به ربهم من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم .

[إلا عباد الله المخلصين] فإنه لم ينزه نفسه عما وصفوه به ، لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله ، وذلك كانوا مخلصين .

* أى : إنكم أيها المشركون ، ومن عبدتموه مع الله ، لا تقدرون أن تفننوا وتضلوا أحداً إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم ، فنفذ فيه القضاء الإلهي .

والمقصود من هذا ، بيان عجزهم وعجز آلهتهم ، عن إضلال أحد ، وبيان كمال قدرة الله تعالى .

أى : فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين .

﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ

الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ

الْأُولَئِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ

* هذا فيه بيان براءة الملائكة عليهم السلام ، عما قاله فيهم المشركون .
وأنتهم عباد الله ، لا يعصونه طرفة عين .

فما منهم من أحد ، إلا وله مقام وتديير ، قد أمره الله به لا يتعداه
ولا يتجاوزه ، وليس لهم من الأمر شيء .

[وإنا نحن الصافون ^(١)] في طاعة الله وخدمته [وإنا نحن المسبحون]

« أى : واتقدسون لله سبحانه عن كل مالا يليق بجناب كبريائه » .

فكيف مع هذا يصلحون أن يكونوا شركاء ؟! « تعالى الله عن قولهم

علوا كبيرا » .

* يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين ، يظهرن التمنى ، ويقولون : لو جاءنا

من الذكر والكتب ، ما جاء الأولين ، لأخلصنا لله العبادة ، بل لكننا
المخلصين على الحقيقة .

وهم كذبة في ذلك ، فقد جاءهم أفضل الكتب ، فكفروا به ، فلم

أنهم متمردون على الحق [فسوف يعملون] العذاب ، حين يقع بهم .

ولا يحسبوا أيضا أنهم في الدنيا غالبون ، بل قد سبقت كلمة الله ، التي

لا مرد لها ولا مخالف لها ، لعباده المرسلين ، وجنده المفلحين ، أنهم الغالبون

(١) أى : نصطف في مواقف الطاعة ومواطن الخدمة . أو نصف حول

العرش ، داعين للمؤمنين .

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ
الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ
فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾
وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ

لغيرهم ، المنصورون من ربهم ، نصرا عزيزا ، يتمكنون فيه من إقامة دينهم .

وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله ، بأن كانت أحواله مستقيمة ، وقاتل من أمر بقتالهم ، أنه غالب منصور .

ثم أمر رسوله بالإعراض عن عاندوا ، ولم يقبلوا الحق ، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب ، ولهذا ، قال :

[وأبصرهم فسوف يبصرون] من يحل به النكال ، فإنه سيحل بهم .

[فإذا نزل بساحتهم] أى : نزل عليهم ، وقرىبا منهم [فساء صباح المنذرين] .

لأنه صباح الشر ، والعقوبة ، والاستئصال .

ثم كرر الأمر بالتولى عنهم ، وتهديدهم بوقوع العذاب .

ولما ذكر في هذه السورة ، كثيرا من أقوالهم الشنيعة ، التي وصفوه

بها ، نزه نفسه عنها فقال :

[سبحان ربك] أى : تنزه وتعالى [رب العزة] أى : الذى عز ، فقهر

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَأُحْمَدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

كل شيء ، واعتز عن كل سوء يصفونه به .

[وسلام على المرسلين] لسلامتهم من الذنوب والآفات ، وسلامة
ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات .

[والحمد لله رب العالمين] الألف واللام ، للاستفراق ، لجميع أنواع
الحمد ، من الصفات الكاملة العظيمة ، والأفعال التي ربي بها العالمين ،
وأدرّ عليهم فيها النعم ، وصرف عنهم بها النقم ، ودبرهم تعالى في حركاتهم
وسكونهم ، وفي جميع أحوالهم ، كلها لله تعالى .

فهو المقدس عن النقص ، المحمود بكل كمال ، المحبوب المعظم .

ورسله سالمون مسلم عليهم ، ومن اتبعهم في ذلك ، له السلامة في الدنيا
والآخرة .

وأعداؤه ، لهم الهلاك والعطب ، في الدنيا والآخرة .

تم تفسير سورة الصفات في ٦ شوال سنة ١٣٤٣

على يد جامعه وكتابه عبد الرحمن بن ناصر السعدي

وصلى الله على محمد وسلم تسليما ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

تفسير

سُورَةُ صَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا

* هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن ، وحال المكذبين به معه ، ومع من جاء به فقال :

[ص ، والقرآن ذى الذكر] أى : ذى القدر العظيم ، والشرف ، المُدَّكَّرُ للعباد ، كل ما يحتاجون إليه من العلم ، بأسماء الله وأفعاله ، ومن العلم ، بأحكام الله الشرعية ، ومن العلم ، بأحكام المعاد والجزاء .

فهو مذكر لهم ، فى أصول دينهم وفروعه .

وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه ، فإن حقيقة الأمر ، أن المقسم به وعليه ، شىء واحد ، وهو : هذا القرآن ، الوصوف بهذا الوصف الجليل .

فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَوَلَّاتِ
حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكُفِرُونَ

فإذا كان القرآن بهذا الوصف ، علم أن ضرورة العباد إليه ، فوق كل ضرورة .

وكان الواجب عليهم ، تلقّيه بالإيمان ، والتصديق ، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه .

فهدي الله من هدى لهذا ، وأبى الكافرون به ، وبمن أنزله ، وصار معهم [في عزة وشقاق] عزة وامتناع عن الإيمان به ، واستكبار وشقاق له ، أى : مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله ، وفي التذبح بمن جاء به .

فتوعدم بإهلاك القرون الماضية ، المكذبة بالرسول ، وأنهم حين جاءهم الهلاك ، نادوا ، واستغاثوا في صرف العذاب عنهم .

ولكن [لات حين مناص] أى : وليس الوقت ، وقت خلاص ، مما وقعوا فيه ، ولا فرج لما أصابهم .

فَلْيَحْذَرِ هَؤُلَاءِ أَن يَدُومُوا عَلَىٰ عِزَّتِهِمْ وَشِقَاقِهِمْ ، فَيُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ .

[وعجبوا أن جاءهم منذر منهم] أى : عجب هؤلاء المكذبون في أمر ، ليس محل عجب ، أن جاءهم منذر منهم ، ليتمكنوا من التلقى عنه ، وليعرفوه حق المعرفة .

ولأنه من قومهم ، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه .

فهذا ، مما يوجب الشكر عليهم ، وتمام الاقيادله .

هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
عَجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلِقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ
إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَأِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا

ولكنهم عكسوا القضية ، فتمعجوا تعجب إنكار [وقالوا] من
كفرهم وظلمهم : [هذا ساحر كذاب] .

وذنبه - عندهم - أنه [جعل الآلهة إلهًا واحدًا] أى : كيف ينهى عن
اتخاذ الشركاء والأنداد ، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده .

[إن هذا] الذى جاء به [لشيء عجاب] أى : يقضى منه العجب ،
لبطلانه وفساده عندهم .

[وانطلق الملأ منهم] القبول قولهم ، محرزين قومهم على التمسك ،
بما هم عليه من الشرك .

[أن امشوا واصبروا على آلهتكم] أى : استمروا عليها ، واجهدوا
نفوسكم فى الصبر عليها ، وعلى عبادتها ، ولا يردكم عنها راد ، ولا يصدنكم
عن عبادتها ، صاد .

[إن هذا] الذى جاء به محمد ، من النهى عن عبادتها [لشيء يراد]
أى : يقصد ، أى : له قصد ، ونية غير صالحة فى ذلك ، وهذه شبهة لا تروج
إلا على السفهاء .

فإن من دعا إلى قول حق أو غير حق ، لا يرد قوله بالقدح فى نيته ،
فنيته وعمله ، له .

إِلَّا أَخْتَلَقُ ﴿٧﴾ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكِّ

وإنما يرد بمقابلته ، بما يبطله ويفسده ، من الحجج والبراهين .
وهم قصدهم ، أن محمداً ، ما دعاكم إلى طاعناكم ، إلا ليرأس فيكم ،
ويكون معظماً عندكم ، ومتبوعاً .

[ماسمعنا بهذا] القول الذي قاله ، والدين الذي دعا إليه [في الملة الآخرة]
أى : في الوقت الأخير ، فلا أدركنا عليه آباءنا ، ولا آباؤنا أدركوا
آباءهم عاينه .

فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم ، فإنه الحق .
وما هذا الذي دعا إليه محمد ، إلا اختلاق اختلقه ، وكذب افتراه .
وهذه أيضاً شبهة ، من جنس شبهتهم الأولى ، حيث ردوا الحق بما ليس
بمحجة لرد أدنى قول ، وهو أنه ، قول مخالف لما عليه آباؤهم الضالون .
فأين في هذا ؛ ما يدل على بطلانه ؟ .

[أنزل عليه الذكر من بيننا] أى : ما الذي فضله علينا ، حتى ينزل
الذكر عليه ، من دوننا ، ويخصه الله به ؟

وهذه أيضاً شبهة ، أين البرهان فيها على رد ما قاله ؟ وهل جميع الرسل
إلا بهذا الوصف ، يَمُنُّ اللهُ عَلَيْهِمْ برسالته ، ويأسرهم بدعوة الخلق
إلى الله .

ولهذا ، لما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم ، لا يصلح شيء منها
لرد ما جاء به الرسول ؛ أخبر تعالى ، من أين صدرت ، وأنهم [في شك
من ذكرى] ليس عندهم علم ولا بينة .

مَنْ ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ
رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مَلَائِكَةُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا يَنْبَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ

فلما وقعوا في الشك ، وارتضوا به ، وجاءهم الحق الواضح ، وكانوا
جازمين بإقامتهم على شكهم ، قالوا ما قالوا ، من تلك الأقوال ، لدفع الحق
لا عن بينة من أمرهم ، وإنما ذلك ، من باب الائتفak منهم .

ومن المعلوم ، أن من هو بهذه الصفة ، يتكلم عن شك وعناد .

فإن قوله ، غير مقبول ، ولا قاذح أدنى قدح في الحق ، وأنه يتوجه
عليه الذم واللوم ، بمجرد كلامه ، ولهذا توعدهم بالعذاب فقال :

[بل لما يذوقوا عذاب [أى : قالوا هذه الأقوال ، وتجروا عليها ،
حيث كانوا ممتعين في الدنيا ، لم يصبهم من عذاب الله شيء ، فلو ذاقوا
عذابه ، لم يتجرأوا .

[أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب [فيعطون منها من شاءوا ،
ويمنعون منها ، من شاءوا حيث قالوا : [أنزل عليه الذكر من بيننا]
أى : هذا فضله تعالى ورحمته ، وليس ذلك بأيديهم ، حتى يتجرأوا
على الله .

[أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما] بحيث يكونون قادرين
على ما يريدون .

[فليرتقوا في الأسباب] للوصول لهم إلى السماء ، فيتطموا الرحمة عن
رسول الله .

مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ

ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ

الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

فكيف يتكلمون ، وهم أعجز خاق الله وأضعفهم ، بما تكلموا به ؟! أم قصدهم التعزب ، والنجد ، والتعاون على نصر الباطل ، وخذلان الحق ؟ وهو الواقع .

فإن هذا المقصود ، لا يتم لهم ، بل سعيهم خائب ، وجندهم مهزوم ولهذا قال :

[جند ما هنا لك مهزوم من الأحزاب] «أى : كالأجناد من جنس الأحزاب المتحزبين على الأنبياء قبلك ، وأولئك قد قهرروا ، وأهلكوا ، فكذلك نهلك هؤلاء .»

* يمجذهم تعالى أن يفعل بهم ، ما فعل بالأمم من قبلهم ، الذين كانوا أعظم قوة منهم ، وتحزبا على الباطل [قوم نوح وعاد] قوم هود [وفرعون ذو الأوتاد] أى : الجنود العظيمة ، والقوة الهائلة .

[وثمود] قوم صالح .

[وقوم لوط وأصحاب الأيكة] أى : الأشجار ، والبساتين الملتفة ،

وهم قوم شعيب .

[أولئك الأحزاب] الذين اجتمعوا بقوتهم ، وعددهم وعددهم على

رد الحق ، فلم تغن عنهم شيئا .

وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾

﴿١٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴿١٦﴾

﴿١٧﴾ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾

[إن كل] من هؤلاء [إلا كذب الرسل فحق عليها عقاب] الله .
وهؤلاء ، ما الذي يطهرهم ويذكهم ، أن لا يصيبهم ، ما أصاب أولئك .
فلينتظروا [وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق] .
أى : من رجوع ورد ، تهلكهم وتستأصلهم ، إن أقاموا على ما هم عليه .
* أى : قال هؤلاء المكذبون ، من جهلهم ، ومعانديتهم الحق ،
مستمعجين للعذاب :

[ربنا عجل لنا قطننا] أى : قسطنا ، وما قسم لنا من العذاب عاجلا
[قبل يوم الحساب] وأجوا في هذا القول ، وزعموا أنك يا محمد ، إن كنت
صادقا ، فعلاصة صدقك ، أن تأتيهم بالعذاب ، فقال الله لرسوله :

[اصبر على ما يقولون] كما صبر من قبلك من الرسل ، فإن قولهم
لا يضر الحق شيئا ، ولا يضر ونك في شيء ، وإنما يضررون أنفسهم .

* لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه ، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة
لله وحده ، ويتذكر حال العابدين ، كما قال في الآية الأخرى : « فاصبر
على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » .

إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ
مَخْشُورَةً كُلٌّ لَّهِ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاثِنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَضَّلَ الْخُطَابِ ﴿٢٠﴾

ومن أعظم العابدين ، نبي الله داود عليه الصلاة والسلام [ذا الأيد]
أى : القوة العظيمة على عبادة الله تعالى ، فى بدنه وقلبه .

[إنه أواب] أى : رجّاع إلى الله فى جميع الأمور بالإجابة إليه ، بالحب
والتأله ، والخوف ، والرجاء ، وكثرة التضرع ، والدعاء .

رجاع إليه ، عندما يقع منه بعض الخلل بالإقلاع ، والتوبة النصوح .

ومن شدة إنايته لربه وعبادته ، أن سخر الله الجبال معه ، تسبح معه
بمخدرها .

[بالعشى والإشراق] أول النهار وآخره .

[و] سخر [الطير مخشورة] معه مجموعة [كل] من الجبال والطيور
[له] تعالى [أواب] امثالا لقوله تعالى : « يا جبال أوبي معه والطيور » فهذه
منة الله عليه بالعبادة .

ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم فقال : [وشددنا ملكه] أى : قويناه
بما أعطيناه من الأسباب ، وكثرة العدد والعدد التى بها قوى الله ملكه .

ثم ذكر منته عليه بالعلم فقال : [وآتيناه الحكمة] أى : النبوة والعلم
العظيم [وفصل الخطاب] أى : الخصومات بين الناس .

﴿٢١﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾
إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بِنَى بَعْضُنَا
عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ

* لما ذكر تعالى أنه آتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس ، وكان
معروفاً بذلك ، مقصوداً ، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده ، في قضية
جعلها الله فتنة لداود ، وموعظة لخلل ارتكبه ، فتاب الله عليه ، وغفر له ،
وقبض له هذه القضية ، فقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

[وهل أتاك نبأ الخصم] فإنه نبأ عجيب [إذ تسوروا] على داود
[المحراب] أى : محل عبادته من غير إذن ولا استئذان ، ولم يدخلوا
عليه من باب فلما دخلوا عليه بهذه الصورة ، فزع منهم وخاف فقالوا له :
نحن [خصمان] فلا تخف [بنى بعضنا على بعض] بالظلم [فاحكم بيننا بالحق]
أى : بالعدل ، ولا تمل مع أحدنا [ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط] .
والمقصود^(١) من هذا ، أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح
الصرف وإذا كان ذلك كذلك ، فسيقصان عليه نبأهما بالحق ، فلم يشمتز
نبي الله داود من وعظهما له ، ولم يؤنبهما .

فقال أحدهما : [إن هذا أخى] نص على الأخوة في الدين أو النسب ،
أو الصداقة ، لانتضاءها عدم البغى ، وأن بغية الصادر منه ، أعظم
من غيره .

(١) قوله « والمقصود » إلى « الصرف » تعبير غير منسجم مع المعنى
المراد ولو قال « والمقصود أن داود عليه السلام قد عرف من حال الخصمين
أنهما إنما يقصدان الحق الواضح الصرف » لكان أوضح للقارىء .

الصَّراطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ
وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ
بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ

[له تسع وتسعون نعجة] أى : زوجة ، وذلك خير كثير ، يوجب عليه
القناعة بما آتاه الله .

[ولى نعجة واحدة] فطمع فيها [فقال أ كفلنيها] أى : دعها لى ،
وخلها فى كفالتى .

[وعزنى فى الخطاب] أى : غلبنى فى القول ، فلم يزل بى ، حتى أدر كها
أو كاد .

فقال داود — لما سمع كلامه — ومن المعلوم من السياق السابق من
كلامهما ، أن هذا هو الواقع ، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر ، فلا وجه
للاعتراض بقول القائل « لم حكم داود ، قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر » ؟
[لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه] وهذه عادة الخلطاء والقرناء
الكثير منهم .

فقال : [وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض] لأن الظلم
من صفة النفوس .

[إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات] فإن ما معهم من الإيمان والعمل
الصالح ، يمنعهم من الظلم .

[وقليل ما هم] كما قال تعالى « وقليل من عبادى الشكور » .

دَوودَ أَنَّمَا فَتِنَهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ
ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ
خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ

[وطن (١) داود] حين حكم بينهما [أنما فتناه] أى : اختبرناه وودبرنا
عليه هذه القضية ليتنبه .

[فاستغفر ربه] لما صدر منه [وخر راكعاً] أى ساجداً [وأنا]
لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة .

[فغفرنا له ذلك] الذى صدر منه ، وأكرمه الله بأنواع الكرامات فقال :
[وإن له عندنا لزلفى] أى : منزلة عالية ، وقربة منا [وحسن مآب]
أى : مرجع .

وهذا الذنب الذى صدر من داود عليه السلام ، لم يذكره الله لعدم
الحاجة إلى ذكره ، فالتعرض له ، من باب التكلف .
وإنما الفائدة ، ما قصه الله علينا ، من لطفه به ، وتوبته ، وإنابته ،
وأنه ارتفع محله ، فكان بعد التوبة ، أحسن منه قبلها .
[يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض] تنفذ فيها القضايا الدينية
والديوية .

[فاحكم بين الناس بالحق] أى : العدل .
وهذا لا يتمكن منه ، إلا بعلم بالواجب ، وعلم بالواقع ، وقدرة على
تنفيذ الحق .

فَيُضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ
ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ

[ولا تتبع الهوى] فتميل مع أحد ، لقرابة ، أو صداقة ، أو محبة ،
أو بغض للآخر [فيضلك] الهوى [عن سبيل الله] ويخرجك عن
الصراط المستقيم .

[إن الذين يضلون عن سبيل الله] خصوصا المتعمدين منهم .
[لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب] « أى : بفقلتهم عن يوم
الجزاء » .

فلو ذكروه ، ووقع خوفه في قلوبهم ، لم يميلوا مع الهوى الفاتن .
* يخبر تعالى عن تمام حكيمته ، في خلقه السموات والأرض ، وأنه لم يخلقهما
باطلا ، أى : عبثا ولعبا ، من غير فائدة ولا مصلحة .

[ذلك ظن الذين كفروا] برهم ، حيث ظنوا مالا يليق بجلاله .
[فويل للذين كفروا من النار] فإنها التي تأخذ الحق منهم ، وتبلغ
منهم كل مبلغ .

وإنما خلق الله السموات والأرض بالحق وللحق ، فخلقهما ، ليعلم العباد
كمال علمه وقدرته ، وسعة سلطانه ، وأنه تعالى وحده ، المعبود ، دون من
لم يخلق مثقال ذرة من السموات والأرض ، وأن البعث حق ، وسيفصل

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ
الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا
آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾

الله بين أهل الخير والشر .

ولا يظن الجاهل بحكمة الله ، أن يسوى الله بينهما في حكمه ، ولهذا قال :
[أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل
المتقين كالفجار] هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا .

* [كتاب أنزلناه إليك مبارك] فيه خير كثير ، وعلم غزير .

فيه كل هدى من ضلالة وشفاء من داء ، ونور يستضاء به في الظلمات .
وفيه كل حكم يحتاج إليه المكلفون ، وفيه من الأدلة القطعية على كل
مطلوب ، ما كان به أجل كتاب طرق العالم ، منذ أنشأه الله .
[ليدبروا آياته] أى : هذه الحكمة من إنزاله ، ليتدبر الناس آياته ،
فيستخرجوا علمها ويقاملوا أسرارها وحكمها .

فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه ، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة ،
تدرك بركته وخيره .

وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن ، وأنه من أفضل الأعمال ، وأن
القراءة المشتملة على التدبر ، أفضل من سرعة التلاوة ، التي لا يحصل بها ،
هذا المقصود .

[وليتذكر أولو الأبواب] أى : أولو العقول الصحيحة ، يتذكرون
بتدبرهم لها كل علم ومطلوب .

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠)

فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله ، يحصل له التذكر والانتفاع ، بهذا السكتاب .

* لما أنى الله تعالى على داود ، وذكر ما جرى له ومنه ، أمى على ابنه سليمان عليهما السلام فقال : [وهبنا لداود سليمان] أى : أنعمنا به عليه ، وأقررنا به عينه .

[نعم العبد] سليمان عليه السلام ، فإنه اتصف بما يوجب المدح ، وهو [أنه أواب] أى : رجّاع إلى الله فى جميع أحواله ، بالتأله والإنابة ، والمحبة والذكر والدعاء والتضرع ، والاجتهاد فى مرضاة الله ، وتقديمها على كل شىء .

ولهذا ، لما عرضت الخليل الجياد الصافيات أى : التى وصفها الصفون ، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف ، وكان لها منظر رائع ، وجمال معجب ، خصوصا للحتاج إليها كالمملك .

فما زالت تعرض عليه ، حتى غابت الشمس فى الحجاب ، فألمته عن صلاة المساء وذكره .

فقال — ندما على ما مضى منه ، وتقربا إلى الله بما ألهاه عن ذكره ، وتقديما لحب الله على حب غيره — [إني أحببت حب الخليل] وضمن « أحببت » معنى « آثرت » .

أى : آثرت حب الخليل ، الذى هو المال عموما ، وفى هذا الموضع المراد : الخليل [عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب] « أى : غابت عن عينيه » .

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصُّفِينُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ
حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوَهَا عَلَيَّ
فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا
عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي

* [ردوها على] فردوها [فطفق] أي: « شرع » فيها [مسحا بالسوق
والأعناق] أي جعل^(١) يعقرها بسيفه ، في سوقها وأعناقها .

[ولقد فتنا سليمان] أي : ابتليناه واختبرناه ، بذهاب ملكه وانفصاله
عنه ، بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية [وألقينا على كرسيه جسدا]
أي: شيطانا قضى الله وقدر أن يجلس على كرسى ملكه ، ويتصرف في الملك
في مدة فتنة سليمان [ثم أناب] سلمان إلى الله تعالى وتاب .

(١) قوله « أي جعل الخ » كلام فيه ما فيه من المؤاخذات فإن التاريخ
حفظ لنا أحوال الصالحين من هذه الأمة وشدة حرصهم على امتثال الأوامر
الإلهية وعدم انحرافهم في تيار الخواطر الدنيوية حينما تحين أوقات العبادة ،
فإذا كان هذا شأن الصالحين فما بالك بالأنبياء الذين هم أعلى درجة من الصالحين
ولا شك أن تلك الروايات الملتصقة بسليمان لا تليق بعصمة الأنبياء ثم ما ذنب
الخليل حتى تعرقب أرجلها وتقطع أيديها ولقد فطن لهذا الإمام الرازي ففند
هذه المزاعم كلها في تفسيره وفي كتابه « عصمة الأنبياء » وذكر أن معنى
« فطفق مسحا بالسوق والأعناق » أنه لما أجرى السباق وردت إليه الخليل
جعل يمسح أعناقها وسوقها متحجبا إليها ، لأنها أهم عدة للجهاد .

مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾
وَالشَّيْطَانَ كُلَّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي
الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾
وَإِنَّا لَهُ عِنْدَنَا لَزُنُوبٌ وَحُسْنٌ مَّآبٍ ﴿٤٠﴾

[قال ربى اغفرلى وهب لى ماسكلا لا ينبغى لأحد من بعدى، إنك أنت
الوهاب].

فاستجاب الله له وغفر له ، ورد عليه ملكه ، وزاده ملكا لم يحصل
لأحد من بعده ، وهو تسخير الشياطين له ، يبنون ما يريد ، ويفوضون له
فى البحر ، يستخرجون الدر والحلى ، ومن عصاه منهم ، قرنه فى الأصفاد
وأوقته .

وقلنا له . [هذا عطاؤنا] فقرَّبه عينا [فامنن] على من شئت .

[أو أمسك] من شئت [بغير حساب] أى : لا حرج عليك فى ذلك
ولا حساب ، لعله تعالى بكال عدله ، وحسن أحكامه .

ولا تحسبن هذا لسليمان فى الدنيا دون الآخرة ، بل له فى الآخرة
خير عظيم .

ولهذا قال : [وإن له عندنا لزنى وحسن مآب] أى : هو من
المقرنين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله .

فصل

فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام .
فمنها : أن الله تعالى ، يقص على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أخبار
من قبله ، ليثبت فؤاده ، وتطمئن نفسه .

ويذكر من عبادتهم وشدة صبرهم ، وإنابتهم ، ما يشوقه إلى منافستهم ،
والتقرب إلى الله ، الذي تقربوا له ، والصبر على أذى قومه .

ولهذا — في هذا الموضع — لما ذكر الله ما ذكر ، من أذية قومه
وكلامهم فيه ، وفيما جاء به ، أمره بالصبر ، وأن يذكر عبده داود ،
فيقاسى به .

ومنها : أن الله تعالى ، يمدح ، ويحب القوة في طاعته ، قوة القلب
والبدن .

فإنه يحصل منها ، من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ، ما لا يحصل مع
الوهن وعدم القوة .

وأن العبد ، ينبغي له ، تعاطى أسبابها ، وعدم الركون إلى الكسل ،
والبطالة الخلة بالقوة ، المضعفة للنفس .

ومنها : أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور ، من أوصاف أنبياء الله ،
وخواص خلقه ، كما أنى الله على داود وسليمان بذلك .

فليقتد بهما المتقدمون ، وليهتد بهداهم السالكون « أولئك الذين هدى
الله فبهداهم اقتده .

ومنها : ما أكرم الله به نبيه داود ، عليه السلام ، من حسن الصوت العظيم ، الذي جعل الله بسببه ، الجبال الصم ، والطيور البكم ، يجاوبنه إذا رجَّع صوته بالتسبيح ، ويسبحن معه بالعشى والإشراق .

ومنها : أن من أ كبر نعم الله على عبده ، أن يرزقه العلم النافع ، ويعرف الحكم والفصل بين الناس ، كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام .

ومنها : اعتناء الله تعالى بأبنيائه وأصفيائه ، عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم ، وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور .

ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى ، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام .

ومنها : أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، معصومون من الخطأ^(١) فيما يبلغون عن الله تعالى ، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك .

(١) قوله « معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى » .

أقول : ومعصومون أيضاً من كبائر الذنوب وصغائرها كما انعقد الإجماع على ذلك . إلا في المسائل الاجتهادية . فيجوز عليهم الخطأ ولكن لا يقرون عليه ، بل ينزل الوحي فوراً ، ويرداهم الله إلى الصواب ، كما حصل للنبي في أسرى « بدر » .

وأنه قد يجرى^(١) منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله، يتداركهم ويبادهم بلطفه .

ومنها : أن داود عليه السلام ، كان في أغلب أحواله ملازماً محرابه ، لخدمة ربه ، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب ، لأنه كان ، إذا خلا في محرابه ، لا يأتيه أحد .

فلم يجعل كل وقته للناس ، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام .

بل جعل له وقتاً ، يخلو فيه بربه ، وتقر عينه بعبادته ، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره .

ومنها : أنه ينبغي استعمال الأدب ، في الدخول على الحكام وغيرهم . فإن الخصبين — لما دخلا على داود ، في حالة غير معتادة ، ومن غير الباب المعهود ، فزع منهم ، واشتد عليه ذلك ، ورآه غير لائق بالحال .

ومنها : أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق ، سوء أدب الخصم ، وفعله ما لا ينبغي .

ومنها : كمال حلم داود عليه السلام ، فإنه ماغضب عليهما ، حين جاءه بغير استئذان ، وهو الملك ، ولا اتهرهما ، ولا وبجهما .

(١) قوله : وأنه قد يجرى منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي الخ « غير صحيح لأن الأنبياء معصومون بعد النبوة من كافة الذنوب صفاتها وكبائرها كما أجمع على ذلك علماء التوحيد .

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه « أنت ظلمتني » أو « يا ظالم » أو « باغ على » ونحو ذلك لقولها : « خصمان بغى بعضنا على بعض » .

ومنها : أن الموعوظ والمنصوح ، ولو كان كبير القدر ، جليل العلم ، إذا نصحه أحد ، أو وعظه ، لا يغضب ، ولا يشتمز ، بل يبادره بالقبول والشكر .

فإن الخصمين ، نصحا داود ، فلم يشتمز ، ولم يغضب ، ولم يثنه ذلك عن الحق ، بل حكم بالحق الصرف .

ومنها : أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب ، وكثرة العلاقات الدنيوية المالية ، موجبة للتعادى بينهم ، وبغى بعضهم على بعض ، وأنه لا يرد عن ذلك ، إلا استعمال تقوى الله ، والصبر على الأمور ، بالإيمان والعمل الصالح ، وأن هذا من أقل شيء في الناس .

ومنها: أن الاستغفار والعبادة ، خصوصا الصلاة ، مكفرات للذنوب ، فإن الله ، رتب مغفرة ذنب داود ، على استغفاره وسجوده .

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان ، بالقرب منه ، وحسن الثواب ، وأن لا يظن أن ما جرى لها ، منقص لدرجتهما عند الله تعالى .

وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين ، أنه إذا غفر لهم ، وأزال أثر ذنوبهم ، أزال الآثار المترتبة عليه كلها ، حتى ما يقع في قلوب الخلق ، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم ، وقع في قلوبهم ، نزولهم عن درجتهم الأولى ، فأزال الله تعالى هذه الآثار ، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار .

ومنها : أن الحكم بين الناس ، مرتبة دينية ، تولاها رسل الله ،
وخواص خلقه .

وأن وظيفة القائم بها ، الحكم بالحق ، ومجانبة الهوى .
فالحكم بالحق ، يقتضى العلم بالأمر الشرعية ، والعلم بصورة القضية
المحكوم بها ، وكيفية إدخالها فى الحكم الشرعى .
فالجاهل بأحد الأمرين ، لا يصلح للحكم ، ولا يحل له الإقدام عليه .
ومنها : أنه ينبغى للحاكم أن يحذر الهوى ، ويجعله منه على بال ، فإن
النفوس لا تخلو منه .

بل يجاهد نفسه ، بأن يكون الحق مقصوده ، وأن يلتقى عنه وقت الحكم ،
كل محبة أو بغض لأحد الخصمين .

ومنها : أن سليمان عليه السلام ، من فضائل داود ، ومن منن الله عليه .
حيث وهبه له .

وأن من أكبر نعم الله على عبده ، أن يهب له ولداً صالحاً ، فإن كان
عالماً ، كان نوراً على نور .

ومنها : ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه فى قوله [نعم العبد إنه أواب] .
ومنها : كثرة خير الله وبره بعبده ، أن يمن عليهم بصالح الأعمال ،
ومكارم الأخلاق ، ثم يثنى عليهم بها ، وهو المتفضل الوهاب .

ومنها : تقديم سليمان ، محبة الله تعالى على محبة كل شىء .
ومنها : أن كل ما شغل العبد عن الله ، فإنه مشغوم مذموم ، فليُفَارِقْ

وَلِيُقْبِلَ عَلَى مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ .

ومنها : القاعدة المشهورة « من ترك شيئاً لله ، عوضه الله خيراً منه » .

فسليمان عليه السلام عقر الجياد^(١) الصافنات المحبوبة للنفوس ، تقديماً لمحبة الله ، فعوضه الله خيراً من ذلك ، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة ، التي تجرى بأمره إلى حيث أراد وقصد ، غدوها شهر ، ورواحها شهر ، وسخر له الشياطين ، أهل الاقتدار على الأعمال ، التي لا يقدر عليها الآدميون .

ومنها : أن سليمان عليه السلام ، كان ملكاً نبياً ، يفعل ما أراد ، ولسكنه لا يريد إلا العدل .

بخلاف النبي العبد ، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله ، فلا يفعل ولا يترك ، إلا بالأمر ، كحال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه الحال أكمل .

(١) « عقر الجياد الخ » هذا إنما يتمشى على الرواية غير الصحيحة

﴿٤١﴾ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ
الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرَكُضُ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ
وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا

* أى : [واذكر] فى هذا الكتاب [عبدنا أيوب] بأحسن الذكر ،
وأثن عليه بأحسن الثناء ، حين أصابه الضر ، فصبر على ضره ، فلم يشتك
لغير ربه ، ولا لجأ إلا إليه .

[إذ نادى ربه] داعيا شاكيا إليه لا إلى غيره فقال : رب [أنى مسنى
الشیطان بنصب وعذاب] أى بأمر مشق متعب معذب ، وكان سلط على جسده
فنفخ فيه ، حتى تفرح ، ثم تقيح ^(١) بعد ذلك ، واشتد به الأمر ، وكذلك
هلك أهله وماله .

فقيل : [أركض برجلك] أى : اضرب الأرض بها ، لينبع لك منها
عين تغسل منها وتشرب ، فيذهب عنك الضر والأذى .
ففعل ذلك ، فذهب عنه الضر ، وشفاه الله تعالى .

[ووهبنا له أهله] قيل : إن الله تعالى أحياهم له [ومثلهم معهم]
فى الدنيا ، وأغناه الله ، وأعطاه مالا عظيما .

(١) قوله « حتى تفرح وتقيح » كلام غير صحيح فإن الأنبياء معصومون
من الأمراض المنفرة بإجماع علماء التوحيد .
وما نسب إلى أيوب من تلك الأمراض المنفرة إنما سرت إلى بعض المفسرين
الذين تجردوا من التحقيق العلمى ، من الأخبار الإسرائيلية وقد سبق
تفنيدينا لهذا الكلام بما يكفى ويشفى فى الجزء الخامس فى صحيفة ٢٥٣ .

لأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذَ بِيَدِكَ ضَغْنًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ
إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

[رحمة منا] بعبدنا أيوب، حيث صبر فأثناه من رحمتنا، ثواباً عاجلاً وآجلاً.

[وذكرى لأولى الألباب] أي: وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب، ويعتبروا، فيعلموا أن من صبر على الضر، فإن الله تعالى يثيبه ثواباً عاجلاً وآجلاً، ويستجيب دعاءه إذا دعاه.

[وخذ بيدك ضغناً] أي حزمة شمراخ [فاضرب به ولا تحنث].
قال المفسرون: وكان في مرضه وضره، قد غضب على زوجته في بعض الأمور.

خلف: لئن شفاه الله، ليضربنها مائة جلدة.
فلما شفاه الله، وكانت امرأته سالحة محسنة إليه، رحمها الله ورحمه، فأثناه أن يضربها بضغث فيه مائة شمراخ، ضربة واحدة، فيبر في يمينه.
[إننا وجدناه] أي: أيوب [صابراً] أي ابتليناه بالضر العظيم، فصبر لوجه الله تعالى.

[نعم العبد] الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء.

[إنه أواب] أي: كثير الرجوع إلى الله، في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه، والدعاء. والحجبة، والتأله.

﴿٤٦﴾ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى
الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾
وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٧﴾
﴿٤٨﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ
الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٨﴾

* يقول تعالى [واذكر عبادنا] الذين أخلصوا لنا العبادة ذكراً حسناً .
[إبراهيم] الخليل [و] [ابنه] [إسحق] [ابنه] [يعقوب أولى الأيدي]
أى : القوة على عبادة الله تعالى [والأبصار] أى : البصيرة فى دين الله .
فوصفهم بالعلم النافع ، والعمل الصالح الكثير .

[إنا أخلصناهم بخالصة] عظيمة ، وخصيصة جسيمة وهى : [ذكرى
الدار] جعلنا ذكرى الدار الآخرة فى قلوبهم ، والعمل لها صفوة وقتهم ،
والإخلاص والمراقبة لله ، وصفهم الدائم ، وجعلناهم ذكرى الدار ، يتذكر
بأحوالهم المتذكر ، ويعتبر بهم المعتر ، ويذكرون بأحسن الذكر .
[وإنهم عندنا من المصطفين] الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه .

[الأخيار] الذين لهم خلق كريم ، وعمل مستقيم .

* أى : واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر ، وأثن عليهم أحسن الثناء .
فإن كلا منهم ، من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق ، واختار
لهم أكل الأحوال ، من الأعمال ، والأخلاق والصفات الحميدة ، والخصال
السديدة .

﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ
عَدْنٍ مَّفْتُوحَةٍ لَهُمْ **الْأَبْوَابُ** ﴿٥٠﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ

[هذا ذكر] أى ذكر هؤلاء الأنبياء الصفاة و ذكر أوصافهم ، ذكر
فى هذا القرآن ذى الذكر ، يتذكر بأحوالهم المتذكرون ، ويشتاق إلى الاقتداء
بأوصافهم الحميدة ، المقتدون ، ويعرف ما من الله عليهم به من الأوصاف
الزكية ، وما نشر لهم من الثناء بين البرية .

فهذا نوع من أنواع الذكر ، وهو ذكر أهل الخير ، ومن أنواع
الذكر ، ذكر جزاء أهل الخير ، وأهل الشر ، ولهذا قال :

* **أى :** [وإن للمتقين] ربهم ، بامثال الأوامر ، واجتناب النواهي ،
من كل مؤمن ومؤمنة .

[لحسن مآب] أى : لماأبا حسنا ، ومرجعاً مستحسنًا .

ثم فسره وفصله فقال : [جنات عدن] أى : جنات إقامة ، لا يبنى
صاحبها بدلا منها ، من كآلها ، وتمام نعيمها ، وليسوا بخارجين منها ،
ولا بمخرجين .

[مفتحة لهم الأبواب] أى : مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومسكنها ،
لا يحتاجون أن يفتحوها ، بل هم مخدومون .

وهذا دليل أيضاً ، على الأمان التام ، وأنه ليس فى جنات عدن ، ما
يوجب أن تغلق لأجله أبوابها .

[متكئين فيها] على الأرائك المزينات ، والمجالس المزخرفات .

[يدعون فيها] أى : يأمرون خدامهم ، أن يأتوا [بقاكة كثيرة

وشراب] من كل ما تشتهي نفوسهم ، وتلذذ أعينهم :

كثيرةً وشرابٍ ﴿٥١﴾ وعندهم قصيرتُ الطرفِ أترابٌ ﴿٥٢﴾
هذا ما توعدون ليومِ الحسابِ ﴿٥٣﴾ إنَّ هذا لرزقنا ماله
من نفاذٍ ﴿٥٤﴾

وهذا يدل على كمال النعيم ، وكمال الراحة والطمأنينة ، وتمام اللذة .

[وعندهم] من أزواجهم ، الحور العين [قاصرات الطرف] على
أزواجهن ، وطرف أزواجهن عليهن ، لجمالهم كلهم ، ومحبة كل منهما
للآخر ، وعدم طموحه لغيره ، وأنه لا يبغي بصاحبه بدلا ، وعنه عوضاً .

[أتراب] أى : على سن واحد ، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه .

[هذا ما توعدون] أيها المتقون [ليوم الحساب] جزاء على أعمالكم

الصالحة .

[إن هذا الرزقنا] الذى أوردناه على أهل النعيم [ماله من نفاذ]

أى : انقطاع ، بل هو دائم مستمر فى جميع الأوقات ، متزايد فى جميع
الآنات .

وليس هذا بعظيم على الرب الكريم ، الرؤوف الرحيم ، البر الجواد ،
الواسع الغنى ، الحميد اللطيف الرحمن ، الملك الديان ، الجليل الجميل المنان ،
ذى الفضل الباهر ، والكرم المتواتر ، الذى لا تحصى نعمه ، ولا يحاط
ببعض بره .

﴿٥٥﴾ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّغِينِ لَشَرًّا مَّآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا
فَبِئْسَ الْمَهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ
مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ

* [هذا] الجزاء للمتقين ، ما وصفناه [وإن للطاغين] أى : للمتجاوزين
للحد في الكفر والمعاصي [لشر مآب] أى : لشر مرجع ومنقلب ، ثم فصله فقال :
[جهنم] التي جمع فيها كل عذاب واشتد حرها ، وانتهى قرها (١)
[يصلونها] أى : يعذبون فيها عذاباً ، يحيط بهم من كل وجه ، لهم من
فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل .

[فبئس المهاد] المعد لهم مسكناً ومستقراً [هذا] المهاد ، وهذا العذاب
الشديد ، والخزى ؛ والفضيحة ، والنكال .

[فليذوقوه حميم] ماء حار ، قد اشتد حره ، يشربونه ، ففقطع
أمعاءهم .

[وغسلق] وهو أكره ما يكون من الشراب ، من قيح وصدید ،
مر المذاق ، كرهه الرائحة .

[وآخر من شكله] أى : من نوعه [أزواج] أى : عدة أصناف ،
من أصناف العذاب ، يعذبون بها ، ويخزون بها .

وعند تواردهم على النار ، يشتم بعضهم بعضاً ، ويقول بعضهم

لبعض :

(١) قوله « وانتهى قرها » أى : بردها بلغ النهاية في الشدة .

إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ
لَنَا فَبئسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا
ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ
مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ اتَّخَذْنَا مِنْهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾

[وهذا فوج مقتحم معكم] النار [لاسرحبا بهم إنهم صالو النار] .

[قالوا] أى : الفوج المقبل المقتحم : [بل أنتم لا مرحباً بكم ، أنتم
قدمتموه] أى : العذاب [لنا] بدعوتكم لنا ، وفقتكم ، وإضلالكم ،
وتسبيكم .

[فبئس القرار] قرار الجميع ، قرار السوء والشر .

ثم دعوا على المغوين لهم ، و [قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً
ضعفًا فى النار] .

وقال فى الآيه الأخرى « قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

[وقالوا] وهم فى النار [مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار]
أى : كنا نزعم أنهم من الأشرار ، المستحقين لعذاب النار ، وهم المؤمنون
تفقدهم أهل النار ، قبضهم الله ، هل يرونهم فى النار ؟
[اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار] أى : عدم رؤيتنا لهم ،
دائر بين أسرين .

إما أننا غلطون فى عدنا إياهم من الأشرار ، بل هم من الأخيار ،
وإنما كلامنا لهم ، من باب السخرية والاستهزاء بهم .

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾

وهذا هو الواقع ، كما قال تعالى لأهل النار « إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون » .

والأمر الثانى : أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا فى العذاب ، وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا .

فيحتمل أن هذا الذى فى قلوبهم ، فتسكون العقائد ؛ التى اعتقدوها فى الدنيا ، وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار، تمكنت من قلوبهم، وصارت صبغة لها ، فدخلوا النار ، وهم بهذه الحالة ، فقالوا ما قالوا .

ويحتمل أن كلامهم هذا ، كلام تمويه ، كما موهوا فى الدنيا ، موهوا حتى فى النار .

ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار « أهؤلاء الذين أقسمت لا ينالهم الله برحمته ، ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أتم تحزنون » .

قال تعالى مؤكداً ما أخبره به ، وهو أصدق القائلين .

[إن ذلك] الذى ذكرت لكم [لحق] ما فيه شك ولا مرية

[تخاصم أهل النار] أى : « هو تخاصم ونزاع أهل النار بعضهم مع بعض » .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ﴾ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾

[قل] يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين، إن طلبوا منك، ما ليس
لك، ولا بيدك :

[إنما أنا منذر] هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر، فله تعالى،
ولكني آمركم، وأنهاكم، وأحكم على الخير، وأزجركم عن الشر « فن
اعتدى، فلنفسه ومن ضل، فعليها » .

[وما من إله إلا الله] أي: ما أحد يؤله وبعبد بحق، إلا الله
[الواحد القهار] .

هذا تقرير لألوهيته، بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى،
وقهره لكل شيء .

فإن القهر ملازم للوحدة، فلا يكون اثنان قهاران، متساويين في
قهرهما أبداً .

فالذي يقهر جميع الأشياء، هو الواحد، الذي لا نظير له، وهو الذي
يستحق أن يعبد وحده، كما كان قاهراً وحده، وقرر ذلك بتوحيد
الربوبية فقال :

[رب السموات والأرض وما بينهما] أي: خالقهما، ومربيهما،
ومدبرهما بجميع أنواع التدابير .

[العزیز] الذي له القوة، التي بها خلق المخلوقات العظيمة .
[الفقار] لجميع الذنوب؛ صغيرها؛ وكبيرها، لمن تاب إليه،
وأقاع منها .

قُلْ هُوَ نَبِيُّهُوَ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَتَمَّ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ
عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا
أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا

فهذا الذى يجب ويستحق أن يعبد ، دون من لا يخلق ، ولا يرزق ،
ولا يضر ؛ ولا ينفع ، ولا يملك من الأمر شيئاً ، وليس له قوة الاقتدار ،
ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار .

[قل] لهم ، محذرا ؛ ومخوفا ، ومنهضا لهم ومنذرا : [هو نبأ عظيم]
أى : ما أنباتكم به من البعث ، والنشور ، والجزاء على الأعمال ، خبر عظيم
ينبغى الاهتمام الشديد بشأنه ، ولا ينبغى إغفاله .

ولكن [أتم عنه معرضون] كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ،
ولا ثواب .

فإن شككتكم فى قولى ، وامترىتم فى خبرى ، فإنى أخبركم بأخبار ،
لا علم لى بها ، ولا درستها فى كتاب .

فإخبارى بها على وجهها ، من غير زيادة ولا نقص ، أكبر شاهد
لصدقى ، وأدل دليل على حقية ما جئتكم به ، ولهذا قال :

[ما كان لى من علم بالملأ الأعلى] أى : الملائكة [إذ يختصمون]
لولا تعليم الله إياى ، وإيحاؤه لى ، ولهذا قال :

[إن يوحى لى إلا أنما أنا نذير مبين] أى : ظاهر النذارة ، جليها ،
فلا نذير أبلغ من نذارته صلى الله عليه وسلم .

مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ
سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ
أَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ
أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾

ثم ذكر اختصاص الملائكة الأعلى فقال :

[إذ قال ربك للملائكة] على وجه الإخبار [إني خالق بشرأ من طين]
أى : مادته من طين [فإذا سويته] أى : سويت جسمه ، وممَّ [ونفخت فيه
من روجي فقعو له ساجدين] .

فوطن الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك ، حين يتم خلقه ، ونفخ
الروح فيه ، امتثالاً لربه ، وإكراماً لآدم عليه السلام .
فلما تم خلقه ، فى بدنه وروحه ، وامتنحن الله آدم والملائكة فى العلم ،
وظهر فضله عليهم ، أمرهم الله بالسجود .

[فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس] لم يسجد [استكبر]
عن أمر ربه ، واستكبر على آدم [وكان من الكافرين] فى علم الله تعالى .
[قال] الله موجهاً ومعاتباً : [يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت
بيدى] أى : شرفته ، وكرمته ، واختصصته بهذه الخصيصة ، التى اخصص
بها عن سائر الخلق ، وذلك يقتضى عدم التكبر عليه .

[استكبرت] فى امتناعك [أم كنت من العالين] . « أى من علوت
على العالمين » .

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ
مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾
قَالَ رَبُّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ

[قال] إبليس معارضا لربه بـ ومناقضاً : [أنا خير مه ، خلقتني من نار
وخلقتة من طين] .

وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين ، وهذا من القياس
الفاسد ، فإن عنصر النار ، مادة الشر والفساد ، والعلو والطيش ، والخفة .
وعنصر الطين ، مادة الرزانة ، والتواضع ، وإخراج أنواع الأشجار
والنباتات ، وهو يغلب النار ، ويطغئها .

والنار ، تحتاج إلى مادة تقوم بها ، والطين قائم بنفسه .

فهذا قياس شيخ القوم ، الذي عارض به الأمر الشفاهي من الله ، قد
تبين غاية بطلانه وفساده .

فأبالك بأقيسة التلاميذ ، الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟! فإنها كلها ،
أعظم بطلاناً ، من هذا القياس .

[قال] الله له : [فأخرج منها] أي : من السماء والحل الكريم .

[فإنك رجيم] أي : مبعث مدحور .

[وإن عليك لعنتي] أي : طردى وإبعادى [إلى يوم الدين] دائماً

أبداً .

[قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون] لشدة عداوته لآدم وذريته ،

ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يفويه .

الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَأَلْحَقْ

(قال) الله مجيباً لدعوته ، حيث اقتضت حكمته ذلك : [إنك من
المنظرين ، إلى يوم الوقت للعلوم] حين تستكمل الذرية ، يتم الامتحان .
فلما علم أنه منظر ، بادى ربه ، من خبئه ، بشدة العداوة لربه ولآدم
وذريته ، فقال :

[فبعزتك لأغوينهم أجمعين] . « أى : بعظمتك وجلالك » .

يحتمل أن الباء للقسمة ، وأنه أقسم بعز الله ، ليفوينهم كلهم أجمعين .
[إلا عبادك منهم المخلصين] .

« أى : هم الذين أخلصهم الله لطاعته وعصمهم من الغواية لكالم
إيمانهم ، وبذلهم أقصى ما فى وسعهم فى طاعة ربهم » ^(١) .

علم « إبليس » أن الله سيحفظهم من كيده .

ويحتمل أن الباء للاستعانة ، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه ، وأنه
لا يضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى ، استعان بعزة الله ، على إغواء ذرية آدم ،
هذا ، وهو عدو الله حقا .

ونحن ياربنا العاجزون المقصرون ، القرون لك بكل نعمة ، ذرية من
شرفته وكرمه .

(١) ما بين القوسين من زيادتنا ، لأن المقام يقضى ذلك حتى ، يكون

معنى « المخلصين » واضعاً للقارىء .

وَأَلْحَقَ أَقْوَالَ ﴿٨٤﴾ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ

فنستمع بمرزتك العظيمة ، وقدرتك ، ورحمتك الواسعة لكل مخلوق ،
ورحمتك التي أوصلت إلينا بها ، ما عنا صرفت من النقم ، أن تعيننا على
محاربه وعداوته ، والسلامة من شره ، وشركه .
ونحسن الظن بك أن تجيب دعاءنا ، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا :
« وقال ربكم ادعوني استجب لكم » فقد دعوناك كما أمرتنا ، فاستجب
لنا كما وعدتنا . « إنك لا تخلف الميعاد » .

[قال] الله تعالى [فالحق والحق أقول] أى : الحق وصفى ، والحق
قولى [لأملان جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين] « من ذرية آدم » .
[قل ما أسألكم عليه] أى : علمى دعائى إياكم (من أجر وما أنا
من المتكلفين^(١)) أدعى أمرا ، ليس لى ، وأفقوا ما ليس لى به علم ،

(١) من المتكلفين . أى المتصنعين بما ليسوا من أهله حتى أنتحل
النبوة وأتقول القرآن ٥١ . أبو السعود .

وقال النسفى : « وما أنا من المتكلفين » أى : لست من الذين
يتصنعون ، ويتحللون بما ليسوا من أهله .

وما عرفتمونى قط متصنعاً ولا مدعياً بما ليس عندى حتى أنتحل
النبوة وأتقول القرآن .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال . للمتكلف ثلاث علامات ،
ينازع من فوقه ، ويتعاطى ما لا ينال ، ويقول ما لا يعلم ٥١ . بتصرف يسير .

أَلَمْ تَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَلْعَلُنَّ رَبَّاهُ
بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

لا أتبع إلا ما يوحى إلى .

[إن هو] أى: ما هذا الوحي والقرآن [إلا ذكر للعالمين] يتذكرون به كل ما ينفعهم ، من مصالح دينهم ودنياهم ، فيكون شرفا ورفعة . للعالمين به ، وإقامة حجة على المعاندين .

فهذه السورة العظيمة ، مشتملة على الذكر الحكيم ، والنبأ العظيم ، وإقامة الحجج والبراهين ، على من كذب بالقرآن وعارضه ، وكذب من جاء به ، والإخبار عن عباد الله المحلصين ، وجزاء المتقين والطاغين .
فلهذا أقسم فى أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه فى آخرها ، بأنه ذكر للعالمين .

وأكثر التذكير بها ، فيما بين ذلك كقوله [واذكر عبدنا - واذكر عبدنا - رحمة من عندنا وذكري - هذا ذكر] .

اللهم علما منه ما جهلنا ، وذكرنا منه ما نسينا ، نسيان غفلة ، ونسيان ترك .

[وتلعنن نباه] أى: أخبره [بعد حين] وذلك حين يقع عليهم العذاب وتنتقطع عنهم الأسباب .

تم تفسير سورة ص - بمنه تعالى وعونه

تفسير

سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١)

* يخبر تعالى عن عظمة القرآن ، وجلالة من تكلم به ، ونزل منه .

وأنه نزل من الله العزيز الحكيم . أى الذى وصفه الألوهية للخلق ، وذلك لعظمته وكاله والعزة التى قهر بها كل مخلوق ، وذل له كل شئ ، والحكمة فى خلقه وأمره .

فالقرآن نازل بمن هذا وصفه ، والكلام ، وصف للمتكلم ، والوصف يتبع الموصوف .

فكما أن الله تعالى هو الكامل من كل وجه ، الذى لا مثيل له ، فكذلك كلامه ، كامل من كل وجه ، لا مثيل له ، فهذا وحده ، كاف فى وصف القرآن ، دال على مرتبته .

ولكنه — مع هذا — زاد بيانا ، لكاله ، بمن نزل عليه ، وهو

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ
الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ

محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى هو أشرف الخلق فلم أنه أشرف الكتب ،
وبما نزل به ، وهو الحق .

فنزّل بالحق ، الذى لامرية فيه ، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور .
ونزل مشتملا على الحق فى أخباره الصادقة ، وأحكامه العادلة .

فكل ما دل عليه ، فهو أعظم أنواع الحق ، من جميع المطالب العملية ،
وما بعد الحق إلا الضلال .

ولما كان نازلا من الحق ، مشتملا على الحق لهداية الخلق ، على أشرف
الخلق ، عظمت فيه النعمة ، وجلّت ، ووجب القيام بشكرها ، وذلك بإخلاص
الدين لله ، فهذا قال :

[فاعبد الله مخلصا له الدين] أى : أخلص لله تعالى جميع دينك ، من
الشرائع الظاهرة ، والشرائع الباطنة : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان —
بأن تفرد الله وحده بها ، وتقصد به وجهه ، لا غير ذلك من المقاصد .

[ألا لله الدين الخالص] هذا تقرير للأمر بالإخلاص ، وبيان أنه
تعالى كما أنه له الكمال كله ، وله الفضل على عباده من جميع الوجوه ،
فكذلك له الدين الخالص ، الصافى من جميع الشوائب .

فهو الدين الذى ارتضاه لنفسه ، وارتضاه لصفوة خلقه ، وأمرهم به ،
لأنه متضمن للتأله لله فى حبه ، وخوفه ، ورجائه ، والإنابة إليه ، فى تحصيل
مطالب عباده .

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ

وذلك الذى يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها ، دون الشرك به فى شيء من العبادة .

فإن الله برىء منه ، وليس لله فيه شيء ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك . وهو مفسد للقلوب والأرواح ، والدنيا والآخرة مُشْتَقٍ ، للنفوس غاية الشقاء .

فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص ، نهى عن الشرك به ، وأخبر بدم من أشرك به فقال :

[والذين اتخذوا من دونه أولياء] أى : يتولونهم بعبادتهم ودعائهم ، معتذرين عن أنفسهم وقائلين :

[ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى] أى : لترفع حوائجنا لله ، وتشفع لنا عنده .

وإلا ، فنحن نعلم أنها ، لا تخلق ، ولا ترزق ، ولا تملك من الأمر شيئاً .

أى : فهؤلاء ، قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص ، وتجروا على أعظم المحرمات ، وهو الشرك ، وقاسوا الذى ليس كمثلته شيء ، الملك العظيم ، بالملوك .

وزعوا — بقتولهم الفاسدة ، ورأيهم السقيم ، أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء ، وشفعاء ، ووزراء يرفعون إليهم حوائج

رعائهم ، ويستعطفونهم عليهم ، ويمهدون لهم الأمر في ذلك - أن الله تعالى كذلك .

وهذا القياس من أفسد الأقيسة ، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق ، مع ثبوت الفرق العظيم ، عقلاً ، ونقلًا ، وفطرة .
فإن الملوك ، إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعائهم ، لأنهم لا يعلمون أحوالهم .

فيحتاجون إلى من يعلمهم بأحوالهم ، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة .

فيحتاج من يعطفهم عليه ويسترحمهم لهم ، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء ، ويخافون منهم ، فيقتضون حوائج من توسطوا لهم ، مراعاة لهم ، ومداراة لخواطرم .

وهم أيضاً فقراء ، قد يمنون ، لما يخشون من الفقر .
وأما الرب تعالى ، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها ، الذي لا يحتاج إلى من يخبره بأحوال رعيته وعباده .

وهو تعالى ، أرحم الراحمين ، وأجود الأجودين ، لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، يجعله راحماً لعباده ، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم وهو الذي يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب ، التي ينالون بها رحمته .
وهو يريد من مصالحهم ، ما لا يريدونه لأنفسهم .

وهو الغنى ، الذي له الغنى التام المطلق ، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد ، فسألوه ، فأعطى كلا منهم ما سأل وتمنى ،

فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ

كَفَّارٌ ﴿٣﴾

لم ينقصوا من غناه شيئاً ، ولم ينقصوا مما عنده ، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه الخيط^(١) .

وجميع الشفعاء يخافونه ، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه ، وله الشفاعة كلها .
فهذه الفروق ، يعلم جهل المشركين به ، وسفههم العظيم ، وشدة جراتهم عليه .

ويعلم أيضاً ، الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالى ، لأنه يتضمن القدح في الله تعالى .

ولهذا قال — حا كما بين الفريقين ، المخلصين والمشركين ، وفي ضمنه التهديد للمشركين — : [إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون] .

وقد علم أن حكمة أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم ، أن من يشرك بالله ، فقد حرم الله عليه الجنة ، وماواه النار .

[إن الله لا يهدي] أي : لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم .
[من هو كاذب كفار] أي : وصفه الكذب أو الكفر ، بحيث تأتيه المواعظ والآيات ، ولا يزول عنه ، ما اتصف به ، ويريه الله الآيات ، فيجحدتها ، ويكفر بها ، ويكذب .

فهذا أتى له الهدى ، وقد سد على نفسه الباب ، وعوقب بأن طبع الله على قلبه ، فهو لا يؤمن !!؟ .

(١) الخيط . أي . الإبرة .

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٤)

❦ أى : [لو أراد الله أن يتخذ ولدا] كما زعم ذلك من زعمه ، من سفهاء الخلق .

[لا صطفى مما يخلق ما يشاء] أى : لا صطفى من مخلوقاته ، الذى يشاء اصطفاؤه ، واختصه لنفسه ، وجعله بمنزلة الولد ، ولم يكن له حاجة إلى اتخاذ الصاحبة .

[سبحانه] أى : تنزههما ظن به الكافرون ، أو نسبه إليه الملحدون .
[هو الله الواحد القهار] أى : الواحد فى ذاته ، وفى أسمائه ، وفى صفاته ، وفى أفعاله .

فلا شبهه له فى شيء من ذلك ، ولا مماثل .

فلو كان له ولد ، لاقتضى أن يكون شبيها له ، فى وحدته ، لأنه بعضه ، وجزء منه .

القهار لجميع العالم ، العلوى والسفلى .

فلو كان له ولد ، لم يكن مقهورا ، وكان له إيدلال على أبيه ، وهو مناسبة منه .

ووحدته تعالى ، وقهره متلازمان .

فالواحد لا يكون إلا قهرا ، والقهار لا يكون إلا واحدا ، وذلك ينفى الشركة له من كل وجه .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

* يخبر تعالى أنه [خلق السموات والأرض بالحق] أى . بالحكمة والمصلحة .

وليامر العباد وبنهاهم ، وبثيهم وبعاقبهم .

[يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل] أى : يدخل كلامهما

على الآخر ، ويحل محله فلا يجتمع هذا وهذا ، بل إذا أتى أحدهما ، انزل الآخر عن سلطانه .

[وسخر الشمس والقمر] بتسخير منظم ، وسير مقنن .

[كل] من الشمس والقمر [يجرى] معاً ثراً عن تسخيره تعالى [لأجل

مسمى] وهو انقضاء هذه الدار وخرابها ، فيخرب الله آلاتها ، وشمسها ، وقمرها ، وينشئ انطلق نشأة جديدة ، ليستقروا فى دار القرار ، الجنة ، أو النار .

[ألا هو العزيز] الذى لا يغالب ، القاهر لكل شىء ، الذى لا يستعصى

عليه شىء .

الذى من عزته ، أوجد هذه المخلوقات العظيمة ، وسخرها تجرى بأمره .

[الغفار] لذنوب عباده التوايين المؤمنين ، كما قال تعالى « وإني لغفار

لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » .

الغفار لمن أشرك به ، بعد ما رأى من آياته العظيمة ، ثم تاب وأتاب .

وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً
أَزْوَاجًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ
ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآنِي

ومن عزته أن [خلقكم من نفس واحدة] على كثرتكم وانتشاركم ،
في أنحاء الأرض .

[ثم جعل منها زوجها] وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه ، وتم
بذلك النعمة .

[وأُنزل لكم من الأنعام] أي : خلقها بقدر نازل منه ، رحمة بكم .
[ثمانية أزواج] وهي التي ذكرها في سورة الأنعام « ثمانية أزواج
من الضأن اثنين ومن المعز اثنين » « ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين » .
وخصها بالذكر ، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم ، غيرها ،
لكثرة نفعها ، وعموم مصالحها ، ولشرفها ، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح
لها غيرها ، كالأضحية والهدى ، والعقيقة ، ووجوب الزكاة فيها ،
واختصاصها بالدية .

ولما ذكر خلق أيينا وأمنا ، ذكر ابتداء خلقنا فقال :

[يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق] أي : طورا بعد
طور ، وأنتم في حال لا يد مخلوق تمسكم ، ولا عين تنظر إليكم .
وهو قدر بياكم في ذلك المكان الضيق [في ظلمات ثلاث] ظلمة البطن ،
ثم ظلمة الرحم ، ثم ظلمة للشيمة .

[ذلكم] الذي خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ،

تُضْرَفُونَ ﴿٦١﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ
الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ

وخلقكم ، وخلق لكم الأنعام والنعم [الله ربكم] أى : المألوه المعبود ،
الذى رباكم ، ودبركم .

فكما أنه الواحد فى خلقه وتربيته لا شريك له فى ذلك ، فهو الواحد
فى ألوهيته ، لا شريك له .

ولهذا قال : [له الملك لا إله إلا هو ، فأنى تصرفون] . بعد هذا البيان
أتبعه ببيان استحقاقه تعالى لإخلاص العبادة له دون عبادة الأوثان ، التى
لا تدبر شيئا ، وليس لها من الأمر شيء ، فقال :

* [إن تكفروا فإن الله غنى عنكم] لا يضره كفركم ، كما لا ينتفع
بطاعتكم .

ولكن أمره ونهيه لكم ، محض فضله وإحسانه عليكم .

[ولا يرضى لعباده الكفر] لكمال إحسانه بهم ، وعلمه أن الكفر
يشقيهم شقاوة ، لا يسعدون بعدها .

ولأنه خلقهم لعبادته ، فهى الغاية التى خلق لها الخلق ، فلا يرضى أن
يدعوا ما خلقهم لأجله .

[وإن تشكروا] لله تعالى بتوحيده ، وإخلاص الدين له [يرضه
لكم] لرحمته بكم ، ومحبته للإحسان عليكم ، ولفعلكم ما خلقكم لأجله .

وكما أنه لا يتضرر بشركم ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم ، كذلك
كل أحد منكم له عمله ، من خير وشر « ولا تزر وازرة وزر أخرى »

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا
خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا

[ثم إلى ربكم مرجعكم] في يوم القيامة [فينبئكم بما كنتم تعملون] .

إخباراً أحاط به علمه ، وجري عليه قلبه ، وكتبته عليكم الحفظة
الكرام ، وشهدت به عليكم الجوارح ، فيجازى كلا منكم بما يستحقه .

[إنه عليم بذات الصدور] أى : بنفس الصدور ، وما فيها من وصف
بِرٍّ أو فجور .

والمقصود من هذا ، الإخبار بالجزاء ، بالعدل التام .

* يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره ، وقلة شكر عبده ، وأنه
حين يمس الضر ، من مرض ، أو فقر ، أو وقوع في كربة بحرٍ أو غيره ،
أنه يعلم أنه لا ينجيه في هذه الحال ، إلا الله .

فيدعوه متضرعاً منيباً^(١) ، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلج
في ذلك .

(١) منيباً . أى : راجعاً إلى الله بالدعاء ولا يدعو غيره اهـ . نسى .

وقال أبو السعود : راجعاً إليه مما كان يدعو في حالة الرخاء ، لعلمه
بأنه بمعزل من القدرة على كشف ضره : اهـ

لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ
النَّارِ ﴿٨﴾

[ثم إذا خوله ^(١)] الله [نعمة منه] بأن كشف ما به من الضر
والسكرة .

[نسي ما كان يدعو إليه من قبل] أى : نسي ذلك الضر ، الذى دعا
الله لأجله ، وصر ، كأنه ما أصابه ضر ، واستمر على شركه .

[وجعل الله أنداداً ليضل عن سبيله] .

أى : ليضل بنفسه ، ويضل غيره ، لأن الإضلال ، فرع عن الضلال ،
فأتى بالزوم ، ليدل على اللازم .

[قل] لهذا العاتى ، الذى بدل نعمة الله كفراً : [تمتع بكفرِكَ قليلاً ،
إنك من أصحاب النار] فلا يغنيك ، ما تمتع به إذا كان المسأل النار .

« أفرأيت إن متعنهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى
عنهم ما كانوا يمتعون » .

(١) خوله . أى : أعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى ، من التخول
وهو التمهيد .

أى : جعله خائل مال ، من قولهم « فلان خائل مال » إذا كان متعهداً
له ، حسن القيام به .

أو من « الخول » وهو الافتخار . أى : جعله يخول ، أى : يختال
ويفتخر . اه أبو السعود .

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنْتُ﴾ إِنَاءٌ أَلَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ
الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴿٩﴾

* هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره ، وبين العالم والجاهل ، وأن
هذا من الأمور ، التي تقرر في العقول ، تباينها ، وعلم علما يقينا تفاوتها .

فليس المعرض عن طاعة ربه ، المتبع لهواه ، كمن هو قانت أى : مطيع
لله ، بأفضل العبادات ، وهى الصلاة ، وأفضل الأوقات ، وهى أوقات الليل
فوصفه بكثرة العمل وأفضله ، ثم وصفه بالخوف والرجاء .

وذكر أن متعلق الخوف ، عذاب الآخرة ، على ما سلف من الذنوب
وأن متعلق الرجاء ، رحمة الله ، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن .

[قل هل يستوى الذين يعلمون] ربهم ويعلمون دينه الشرعى ، ودينه
الجزائى ، وما له فى ذلك من الأسرار والحكم [والذين لا يعلمون] شيئا
من ذلك ؟

لا يستوى هؤلاء ، ولا هؤلاء ، كما لا يستوى الليل والنهار ، والضياء
والظلام ، والماء والنار .

[إنما يتذكر] إذا ذكروا [أولو الأبواب] أى : أهل العقول
الزكية الذكية .

فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى ، فيؤثرون العلم على الجهل ،
وطاعة الله على مخالفته ، لأن لهم عقولا ، ترشدهم للنظر فى العواقب .

بخلاف من لا لب له ولا عقل ، فإنه يتخذ إلهه هواه .

﴿قُلْ يٰٓعِبَادِ اللّٰهِ اٰمِنُوْا اَتَّقُوْا رَبَّكُمْ لِّلَّذِيْنَ اٰحْسَنُوْا
فِيْ هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَّاَرْضُ اللّٰهِ وٰسِعَةٌ اِنَّمَا يُوَفّٰى الصّٰبِرُوْنَ اَجْرَهُمْ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

* أى : قل مناديا لأشرف الخلق ، وهم المؤمنون ، آمراً لهم بأفضل الأوامر ، وهى : التقوى ذا كراً لهم السبب الموجب للتقوى ، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم المقتضى ذلك منهم أن يتقوه ، ومن ذلك ما من الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى .

كما تقول : أيها الكريم تصدق ، وأيها الشجاع ، قاتل .
وذكر لهم الثواب المنشط فى الدنيا فقال : [للذين أحسنوا فى هذه الدنيا] بعبادة ربهم [حسنة] ولهم رزق واسع ، ونفس مطمئنة ، وقلب منشرح .

كما قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة » .

[وأرض الله واسعة] إذا منعم من عبادته فى أرض ، فهاجروا إلى غيرها ، تعبدون فيها ربكم ، وتتمكنون من إقامة دينكم .

ولما قال [للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة] كان لبعض النفوس مجال فى هذا الموضع وهو أن النص عام ، أنه كل من أحسن ، فله فى الدنيا حسنة ، فما بال من آمن فى أرض يضطهد فيها ويمتهن ، لا يحصل له ذلك ؟

دفع هذا الظن بقوله : [وأرض الله واسعة] وهنا بشارة ، نص عليها النبى صلى الله عليه وسلم ، بقوله « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » .

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (١١)
وَأُمِرْتُ لِأَنَّا كُونُ أَوَّلِ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ

تشير إليه هذه الآية ، وترى إليه من قريب ، وهو أنه تعالى ، أخبر
أن أرضه واسعة .

فهما منعم من عبادته في موضع ، فهاجروا إلى غيرها .
وهذا عام في كل زمان ومكان ، فلا بد أن يكون لكل مهاجر ،
ملجأ من المسلمين يلجأ إليه ، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه .
[إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب] وهذا عام في جميع
أنواع الصبر :

الصبر على أقدار الله المؤلمة ، فلا يتسخطها .
والصبر عن معاصيه ، فلا يرتكبها ، والصبر على طاعته ، حتى يؤديها .
فوعده الله الصابرين أجرهم بغير حساب ، أي : بغير حد ، ولا عد ،
ولا مقدار .

وما ذلك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله ، وأنه معين على كل الأمور .

* أي [قل] يا أيها الرسول للناس :

إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين في قوله في أول السورة « فاعبد
الله مخلصاً له الدين » .

[وأمرت لأن أكون أول المسلمين] لأني الداعي الهادي للخلق ، إلى
ربهم ، فيقتضى أني أول من انتمر بما أمر به ، وأول من أسلم ، وهذا الأمر
لا بد من إيقاعه من محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن زعم أنه من أتباعه .

رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾
فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِّنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ
وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ
مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ

فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة ، والإخلاص لله في الأعمال
الظاهرة والباطنة .

[قل إني أخاف إن عصيت ربي] فيما أصرني به من الإخلاص والإسلام .

[عذاب يوم عظيم] يخلد فيه من أشرك ، ويعاقب فيه من عصى .

[قل الله أعبد مخلصا له ديني * فاعبدوا ما شئتم من دونه] كما قال
تعالى « قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون
ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم
ولي دين] .

[قل إن الخاسرين] حقيقة هم [الذين خسروا أنفسهم] حيث
حرموها الثواب ، واستحققت بسببهم ، وخيم العقاب [وأهلهم يوم القيامة]
أى : فرق بينهم وبينهم ، واشتد عليهم الحزن ، وعظم الخسران .

[ألا ذلك هو الخسران المبين] الذى ليس مثله خسران ، وهو خسران
مستمر ، لا يرجع بعده ، بل ولا سلامة .

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال :

[لهم من فوقهم ظلل من النار] أى : قطع عذاب كالسحاب العظيم

عِبَادَةٌ يَعْبَادُ فَاتَّقُونَ ﴿١٦﴾

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا

[ومن تحتهم ظلل] .

[ذلك] الوصف الذى وصفنا به عذاب أهل النار ، سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته .

[يخوف الله به عباده ، يا عباد فاتقون] أى : جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب ، داعيا يدعو عباده إلى التقوى ، وزجرا عما يوجب العذاب . فسبحان من رحم عباده فى كل شيء ، وسهل لهم الطرق الموصلة لله ، وحثهم على سلوكها ، ورغبهم بكل مرغب تشاق له النفوس ، وتطمئن له القلوب .

وحذرهم من العمل لغير ذلك غاية التحذير ، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه .

* ذكر تعالى هنا حال النبيين وثوابهم فقال [والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها] .

والمراد بالطاغوت فى هذا الموضع ، عبادة غير الله ، فاجتنبوها فى عبادتها . وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم ، لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها فى عبادتها .

[وأنا بوا إلى الله] بعبادته وإخلاص الدين له ، فانصرفت دواعيهم عن عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام ، ومن الشرك والمعاصى ، إلى التوحيد والطاعات .

إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ

[لهم البشرى] التى لا يقادر قدرها ، ولا يعلم وصفها ، إلا من أكرمهم بها .

وهذا شامل للبشرى فى الحياة الدنيا بالثناء الحسن ، والرؤيا الصالحة ، والعناية الربانية من الله ، التى يرون فى خلاها ، أنه سر يد لإكرامهم فى الدنيا والآخرة .

ولهم البشرى فى الآخرة عند الموت ، وفى القبر ، وفى القيامة .

وخاتمة البشرى ، ما يبشرهم به الرب الكريم ، من دوام رضوانه ، وبره ، وإحسانه ، وحلول أمانه فى الجنة .

ولما أخبر أن لهم البشرى ، أمره الله ببشارتهم ، وذكر الوصف الذى استحقوا به البشارة فقال : [فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه] .

وهذا جنس ، يشمل كل قول ، فهم يستمعون جنس القول ، ليميزوا بين ما ينبغى إثارة ، مما ينبغى اجتنابه ، فلهذا كان من حزمهم وعقلهم ، أنهم يتبعون أحسنه .

وأحسنه على الإطلاق ، كلام الله ، وكلام رسوله كما قال فى هذه السورة : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها » الآية .

وفى هذه الآية ، نكتة ، وهى : أنه لما أخبر عن هؤلاء المدوحين ، أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، كأنه قيل : هل من طريق إلى معرفة أحسنه ، حتى تتصف بصفات أولى الألباب ، وحتى نعرف أن من أثره فهو من أولى الألباب ؟

فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا
الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾

أَقَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذَ مَنْ

قيل : نعم ، أحسنه ما نص الله عليه بقوله « الله نزل أحسن الحديث
كتاباً متشابهاً » الآية .

[أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هدام
الله] لأحسن الأخلاق والأعمال [وأولئك هم أولو الألباب] أى العقول
الزاكية .

ومن لبهم وحزمهم ، أنهم عرفوا الحسن وغيره ، وآثروا ما ينبغي
إيثاره ، على ما سواه .

وهذا علامة العقل ، بل لا علامة للعقل ، سوى ذلك ، فإن الذى
لا يميز بين الأقوال ، حسنها ، وقبيحها ، ليس من أهل العقول الصحيحة ،
أو الذى يميز .

لكن لما غلبت شهوته على عقله ، فبقى عقله تابعاً لشهوته ، فلم يؤثر
الأحسن ، كان ناقص العقل .

• أى : أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه ، وعناده ،
وكفره ، فإنه لا حيلة لك فى هدايته ، ولا تقدر أن تنقذ من فى النار
لا محالة .

لكن الغنى ، والفوز كل الفوز ، للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة
وأنواع النعيم ، ما لا يقادر قدره .

فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا
غُرَفٌ مَّيْنَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ
الْمِيْعَادَ ﴿٢٠﴾

[لهم غرف] أى : منازل عالية مزخرفة ، من حسنها ، وبهائها ،
وصفاؤها ، أنه يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها .

ومن علوها وارتفاعها ، أنها ترى كما يرى الكوكب الغابر ، فى الأفق
الشرقى أو الغربى .

ولهذا قال : [من فوقها غرف] أى : بعضها فوق بعض [مبنية]
بذهب وفضة ، وملاطها المسك الأذفر .

[تجرى من تحتها الأنهار] المتدفقة ، التى تسقى البساتين الزاهرة ،
والأشجار الطاهرة .

فتغل أنواع الثمار اللذيذة ، والفاكهة النضيجة .

[وعد الله لا يخلف الله الميعاد] وقد وعد المتقين هذا الثواب ، فلا بد
من الوفاء به ، فليوفوا بمخضال التقوى ، ليوفيهم أجورهم .

﴿٢١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ
يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ
فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾

* يذكر تعالى أولى الألباب ، ما أنزله من السماء من الماء ، وأنه سلكه
ينابيع في الأرض ، أى : أودعه فيها ينبوعا ، يستخرج بسهولة ويسر .
[ثم يخرج به زراعا مختلفا ألوانه] من بر^(١) وذرة ، وشعير ، وأرز ،
وغير ذلك .

[ثم يهيج] عند استهلاكه ، أو عند حدوث آفة فيه [فتراه مصفرا
ثم يجعله حطاما] متكسرا [إن في ذلك لذكرا لأولى الألباب] يذكر
بها عناية ربهم ، ورحمته بعباده ، حيث يسر لهم هذا الماء ، وخرزته بخزائن
الأرض ، تبعا لمصالحهم .

ويذكرون به كمال قدرته ، وأنه يحيي الموتى ، كما أحيا الأرض
بعد موتها .

ويذكرون به أن الفاعل لذلك ، هو المستحق للعبادة .

اللهم اجعلنا من أولى الألباب ، الذين نوهت بذكركم ، وهديتهم
بما أعطيتهم من العقول ، وأريتهم من أسرار كتابك ، وبديع آياتك ،
ما لم يصل إليه غيرهم ، إنك أنت الوهاب .

﴿٢٢﴾ أَقَمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ
مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُهُ

* أى : أفيستوى من شرح الله صدره للإسلام ، فاتسع لتلقى أحكام الله ،
والعمل بها ، منشرحا ، قرير العين ، على بصيرة من أمره ، وهو المراد بقوله
[فهو على نور من ربه] .

كمن ليس كذلك ، بدليل قوله [فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله] .
أى : لا تلين لكتابه ، ولا تتذكر آياته ، ولا تطمئن بذكره ، بل
هى معرضة عن ربه ، ملتفتة إلى غيره ، فهؤلاء لهم الويل الشديد ،
والشر الكبير .

[أولئك فى ضلال مبين] وأى ضلال أعظم من ضلال من أعرض
عن وليه ؟ ومن كل السعادة فى الإقبال عليه ، وقسا قلبه عن ذكره ، وأقبل
على كل ما يضره !!؟

* يخبر تعالى عن كتابه الذى نزل أنه [أحسن الحديث] على الإطلاق .
فأحسن الحديث ، كلام الله ، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله ،
هذا القرآن .

وإذا كان هو الأحسن ، علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ ، وأوضحها ،
وأن معانيه ، أجل المعانى ، لأنه أحسن الحديث ، فى لفظه ومعناه ، متشابهها

في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف ، بوجه من الوجوه .
حتى إنه كلما تدبره للتدبر ، وتفكر فيه المتفكر ، رأى من اتفاهه ،
حتى في معانيه الغامضة ، ما يبهر الناظرين ، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من
حكيم عليم ، هذا هو المراد بالتشابه في هذا الموضوع .
وأما في قوله تعالى « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات
هن أم الكتاب وآخر متشابهات » .

فالمراد بها ، التي تشبهه على فهوم كثير من الناس ، ولا يزول هذا
الاشتباه ، إلا بردها إلى المحكم ، ولهذا قال : « منه آيات محكمات هن
أم الكتاب وآخر متشابهات » فجعل التشابه لبعضه .

وهنا جعله كله متشابهاً ، أي : في حسنه ، لأنه قال : [أحسن الحديث]
وهو سور وآيات ، والجميع يشبه بعضه بعضاً ، كما ذكرنا .

[مثاني] أي : تتنى فيه القصص والأحكام ، والوعد والوعيد ، وصفات
أهل الخير ، وصفات أهل الشر ، وتتنى فيه أسماء الله وصفاته .

وهذا من جلالته ، وحسنه ، فإنه تعالى ، لما علم احتياج الخلق إلى
معانيه المزيكية للقلوب ، المكتمة للأخلاق ، وأن تلك^(١) المعاني للقلوب ،
بمنزلة الماء لسقى الأشجار .

(١) قوله « وأن تلك المعاني الخ » المقام يقتضى أن يقال « جعل
تلك المعاني للقلوب بمنزلة الماء لسقى الأشجار » حتى يتسق الكلام ويفهم
جواب « لما » في قوله « لما علم احتياج الخلق الخ » .

مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ

فكما أن الأشجار كلما بعد عهدا بسقى الماء ، نقصت ، بل ربما تلفت ،
وكلما تكرر سقيها ، حسنت ، وأثمرت أنواع الثمار النافعة .

فكذلك القلب يحتاج دائما إلى تكرر معانى كلام الله تعالى عليه ،
وأنه لو تكرر عليه المعنى مدة واحدة في جميع القرآن ، لم يقع منه موقعا ،
ولم تحصل النتيجة منه .

ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم ، اقتداء بما هو
تفسير له .

فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع .

يل كل موضع تجد تفسيره ، كامل المعنى ، غير صراع لما مضى ،
عما يشبهه .

وإن كان بعض المواضع ، يكون أبسط من بعض ، وأكثر فائدة .

وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن ، التدبر لمعانيه ، أن لا يدع التدبر في
جميع المواضع منه .

فإنه يحصل له بسبب ذلك ، خير كثير ، ونفع غزير .

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة ، أثر في قلوب أولى الألباب
المهتدين فلماذا قال تعالى : [تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم] لما فيه
من التخويف والترهيب المزعج .

[ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله] أى : عند ذكر الرجاء

والترغيب .

ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

- فهو تارة يرغبهم لعمل الخير ، وتارة يرهبهم من عمل الشر .
- [ذلك] الذى ذكره الله من تأثير القرآن فيهم .
- [هدى الله] أى : هداية منه لعباده ، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم
- [يهدى به] أى : بسبب ذلك [من يشاء من عباده] .
- ويحتمل أن المراد بقوله [ذلك] أى : القرآن الذى وصفناه لكم .
- [هدى الله] الذى لا طريق يوصل إلى الله إلا منه [يهدى به من يشاء من عباده] بمن حسن قصده ، كما قال تعالى « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام » .
- [ومن يضل الله فما له من هادٍ] لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق بالإقبال على كتابه .
- فإذا لم يحصل هذا ، فلا سبيل إلى الهدى ، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء المهين .

﴿٢٦﴾ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاتَهُمُ اللَّهُ أَنْزَلَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

* أى : هل يستوى هذا الذى هداه الله ، ووقفه لسلك الطريق الموصلة لدار كرامته .

ومن كان فى الضلال ، واستمر على عناده ، حتى قدم القيامة ، فجاءه العذاب العظيم .

فجعل يتقى بوجهه الذى هو أشرف الأعضاء ، وأذى شئ من العذاب يؤثر فيه .

فهو يتقى فيه ، سوء العذاب لأنه قد غلت يده ورجلاه .

[وقيل للظالمين] أنفسهم ، بالكفر والمعاصى ، توبيخا وتقريعا : [ذوقوا ما كنتم تكسبون] .

[كذب الذين من قبلهم] من الأمم كما كذب هؤلاء .

[فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون] جاءهم فى غفلة ، أو نهار ، أو هم قائلون .

[فأذاتهم الله] بذلك العذاب [انزلى فى الحياة الدنيا] فافتضحوا عند الله ، وعند خلقه .

[ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون] فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب ، فيصيبهم ما أصاب أولئك ، من التعذيب .

﴿٢٧﴾ وَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ

* يخبر تعالى ، أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال ، أمثال أهل الخير ، وأمثال أهل الشر ، وأمثال التوحيد والشرك ، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء والحكمة في ذلك [لعلهم يتذكرون] عندما نوضح لهم الحق فيعملون ، ويعلمون .

[قرآنا عربيا غير ذي عوج] أى : جعلناه قرآنا عربيا ، واضح الألفاظ ، سهل المعاني ، خصوصا على العرب .

[غير ذي عوج] أى ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه ، لافي ألفاظه ، ولا في معانيه ، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيا » . [لعلهم يتقون] الله تعالى ، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى ، العلمية والعملية ، بهذا القرآن العربى المستقيم ، الذى ضرب الله فيه من كل مثل . ثم ضرب مثلا للشرك والتوحيد فقال :

[ضرب الله مثلا رجلا] أى : عبدا [فيه شركاء متشاكسون] فهم كثيرون ، وليسوا متفقين على أمر من الأمور ، وحالة من الحالات ، حتى تمكن راحته ، بل هم متشاكسون متنازعون فيه ، كل له مطلب ، يريد تنفيذه ، ويريد الآخر غيره .

فما تظن حال هذا الرجل ، مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين ؟

وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

[ورجلا سلا لرجل] أى : خالصا له ، قد عرف مقصود سيده ، وحصلت
له الراحة التامة .

[هل يستويان] أى : هذان الرجلان [مثلا] ؟ لا يستويان .

كذلك المشرك ، فيه شركاء متشاكسون ، يدعو هذا ، ثم
يدعو هذا .

فتراه لا يستقر له قرار ، ولا يطمئن قلبه فى موضع .

والموحد مخلص لربه ، قد خلصه الله من الشركة لغيره ، فهو فى أتم راحة ،
وأكل طمأنينة .

[هل يستويان مثلا ، الحمد لله] على تبين الحق من الباطل ،
وإرشاد الجهال .

[بل أكثرهم لا يعلمون] « ما يصيرون إليه من العذاب من جراء شركهم »

[إنك ميت وإنهم ميتون] أى : كلكم لا بد أن يموت « وما جعلنا

لبشر من قبلك الخلد ، أفان مت فهم الخالدون » .

[ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون] فيما تنازعتم فيه ، فيفصل

بينكم بحكمه العادل ، ويجازى كلاً ما عمله « أحصاه الله ونسوه » .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ
إِذْ جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ
بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوَّالَيْكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ

* يقول تعالى ، محذراً ، ونحيراً : إنه لا أظلم وأشد ظملاً [من كذب على الله] إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله ، أو بادعاء النبوة ، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا ، أو أخبر بكذا ، وهو كاذب .
فهذا داخل في قوله تعالى « وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » إن كان جاهلاً ، وإلا فهو أشنع وأشنع .

[وكذب بالصدق لما جاءه] أى : ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات ، فكذبه .

فتكذيبه ، ظلم عظيم منه ، لأنه رد الحق بعد ما تبين له .

فإن كان جامعاً بين الكذب على الله ، والتكذيب بالصدق ، كان ظملاً على ظلم .

[أليس في جهنم مثوى للكافرين] يحصل بها الاشتفاء منهم ، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر :

« إن الشرك لظلم عظيم » .

ولما ذكر الكاذب المكذب ، وجنائته وعقوبته ، ذكر الصادق المصدق ، وثوابه .

فقال : [والذي جاء بالصدق] في قوله وعمله ، فدخل في ذلك ، الأنبياء

عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ

ومن مقامهم ، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه ، وفيما فعله من خصال الصدق .

[وصدق به] أي : بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق ، ولكن لا يصدق به ، بسبب استكباره ، أو احتقاره لمن قاله ، وأتى به ، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق .

فصدقه ، يدل على علمه . وعدله وتصديقه ، يدل على تواضعه ، وعدم استكباره .

[أولئك] أي : الذين وقفوا للجمع بين الأمرين [هم المتقون] ، فإن جميع خصال التقوى ، ترجع إلى الصدق بالحق ، والتصديق به .
[لهم ما يشاؤون عند ربهم] من الثواب ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فكل ما تعلق به إرادتهم ومشيتهم ، من أصناف اللذات والمشتيات ، فإنه حاصل لهم ، معد مهياً .

[ذلك جزاء المحسنين] الذين يعبدون الله ، كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه ، فإنه يراهم [المحسنين] إلى عباد الله .

[ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويمجزهم بأحسن الذي كانوا يعملون] .

وعمل الإنسان ، له ثلاث حالات :

إما أسوأ ، أو أحسن ، أو أسوأ ، ولا أحسن .

أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ

والقسم الأخير ، قسم المباحات ، ومالا يتعلق به ثواب ولا عقاب .
والأسوأ ، المعاصي كلها ، والأحسن ، الطاعات كلها .

فبهذا التفصيل ، يتبين معنى الآية ، وأن قوله : [ليكفر الله عنهم أسوأ
الذي عملوا] .

أى : ذنوبهم الصغار ، بسبب إحسانهم وتقواهم ، .

[ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون] أى : بحسناتهم
وتقواهم .

[ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون] أى : بحسناتهم كلها .
« إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من
لده أجرًا عظيمًا » .

* [أليس الله بكاف عبده] أى : أليس من كرمه وجوده ، وعنايته

بعبده ، الذى قام بعبوديته ، وامتلأ أمره ، واجتنب ما نهى عنه ،
خصوصا ، أكمل الخلق عبودية لربه ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن
الله تعالى ، سيكفيه فى أمر دينه ودنياه ، ويدفع عنه من ناوأه بسوء .

[ويخوفونك بالذين من دونه] من الأصنام والأنداد ، أن تنالك
بسوء ، وهذا من غيهم وضلالهم .

دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ
مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
لَيَقُولنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ

[ومن يضل الله فإله من هاد^(١) . ومن يهد الله فإله من مضل
لأنه تعالى ، الذي بيده الهداية والإضلال ، وهو الذي ما شاء كان ، وما لم
يشأ لم يكن

[أليس الله بعزير] له العزة الكاملة ، التي قهر بها كل شيء ، وبِعزته ،
يكفي عبده ، ويدفع عنه مكروهم .

[ذي انتقام] ممن عصاه ، فاحذروا موجبات تقمته .

* أى ولئن سألت هؤلاء الضلال ، الذين يخوفونك بالذين من دونه ،
وأقت عليهم ، دليلا من أنفسهم ، فقلت : [من خلق السموات والأرض]
لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئا .

[ليقولن الله] وحده ، الذى خلقها .

[قل] لهم مقررا عجز آلهتهم ، بعد ما تبينت قدرة الله :

[أفرايتم] أى : أخبروني [ما تدعون من دون الله إن أرادني الله

بضر] أى ضر كان .

(١) أى : ومن لم يؤثر فيه لطفه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره

[فإله من هاد] من مؤثر فيه بشيء قط .

بِضُرِّ هَلْ هُنَّ كَشَفَتْ ضُرَّهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمَسِّكَاتُ
رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾
﴿٣٨﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ

[هل هن كاشفات ضره] بإزالته بالكاية ، أو بتخفيفه من حال
إلى حال ؟ .

[أو أرادني برحمة] يوصل إلى بها منفعة في دني أو دني .

[هل هن ممسكات رحمة] ومانعاتها عنى ؟ .

سيقولون : لا يكشفون الضر ، ولا يمسون الرحمة .

قل لهم بعد ما تبين الدليل القاطع ، على أنه وحده ، المعبود ، وأنه
الخالق للمخلوقات ، النافع الضار وحده ، وأن غيره عاجز من كل وجه .
عن الخلق ، والضر ، مستجلبا كفايته ، مستدفا مكرهم وكيدهم :

[قل حسبى الله ، عليه يتوكل المتوكلون] أى : عليه يعتمد المعتمدون
فى جلب مصالحهم ، ودفع مضارهم .

فالذى بيده — وحده — الكفاية ، هو حسبى ، سيكفينى كل
ما أهمنى ، وما لا أهم به .

* أى [قل] لهم يا أيها الرسول [ياقوم اعملوا على مكانتكم] أى : على

حالتكم التى رضيتموها لأنفسكم ، من عبادة من لا يستحق العبادة ، ولله
من الأمر شىء .

[إنى عامل] على ما دعوتكم إليه ، من إخلاص الدين لله تعالى وحده .

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ

مُقِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ
أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

[فسوف تعلمون] لمن العاقبة و [من يأتيه عذاب يخزيه] في الدنيا .
[ويحل عليه] في الأخرى [عذاب مقيم] لا يحول عنه ، ولا يزول .
وهذا تهديد عظيم لهم ، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم ،
ولكن الظلم والعدا ، حال بينهم وبين الإيمان .

* يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب الموشم على الحق ، في
أخباره ، وأوامره ، ونواهيته ، الذي هو مادة الهداية ، وبلاغ لمن أراد
الوصول إلى الله ، وإلى دار كرامته ، وأنه قامت به الحججة على
العالمين .

[فمن اهتدى] بنوره واتباع أوامره [ف] إن نفع ذلك ، يعود [لنفسه ،
ومن ضل] بعدما تبين له الهدى [فإنما يضل عليها] لا يضر الله شيئاً .
[وما أنت عليهم بوكيل] تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها ،
وتجبرهم على ما تشاء .

وإنما أنت مبلغ ، تؤدي إليهم ما أمرت به .

﴿٤٢﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ
فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ
أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴿٤٣﴾

* يخبر تعالى ، أنه المفرد بالتصرف بالعباد ، في حال يقظتهم ونومهم ،
وفي حال حياتهم وموتهم .

فقال : [الله يتوفى الأنفس حين موتها] وهذه الوفاة ، الكبرى ،
وفاة الموت .

وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه ، لا ينافي أنه قد
وكل بذلك ملك الموت وأعوانه ، كما قال تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت
الذي وكل بكم حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » .
لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه ، باعتبار أنه الخالق المدبر .

ويضيفها إلى أسبابها ، باعتبار أن من سنته تعالى وحكمته ، أن جعل
لكل أمر من الأمور سببا .

وقوله : [والتي لم تمت في منامها] وهذه هي الموتة الصغرى ، أى :
ويمسك النفس ، التي لم تمت في منامها .

[فيمسك] من هاتين النفسين النفس [التي قضى عليها الموت] وهى
نفس من كان مات ، أو قضى أن يموت في منامه .

[ويرسل] النفس [الأخرى إلى أجل مسمى] أى : إلى استكمال
رزقها وأجلها .

[إن في ذلك لآيات لقوم يفكرون] على كمال اقتداره ، وإحيائه
الموتى ، بعد موتهم .

﴿٤٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا
لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ

وفي هذه الآية ، دليل على أن الروح والنفس ، جسم قائم بنفسه ،
مخالف جوهره ، جوهر البدن .

وأنها مخلوقة مدبرة ، يقصرف الله فيها ، بالوفاة ، والإمساك ،
والإرسال .

وأن أرواح الأحياء ، تتلاقى في البرزخ ، فتجتمع ، فتتحدث .

فيرسل الله أرواح الأحياء ، ويمسك أرواح الأموات .

* ينكر تعالى ، على من اتخذ من دونه شفعاء ، يتعلق بهم ، ويسألهم
ويعبدهم .

[قل] لهم — مييناً جهلهم ، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة — :

[أو لو كانوا] أى : من اتخذتم من الشفعاء [لا يملكون شيئاً] .

أى : لا منقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك

ولا أكبر .

بل [ولا يعقلون] أى : وليس لهم عقل ، يستحقون أن يدحوا به ،

لأنها جمادات ، من أحجار ، وأشجار ، وصور ، وأموات .

فهل يقال : إن لمن اتخذها عقلاً ؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم ،

وأعظمهم ظلاماً ؟ .

[قل] لهم : [لله الشفاعة جميعاً] لأن الأمر كله لله .

وكل شفيع ، فهو يخافه ، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٤﴾
وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ

فإذا أراد رحمة عبده ، أذن للشفيع الكريم عنده ، أن يشفع ، رحمة
بالاثنين .

ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله [له ملك السموات والأرض] .
أى : جميع ما فيها من الذوات ، والأفعال ، والصفات .

فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها ، وتخلص له العبادة .

[ثم إليه ترجعون] فيجازى المخلص له بالثواب الجزيل ، ومن أشرك
به ، بالعذاب الويليل .

* يذكر تعالى حالة المشركين ، وما اقتضاه شركهم (و) أنهم [إذا
اذكر الله وحده] توحيداً له ، وعملاً بإخلاص الدين له ، وترك ما يعبدون
من دونه ، يشتمزون ، وينفرون ، ويكرهون ذلك أشد الكراهة .

[وإذا ذكر الذين من دونه] من الأصنام والأنداد ، ودعا الداعى
إلى عبادتها ومدحها [إذا هم يستبشرون] بذلك ، فرحاً بذكر معبوداتهم ،
ولكون الشرك موافقاً لأهوائهم ، وهذه الحال ، شر الحالات وأشنعها ،
ولكن موعدهم يوم الجزاء .

فهناك يؤخذ الحق منهم ، وينظر : هل تنفعهم آلتهم ، التي كانوا
يدعون من دون الله شيئاً ؟ .

يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمٌ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

ولهذا قال [قل اللهم فاطر السموات والأرض] أى : خالقهما
ومدبرهما .

[عالم الغيب] الذى غاب عن أبصارنا وعلما [والشهادة] الذى
نشاهده .

[أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون] وإن من أعظم
الاختلاف ، اختلاف الموحدين المخلصين ، القائلين : إن ما هم عليه هو الحق ،
وإن لهم الحسنى فى الآخرة دون غيرهم ، والمشركين الذين اتخذوا من دونك
الأنداد والأوثان ، وسووا بك من لا يسوى شيئا ، وتنقصوك غاية
التقصص ، واستبشروا عند ذكر آلهتهم ، واشتمزوا عند ذكرك ، وزعموا
مع هذا ، أنهم على الحق ، وغيرهم على الباطل ، وأن لهم الحسنى .

قال تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس
والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيمة إن الله على كل شئ
شديد » .

وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله « هذان خصمان اختصموا فى
ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم
يصهر به مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد » إلى أن قال : [إن
الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ

يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير] .

وقال تعالى «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار »
ففي هذه الآية ، بيان عموم خلقه تعالى ، وعموم علمه ، وعموم حكمه بين عباده .

فقدرته التي نشأت عنها الخلوقات ، وعلمه المحيط بكل شئ ، دال على حكمه بين عباده ، وبعثهم ، وعلمه بأعمالهم ، خيرها وشرها ، وبمقادير جزائها ، وخلق دال على علمه « ألا يعلم من خلق » .

* لما ذكر تعالى ، أنه الحاكم بين عباده ، وذكر مقالة المشركين وشناعتها ، كأن النفوس تشوفت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة ، أخبر أن لهم [سوء العذاب] أي : أشده وأفظعه ، كما قالوا أشد الكفر وأشنعه .

وأنهم على - الفرض والتقدير - لو كان لهم ما في الأرض جميعاً ، من ذهبها ، وفضتها ، ولؤلؤها ، وحيواناتها ، وأشجارها ، وزروعها ، وجميع أوانيتها ، وأثاثها ، ومثله معه ، ثم بذلوه يوم القيامة ليفقدوا به من العذاب ، وينجوا منه ، ما قبل منهم ، ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم » .

[وبدلهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون] أي : يظنون من السخط

يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾
فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا

العظيم ، والمقت الكبير ، وقد كانوا يحكون لأنفسهم بغير ذلك .
[وبدا لهم سيئات ما كسبوا] أى : الأمور التى تسوؤهم ، بسبب
صنيعهم وكسبهم .
[وحق (١) بهم ما كانوا به يستهزئون] من الوعيد والعذاب ، الذى
نزل بهم ، وما حل عليهم ، من العقاب .
* يخبر تعالى ، عن حالة الإنسان وطبيعته ، أنه حين يمسّه ضرر ، من
مرض ، أو شدة ، أو كرب .
[دعانا] ملحافى تفرّج ما نزل به [ثم إذا خولناه] « أى : أعطيناه »
[نعمة منا] فكشفنا ضره وأزلنا مشقته ، عاد بره كافرا ، ولمعرفه
منكرا .
و [قال إنما أوتيته على علم] أى : علم من الله ، أنى له أهل ،
وأنى مستحق له ، لأنى كريم عليه ، أو على علم منى ، بطرق تحصيله .
قال تعالى : [بل هى فتنة] يبتلى الله به عباده ، لينظر من يشكره
عن يكفره .

(١) حاق ، أى : نزل وأحاط .

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ

[ولكن أكثرهم لا يعلمون] فلذلك يعدون الفتنة منحة .

ويشبهه عليهم الخير الحض ، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر .

قال تعالى : [قد قالها الذين من قبلهم] أى : قولهم [إنما أوتيته
على علم] .

فما زالت متوارثة عند المكذبين ، لا يقرون بنعمة ربهم ، ولا يرون
له حقا .

فلم يزل دأبهم ، حتى أهلكوا ، [فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون]
حين جاءهم العذاب .

* [فأصابهم سيئات ما كسبوا] والسيئات فى هذا الموضع : العقوبات ،
لأنها تسوء الإنسان وتحزنه .

والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا [فليسوا خيرا
من أولئك ولم يكتب لهم براءة فى الزبر .

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال ، وزعموا بجهالهم ، أنه يدل على حسن
حال صاحبه .

أخبرهم تعالى ، أن رزقه ، لا يدل على ذلك ، و [أن الله يسط الرزق
لمن يشاء] من عباده ، سواء كان صالحاً أو طالحاً [ويقدر] الرزق .

أى : بضميقه ، على من يشاء ، صالحاً أو طالحاً ، فرزقه مشترك بين البرية .

هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ
يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

﴿٥١﴾ قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا
مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

والإيمان والعمل الصالح يخلص به ، خير البرية .

[إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون] أى : بسط الرزق وقبضه ، لعلمهم

أن مرجع ذلك ، عائد إلى الحكمة والرحمة ، وأنه أعلم بحال عبده .

فقد يضيق عليهم الرزق لطفاً بهم ، لأنه لو بسطه ، لبغوا في الأرض ،
فيكون تعالى مراعيّاً في ذلك ، صلاح دينهم الذى هو مادة سعادتهم
وفلاحهم ، والله أعلم .

• يخبر تعالى عباده المرفقين « أى : الكثيرين من الذنوب » بسعة كرمه
ويحثهم على الإنابة ، قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال :

[قل] يا أيها الرسول ومن قام مقامه ، من الدعاة لدين الله ، مخبراً

للعباد عن ربهم :

[يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم] باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم

من الذنوب ، والسعى فى مسأخذ علام الغيوب .

[لا تقنطوا من رحمة الله] أى : لا تياسوا منها ، فتلقوا بأيديكم

إلى التهلكة ، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا ، وتراكت عيوبنا ، فليس لها

الرَّحِيمِ ﴿٥٣﴾ وَأَنْدَبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ

طريق يزيلها ، ولا سبيل يصرفها ، فتبتقون بسبب ذلك ، مصرين على العصيان ، متزودين ما يفضب عليكم الرحمن .

ولكن اعرفوا ربكم ، بأسمائه الدالة على كرمه وجوده .

واعلموا [أن الله يفر الذنوب جميعاً] من الشرك ، والقتل ، والزنا ، والربا ، والظلم ، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصفار .

[إنه هو الغفور الرحيم] أى ، وصفه المغفرة والرحمة ، وصفان لازمان ، ذاتيان ، لا تنفك ذاته عنهما ، ولم تزل آثارهما ، سارية في الوجود ، ماثلة للموجود .

تسح يدها من الخيرات ، آناء الليل والنهار ، ويوالى النعم والفواضل على العباد في السر والجهار ، والعطاء أحب إليه من المنع ، والرحمة ، نسبت غضب وغلبيته .

ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما ، أسباب إن لم يأت بها العبد ، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة ، أعظمها وأجلها .

بل لا سبب لها غيره ، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح ، والدعاء ، والتضرع ، والتأله ، والتعبد .

فهم إلى هذا السبب الأجل ، والطريق الأعظم .

ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه ، والمبادرة إليها فقال :

[وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ] بقلوبكم [وَأَسْلَمُوا لَهُ] بجوارحكم .

إذا أفردت الإنابة ، دخلت فيها أعمال الجوارح ، وإذا جمع بينهما ، كما في هذا الموضع ، كان المعنى ما ذكرنا .

الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ
مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾

وفي قوله [إلى ربكم وأسلموا له] دليل على الإخلاص ، وأنه من دون
إخلاص، لا تنفيذ الأعمال الظاهرة والباطنة ، شيئاً .

[من قبل أن يأتيكم العذاب] بحيث لا يدفع [ثم لا تنصرون ^(١)] .

فكأنه قيل : ما هي الإنابة والإسلام ؟ وما جزئياتهما وأعمالهما ؟

فأجاب تعالى بقوله : [واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم] مما أمركم

من الأعمال الباطنة ، كحبة الله ، وخشيته ، وخوفه ، ورجائه ، والنصح
لعباده ، ومحبة الخير لهم ، وترك ما يصاد ذلك .

ومن الأعمال الظاهرة ، كالصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصدقة ، وأنواع

الإحسان ، ونحو ذلك ، مما أمر الله به ، وهو : أحسن ما أنزل إلينا
من ربنا .

فالتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها ، هو المنيب المسلم .

[من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ^(٢)] ، وكل هذا

حثٌّ على المبادرة ، وانتهاز الفرصة .

ثم حذرهم « ونصحهم » [أن] لا يستمروا على غفلاتهم ، حتى يأتيهم

يوم ، يندمون فيه ، ولا تنفع الندامة .

(١) أى : يمنع نزول العذاب ، إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب .

(٢) أى : لا تشعرون بمجيئه لتتداركوا وتأهبوا له بل يفجأكم وأنتم

غافلون كأنكم لا تحشون شيئاً ، لمزيد غفلتكم .

أَنْ تَقُولَ نَفْسُ يَحْسَرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ
لِمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ

« ولثلا » [تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت ^(١) في جنب الله]
أى : في جانب حقه .

[وإن كنت] في الدنيا [لمن الساخرين] في إتيان الجزاء ، حتى
رأيته عيانا .

[أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ^(٢)] و « لو » في هذا
الموضع للتمنى .

أى : ليت أن الله هداني ، فأكون متقيا له ، فأسلم من العقاب ،
وأستحق الثواب .

ولست « لو » هنا ، شرطية ، لأنها لو كانت شرطية ، لكانوا
محتجين بالقضاء والتدر على ضلالهم ، وهي حجة باطلة ، ويوم القيامة تضمحل
كل حجة باطلة .

[أو تقول حين ترى العذاب] وتجزم بوروده [لو أن لي كرة] .

أى : رجعة إلى الدنيا [فأكون من المحسنين ^(٣)] .

قال تعالى : إن ذلك غير ممكن ولا مفيد ، وأن هذه أمانى باطلة ،

(١) فرطت أى : قصرت « في جنب الله » في طاعته وحقه تعالى .

(٢) أى : الشرك والمعاصي .

(٣) أى : في العقيدة والعمل .

مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكَنتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾
وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وُجُوهُهُم

لا حقيقة لها ، إذ لا يتجدد للعبد أورد ، بيان بعد البيان الأول .
[بل قد جاءتك آياتي] الدالة على الحق ، دلالة لا يمتري فيها .

[فكذبت بها واستكبرت] عن اتباعها [وكنتم من الكافرين] .
فسؤال الرد إلى الدنيا ، نوع عبث ، « فلوردوا العادوا لما نهوا عنه
وإنهم لكاذبون » .

* يخبر تعالى ، عن خزي الذين كذبوا عليه ، وأن وجوههم تكون
يوم القيامة مسودة كأنها الليل البهيم ، يعرفهم بذلك أهل الموقف ، فالحق
أبلغ واضح ، كأنه الصبح .
فكاسودوا وجه الحق بالكذب ، سود الله وجوههم ، جزاء من
جنس عملهم .

فلهم سواد الوجوه ، ولهم العذاب الشديد في جهنم ، ولهذا قال :
[أليس في جهنم مثوى ^(١) للمتكبرين] عن الحق ، وعن عبادة ربهم ،
المفتقرين عليه ؟

بلى ، والله ، إن فيها لعقوبة وخزيا وسخطا ، يبلغ من المتكبرين كل
مبلغ ، ويؤخذ الحق منهم بهما .

(١) مثوى . أى : مقام ومنزل يكون لهم مأوى .

مُسْوَدَّةُ النَّاسِ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

والكذب على الله ، يشمل الكذب عليه ، باتخاذ الشريك والولد والصاحبة ، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله ، أو ادعاء النبوة ، أو القول في شرعه بما لم يقله ، والإخبار بأنه قاله وشرعه .

ولما ذكر حالة المتكبرين ، ذكر حالة المتقين فقال : [وينجي الله ^(١) الذين اتقوا بمفازتهم ^(٢)] أي بنجاتهم ، وذلك لأن معهم آلة النجاة ، وهي تقوى الله تعالى ، التي هي العدة ، عند كل هول وشدة .

[لا يمسهم السوء] أي : العذاب الذي يسوؤهم [ولا هم يحزنون] فنفي عنهم مباشرة العذاب وخوفه ، وهذا غاية الأمان .

فلهم الأمان التام ، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام .

فحينئذ ، يأمنون من كل سوء ومكروه ، وتجري عليهم نضرة النعيم .

ويقولون « الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » .

(١) أي : من جهنم .

(٢) بمفازتهم . أي : بفوزهم وحصول أمنيتهن وهي الظفر بالجنة

و« المفازة » مصدر ميمي . بمعنى الفوز يقال : فاز بكذا ، إذ أفلح به وظفر

بمراده منه : وتفسير المفازة هو : أنه لا تمسهم النار التي تسوؤهم .

﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٦٢)

* يخبر تعالى عن عظمته وكاله ، الموجب لخسران من كفر به فقال :

[الله خالق كل شيء] هذه العبارة وما أشبهها ، مما هو كثير في القرآن ، تدل على أن جميع الأشياء - غير الله وأسمائه وصفاته - مخلوقة .

ففيها رد على كل من قال ، بقدم بعض المخلوقات ، كالفلاسفة القائلين ، بقدم الأرض والسموات .

وكالقائلين بقدم الأرواح ، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل ، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه .

وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة ، لأن الكلام صفة المتكلم .

والله ، تعالى بأسمائه وصفاته ، أول ، ليس قبله شيء .

فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها ، أن كلام الله مخلوق ، من أعظم الجهل .

فإنه تعالى ، لم يزل بأسمائه وصفاته ، ولم يحدث صفة من صفاته ، ولم يكن معطلا عنها ، يوقت من الأوقات .

والشاهد من هذا ، أن الله تعالى ، أخبر عن نفسه الكريمة ، أنه خالق لجميع العلوى والسفلى ، وأنه على كل شيء وكيل .

والوكالة التامة ، لا بد فيها من علم الوكيل ، بما كان وكيلا عليه ، وإحاطته بتفاصيله .

ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه ، ليتمكن من التصرف فيه ، ومن حفظٍ ، لما هو وكيل عليه ، ومن حكمة ، ومعرفة ، بوجوه التصرفات ،

لَهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾

ليصرفها ويدبرها ، على ما هو الأليق ، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله ،
فما نقص من ذلك ، فهو نقص فيها .

ومن المعلوم المقتدر ، أن الله تعالى منزه عن كل نقص ، في أى صفة
من صفاته .

فإخباره بأنه على كل شيء وكيل ، يدل على إحاطة علمه بجميع
الأشياء ، وكال قدرته على تدبيرها ، وكال تدبيره ، وكال حكمته ، التي
يضع بها الأشياء مواضعها .

[له مقاليد السموات والأرض] أى : مفاتيحها ، علماً وتديبها ،
ف« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له
من بعده ، وهو العزيز الحكيم » .

فلما بين من عظمته ، ما يقتضى أن تمتلئ القلوب له إجلالا وإكراما ،
ذكر حال من عكس القضية ، فلم يقدره حق قدره فقال :

[والذين كفروا بآيات الله] الدالة على الحق اليقين ، والصراف
المستقيم .

[أولئك هم الخاسرون] خسروا ، ما به تصلح القلوب ، من العتالة
والإخلاص لله .

وما به تصلح الألسن ، من إشغالها بذكر الله ، وما تصلح به الجوارح
من طاعة الله .

﴿٦٤﴾ قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ
وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ
عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِّنَ

وتعوضوا عن ذلك ، كل مفسد للقلوب والأبدان ، وخسروا جنات
النعيم ، وتعوضوا عنها ، بالعذاب الأليم .

* [قل] يا أيها الرسول ، لهؤلاء الجاهلين ، الذين دعوك إلى عبادة
غير الله :

[أغفیر الله تأمرونی أعبد أيها الجاهلون] أى : هذا الأمر صدر من
جهلكم ، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى ، الكامل من جميع الوجوه ،
مسدى جميع النعم ، هو المستحق للعبادة ، دون من كان ناقصا من كل
وجه ، لا ينفع ، ولا يضر ، لم تأمرونی بذلك ؟ .

وذلك لأن الشرك بالله، محبط للأعمال ، مفسد للأحوال ، ولهذا قال :

[ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك] من جميع الأنبياء .

[لئن أشركت ليحبطن عملك] ، هذا مفرد مضاف ، بعم كل عمل .

ففي نبوة جميع الأنبياء ، أن الشرك محبط لجميع الأعمال ، كما قال تعالى

في سورة الأنعام - لما عد كثيرا من أنبيائه ورسله قال عنهم :

« ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط

عنهم ما كانوا يعملون » .

[ولتكونن من الخاسرين] دينك وآخرتك .

الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾

﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ

فبالشرك تمحيط الأعمال ، ويستحق العقاب والنكال .
ثم قال : [بل الله فاعبد] لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك ،
وأخبر عن شناعته ، أمره بالإخلاص فقال :

[بل الله فاعبد] أى : أخلص له العبادة ، وحده لا شريك له .

[وكن من الشاكرين] الله ، على توفيق الله تعالى .

فكما أنه يشكر على النعم الدنيوية ، كصحة الجسم وعافيه ، وحصول
الرزق وغير ذلك .

كذلك يشكر ويثنى عليه ، بالنعم الدنيوية ، كالتوفيق للإخلاص ،
والتقوى ، بل نعم الدين ، هي النعم على الحقيقة .

وفى تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله عليها ، سلامة من آفة
العجب ، التى تعرض لكثير من العاميين ، بسبب جهلهم .

وإلا ، فلو عرف العبد حقيقة الحال ، لم يعجب بنعمة تستحق عليه
زيادة الشكر .

* يقول تعالى : وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدرة ، ولا عظموه
حق تعظيمه ، بل فعلوا ما يناقض ذلك ، من إشرأ كههم به ، من هو ناقص
فى أوصافه وأفعاله .

فأوصافه ناقصة من كل وجه ، وأفعاله ، ليس عنده نفع ولا ضرر ،
ولا عطاء ، ولا منع ، ولا يملك من الأمر شيئاً .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ

فسوا هذا المخلوق الناقص ، بالخالق الرب العظيم ، الذى — من عظمته الباهرة ، وقدرته القاهرة — أن جميع الأرض يوم القيامة ، قبضة للرحمن ، وأن السموات — على سعتها وعظمتها — مطويات بيمينه .

فلم يعظمه حق تعظيمه ، من سوى به غيره ، وهل أظلم من فعل ذلك ؟ .

[سبحانه وتعالى عما يشركون] أى : تنزهه ، وتعاضم عن شركهم به .

* لما خوفهم تعالى من عظمته ، خوفهم بأحوال يوم القيامة ، ورعبهم ورهبهم فقال :

[ونفخ فى الصور] وهو قرن عظيم ، لا يعلم عظمته إلا خالقه ، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه .

فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . أحد الملائكة المقربين ، وأحد حملة عرش الرحمن .

[فصعق] أى : غشى عليه أو مات ، على اختلاف القولين .

[من فى السموات ومن فى الأرض] أى : كلهم ، لما سمعوا نفخة

الصور أزعجتهم من شدتها وعظمتها ، وما يعمون أنها مقدمة له .

[إلا من شاء الله] ممن ثبته الله عند النفخة ، فلم يصعق ، كالشهداء

أو بعضهم ، وغيرهم .

يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ

وهذه النفخة الأولى ، نفخة الصعق ، ونفخة الفرع .

[ثم نفخ فيه [نفخة [أخرى] نفخة البعث [فإذا هم قيام] أى : قد قاموا من قبورهم ، لبعثهم وحسابهم ، قدمت منهم الحلقة الجسدية والأرواح ، وشخصت أبصارهم [ينظرون] ماذا يفعل الله بهم .

[وأشرفت الأرض بنور ربها] علم من هذا ، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل ، وهو كذلك .

فإن الله أخبر أن الشمس تكور ، والقمر يخسف ، والنجوم تنتثر ، ويكون الناس فى ظلمة ، فتشرق الأرض عند ذلك ، بنور ربها ، عندما يتجلى ، وينزل للفصل بينهم .

وفى ذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة . وينشئهم نشأة ، يَقْوُونَ عَلَى أَنْ لا يحرقهم نوره ، ويتمكنون أيضا من رؤيته .

وإلا ، فنوره تعالى عظيم ، لو كشفه ، لأحرقت سبحات وجهه ، ما انتهى إليه بصره من خلقه .

[ووضع الكتاب] أى : كتاب الأعمال وديوانه ، وضع ونشر ، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات ، كما قال تعالى « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يفاد صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً » .

وَجِئْ بِالتَّيِّبِينَ وَالشَّهَدَاءَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴿٧٠﴾

ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

[وجرى بالنبيين] ليسألوا عن التبليغ ، وعن أهمهم ، ويشهدوا عليهم .

[والشهداء] من الملائكة ، وأعضاء الإنسان والأرض .

[وقضى بينهم بالحق] أى : العدل التام والقسط العظيم ، لأنه حساب

صادر ، ممن لا يظلم مثقال ذرة ، ومن هو محيط بكل شئ .

وكتابه الذى ، هو اللوح المحفوظ ، محيط بكل ما عملوه .

والحفظة الكرام ، والذين لا يمضون ربهم ، قد كتبت عليهم

ما عملوه .

وأعدل الشهداء ، قد شهدوا على ذلك الحكم .

فحكم بذلك ، من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب

والعقاب .

فيحصل حكم يقر به الخلق ، ويمترفون لله بالحمد والعدل ، ويعرفون به

من عظمته ، وعلمه ، وحكمته ورحمته ، ما لم يخطر بقلوبهم ، ولا تعبر عنه

ألسنتهم ، ولهذا قال :

[ووفيت كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ^(١)] .

(١) لا يظلمون . أى : بنقص ثواب ، أو زيادة عقاب ، على ما جرى

به الوعد . ٥١ . أبو السعود .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ

* لما ذكر تعالى حكمه بين عباده ، الذين جمعهم في خلقه ، وورقه ، وتدييره ، واجتماعهم في الدنيا ، واجتماعهم في موقف القيامة ، فرقمهم تعالى عند جزائهم ، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر ، والتقوى والفجور ، فقال :

[وسيق الذين كفروا إلى جهنم] أى : سوقا عنيفا ، يضر بون بالسياط للوجعة ، من الزبانية الغلاظ الشداد ، إلى شر محبس ، وأفطع موضع ، وهى : جهنم التى قد جمعت كل عذاب ، وحضرها كل شقاء ، وزال عنها كل سرور ، كما قال تعالى :

« يوم يدعون إلى نار جهنم دعا » أى : يدفعون إليها دفعا ، وذلك لامتناعهم من دخولها .

ويساقون إليها [زمراً] أى : فرقا متفرقة ، كل زمرة مع الزمرة ، التى تناسب عملها ، وتشاكل سعيها ، يلعن بعضهم بعضاً ، ويبرأ بعضهم من بعض .

[حتى إذا جاءوها] أى : وصلوا إلى ساحتها [فتحت] لهم أى لأجلهم [أبوابها] لقدومهم وقرى نزولهم .

[وقال لهم خزنتها] مهنتين لهم بالشقاء الأبدى ، والعذاب السرمدى ، وموبخين لهم على الأعمال ، التى أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع :

[ألم يأتكم رسل منكم] أى : من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم ،

يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا
قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ

وتتمكنون من التلقى عنهم؟ .

[يتلون عليكم آيات ربكم] التي أرسلهم الله بها ، الدالة على الحق
اليقين بأوضح البراهين .

[وينذرونكم ^(١) لقاء يومكم هذا] أى : وهذا يوجب عليكم اتباعهم
والحذر من عذاب هذا اليوم ، باستعمل تقواه ، وقد كانت حالكم بخلاف
هذه الحال ؟

[قالوا] مقرين بذنبيهم ، وأن حجة الله قامت عليهم : [بلَى] قد
جاءتنا رسل ربنا ، بآياته وبيناته ، وبينوا لنا غاية التبيين وحذرونا من
هذا اليوم .

[ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين] أى : بسبب كفرهم ،
وجبت عليهم كلمة العذاب ، التي هي ، لكل من كفر بآيات الله ، وجحد
ما جاء به المرسلون ، فاعترفوا بذنبيهم وقيام الحجة عليهم .

[قيل] لهم على وجه الإهانة والإذلال : [ادخلوا أبواب جهنم] كل
طائفة ، تدخل من الباب الذى يناسبها ، ويوافق عملها .

(١) ينذرونكم . أى : يخوفونكم من لقاء هذا اليوم المهول الذى
يجعل الولدان شيباً .

أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾
وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾

[خالدين فيها] أبدأ ، لا يظعنون عنها ، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ،
ولا ينظرون .

[فبئس مثنوى المتكبرين] أى : بئس المقر ، النار مقرهم ، وذلك لأنهم
تكبروا على الحق ، فجازاهم الله من جنس عملهم ، بالإهانة ، والذل ، والخزى .
ثم قال عن أهل الجنة : [وسيق الذين اتقوا ربهم] بتوحيده ، والعمل
بطاعته ، سوق إكرام وإعزاز ، يحشرون وفدا على النجائب .
[إلى الجنة زمرًا] فرحين مستبشرين ، كل زمرة مع الزمرة ، التى
تناسب عملها ، وتشاكله .

[حتى إذا جاءوها] أى : وصلوا لتلك الرحاب الرحبية ، والنازل
الأنيقة ، وهب عليهم ريحها ونسيمها ، وأن خلودها ونعيمها .
[وفتحت] لهم [أبوابها] فتوح إكرام ، لسكرام الخلق ، ليكرموا فيها .
[وقال لهم خزناتها] تهنئة لهم وترحيباً : [سلام عليكم] أى : سلام
عليكم من كل آفة ، وشر حال .
[طبتم] أى : طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته ، وخشيته ، وألسنتكم
بذكره ، وجوارحكم بطاعته .

« ف » بسبب طبيعتكم [ادخلوها خالدين] لأنها الدار الطيبة ، ولا يليق
بها ، إلا الطيبون .

وقال في النار [فتحت أبوابها] وفي الجنة [وفتحت] بالواو ، إشارة إلى أن أهل النار ، بمجرد وصولهم إليها ، فتحت لهم أبوابها ، من غير إنظار ولا إمهال .

وليكون^(١) فتحها في وجوههم ، وعلى وصولهم ، لحرها ، وأشد لعذابها .
وأما الجنة ، فإنها الدار العالية الغالية ، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد ، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها ، ومع ذلك ، فيحتاجون لدخولها إلى الشفاعة عند أكرم الشفعاء عليه ، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها . بل يستشفعون إلى الله بمحمد صلى الله عليه وسلم ، حتى يشفع ، فيشفعه الله تعالى .

وفي الآيات ، دليل على أن النار والجنة ، لهما أبواب ، تفتح وتغلق ، وأن لكل منهما خزنة .

(١) قوله « وليكون فتحها » إلى « وأشد لعذابها » كلام غير مفهوم ولعل في الأصل سقطا وأحسن ما يقال في سبب الإتيان بالواو في أهل الجنة « وفتحت أبوابها » وفي أهل النار « فتحت أبوابها » بدون الواو ، ما ذكره النسفي في تفسيره بقوله « أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها . وأما أبواب الجنة فتقدم فتحها لقوله تعالى « جنات عدن مفتحة لها الأبواب » فلذلك جرى بالواو ، كأنه قال [حتى إذا جاءوها] [و] [قد] [فتحت أبوابها] [أهـ] فتكون الواو للحال أي : والحال كانت أبواب الجنة مفتوحة .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنْ الْجَنَّةِ
حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ

وها الداران الخالصتان ، اللتان لا يدخل فيهما ، إلا من استحقهما ،
بمخلاف سائر الأماكن والدور .

[وقالوا] عند دخولهم فيها ، واستقرارهم ، حامدين ربهم على ما أولاهم ،
ومن عليهم ، وهداهم :

[الحمد لله الذي صدقنا وعده] أى : وعدنا الجنة على السنة رسله ،
إن امننا وصلحنا ، فوفى لنا بما وعدنا ، وأنجز لنا ما منانا .

[وأورثنا الأرض] أى : أرض الجنة [نتبوا من الجنة حيث نشاء]
أى نزل منها أى مكان شئنا ، ونتناول منها ، أى نعيم أردنا ، ليس ممنوعا
عنا شيء نريده .

[فنعم أجر العاملين] الذين اجتهدوا بطاعة ربهم ، فى زمن قليل
منقطع ، فنالوا بذلك خيراً عظيماً باقياً مستمراً .

وهذه الدار ، التى تستحق المدح على الحقيقة ، التى يكرم الله فيها
خواص خلقه .

ورضيها الجواد الكريم لهم نزلاً ، وبنى أعلاها وأحسنها ، وغرسها
بيده ، وحشاها من رحمته وكرامته ، ما يبعثه ، يفرح الحزين ، ويذول
الكدر ، ويتم الصفاء .

[وترى الملائكة] أيها الرائي ذلك اليوم العظيم [حافين من حول
العرش] .

مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

أى : قد قاموا فى خدمة ربهم ، واجتمعوا حول عرشه ، خاضعين
لجلاله ، معترفين بكماله ، مستفرقين بجماله .

[يسبحون بحمد ربهم] أى : ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله ،
مما نسب إليه المشركون ، وما لم ينسبوا .

[وقضى بينهم] أى : بين الأولين والآخرين من الخلق [بالحق]
الذى لا اشتباه فيه ولا إنكار ، ممن عليه الحق .

[وقيل الحمد لله رب العالمين] لم يذكر القائل من هو ، ليدل ذلك على
أن جميع الخلق ، نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة ،
وأهل النار ، حمد فضل وإحسان ، وحمد عدل وحكمة .

تم تفسير سورة الزمر — محمد الله وعمونه

تفسير

سُورَةُ غَافِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ

* يخبر تعالى عن كتابه العظيم ، وأنه صادر ومنزل من الله ، المألوه المعبود ، لكلامه ، وانفراده بأفعاله .

[العزيز] الذى قهر بعزته كل مخلوق [العليم] بكل شىء .

[غافر الذنب] للمذنبين [وقابل التوب] من التائبين .

[شديد العقاب] على من تجرأ على الذنوب ، ولم يتب منها [ذى الطول]

أى : التفضل والإحسان الشامل .

فلما قرر ما قرر من كماله ، وكان ذلك موجبا لأن يكون وحده ، المألوه ،

الذى تخلص له الأعمال قال : [لا إله إلا هو إليه المصير] .

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله ، الموصوف بهذه الأوصاف ،

أن هذه الأوصاف ، مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن ، من المعانى .

إِلَّا هُوَ إِلَيْنِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾

فإن القرآن : إما إخبار عن أسماء الله ، وصفاته ، وأفعاله ، وهذه أسماء ، وأوصاف ، وأفعال .

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية ، فهي مر - تعليم العليم لعباده .

وإما إخبار عن نعمه العظيمة ، وآلائه الجسيمة ، وما يوصل إلى ذلك ، من الأوامر .

فذلك يدل عليه قوله [ذى الطول] .

وإما إخبار عن نقمه الشديدة ، وعما يوجبها وبقضيتها من المعاصي ، فذلك يدل عليه [شديد العقاب] .

وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة ، والاستغفار فذلك يدل عليه قوله : [غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب] .

وإما إخبار بأنه وحده ، المألوه المعبود ، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك ، والحث عليه ، والنهي عن عبادة ما سوى الله ، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها ، والترهيب منها ، فذلك يدل عليه قوله تعالى : [لا إله إلا هو] .

وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل ، وثواب المحسنين ، وعقاب العاصين ، فهذا يدل عليه قوله [إليه المصير] ، فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات .

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُّوا بِالْبَاطِلِ

* يخبر تبارك وتعالى أنه [ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا] والمراد بالمجادلة هنا ، المجادلة لرد آيات الله ، ومقابلتها بالباطل فهذا من صنيع الكفار .

وأما المؤمنون ، فيخضعون للحق ، ليدحضوا به الباطل .

ولا ينبغي للإنسان أن يفتر بحالة الإنسان الدنيوية ، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا ، دليل على محبته له ، وأنه على الحق ، ولهذا قال : [فلا يغررك تقلبهم في البلاد] أى : ترددهم فيها ، بأنواع التجارات والمكاسب . بل الواجب على العبد ، أن يعقب الناس بالحق ، وينظر إلى الحقائق الشرعية ، ويزن بها الناس ، ولا يزن الحق بالناس ، كما عليه ، من لا علم ولا عقل له .

ثم هدد من جادل بآيات الله ليبطلها ، كما فعل من قبله من الأمم من [قوم نوح] و[عاد] والأحزاب من بعدهم [الذين تمزبوا ، وتجمعوا على الحق ليبطلوه ، وعلى الباطل لينصروه .

[و] أنه بلغت بهم الحال ، وآل بهم التحزب إلى أنه [همت كل أمة] من الأمم [برسولهم ليأخذوه] أى : يقتلوه .

وهذا أبلغ ما يكون للرسل ، الذين هم قادة أهل الخير ، الذين معهم الحق الصرف ، الذى لا شك فيه ، ولا اشتباه ، هموا بقتلهم .

لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ
كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾
الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

فهل بعد هذا البغى والضلال والشقاء ، إلا العذاب العظيم ، الذى
لا يخرجون منه ؟

ولهذا قال فى عقوبتهم الدنيوية والأخروية : [فأخذتهم] أى : بسبب
تكذيبهم وتحزبهم [فكيف كان عقاب] كان أشد العقاب وأفظعه ،
إن هو إلا صيحة ، أو حاصب ينزل عليهم ، أو يأمر الأرض أن تأخذهم ،
أو البحر أن يفرقهم ، فإذا هم خامدون .

[وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا] أى : كما حقت على
أولئك ، حقت عليهم كلمة الضلال ، التى نشأت عنها كلمة العذاب ، ولهذا
قال : [إناهم أصحاب النار] .

• يخبر تعالى ، عن كمال لطفه بعباده المؤمنين ، وما قبض لأسباب سعادتهم ،
من الأسباب الخارجة عن قدرهم ، من استغفار الملائكة المقربين لهم ،
ودعائهم لهم ، بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم .

وفى ضمن ذلك ، الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله ، وقربهم
من ربهم ، وكثرة عبادتهم ، ونصحهم لعباد الله ، لعلمهم أن الله يحب
ذلك منهم فقال :

[الذين يحملون العرش] أى : عرش الرحمن ، الذى هو سقف الخلوقات ،
وأعظمها ، وأوسعها ، وأحسنها ، وأقربها من الله تعالى ، الذى وسع

رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ

الأرض والسموات ، والكرسى .

وهؤلاء الملائكة ، قد وكلهم الله بحمل عرشه العظيم ، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة ، وأعظمهم ، وأقوامهم .

واختيار الله إياهم ، لحمل عرشه ، وتقديمهم في الذكر ، وقربهم منه ، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة ، عليهم السلام ، قال تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » .

[ومن حوله] من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة [يسبحون بحمد ربهم] هذا مدح لهم ، بكثرة عبادتهم لله تعالى ، وخصوصا ، التسبيح والتحميد .

وسائر العبادات ، تدخل في تسبيح الله وتحميده ، لأنها تنزيه له ، عن كون العبد يصرفها لغيره ، وحمد له تعالى ، بل الحمد ، هو العبادة لله تعالى . وأما قول العبد « سبحان الله وبحمده » فهو داخل في ذلك ، وهو من جملة العبادات .

[ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا] وهذا من جملة فوائد الإيمان ، وفضائله الكثيرة جدا ، أن الملائكة الذين يؤمنون بالله ، ولا ذنوب عليهم ، يستغفرون لأهل الإيمان ، فالؤمن بإيمانه ، تسبب لهذا الفضل العظيم .

ولما كانت المغفرة ، لها لوازم ، لا تتم إلا بها — غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان ، أن سؤالها وطلبها ، غاية مجرد مغفرة الذنوب — ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة ، بذكر ما لا تتم إلا به فقال :

كُلِّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِيمْ
عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

[ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً] فعلك قد أحاط بكل شيء ،
لا يخفى عليك منه خافية ، ولا يعزب عن علمك منقال ذرة في الأرض
ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ، ولا أكبر ، ورحمتك وسعت كل شيء .
فالكون علويه وسفليه ، قد امتلأ برحمة الله تعالى ، ووسعتهم ، ووصل
إلى ما وصل إليه خلقه .

[فاغفر للذين تابوا] من الشرك والمعاصي [واتبعوا سبيلك] باتباع
رسلك ، بتوحيدك وطاعتك .

[وقهم عذاب الجحيم] أى قهم العذاب نفسه ، وقهم أسباب العذاب .
[ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم] على السنة رسلك [ومن
صلح] أى : صلح بالإيمان ، والعمل الصالح [من آبائهم وأزواجهم]
زوجاتهم وأزواجهن ، وأصحابهم ، ورفقائهم [وذرياتهم] .
[إنك أنت العزيز] القاهر لكل شيء ، فبعزتك تغفر ذنوبهم ،
وتكشف عنهم المحذور ، وتوصلهم بها إلى كل خير [الحكيم] الذى يضع
الأشياء مواضعها .

فلا نسئلك ، ياربنا ، أمراً تقتضى حكمتك خلافه .

بل من حكمتك ، التى أخبرت بها ، على السنة رسلك ، واقتضاها
فضلك ، المغفرة للمؤمنين .

الْحَكِيمِ ﴿٨﴾ وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ
وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

[وقم السيئات] أى : جنبهم الأعمال السيئة وجزاءها ، لأنها
تسوء صاحبها .

[ومن تق السيئات يومئذ] أى : يوم القيامة [فقد رحمته] لأن
رحمتك لم تزل مستمرة على العباد ، لا يمنعا إلا ذنوب العباد وسيئاتهم ،
فن وقيته السيئات فقد وفقته للحسنات ، وجزائها الحسن .

[وذلك] أى : زوال المحذور ، بوقاية السيئات ، وحصول المحبوب ،
بمحصل الرحمة .

[هو الفوز العظيم] الذى لا فوز مثله ، ولا يتنافس المتنافسون ،
بأحسن منه .

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة ، كمال معرفتهم بربهم ، والتوسل
إلى الله بأسمائه الحسنى ، التى يجب من عباده ، التوسل بها إليه ، والدعاء
بما يناسب ما دعوا الله فيه .

فلما كان دعاؤهم بمحصل الرحمة ، وإزالة الأثر ما اقتضته النفوس البشرية ،
التى علم الله نقصها ، واقتضاءها لما اقتضته من المعاصى ، ونحو ذلك من
المبادئ والأسباب ، التى قد أحاط الله بها علماً ، توسلوا بالرحيم العليم .

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم ، الربوبية
العامة والخاصة ، وأنه ليس لهم من الأمر شيء ، وإنما دعاؤهم لربهم ، صدر
من فقير بالذات ، من جميع الوجوه ، لا يُدلى على ربه ، بحالة من الأحوال ،

إن هو إلا فضل الله ، وكرمه وإحسانه .

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة ، بمحبة ما يحبه ، من الأعمال ،
التي هي العبادات ، التي قاموا بها ، واجتهدوا ، اجتهاد الحبين ، ومن
العمال ، الذين هم المؤمنون ، الذين يحبهم الله تعالى ، من بين خلقه .

فسائر الخلق المكلفين ، يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم .

فمن محبة الملائكة لهم ، دعوا الله ، واجتهدوا في صلاح أحوالهم ،
لأن الدعاء للشخص ، من أدل الدلائل على محبته ، لأنه لا يدعو إلا
لمن يحبه .

وتضمن ما شرحه الله وفصله من دعائهم بعد قوله [ويستغفرون للذين
آمنوا] التنبية اللطيف على كيفية تدبر كتابه ، وأن لا يكون المتدبر
مقتصراً على مجرد معنى اللفظ بمفرده .

بل ينبغى له أن يتدبر معنى اللفظ ، فإذا فهمه فهما صحيحا على وجهه ،
نظر بعقله إلى ذلك الأمر ، والطرق الموصلة إليه ، وما لا يتم إلا به ،
وما يتوقف عليه .

وجزم بأن الله أراده ، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص ، الدال
عليه اللفظ .

والذي يوجب الجزم له ، بأن الله أراده أمران :

أحدهما : معرفته وجزمه ، بأنه من توابع المعنى ، والمتوقف عليه .

والثاني : علمه بأن الله بكل شيء عليم ، وأن الله أمر عباده بالتدبر

والتفكير في كتابه .

وقد علم تعالى ، ما يلزم من تلك المعاني ، وهو الخبر بأن كتابه هدى ،
ونور ، وتبيان لكل شيء ، وأنه أفصح الكلام ، وأجله إيضاحاً .
فبذلك يحصل للعبد ، من العلم العظيم ، والخير الكثير ، بحسب ما وفقه
الله له .

وقد كان في تفسيرنا هذا ، كثير من هذا من به الله علينا .
وقد يخفى في بعض الآيات ، مأخذه على غير المتأمل ، صحيح الفكرة .
ونسأله تعالى ، أن يفتح علينا من خزائن رحمته ، ما يكون سبباً لصلاح
أحوالنا ، وأحوال المسلمين .

فليس لنا ، إلا التعلق بكرمه ، والتوسل بإحسانه ، الذي لا يزال تنقلب
فيه ، في كل الآفات ، وفي جميع اللحظات .
ونسأله من فضله ، أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق ، لوصول رحمته ،
إِنَّهُ الْكَرِيمُ الْوَهَّابُ ، الذي تفضل بالأسباب ومسبباتها .

وتضمن ذلك ، أن المقارن ، من زوج ، وولد ، وصاحب ، يسعد
بقرينه ، ويكون اتصاله به ، سبباً لخير يحصل له ، خارج عن عمله ، وسبب
عمله ، كما كانت الملائكة ، تدعو للمؤمنين ، ولمن صلح من آبائهم ،
وأزواجهم ، وذرياتهم .

وقد يقال : إنه لا بد من وجود صلاحهم لقوله : [ومن صلح]
فحينئذ يكون ذلك ، من نتيجة عملهم ، والله أعلم .

﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ
مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾

* يخبر تعالى ، عن الفضيحة والحزى ، الذى يصيب الكافرين ، وسؤالهم
الرجعة ، والخروج من النار ، وامتناع ذلك عليهم ، وتوبيخهم ، فقال :
[إن الذين كفروا] أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها ، من الكفر
بالله ، أو بكعبه ، أو برسله ، أو باليوم الآخر ، حين يدخلون النار ،
ويقرون أنهم يستحقونها ، لما فعلوه من الذنوب والأوزار ، فيمقتون
أنفسهم لذلك أشد المقت ، ويفضون عليها غاية الغضب ، فينادون
عند ذلك .

ويقال لهم [لمت الله] أى : إياكم [إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون]
أى : حين دعتم الرسل وأتباعهم ، إلى الإيمان ، وأقاموا لكم من
البيئات ، ما تبين به الحق ، فكفرتهم ، وزهدتم فى الإيمان ، الذى خلقكم
الله له ، وخرجتم من رحمته الواسعة ، فمقتكم وأبغضكم .

فهذا [أكبر من مقتكم أنفسكم] أى : فلم يزل هذا المقت ، مستمراً
عليكم ، والسخط من الكريم ، حالاً بكم ، حتى آلت بكم الحال ، إلى ما آلت .
فاليوم حلّ عليكم غضب الله وعقابه ، حين نال المؤمنون رضوان
الله وثوابه .

فتمنوا الرجوع ، و [قالوا ربنا أمتنا اثنتين] يريدون الموتة الأولى ،
وما بين النفختين على ما قيل ، أو العدم المحض قبل إيجادهم ، ثم أماتهم بعد
ما أوجدهم .

قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَلْمَنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَلْمَنَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى
خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَالِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ
وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

[وأحييتنا ائمتين] الحياة الدنيا ، والحياة الأخرى .

[فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل] أى : تحسروا وقالوا
ذلك ، فلم ينفذ ولم ينجع ، ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة ، فقيل لهم :
[ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده] أى : إذا دعى لتوحيده ، وإخلاص
العمل له ، ونهى عن الشرك به [كفرتم] به ، واشتأزت لذلك قلوبكم ،
ونفرتم غاية النفور .

[وإن يشرك به تؤمنوا] أى : هذا الذى أنزلكم هذ المنزل وبوأكم ،
هذا المقييل والمحل ، أنكم تكفرون بالإيمان ، وتؤمنون بالكفر .
ترضون بما هو شر وفساد فى الدنيا والآخرة ، وتسكروهون ما هو خير
وصلاح ، فى الدنيا والآخرة .

تؤثرون سبب الشقاوة ، والذل ، والغضب ، وتزهدون بما هو سبب
الفوز والفلاح والظفر « وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا
سبيل الفى يتخذوه سبيلا » .

[فالحكم لله العلى الكبير] العلى : الذى له العلو المطلق ، من جميع
الوجوه ، علو الذات ، وعلو القدر ، وعلو القهر .

ومن علو قدره ، كمال عدله تعالى ، وأنه يضع الأشياء مواضعها ،
ولا يساوى بين الممتين والفجار .

[الكبير] الذى له الكبرياء والعظمة والمجد ، فى أسمائه ، وصفاته ،

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾

وأفعاله ، المنزه عن كل آفة ، وعيب ، ونقص .
فإذا كان الحكم له تعالى ، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم ، فخكه
لا يغير ولا يبدل .

* يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده ، بتبيين الحق من الباطل ، بما يرى
عباده من آياته النفسية ، والآفاقية ، والقرآنية ، الدالة على كل مطلوب
مقصود ، الموضحة للهدى من الضلال ، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها ،
والتأمل لها ، أدنى شك في معرفة الحقائق .

وهذا من أكبر نعمه على عباده ، حيث لم يُبقِ الحق مشتبهاً ،
ولا الصواب ملتبساً .

بل نوع الدلالات ، ووضح الآيات ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى
من حي عن بينة .

وكلما كانت المسائل أجل وأكبر ، كانت الدلائل عليها ، أكثر وأيسر .
فانظر إلى التوحيد ، لما كانت مسألته من أكبر المسائل ، بل أكبرها ،
كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية ، وتنوعت ، وضرب الله لها الأمثال ،
وأكثر لها من الاستدلال .

ولهذا ذكرها في هذا الموضع ، ونبه على جملة من أدلتها فقال :
[فادعوا الله مخلصين له الدين] .

ولما ذكر أنه يُرى عباده آياته ، نبه على آية عظيمة فقال :
[وينزل عليكم من السماء رزقاً] أى : مطراً ، به ترزقون وتعيشون
أنتم وبهائمكم ، وذلك يدل على أن النعم كلها منه .

وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ

فمنه نعم الدين ، وهى المسائل الدينية ، والأدلة عليها ، وما يتبع ذلك ،
من العمل بها .

والنعم الدنيوية كلها ، كالنعم الناشئة عن الفيث ، الذى تحيا به
البلاد والعباد .

وهذا يدل دلالة قاطعة ، أنه وحده ، هو المعبود ، الذى يتعين إخلاص
الدين له ، كما أنه - وحده - المنعم .

[وما يتذكر] بالآيات ، حين يذكر بها [إلا من ينيب] إلى الله
تعالى ، بالإقبال على محبته ، وخشيته ، وطاعته ، والتضرع إليه .

فهذا الذى ينتفع بالآيات ، وتصير رحمة فى حقه ، ويزداد بها بصيرة .
ولما كانت الآيات ، ثمر التذكر ، والتذكر يوجب الإخلاص لله ،
رتب الأمر على ذلك بالفاء ، الدالة على السببية فقال : [فادعوا الله مخلصين
له الدين] .

وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسألة .

والإخلاص ، معناه : تخليص القصد لله تعالى ، فى جميع العبادات ،
الواجبة والمستحبة ، حقوق الله ، وحقوق عباده .

أى : أخلصوا لله تعالى ، فى كل ما تدينونه به ، وتقتربون به إليه .

[ولو كره الكافرون] لذلك ، فلا تبالوا بهم ، ولا يثنكم ذلك عن
دينكم ، ولا تأخذكم بالله لومة لائم ، فإن الكافرين ، يكرهون الإخلاص

مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ

وحده ، غاية الكراهة كما قال تعالى : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » .

ثم ذكر من جلاله وكماله ، ما يقتضى إخلاص العبادة له فقال :
[رفيع الدرجات ذو العرش] أى : العلى الأعلى ، الذى استوى على العرش ، واختص به ، وارتفعت درجاته ارتفاعا ، باين به مخلوقاته ، وارتفع به قدره ، وجلت أوصافه ، وتعالى ذاته ، أن يقترب إليه إلا بالعمل الزكى الطاهر المطهر ، وهو الإخلاص ، الذى يرفع درجات أصحابه ، ويقربهم إليه ، ويجعلهم فوق خلقه .

ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحى فقال :
[يلقى الروح] أى : الوحى الذى للأرواح والقلوب ، بمنزلة الأرواح للأجساد .

فكما أن الجسد بدون الروح ، لا يحيا ولا يعيش ، فالروح والقلب ، بدون روح الوحى ، لا يصلح ولا يفلح ، فهو تعالى [يلقى الروح من أمره] الذى فيه نفع العباد ومصالحهم .

[على من يشاء من عباده] وهم الرسل ، الذين فضلهم ، واختصهم لوحيه ، ودعوة عباده .

والفائدة فى إرسال الرسل ، هو تحصيل سعادة العباد ، فى دينهم ، ودنياهم ، وآخرتهم ، وإزالة الشقاوة عنهم ، فى دينهم ، ودنياهم ، وآخرتهم ، ولهذا قال :

[لينذر] من أتى إليه الوحى [يوم التلاق] أى : يخوف العباد بذلك ،

بَرِّزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ

ويختمهم على الاستعداد له ، بالأسباب المنجية مما يكون فيه .
وسماه « يوم التلاق » لأنه يلتقى فيه الخالق والمخلوق ، والمخلوقون
بعضهم مع بعض ، والعاملون ، وأعمالهم وجزاؤهم .
[يوم هم بارزون] أى : ظاهرون على الأرض ، وقد اجتمعوا فى صعيد
واحد ، لا عوج ولا أمت فيه ، يسمهم الداعى ، وينفذهم البصر .
[لا يخفى على الله منهم شيء] لا من ذواتهم ، ولا من أعمالهم ،
ولا من جزاء تلك الأعمال .

[لمن ^(١) الملك اليوم] أى : من هو المالك لذلك اليوم العظيم ، الجامع
للأولين والآخرين ، أهل السموات وأهل الأرض الذى انقطعت فيه الشركة
فى الملك ، وتقطعت الأسباب ، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة ؟
الملك [لله الواحد القهار] أى : المنفرد فى ذاته وأسمائه ، وصفاته ،
وأفعاله ، فلا شريك له فى شيء منها ، بوجه من الوجوه .

[القهار] لجميع المخلوقات ، الذى دانت له المخلوقات ، وذلت وخضعت ،
خصوصا فى ذلك اليوم ، الذى عنت فيه الوجوه ، للحى القيوم ، يومئذ
لا تسكلم نفس إلا بإذنه .

[اليوم تجزى كل نفس بما كسبت] فى الدنيا ، من خير وشر ،
قليل وكثير .

[لا ظلم اليوم] على أحد ، بزيادة فى سيئاته ، أو نقص من حسناته .

(١) قوله « لمن الملك اليوم » يقوله تعالى ويوجب نفسه بقوله :

« لله الواحد القهار » .

إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ

كَظْمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ

[إن الله سريع الحساب] أى : لا تستبطوا ذلك اليوم ، فإنه آت ، وكل آت قريب .

وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده ، يوم القيامة لإحاطة علمه ، وكمال قدرته .

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [وأنذركم يوم الآزفة] أى يوم القيامة التى قد أزفت وقربت ، وآن الوصول إلى أهوالها ، وقلقلها ، وزلازلها .

[إذ القلوب لدى الحناجر] أى : قد ارتفعت ، وبقيت أفئدتهم هواء ، ووصلت القلوب ، من الروع والكرب ، إلى الحناجر ، شاخصة أبصارهم .
[كاظمين] لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ، وكاظمين على ما فى قلوبهم ، من الروع الشديد ، والمزعجات المائلة .

[ما للظالمين من حميم] أى : قريب ولا صاحب [ولا شفيع يطاع] .
لأن الشفعاء لا يشفعون فى الظالم نفسه بالشرك ، ولو قدرت شفاعتهم ، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم ، فلا يقبلها .

[يعلم خائنة الأعين] وهو النظر الذى يخفيه العبد عن جليسه ، ومقارنه ، وهو نظر المسارقة .

الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

[وما تخفي الصدور] مما لم يبينه العبد لغيره ، فالله تعالى ، يعلم ذلك الخفي ،
فغيره من الأمور الظاهرة ، من باب أولى وأحرى .

[والله يقضى بالحق] لأن قوله حق ، وحكمه الشرعى حق ، وحكمه
الجزائى حق .

وهو المحيط علماً ، وكفاية ، وحفظاً بجميع الأشياء .

وهو المنزه عن الظلم والنقص ، وسائر العيوب .

وهو الذى يقضى قضاءه القدرى ، الذى إذا شاء شيئاً ، كان ،
وما لم يشأ لم يكن .

وهو الذى يقضى بين عباده المؤمنين والكافرين ، فى الدنيا ، ويفصل
بينهم ، بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه .

[والذين يدعون من دونه] وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله

[لا يقضون بشيء] لمجزهم ، وعدم إرادتهم للخير ، وعدم استطاعتهم لفعله .

[إن الله هو السميع] لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على
تفنى الحاجات .

[البصير] بما كان وما يكون ، وما يبصر ، وما لا يبصر ، وما يعلم
العباد ، وما لا يعلمون .

قال فى أول هاتين الآيتين [وأنذرهم يوم الآزفة] ثم وصفها بهذه

﴿٢١﴾ أَوَّامٌ يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُونَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاكْفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٢﴾

الأوصاف ، المتضمنة للاستعداد لذلك اليوم العظيم ، لاشتمالها على الترغيب
والترهيب .

* يقول تعالى : [أو لم يسيروا في الأرض] أي : بقلوبهم وأبدانهم ،
سير نظر واعتبار ، وتفكر في الآثار .

[فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم] من المكذبين ،
فسيجدونها ، شر العواقب ، عاقبة الهلاك والدمار ، والحزى والفضيحة .
وقد [كانوا أشد منهم قوة] في العَدَد والْعُدَد وكبر الأجسام .

[و] [أشد] [آثارا في الأرض] من البناء والغرس .

وقوة الآثار ، تدل على قوة المؤثر فيها ، وعلى تمنعه بها .

[فأخذهم الله] بعقوبته [بذنوبهم] حين أصروا ، واستمروا عليها .

[إنه قوي شديد العقاب] فلم تغن قوتهم ، عند قوة الله ، شيئا .

بل من أعظم الأمم قوة ، قوم عاد الذين قالوا « من أشد منا قوة »

أرسل الله إليهم ريحاً ، أضعفت قواهم ، ودمرتهم كل تدهير .

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسول ، وهو فرعون

وجنوده فقال :

[ولقد أرسلنا موسى] إلى قوله [أشد العذاب] .

﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمٰنَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ
بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا

* أى [ولقد أرسلنا] إلى جنس هؤلاء المكذبين [موسى]
ابن عمران .

[آياتنا] العظيمة ، الدالة دلالة قطعية ، على حقيقة ما أرسل به ، وبطلان
ما عليه من أرسل إليهم ، من الشرك ، وما يتبعه .

[وسلطان مبين] أى ، حجة بينة ، تتسلط على القلوب ، فتدعن
لها ، كالحية ، والعصا ، ونحوها من الآيات البينات ، التى أيد الله بها موسى ،
ومكنه مما دعا إليه من الحق .

إلى المبعوث إليهم [فرعون وهامان] وزيره [وقارون] الذى كان
من قوم موسى ، فبنى عليهم بماله .

وكلهم ردوا عليه ، أشد الرد [فقالوا ساحر كذاب] .

[فلما جاءهم بالحق من عندنا] وأيده الله بالمعجزات الباهرة ، الموجبة
لتمام الإذعان ، لم يقابلوها بذلك ، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض ،
بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم .

بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن [قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا
معه واستحيوا نساءهم ، وما كيد الكافرين] حيث كادوا هذه المكيدة ،
وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم ، لم يقووا ، وبقوا فى رقهم ، وتحت
عبوديتهم .

نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِيْنَ اِلَّا فِيْ ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
ذُرُوْنِيْ اَقْتُلْ مُوسٰى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ اِنِّيْٓ اَخَافُ اَنْ يُبَدِّلَ دِيْنَكُمْ

[وما كيد الكافرين إلا في ضلال] حيث لم يتم لهم ما قصدوا ،
بل أصابهم ضد ما قصدوا ، أهلكهم الله ، وأبادهم عن آخرهم .

﴿ قاعدة ﴾

وتدبر هذه النكتة ، التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى ، إذا كان
السياق في قصة معينة ، أو على شيء معين ، وأراد الله أن يحكم على ذلك
المعين بحكم ، لا يختص به ذكر الحكم ، وعلقه على الوصف العام ، ليكون
أعم ، وتندرج فيه الصورة ، التي سيق الكلام لأجلها ، وليندفع الإيهام
باختصاص الحكم بذلك المعين .

فلهذا لم يقل « وما كيدهم إلا في ضلال » بل قال : [وما كيد الكافرين
إلا في ضلال] .

و [قال فرعون] متكبراً متجبراً ، مغرراً لقومه السفهاء : [ذروني
أقتل موسى وليدع ربه] أي : زعم — قبحه الله — أنه لولا مراعاة خواطر
قومه ، لقتله ، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه .

ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله ، وأنه نصح لقومه ، وإزالة للشر
في الأرض فقال :

[إني أخاف أن يبدل دينكم] الذي أتم عليه [أو أن يظمرفي
الأرض الفساد] .

أَوَّانَ يُظْهِرِ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ

وهذا من أعجب ما يكون ، أن يكون شر الخلق ، ينصح الناس عن
اتباع خير الخلق .

هذا من التويه والترويح ، الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم
« فاستخف قومه فاطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

[وقال موسى] حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة ، التي أوجبها
له طغيانه ، واستعان فيها بقوته واقتداره ، مستعينا موسى بربه :

[إني عدت بربي وربكم] أي : امتنعت بربوبيته ، التي دبر بها
جميع الأمور .

[من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب] أي : يحمله تكبره ، وعدم
إيمانه بيوم الحساب ، على الشر والفساد .

يدخل فيه فرعون وغيره ، كما تقدم قريبا في القاعدة .

فنعى الله تعالى بلطفه ، من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب .

وقيض له من الأسباب ، ما اندفع به عنه شر فرعون وملاؤه .

ومن جملة الأسباب ، هذا الرجل المؤمن ، الذي من آل فرعون ، من
بيت الملكة ، لا بد أن يكون له كلمة مسوعة ، وخصوصا إذا كان يظهر
موافقتهم ، ويكتم إيمانه ، فإنهم يراعونه في الغالب ، ما لا يراعونه
لو خالفهم في الظاهر .

كما منع الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، بعمه أبي طالب من قریش

مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ
رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ
كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ

حيث كان أبو طالب ، كبيرا عندهم ، موافقا لهم على دينهم ، ولو كان مسلما ،
لم يحصل منه ذلك المنع .

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم ، مقبحا فعل قومه ،
وشناعة ما عزموا عليه :

[أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله] أى : كيف تستحلون قتله ، وهذا
ذنبه وجرمه ، أن يقول ربي الله ، ولم يكن أيضاً قولاً مجرداً عن البيّنات ،
ولهذا قال :

[وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم] لأن بينته ، اشتهرت عندهم اشتهاراً ،
علم به الصغير والكبير ، أى : فهذا لا يوجب قتله .

فهلا أبطلتم قبل ذلك ، ما جاء به من الحق ، وقابلتم البرهان ببرهان
يرده ، ثم بعد ذلك نظرتم ، هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا ؟
فأما وقد ظهرت حجته ، واستعلى برهانه ، فبينكم وبين حل قتله ،
مفاوز تنقطع بها أعناق المطى .

ثم قال لهم مقالة عقلية ، تقنع كل عاقل ، بأى حالة قدرت فقال :
[وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم] .
أى : موسى بين أمرين ، إما كاذب في دعواه ، أو صادق فيها .

لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمِ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ

فإن كان كاذباً ، فكذبه عليه ، وضرره مختص به ، وليس عليكم في ذلك ضرر ، حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه .

وإن كان صادقاً ، وقد جاءكم بالبينات ، وأخبركم أنكم إن لم تهيبوه ، عذبكم الله عذاباً في الدنيا ، وعذاباً في الآخرة ، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم ، وهو عذاب الدنيا .

وهذا من حسن عقله ، ولطف دفعه عن موسى ، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم ، وجعل الأمر دائراً بين تينك الحالتين وعلى كل تقدير ، فقتله سفه وجهل منكم .

ثم انتقل — رضى الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه — إلى أمر أعلى من ذلك ، وبيان قرب موسى من الحق فقال :

[إن الله لا يهدي من هو مسرف] أى : متجاوز الحد ، بترك الحق والإقبال على الباطل .

[كذاب] بنسبته ما أسرف فيه إلى الله ، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب ، لا فى مدلوله ، ولا فى دليله ، ولا يوفقه للصرط المستقيم .

أى : وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق ، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية ، والخوارق السماوية .

فالذى اهتدى هذا الهدى ، لا يمكن أن يكون مسرفاً ، ولا كاذباً . وهذا دليل على كمال علمه وعقله ، ومعرفته بربه .

ثم حذر قومه ، ونصحهم ، وخوفهم عذاب الآخرة ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر فقال :

ظَهْرَيْنَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ
مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

[يا قوم لكم الملك اليوم] أى : فى الدنيا [ظاهرين فى الأرض] على
رعييتكم ، تنفيذون فيهم ما شئتم من التدبير .
فهبكم حصل لكم ذلك وتم ، ولن يتم ، [فمن ينصرنا من بأس الله]
أى : عذابه [إن جاءنا] ؟ .

وهذا من حسن دعوته ، حيث جعل الأمر مشتركاً ، بينه وبينهم
بقوله : [فمن ينصرنا] وقوله : [إن جاءنا] ليفهمهم أنه ينصح لهم ، كما ينصح
لنفسه ، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه .

[قال فرعون] معارضاً له فى ذلك ، ومغرراً لقومه أن يتبعوا موسى :
[ما أريكُم إلا ما أرى وما أهديكُم إلا سبيل الرشاد] وصدق فى قوله
« ما أريكُم إلا ما أرى » ، ولكن ما الذى رأى ؟
رأى أن يستخف قومه فيتابعوه ، ليقم بهم رياسته ، ولم ير الحق معه ،
بل رأى الحق مع موسى ، وجحد به ، مستيقناً له .
وكذب فى قوله : [وما أهديكُم إلا سبيل الرشاد] فإن هذا ،
قلب للحق .

فلو أمرهم باتباعه ، اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله ، لكان الشر أهون .
ولكنه أمرهم باتباعه ، وزعم أن فى اتباعه ، اتباع الحق ، وفى اتباع
الحق ، اتباع الضلال .

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَوْمَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾
مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ
ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾

[وقال الذي آمن] مكررا دعوة قومه ، غير آيس من هدايتهم ،
كما هي حالة الدعوة إلى الله تعالى ، لا يزالون يدعون إلى ربهم ، ولا يردهم
عن ذلك راد ، ولا يثنهم عتو من دعوه ، عن تكرار الدعوة ،
فقال لهم :

[يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب] يعنى الأمم الكاذبين ،
الذين تحزبوا على أنبيائهم ، واجتمعوا على معارضتهم ، ثم بينهم فقال :
[مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم] أى : مثل
عادتهم فى الكفر والتكذيب ، وعادة الله فيهم ، بالعقوبة العاجلة فى الدنيا ،
قبل الآخرة .

[وما الله يريد ظلما للعباد] فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه ، ولا جرم
أسلفوه .

ولما خوفهم العقوبات الدنيوية ، خوفهم العقوبات الآخروية ، فقال :
[يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد] أى : يوم القيامة ، حين ينادى
أهل الجنة أهل النار « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا » إلى آخر الآيات .
« ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء
أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين » .

يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بَابِئِنَّتِ

وحين ينادى أهل النار مالكا ليقض علينا ربك ، فيقول : « إنكم
ما كثوب » .

وحين ينادون ربهم « ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » .

فيجيئهم « اخسأوا فيها ولا تكلمون » .

وحين يقال للمشركين : « ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » .

نفخوفهم رضى الله عنه ، هذا اليوم المهول ، وتوجع لهم أن أقاموا على

شركهم بذلك .

ولهذا قال : [يوم تولون مدبرين] أى : قد ذهب بكم إلى النار

[مالكم من الله من عاصم] لا من أنفسكم قوة ، تدفعون بها عذاب

الله ، ولا ينصركم من دونه من أحد « يوم تبلى السرائر * فإله من قوة

ولا ناصر » .

[ومن يضل الله فما له من هاد] لأن الهدى بيد الله تعالى .

فإذا منع عبده الهدى ، لعلمه أنه غير لائق به ، نخبته ، فلا سبيل

إلى هدايته .

[ولقد جاءكم يوسف] بن يعقوب عليهما السلام [من قبل] إتيان

موسى ، بالبينات الدالة على صدقه ، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له .

فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قَلْتُمْ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ
مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

[فما زلتم في شك مما جاءكم به] في حياته [حتى إذا هلك] ازداد
شككم وشرككم .

و [قلمن لن يبعث الله من بعده رسولا] أى : ظنكم الباطل ، وحسبانكم
الذى لا يليق بالله تعالى ، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى ، لا يأمرهم وينهاهم ،
بل يرسل إليهم رسوله .

والظن بأن الله لا يرسل رسولا ، ظن ضلال ، ولهذا قال :

[كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب] وهذا هو وصفهم الحقيقي ،
الذى وصفوا به موسى ، ظلما وعلوا .

فهم المسرفون ، بتجاوزهم الحق ، وعدولهم عنه إلى الضلال .

وهم الكذبة ، حيث نسبوا ذلك إلى الله ، وكذبوا رسوله .

فالذى وصفه السرف والكذب ، لا ينفك عنهما ، لا يهديه الله ،
ولا يوفقه للخير ، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه .

فجزاؤه أن يعاقبه ، بأن يمنعه الهدى كما قال تعالى « فلما زاغوا أزاغ
الله قلوبهم * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم
في طغيانهم يعمهون * والله لا يهدي القوم الظالمين » .

ثم ذكر وصف المسرف المرتاب فقال : [الذين يجادلون في آيات الله]
التي بينت الحق من الباطل ، وصارت — من ظهورها — بمنزلة
الشمس للبصر .

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ
وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَانُ ابْنِ لِي صَرِحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ

فهم يجادلون فيها على وضوحها ، ليدفعوها ويبتلوها [بغير سلطان
أتاهم] أى : بغير حجة وبرهان ، وهذا وصف لازم ، لكل من جادل
في آيات الله ، فإنه من الحال ، أن يجادل بسلطان ، لأن الحق لا يعارضه
معارض ، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعى^(١) أو عقلى أصلا .

[كبر] ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل [مقتا عند الله وعند
الذين آمنوا] .

فالله أشد بغضاً لصاحبه ، لأنه تضمن التكذيب بالحق ، والتصديق
الباطل ، ونسبته إليه .

وهذه أمور يشهد بغض الله لها ولمن اتصف بها ، وكذلك عباده
المؤمنون يمتنون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم ، وهؤلاء خواص خلق
الله تعالى فقتهم دليل على شناعة من مقتوه ، [كذلك] أى : كما طبع
على قلوب آل فرعون [يطبع الله على كل قلب متكبر جبار] متكبر
في نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم ، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه .
[وقال فرعون] معارضا لموسى ، ومكذبا له في دعوته إلى الإقرار

(١) قوله « بدليل شرعى الخ » أقول : لعل في الأصل تحريفاً لأن

الدليل الشرعى لا يكون خلاف الحق بل هو الحق نفسه وإلا فلا يكون
شرعياً فكيف يتأتى أن يعارض الحق ، الدليل الشرعى وهو عين الحق ؟

الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي
لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ
وَمَا كِيدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَأْتِيكُمُ

رب العالمين ، الذى على العرش استوى ، وعلى الخلق اعتلى :

[يا هامان ابن لى صرحا] أى : بناء عظيما مرتفعا .

والتصد منه [لعلى أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى
وإنى لأظنه ^(١) كاذباً] فى دعواه أن لنا رباً ، وأنه فوق السموات .

ولكنه يريد أن يحتاط فرعون ، ويختبر الأمر بنفسه ، قال الله تعالى

فى بيان الذى حمله على هذا القول :

[وكذلك زين لفرعون سوء عمله] فزين له العمل السئ ، فلم يزل
الشیطان يزينه ، وهو يدعو إليه ويحسنه ، حتى رآه حسناً ، ودعا إليه وناظر
فيه مناظرة المحقین ، وهو من أعظم المفسدين .

[وصد عن السبيل] الحق ، بسبب الباطل الذى زين له .

[وما كيد فرعون] الذى أراد أن يكيد به الحق ، ويوهم به الناس
أنه محق ، وأن موسى مبطل [إلا فى تباب] أى : خسار ووبوار ، لا يفیده
إلا الشقاء ، فى الدنيا والآخرة .

[وقال الذى آمن] معيدا نصيحته لقومه : [يا قوم اتبعون أهدكم سبيل
الرشاد] لا كما يقول لكم فرعون ، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغى والفساد .

(٢) قوله « لأظنه كاذباً » أى : أنا متيقن أنه كاذب فالظن هنا

بمعنى اليقین لا على حقیقته الذى هو إدراك الطرف الراجح .

اتَّبِعُونَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ
إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَقُومُ مَالِي
أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ

[يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع] يتمتع بها ويتنعم قليلا ، ثم
تنقطع وتضمحل .

فلا تفرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له [وإن الآخرة هي دار القرار]
التي هي محل الإقامة ، ومنزل السكون والاستقرار ، فينبغي لكم أن تؤثروها ،
وتعملوا لها عملا يسعدكم فيها .

[من عمل سيئة] من شرك أو فسوق أو عصيان [فلا يجزي إلا مثلها]
أي : لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه ، بقدر إساءته ، وما تستحقه ، لأن
جزاء السيئة ، السوء .

[ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى] من أعمال القلوب والجوارح ،
وأقوال اللسان [وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير
حساب] أي : يعطون أجرهم بلا حد ولا عد ، بل يعطيهم الله ما لا
تبلغه أعمالهم .

[ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة] بما قلت لكم [وتدعونني إلى النار]
بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام . ثم فسر ذلك فقال :

[تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم] أنه يستحق أن

بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ
الْعَفْرِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا
وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ
النَّارِ (٤٣) فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ

يعبد من دون الله ، والتول على الله بلا علم ، من أكبر الذنوب وأقبحها .
[وأنا أدعوكم إلى العزيز] الذى له القوة كلها ، وغيره ليس بيده من
الأمر شئ .

[الغفار] الذى يسرف العباد على أنفسهم ويتجراؤون على مساخطه .
ثم إذا تابوا ، وأتابوا إليه ، كفر عنهم السيئات والذنوب ، ودفع
موجباتها ، من العقوبات الدنيوية والأخروية .
[لا جرم] أى : حتماً يقيناً [أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا
ولا فى الآخرة] أى : لا يستحق الدعوة إليه ، والحث على اللجا إليه ،
فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، لعجزه ونقصه ، وأنه لا يملك نفعاً ولا ضراً ،
ولا موتاً ولا حياة ، ولا نشوراً .

[وأن مردنا إلى الله] تعالى فسيجازى كل عامل بعمله .
[وأن المسرفين هم أصحاب النار] وهم الذين أسرفوا على أنفسهم ،
بالتجرى على ربهم ، بمعاصيه ، والكفر به ، دون غيرهم .
فلما نصحهم وحذرهم ، وأنذرهم ، ولم يطيعوه ، ولا وافقوه ، قال لهم :
[فستذكرون ما أقول لكم] من هذه النصيحة ، وسترون مغبة عدم
قبولها ، حين يحل بكم العقاب ، وتحرمون جزيل الثواب .

إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوْقَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا
وَخَاقَ بَالٍ فِرْعَوْنَ سَوْءِ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا

[وأفوض أمري إلى الله] أي : ألتجأ إليه وأعتصم ، وألقى أموري
كلها لديه ، وأتوكل عليه في مصالحى ، ودفع الضرر الذى يصيبنى منكم ،
أو من غيركم .

[إن الله بصير بالعباد] يعلم أحوالهم وما يستحقون : يعلم حالى وضعفى
فيمعنى منكم ، ويكفينى شركم ، ويعلم أحوالكم ، فلا تقصروا فوف
إلا بإرادته ومشيئته .

فإن سلطكم على ، فبحكمة منه تعالى ، وعن إرادته ومشيئته ،
صدر ذلك .

[فوفاه الله سيئات ما مكروا] أي : وفى الله القوى ، ذلك الرجل
المؤمن الموفق ، عقوبات ما مكر فرعون وآله له ، من إرادة إهلاكه وإتلافه ،
لأنه بادأهم بما يكرهون .

وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام ، ودعاهم إلى ما دعاهم
إليه موسى .

وهذا أمر لا يخطر على بالهم ، وهم الذين لهم القدرة ، إذ ذاك ، وقد أغضبهم ،
واشتد حنقهم عليه ، فأرادوا به كيدا فحفظه الله من كيدهم ومكرهم ، وانقلب
كيدهم ومكرهم ، على أنفسهم .

[وحق بال فرعون سوء العذاب] أغرقهم الله تعالى ، فى صيحة واحدة

عن آخرهم :

غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ
النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ

وفي البرزخ [النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيا ويوم تقوم الساعة
أدخلوا آل فرعون أشد العذاب] فهذه العقوبات الشنيعة ، التي تحمل
بالمكذبين لرسول الله ، المعاندين لأمره .

* يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار ، وعتاب بعضهم بعضاً ، واستغاثتهم
بمخزنة النار ، وعدم الفائدة في ذلك فقال :

[وإذ يتحاجون في النار] يحتج التابعون بإغواء المتبوعين ، ويتبرأ
المتبوعون من التابعين .

[فيقول الضعفاء] أي : الأتباع [للذين استكبروا] على الحق ، من
القادة الذين دعومهم إلى ما استكبروا لأجله .

[إنا كنا لكم تبعاً] أنتم أغويتمونا ، وأضللتمونا ، وزينتم لنا
الشرك والشر .

[فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار] أي : ولو قليلاً .
[قال الذين استكبروا] ميينين لعجزهم ، ونفوذ الحكم الإلهي
في الجميع :

[إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد] وجعل لكل قسطه من

بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَأَدْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾

من العذاب ، فلا يزداد في ذلك ، ولا ينقص منه ، ولا يغير ما حكم به الحكيم .

[وقال الذين في النار] من المستكبرين والضعفاء [خزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب] لعله تحصل بعض الراحة .

[قالوا] لهم موبخين ، ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم ، ودعاءهم لا يفيدهم شيئا :

[أو لم تكن تأتاكم رسلكم بالبينات] التي تبينتم بها الحق ، والصرراط المستقيم ، وما يقرب من الله ، وما يبعد منه ؟

[قالوا بلى] قد جاءونا بالبينات ، وقامت علينا حجة الله البالغة ، فظلمنا ، وعاندنا الحق بعد ما تبين .

[قالوا] أي الخزنة ، لأهل النار ، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة :

[فادعوا] أنتم ولكن هذا الدعاء ، هل يفنى شيئا أم لا ؟

قال تعالى : [وما دعاء الكافرين إلا في ضلال] أي : باطل لاغ ، لأن الكفر محبط لجميع الأعمال ، صاد لإجابة الدعاء .

﴿٥١﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمْ
الْعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٢﴾
﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

* أى : جهنم لما ذكر عقوبة آل فرعون فى الدنيا ، والبرزخ ، ويوم
القيامة ، وذكر حالة أهل النار الفظيعة ، الذين نابذوا رسله ، وحاربوهم ، قال :

[إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا] أى : بالحجة
والبرهان ، والنصر .

[ويوم يقوم الأشهاد] أى : فى الآخرة بالحكم ، ولأتباعهم بالثواب ،
ولن حاربهم بشدة العذاب .

[يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم] حين يعتذرون [ولهم اللعنة ولهم سوء
الدار] أى : الدار السيئة ، التى تسوء نازلها .

* لما ذكر ما جرى لموسى وفرعون ، وما آل إليه أمر فرعون وجنوده ،
ثم ذكر الحكم العام الشامل له ، ولأهل النار ، ذكر أنه أعطى موسى
[الهدى] أى : الآيات ، والعلم ، الذى يهتدى به المهتدون .

[وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب] أى : جعلناه متوارثا بينهم ،
من قرن إلى آخر ، وهو التوراة .

وذلك الكتاب مشتمل على [هدى] وهو : العلم بالأحكام
الشرعية وغيرها .

الْكِتَابِ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ

[وذكرى] أى : التذکر للخیر ، بالترغیب فیہ ، وعن الشر ، بالترهیب عنه .

ولیس ذلك لكل أحد ، وإنما هو [لأولى الألباب^(١)] .

[فاصبر] یا أيها الرسول ، كما صبر من قبلك ، من المرسلین أولى العزم .

[إن وعد الله حق] أى : لیس مشکوکا فیہ ، أو فیہ ریب أو كذب ، حتى يعسر عليك الصبر .

وإنما هو الحق المحض ، والهدف الصرف ، الذى يصبر عليه الصابرون ، ويجتهد فى التمسك به ، أهل البصائر .

فقوله : [إن وعد الله حق] من الأسباب التى تحت على الصبر ، على طاعة الله ، والكف عن ما يكره الله .

[واستغفر لذنبيك^(٢)] المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك .

(١) أى : لذوى العقول السليمة العاملين بما فى تضاعيفه من الدفع إلى الأعمال الصالحة .

(٢) تداركا لما فرط منك من ترك الأولى فى بعض الأحيان ١ هـ . أبو السعود .

وفى الجلالين « لیستن بك » أى : لتقتدى أمتك بك .

وفى النسفی « لذنبيك » لذنوب أمتك .

وفى «المنتخب فى تفسیر القرآن» واطلب المغفرة من ربك لما قد يعد ذنبا بالنسبة إليك .

وَالْإِنْكَارِ ﴿٥٥﴾

﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ
إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب ، وبالاستغفار ، الذي فيه
دفع المحذور .

[وسبح بمحمد ربك] خصوصا [بالعشى والإبكار] اللذين هما أفضل
الأوقات ، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيها لأن
في ذلك عوننا على جميع الأمور .

* يخبر تعالى أن من جادل في آياته ليبطلها بالباطل ، بغير بينة من أمره ،
ولا حجة ، إن هذا صادر ، من كبر في صدورهم على الحق ، وعلى من جاء
به ، يريدون الاستعلاء عليه ، بما معهم من الباطل ، فهذا قصدهم ومرادهم .
ولكن هذا ، لا يتم لهم ، وليسوا ببالغيه .

فهذا نص صريح ، وبشارة ، بأن كل من جادل الحق ، مغلوب ، وكل
من تكبر عليه ، فهو في نهايته ذليل .

[فاستعذ] أى : الجأ واعتصم [بالله] ولم يذكر ما يستعيز منه ،
إرادة للعموم .

أى : استعذ بالله ، من الكبر الذى يوجب التكبر على الحق .
واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن ، واستعذ بالله من جميع الشرور .
[إنه هو السميع] لجميع الأصوات على اختلافها .
[البصير] بجميع الرئيات ، بأى محل ، وموضع ، وزمان ، كانت .

﴿٥٧﴾ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمَسِيءَ قَلِيلًا

* يخبر تعالى بما تقرر في العقول ، أن خلق السموات والأرض — على
عظمتها وسعتهما — أعظم وأكبر ، من خلق الناس ، فإن الناس بالنسبة
إلى خلق السموات والأرض — من أصغر ما يكون .

فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها ، قادر على إعادة الناس بعد موتهم
من باب أولى وأحرى .

وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث ، دلالة قاطعة ، بمجرد
نظر العاقل إليها ، يستدل بها استدلالا ، لا يقبل الشك والشبهة ، بوقوع
ما أخبرت به الرسل من البعث .

وليس كل أحد يجعل فكره لذلك ، ويقبل على تدبره ، ولهذا قال :
[ولكن أكثر الناس لا يعلمون] ولذلك لا يعتبرون بذلك ،
ولا يعملونه منهم على بال ثم قال تعالى :

[وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات
ولا المسيء] .

أى : كما لا يستوى الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى من آمن بالله ،
وعمل الصالحات ، ومن كان مستكبرا على عبادة ربه ، مقدما على معاصيه ،
ساعيا في مساخطه .

مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾
﴿٦٠﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

[قليلا ماتقدكرون] أى : تذكرم قليل ، وإلا ، فلو تذكرم مراتب
الأمر ، ومنازل الخير والشر ، والفرق بين الأبرار والفجار ، وكانت
لكم همة عليه ، لآثرتم النافع على الضار ، والهدى على الضلال ، والسعادة
الدائمة ، على الدنيا الفانية .

[إن الساعة لآتية لا ريب فيها] قد أخبرت بها الرسل ، الذين
هم أصدق الخلق .

ونظمت بها الكتب السماوية ، التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق ،
وقامت عليها ، الشواهد المرئية ، والآيات الأقفية .

[ولكن أكثر الناس لا يؤمنون] مع هذه الأمور ، التي توجب
كمال التصديق ، والإذعان .

* هذا من لطفه بعباده ، ونعمته العظيمة ، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح
دينهم ودنياهم .

وأمرهم بدعائه ، دعاء العبادة ، ودعاء المسألة ، ووعدهم أن
يستجيب لهم

وتوعد من استكبر عنها فقال : [إن الذين يستكبرون عن عبادتي
سيدخلون جهنم داخرين] أى : ذليين حقيرين ، يجتمع عليهم العذاب
والإهانة ، جزاء على استكبارهم .

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ﴾

تدبر هذه الآيات الكريمة ، الدالة على سعة رحمة الله ، وجزيل فضله ، ووجوب شكره ، وكال قدرته ، وعظيم سلطانه ، وسعة ملكه ، وعموم خلقه لجميع الأشياء ، وكال حياته ، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به ، من الصفات الكاملة ، وما فعله من الأفعال الحسنة .

وتمام ربوبيته ، وانفراده فيها وأن جميع التدبير في العالم العلوى والسفلى في ماضى الأوقات وحاضرها ، ومستقبلها ، بيد الله تعالى ، ليس لأحد من الأمر شيء ، ولا من القدرة شيء .

فينتج من ذلك ، أنه تعالى ، المألوه المعبود وحده ، الذى لا يستحق أحد غيره ، من العبودية شيئاً ، كالم يستحق من الربوبية شيئاً .

وينتج من ذلك ، امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى ، ومحبته ، وخوفه ، ورجائه .

وهذان الأمران — وهما معرفته وعبادته — هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما .

وهما الغاية المتصودة منه تعالى لعباده .

وهما الموصولان إلى كل خير وفلاح وصلاح ، وسعادة دنيوية وأخروية .

وهما أشرف عطايا الكرم لعباده .

وهما أشرف الذات على الإطلاق .

وهما اللذان إن فاتنا ، فات كل خير ، وحضر كل شر .

فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته ، وأن يجعل حركاتنا الباطنة

مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

والظاهرة ، خالصة لوجهه ، تابعة لأمره ، إنه لا يقعظمه سؤال ، ولا يخفيه نوال .

فقوله تعالى : [الله الذي جعل لكم الليل] أى : لأجلكم جعل الله الليل مظلماً .

[لتسكنوا فيه] من حركاتكم ، التى لو استمرت لضرت ، فتأوون إلى فرشكم .

ويلقى الله عليكم النوم ، الذى يستريح به القلب والبدن وهو من ضروريات الآدمى لا يعيش بدونه .

ويسكن فيه أيضا ، كل حبيب إلى حبيبه ، ويجمع الفكر ، وتقل الشواغل .

[و] جعل تعالى [النهار مبصراً] منيراً بالشمس المستمرة فى الفلك . فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدينية .

هذا لذكركه وقراءته ، وهذا لصلاته ، وهذا لطلبه العلم ودراسته ، وهذا لبيعه وشراؤه .

وهذا لبنائه أو تحادته ، أو نحوها من الصناعات . وهذا لسفره برا وبحرا ، وهذا لفلاحته ، وهذا لتصليح^(١) حيواناته .

(١) قوله « لتصليح حيواناته » لو عبر بـ « القيام بمصالح حيواناته ورعايتها » لكان أسلم من الاتقاد وأوضح للقارىء .

لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَالِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا

[إن الله لذو فضل] أى : عظيم ، كما يدل عليه التذكير [على الناس] .
حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها ، وصرف عنهم النعم ، وهذا
يوجب عليهم ، تمام شكره وذكره .

[ولكن أكثر الناس لا يشكرون] بسبب جهلهم وظلمهم .
[وقليل من عبادى الشكور] الذين يقرون بنعمة ربهم ، ويخضعون لله ،
ويحبونه ، ويصرفونها فى طاعة مولاهم ورضاه .
[ذلكم] الذى فعل ما فعل [الله ربكم] أى : المنفرد بالإلهية ،
والمنفرد بالربوبية .

لأن انفراده بهذه النعم ، من ربوبيته ، وإيجابها للشكر ، من ألوهيته .
[خالق كل شيء] تقرير لربوبيته .
[لا إله إلا هو] تقرير أنه المستحق للعبادة وحده ، لا شريك له .
ثم صرح بالأمر بعبادته فقال : [فأنى تؤفكون] أى : كيف تصرفون
عن عبادته ، وحده لا شريك له ، بعدما أبان لكم الدليل ، وأثار
لكم السبيل !!؟

[كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يمجدون] أى : عقوبة على
جعلهم لآيات الله ، وتعميدهم على رسله ، صرفوا عن التوحيد والإخلاص
كما قال تعالى : «وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من

بَأَيِّتِ اللَّهُ يَجْعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا
وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ

أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون .
[الله الذي جعل لكم الأرض قراراً] أى : قارة ساكنة ، مهياة لكل
مصالحكم ، تتمكنون من حرثها وغرسها ، والبناء عليها ، والسفر ،
والإقامة فيها .

[والسماء بناء] سقفا للأرض ، التي أنتم فيها ، قد جعل الله فيها
ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات ، التي يهتدى بها في ظلمات
البر والبحر .

[وصوركم فأحسن صوركم] فليس في جنس الحيوانات ، أحسن صورة
من بنى آدم .

كما قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » .

وإذا أردت أن تعرف حسن آدمى وكال حكمة الله تعالى فيه ، فانظر
إليه ، عضواً عضواً ، هل تجد عضواً من أعضائه ، يليق به ، ويصلح أن
يكون في غير محله ؟

وانظر أيضاً ، إلى الميل الذى فى القلوب ، بعضهم لبعض ، هل تجد
ذلك فى غير الآدمين ؟

وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان ، والمحبة والمعرفة ، التى
هى أحسن الأخلاق المناسبة لأجل الصور .

[ورزقكم من الطيبات] وهذا شامل لكل طيب ، من ما كل ،

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَىُّ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾

ومشرب ، ومنسكح ، وملبس ، ومنظر ، ومسمع وغير ذلك ، من الطيبات
التي يسرها الله لعباده ، ويسر لهم أسبابها .
ومنعمهم من الخبائث ، التي تضادها ، وتضر أبدانهم ، وقلوبهم ،
وأديانهم .

[ذلكم] الذى دبر الأمور ، وأنعم عليكم بهذه النعم [الله ربكم] .
[فتبارك الله رب العالمين] أى : تعظم ، وكثر خيره وإحسانه ، المربى
جميع العالمين بنعمه .

[هو الحى] الذى له الحياة الكاملة التامة ، المستلزمة لما تستلزمه من
صفاته الذاتية ، التي لا تتم حياته إلا بها ، كالسمع ، والبصر ، والقدرة ،
والعلم ، والكلام ، وغير ذلك ، من صفات كماله ، ونعوت جلاله .

[لا إله إلا هو] أى : لا معبود بحق ، إلا وجهه الكريم .
[فادعوه] وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسألة [مخلصين له الدين] .
أى : اقصدا بكل عبادة ودعاء وعمل ، وجه الله تعالى .

فإن الإخلاص ، هو الأمر به كما قال تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا
الله مخلصين له الدين حنفاء » .

[الحمد لله رب العالمين] أى جميع المحامد والمدائح والثناء ، بالتقول
كنطق الخلق بذكره .

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٦)
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ

والفعل ، كعبادتهم له ، كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك ، له ، لكامله في أوصافه وأفعاله ، وتمام نعمه .

* لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده ، وذكر الأدلة على ذلك والبيّنات ، صرح بالنهي عن عبادة ما سواه فقال :

[قل] يا أيها النبي [إنني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله] من الأوثان والأصنام ، وكل ما عبد من دون الله .

ولست على شك من أمرى ، بل على يقين وبصيرة ، ولهذا قال :

[لما جاءني البيّنات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين] بقلي ولساني ، وجوارحي ، بحيث تكون منقاداً لطاعته ، مستسلمة لأمره ، وهذا أعظم مأمور به ، على الإطلاق .

كما أن النهي عن عبادة ما سواه ، أعظم منهي عنه ، على الإطلاق .

ثم قرر هذا التوحيد ، بأنه الخالق لكم ، والمطور لخلقكم .

فكما خلقكم وحده ، فاعبدوه وحده فقال :

[هو الذي خلقكم من تراب] وذلك بخلقه لأصلكم وأبيكم ، آدم ،

عليه السلام .

[ثم من نطفة] وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ، مادام

في بطن أمه .

يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا
وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لَتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

ففيه بالابتداء ، على بقية الأطوار ، من العلقة ، فالضفة ، فالعظام ،
ففنخ الروح .

[ثم يخرجكم طفلاً ثم] هكذا تنتقلون في الخلقة الإلهية .

[لتبلغوا أشدكم] من قوة العقل والبدن ، وجميع قواه الظاهرة والباطنة .

[ثم لتكونوا شيوخاً ، ومنكم من يتوفى من قبل] بلوغ الأشد

[ولتبلغوا] بهذه الأطوار المقدرة [أجلاً مسمى] تنتهي عنده أعماركم .

[ولعلكم تعقلون] أحوالكم ، فتعلمون أن المطور لكم في هذه

الأطوار ، كامل الاقدار ، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، وأنكم

ناقصون من كل وجه .

[هو الذي يحيي ويميت] أي هو المنفرد بالإحياء والإماتة ، فلا تموت

نفس بسبب أو بغير سبب ، إلا بإذنه .

« وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ، إن ذلك

على الله يسير » .

[فإذا قضى أمراً] جليلاً أو حقيراً [فإنما يقول له كن فيكون]

لا رد في ذلك ، ولا مشنوية ، ولا تمنع .

﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى
يُضْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي آعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ

* [ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله] الواضحة البينة متمجبا من
حالمهم الشنيعة .

[أنى يصرفون] أى : كيف ينعدلون عنها ؟ وإلى أى شىء يذهبون
بعد البيان التام ؟

هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله ؟ لا والله .

أم يجدون شيئا توافق أهواءهم ، ويصلون بها ، لأجل باطلهم ؟
فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم ، بتكذيبهم بالكتاب ، الذى
جاءهم من الله ، وبما أرسل الله به رسله ، الذين هم خير الخلق وأصدقهم ،
وأعظمهم عقولا .

فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية ، ولهذا توعدهم الله بعذابها
فقال :

[فسوف يعلمون^(١) إذ الأغلال في أعناقهم] التى لا يستطيعون معها
حركة .

[والسلاسل] التى يقرون بها ، هم وشياطينهم [يسحبون^(٢) فى الحديد]
أى : الماء الذى اشتد غليانه وحره .

(١) أى : عقوبة تكذيبهم .

(٢) يسحبون . أى : يجرون فى الماء الحار . اهـ . نفسى .

يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْعُلَمِمْ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ
أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ

[ثم في النار يسجرون] بو قد عليهم اللهب العظيم ، فيصلون بها ،
ثم يربحون على شركهم وكذبهم .
[وقيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله] هل نفعوكم ، أو دفعوا
عنكم بعض العذاب ؟ .

[قالوا ضلوا عنا] أي : غابوا ولم يحضروا ، ولو حضروا ، لم ينفعوا .
ثم إنهم أنكروا فقالوا : [بل لم نكن ندعو من قبل شيئا] يحتمل
أن مرادهم بذلك ، الإنكار ، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم .
ويحتمل — وهو الأظهر — أن مرادهم بذلك ، الإقرار على بطلان
إلهية ما كانوا يعبدون ، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة ، وإمامهم ضالون
مخطئون ، بعبادة معدوم الإلهية .

ويدل على هذا قوله تعالى « كذلك يضل الله الكافرين » .
أي : كذلك الضلال ، الذي كانوا عليه في الدنيا ، الضلال الواضح
لكل أحد ، حتى إنهم بأنفسهم ، يقرون ببطلانه يوم القيامة .
ويتبين لهم معنى قوله تعالى « وما يتبع الذين يدعون من دون الله
شركاء إن يتبعون إلا الظن » ويدل عليه قوله تعالى :
« ويوم القيامة يكفرون بشرككم * ومن أضل ممن يدعو من دون
الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » الآيات .

نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾
ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ
تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

ويقال لأهل النار [ذلکم] المذاب ، الذى نوع عليكم [بما كنتم
تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون] أى : تفرحون بالباطل
الذى أنتم عليه ، وبالعلوم التى خالقتكم بها علوم الرسل .
وتمرحون على عباد الله ، بغيا ، وعدوانا ، وظلما ، وعصيانا ، كما قال
تعالى فى آخر هذه السورة .

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » .
وكما قال قوم قارون له « لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » .
وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعتاب .
بخلاف الفرح المدوح الذى قال الله فيه « قل بفضل الله وبرحمته
فبذلك فليفرحوا » .

وهو الفرح بالعلم النافع ، والعمل الصالح .
[ادخلوا أبواب جهنم] كل طبقة من طبقاتها ، على قدر عمله .
[خالدین فیها] لا يخرجون منها أبداً [فبئس مَثْوًى المتكبرین] .
مَثْوًى يخرجون فيه ، ويهانون ، ويحبسون ، ويعذبون ، ويترددون بين
حرها وزمهريرها .

﴿٧٧﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِعِضِ الذِّ

نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٧﴾

﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا

أى [فاصبر] يا أيها الرسول ، على دعوة قومك ، وما ينالك منهم ،
من أذى .

واستعن على صبرك بإيمانك [إن وعد الله حق] سينصر دينه ، ويُعَلِّي
كلمته ، وينصر رسله في الدنيا والآخرة .

واستعن على ذلك أيضا ، بتوقيع العقوبة بأعدائك في الدنيا والآخرة ،
ولهذا قال :

[فإما نربيك بعض الذى نعدهم] فى الدنيا فذلك [أو نتوفيك] قبل
عقوبتهم [فإلينا يرجعون] فنجازيهم بأعمالهم ، « فلا تحسبن الله غافلا عما
يعمل الظالمون » .

ثم سلاه وصبره ، بذكر إخواته المرسلين فقال : [ولقد أرسلنا رسلا]
إلى [المبطلون] .

* أى : [ولقد أرسلنا من قبلك رسلا] كثيرين إلى قومهم ، يدعونهم
ويصبرون على أذاهم .

[منهم من قصصنا عليك] خبرهم [ومنهم من لم نقصص عليك] .

وكل الرسل مدبرون ، ليس بيدهم شيء من الأمر .

عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ
بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

[وما كان لرسول] منهم [أن يأتي بآية] من الآيات السمعية والعقلية
[إلا بإذن الله] أى : بمشيئته وأمره .

فاقتراح المقترحين على الرسل ، الإتيان بالآيات ، ظلم منهم ، وتعنت ،
وتكذيب بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم ، وصحة
ما جاءوا به .

[فإذا جاء أمر الله] بالفصل بين الرسل وأعدائهم ، والفتح .

[قضى] بينهم [بالحق] الذى يقع الموضع^(١) ، ويوافق الصواب بإنجاء
الرسل وأتباعهم ، وإهلاك المكذبين ، ولهذا قال :

[وخسر هنالك] أى : وقت القضاء المذكور [المبطلون] الذين
وصفهم الباطل ، وما جاءوا به من العلم والعمل ، باطل ، وغايتهم المقصودة
لهم ، باطلة .

فَلْيَخْذَرِ هَؤُلَاءِ الْخَاطِبُونَ ، أَنْ يَسْتَمِرُّوا عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ ، فَيَخْسَرُوا ، كَمَا
خَسِرَ أَوْلَئِكَ .

فإن هؤلاء لا خير منهم ، ولا لهم براءة فى الكتب بالنجاة .

(١) قوله: يقع الموضع . أى : الصحيح ، الفاصل بين الحق والباطل .

﴿٧٩﴾ وَاللّٰهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً
فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ
فَأْتَى آيَاتِ اللَّهِ تُسْكِرُونَ ﴿٨١﴾

* يمتن تعالى على عباده ، بما جعل لهم من الأنعام ، التي بها ، جملة
من المنافع .

منها : منافع الركوب عليها ، والحمل .

ومنها : منافع الأكل من لحومها ، والشرب من ألبانها .

ومنها : الدفء ، واتخاذ الآلات والأمتعة ، من أصوافها ، وأوبارها

وأشعارها ، إلى غير ذلك من المنافع .

[ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم] من الوصول إلى الأقطار البعيدة ،

وحصول السرور بها ، والفرح عند أهلها .

[وعليها وعلى الفلك تحمّلون] أي : على الرواحل البرية ، والفلك

البحرية ، يحملكم الله الذي سخرها ، وهياً لها ما هياً ، من الأسباب ، التي

لا تتم إلا بها .

[ويريكُم آياته] الدالة على وحدانيته ، وأسمائه ، وصفاته .

وهذا من أكبر نعمه ، حيث أشهد عباده ، آياته النفسية ، وآياته

الأفقية ، ونعمه الباهرة ، وعددها عليهم ، ليعرفوه ، ويشكروه ،

ويذكروه .

[فأى آيات الله تنكرون] أي : أى آية من آياته ، لا تعترفون بها ؟

﴿١٢٢﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ
فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

فإنكم ، قد تقرر عندكم ، أن جميع الآيات والنعم ، منه تعالى .
فلم يبق للإنكار محل ، ولا للإعراض عنها موضع .
بل أوجبت لذوى الألباب ، بذل الجهد ، واستقراغ الوسع ، للاجتهاد
في طاعته ، والتبتل في خدمته ، والاتقطاع إليه .
* يحث تعالى ، المكذبين لرسولهم ، على السير في الأرض ، بأبدانهم ،
وقلوبهم : وسؤال العالمين .

[فينظروا] نظر فكر واستدلال ، لا نظر غفلة وإهمال .
[كيف كان عاقبة الذين من قبلهم] من الأمم السالفة ، كعاد ، وتمرّد
وغيرهم ، ممن [كانوا أكثر منهم وأشدّة قوة وآثاراً في الأرض] من
الآبنية الحصينة ، والغراس الأنينة ، والزروع الكثيرة [فما أغنى عنهم
ما كانوا يكسبون] حين جاءهم أمر الله .

فلم تغن عنهم قوتهم ، ولا افتقدوا بأموالهم ، ولا تحصنوا بمصونتهم .
ثم ذكر جرمهم الكبير فقال : [فلما جاءتهم رسالهم بالبينات] من
الكتب الإلهية ، والخوارق العظيمة ، والعلم النافع المبين ، الهادى من
الضلال ، والحق من الباطل [فرحوا بما عندهم من العلم] المناقض لدين
الرسل .

بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا
بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا

ومن العلوم ، أن فرحهم به ، يدل على شدة رضاهم به ، وتمسكهم ،
ومعاداة الحق ، الذي جاءت به الرسل ، وجعل باطلهم حقا ، وهذا عام لجميع
العلوم ، التي نوقض بها ، ما جاءت به الرسل .

ومن أحقها بالدخول في هذا ، علوم الفلسفة ، والمنطق اليوناني ، الذي
رُدَّتْ به كثير من آيات القرآن ، ونقصت قدره في القلوب ، وجعلت أدلته
اليقينية القاطعة ، أدلة لفظية ، لا تفيد شيئا من اليقين ، ويقدم عليها عقول
أهل السفه والباطل .

وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله ، والمعارضة لها ، والمناقضة ،
فالله المستعان .

[وحاق بهم] أي : نزل وأحاط بهم [ما كانوا به يستهزئون] من
العذاب .

[فلما رأوا بأسنا] أي : عذابنا ، أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار
[قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين] من الأصنام والأوثان
وتبرأنا من كل ما خالف الرسل ، من علم أو عمل .

[فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا] أي : في تلك الحال ، وهذه
[سنة الله] وعادته [التي خلت في عباده] أن المكذبين حين ينزل بهم
بأس الله وعقابه إذا آمنوا ، كان إيمانهم غير صحيح ، ولا منجيا لهم
من العذاب .

بِأَسَنَّا سُنَّتُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
الْكَافِرُونَ ﴿١٥﴾

وذلك لأنه إيمان ضرورة ، قد اضطرروا إليه وإيمان مشاهدة .
وإنما الإيمان الذي ينجي صاحبه ، هو الإيمان الاختياري ، الذي
يكون إيماناً بالغيب ، وذلك قبل وجود قرائن العذاب .
[وخسر هنالك] أى : وقت الإهلاك ، وإذاعة البأس [الكافرون]
دينهم ودينامهم وأخراهم .
ولا يكفي مجرد الخسارة ، فى تلك الدار ، بل لا بد من خسران يشقى
فى العذاب الشديد ، والخلود فيه ، دائماً أبداً .

تم تفسير سورة غافر (المؤمن)

بحمد الله ولطفه ومعونته ، لا بحولنا وقوتنا ، فله الشكر والثناء

تفسير

سُورَةُ فَصَّلَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ
فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل [تنزيل] صادر [من الرحمن الرحيم] الذي وسعت رحمته كل شيء ، الذي من أعظم رحمته وأجلها ، إنزال هذا الكتاب ، الذي حصل به ، من العلم والهدى ، والنور ، والشفاء ، والرحمة ، والخير الكثير ، ما هو من أجل نعمه على العباد ، وهو الطريق للسعادة في الدارين .

ثم أفنى على الكتاب بتمام البيان فقال : [فصلت آياته] أي : فصل كل شيء من أنواعه على حدته ، وهذا يستلزم البيان التام ، والتفريق بين كل شيء ، وتمييز الحقائق .

[قرآناً عربياً] أي : باللغة الفصحى أكمل اللغات ، فصلت آياته وجعل عربياً .

فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهَمُّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي آكِنَّةٍ مِّمَّا

[لقوم يعلمون] أى : لأجل أن يتبين لهم معناه ، كما يتبين لفظه .
ويتضح لهم الهدى من الضلال ، والغى من الرشاد .

وأما الجاهلون ، الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالاً ، ولا البيان إلا عمى
فهؤلاء لم يُسَقِ الكلام لأجلهم ، « سواء عليهم أن نذرتهم أم لم نذرهم
لا يؤمنون » .

[بشيراً ونذيراً] أى : بشيراً بالثواب العاجل والآجل ، ونذيراً
بالعقاب العاجل والآجل وذكر تفصيلهما ، وذكر الأسباب والأوصاف التى
تحصل بها البشارة والنذارة .

وهذه الأوصاف للكتاب ، مما يوجب أو يُتَلَقَّى بالتبول ، والإذعان ،
والإيمان به ، والعمل به .

ولكن أعرض أكثر الخلق إعراض المستكبرين ، [فهم لا يسمعون]
له سماع قبول وإجابة ، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً ، تقوم عليهم به الحججة
الشرعية .

[وقالوا] أى : هؤلاء المعرضون عنه ، مبينين عدم انتفاعهم به ، بسد
الأبواب الموصلة إليه :

[قلوبنا فى آكِنَّةٍ] أى : أغطية مغطاة [مما تدعونا إليه وفى آذنا
وقر] أى : صمم فلا نسمع [ومن بيننا وبينك حجاب] فلا نراك .

القصد من ذلك ، أنهم أظهروا الإعراض عنه ، ومن كل وجه ،
وأظهروا بفضه ، والرضا بما هم عليه ، ولهذا قالوا :

تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيءِ إِذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ
إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا
إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ

[فاعل إننا عاملون] أى : كما رضيت بالعمل بدينك ، فإننا راضون
كل الرضا ، بالعمل فى ديننا .

وهذا من أعظم الخذلان ، حيث رضوا بالضلال عن الهدى ، واستبدلوا
الكفر بالإيمان ، وباعوا الآخرة بالدنيا .

[قل] لهم ، يا أيها النبي : [إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى] .

أى : هذه صفتى ووظيفتى ، أنى بشر مثلكم ، ليس بيدي من الأمر
شىء ، ولا عندي ما تستعجلون به .

وإنما فضلتى الله عليكم ، وميَّزنى ، وخصنى ، بالوحى الذى أوحاه إلى
وأمرنى باتباعه ، ودعوتكم إليه .

[فاستقيموا إليه] أى . اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى ،
بتصديق الخبر الذى أخبر به ، واتباع الأمر ، واجتناب النهى ، هذه حقيقة
الاستقامة ، ثم الدوام على ذلك .

وفى قوله [إليه] تنبيه على الإخلاص ، وأن العامل ينبغى له أن يجعل
مقصوده وغايته ، التى يعمل لأجلها ، الوصول إلى الله ، وإلى دار كرامته ،
فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعا ، وبفواته ، يكون عمله باطلا .

ولما كان العبد ، ولو حرص على الاستقامة ، لا بد أن يحصل منه خلل
بتفسير بأمور ، أو ارتكاب منهى ، أمرهم بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن
للتوبة فقال :

[واستغفروه] ثم توعد من ترك الاستقامة فقال : [وويل للمشركين

لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

الذين لا يؤتون الزكاة [أى : الذين عبدوا من دونه ، من لا يملك نفعا
ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا .

ودسوا أنفسهم ، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له ، ولم يصلوا
ولا زكوا ، فلا إخلاص منهم للخالق بالتوحيد والصلاة ، ولا نفع للخلق
منهم بالزكاة وغيرها .

[وهم بالآخرة هم كافرون] أى : لا يؤمنون بالبعث ، ولا بالجنة
والنار .

فذلك لما زال الخوف من قلوبهم ، أقدموا على ما أقدموا عليه ،
مما يضرهم فى الآخرة .

ولما ذكر الكافرين ، ذكر المؤمنين ، ووصفهم وجزاءهم ، فقال :
[إن الذين آمنوا] بهذا الكتاب ، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من
الإيمان ، وصدقوا بإيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص ، والمتابعة .

[لهم أجر] أى : عظيم [غير ممنون] أى : غير مقطوع ولا نافذ ،
بل هو مستمر مدى الأوقات ، متزايد على الساعات ، مشتمل على جميع
اللذات والمشتهيات .

﴿٩﴾ قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ رَبُّنَا فَأَنْبَسُوا لَهُ كَفْرًا ۗ سَبَّحْتَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ عِندَ رَبِّكَ الْوَجْدُ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَتَضَعْنَ
فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْمَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ
سِوَاءَ لِلسَّابِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَتَضَعْنَ

* ينكر تعالى ويمجّب ، من كفر الكافرين به ، الذين جعلوا معه
أندادا يشركونهم معه ، ويبدلون لهم ما يشاءون من عباداتهم ، ويسوونهم
بالرب العظيم ، الملك الكريم ، الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة ، في
يومين ، ثم دحاها في يومين ، بأن جعل فيها رواسي من فوقها ، ترسيها عن
الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار .

فكمل خلقها ، ودحاها ، وأخرج أقواتها ، وتوابع ذلك [في أربعة
أيام سواء للسائلين] عن ذلك ، فلا يبتك مثل خير .

فهذا هو الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص .

[ثم] بعد أن خلق الأرض [استوى] أى : قصد [إلى] خلق [السماء
وهي دخان] قد ثار على وجه الماء .

[فقال لها] ولما كان هذا التخصيص يوم الاختصاص ، عطف عليه
بقوله [وللأرض ائتي طوعا أو كرها] أى : اتقادا لأمرى ، طائعتين
أو مكرهتين ، فلا بد من نفوذه .

[قالتا أتينا طائعين] أى : ليس لنا إرادة تخالف لإرادتك .

سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنًا السَّمَاءِ

[فضاهن سبع سموات في يومين] فتمَّ خلق السموات والأرض في ستة أيام ، أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة ، مع أن قدرة الله ومشيئته ، صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة .

ولكن مع أنه قدير ، فهو حكيم رقيق .

فن حكمته ورقته ، أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة .

واعلم أن ظاهر هذه الآية ، مع قوله تعالى في النازعات ، لما ذكر خلق السموات قال : « والأرض بعد ذلك دحاها » يظهر منهما التعارض ، مع أن كتاب الله ، لا تعارض فيه ولا اختلاف .

والجواب عن ذلك ، ما قاله كثير من الساف ، أن خلق الأرض وصورتها ، متقدم على خلق السموات كما هنا ، ودحى الأرض بأن « أخرج منها ماءها ومرعاها » والجبال أرساها « متأخر عن خلق السموات كما في سورة النازعات ، ولهذا قال : « والأرض بعد ذلك دحاها » أخرج منها « إلى آخره ولم يقل « والأرض بعد ذلك خلقها » .

وقوله [وأوحى في كل سماء أمرها] أي : الأمر والتدبير اللائق بها ، الذي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين .

[وزينا السماء الدنيا بمصابيح] هي : النجوم ، يستنار ، بها ، ويهتدى ، وتكون زينة وجمالا ، للسماء ظاهرا .

الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

[وحفظاً] لها ، باطنا ، يجعلها رجوما للشياطين ، لئلا يسترق السمع فيها .

[ذلك] المذكور ، من الأرض ، وما فيها ، والسماء وما فيها [تقدير العزيز] الذى عزته ، قهر بها الأشياء ودبرها ، وخلق بها المخلوقات .

[العليم] الذى أحاط علمه بالمخلوقات ، الغائب والشاهد .

فَتَرَكُ الْمُشْرِكِينَ الْإِخْلَاصَ لِهَذَا الرَّبِّ الْعَظِيمِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، الَّذِي انْقَادَتِ الْمَخْلُوقَاتُ لِأَمْرِهِ وَنَفَّذَتْ فِيهَا قُدْرَهُ ، مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ .

واتخاذهم له أندادا يسوونهم به ، وهم ناقصون فى أوصافهم وأفعالهم ، أعجب ، وأعجب .

ولا دواء لهؤلاء ، إن استمر إعراضهم ، إلا العقوبات الدنيوية والأخروية .

فلهذا خوفهم بقوله :

[فإن أعرضوا] إلى قوله [كافرون] .

﴿١٣﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ
وَتَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا
أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴿١٤﴾

أى : فإن أعرض هؤلاء المكذبون ، بعد ما بين لهم من أوصاف
القرآن الحميدة ، ومن صفات الإله العظيم [فقل أنذرتكم صاعقة] .
أى : عذاباً يستأصلكم ويحتاجكم .

[مثل صاعقة عاد وتمود] التبيلتين المعروفتين ، حيث اجتاحهم
العذاب ، وحل عليهم ، وبيل العقاب ، وذلك بظلمهم وكفرهم .
[إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم] أى : يتبع بعضهم
بعضاً متوالين ، ودعوتهم جميعاً واحدة .

[أن لا تعبدوا إلا الله] أى : يأمرهم بالإخلاص لله ، وينهونهم
عن الشرك .

فردوا رسالتهم وكذبوهم [وقالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة]
أى : وأما أنتم فبشر مثلنا [فإننا بما أرسلتم به كافرون] وهذه الشبهة
لم تزل متوارثة بين المكذبين ، من الأمم ، وهى من أوهى الشُّبُه .

فإنه ليس من شرط الإرسال ، أن يكون المرسل مملوكاً .
وإنما شرط الرسالة ، أن يأتى الرسول بما يدل على صدقه .
فَلْيَقْدَحُوا ، إن استطاعوا بصدقهم ، بقادح عقلى أو شرعى ، ولن
يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً .

﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا
مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ
قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا
فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ

* هذا تفصيل لقصة هاتين الأممين ، عاد ، وثمود .

[فأما عاد] فكانوا — مع كفرهم بالله ، وجودهم بآيات الله ،
وكفرهم برسله — مستكبرين في الأرض ، قاهرين لمن حولهم من العباد ،
ظالمين لهم ، قد أعجبتهم قوتهم .

[وقالوا من أشد منا قوة] قال تعالى رداً عليهم ، بما يعرفه كل أحد :
[أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة] فلولا خلقه إياهم ،
لم يوجدوا .

فلو نظروا إلى هذه الحال نظرا صحيحا ، لم يفتروا بقوتهم .

فعاقبهم الله عتوبة ، تناسب قوتهم ، التي اغتروا بها .

[فأرسلنا عليهم ريحا صرصرًا] أي : ريحا عظيمة ، من قوتها وشدتها ،
لها صوت مزعج ، كالرعد القاصف .

فسخرها الله عليهم [في أيام نحسات] « سبع ليالي وثمانية أيام حسوما -
فترى التوم فيها صرعى * كأنهم أعجاز نخل خاوية » .
فدمرتهم وأهلكتهم ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم .

الْآخِرَةَ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾

وَأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ
فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا

وقال هنا : [لذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا] الذى اختزوا به
وافترضوا بين الخليقة .

[ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون] أى : لا يمتنعون من عذاب
الله ، ولا ينفعون أنفسهم .

* وأما ثمود وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه ، الذين
أرسل الله إليهم صالحا عليه السلام ، يدعوهم إلى توحيد ربهم ، وينهاهم
عن الشرك .

وآتاهم الله الناقة ، آية عظيمة ، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ،
يشربون لبنها يوما ، ويشربون من الماء يوما ، وليسوا ينفقون عليها ، بل
تأكل من أرض الله .

ولهذا قال هنا : [وأما ثمود فهديناهم] أى : هداية بيان .

وإتاما نص عليهم ، وإن كان جميع الأمم المهلكة ، قد قامت عليهم
الحجة ، وحصل لهم البيان ، لأن آية ثمود ، آية باهرة ، قد رآها صغيرهم
وكبيرهم ، وذكروهم وأنتاهم ، وكانت آية مبصرة ، فلهذا خصهم بزيادة
البيان والهدى .

ولكنهم — من ظلمهم وشرمهم — استحبوا العمى — الذى هو
الكفر والضلال — على الهدى ، الذى هو : العلم والإيمان .

[فأخذتهم صاعقة العذاب بما كانوا يكسبون] لا ظلما من الله لهم .

الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾

حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا

[ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون] أى نجى الله صالحا عليه السلام ،
ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك ، والمعاصى .

* يخبر تعالى عن أعدائه ، الذين بارزوه بالكفر ، وبآياته ، وتكذيب
رسله ، ومعاداتهم ، ومحاربتهم ، وحالهم الشنيعة ، حين يحشرون ، أى :
يجمعون .

[إلى النار فهم يوزعون] أى : يرد أولهم على آخرهم ، ويتبع آخرهم
أولهم ، ويساقون إليها سوقا عنيفا ، لا يستطيعون امتناعا ، ولا ينصرون
أنفسهم ، ولا هم ينصرون .

[حتى إذا ما جاءوها] أى : حتى إذا وردوا على النار ، وأرادوا
الإنكار ، أو أنكروا ما عملوه من المعاصى .

[شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم] عموم بعد خصوص .

[بما كانوا يعملون] أى يشهد عليهم كل عضو من أعضائهم .

فكل عضو يقول : أنا فعلت كذا وكذا ، يوم كذا وكذا .

وخص هذه الأعضاء الثلاثة ، لأن أكثر الذنوب ، إنما تقع بها ،

أو بسببها .

اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ
وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ

فإذا شهدت عليهم ، عاتبوها [وقالوا لجلودهم] هذا دليل على أن الشهادة
تقع من كل عضو كما ذكرنا :

[لم شهدتم علينا] ونحن ندافع عنكن ؟ [قالوا أنطقنا الله الذى أنطق
كل شيء] .

فليس فى إمكاننا ، الامتناع عن الشهادة ، حين أنطقنا الذى لا يستعصى
شيء عن مشيئته .

[وهو خلقكم أول مرة] فكما خلقكم بذواتكم ، وأجسامكم ، خلق
أيضا صفاتكم ، ومن ذلك ، الإنطاق .

[وإليه ترجعون] فى الآخرة ، فيجزىكم بما عملتم .

ويحتمل أن المراد بذلك ، الاستدلال على البعث ، بالخلق الأول ، كما
هو طريقة القرآن .

[وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم]
أى : وما كنتم تخفون عن شهادة أعضائكم عليكم ، ولا تحاذرون
من ذلك .

[ولكن ظننتم] بإقدامكم على النعاصى [أن الله لا يعلم كثيرا مما
تعملون] فلذلك صدر منكم ما صدر ، وهذا الظن ، صار سبب هلاكهم
وشقائهم ولهذا قال :

كثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ
أَرَدَكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوَىٰ

[وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم] الظن السيء ، حيث ظننتم به ، مالا يليق بجلاله .

[أرداكم] أى : أهلككم [فأصبحتم من الخاسرين] لأنفسهم ، وأهلهم ، وأديانهم ^(١) بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم التبيح بربكم .
فحقت عليكم ، كلمة العقاب والشقاء ، ووجب عليكم الخلود الدائم ، في العذاب ، الذي لا يفتر عنهم ^(٢) ساعة .

[فإن يصبروا فالنار مثوى لهم] فلا جلدَ عليها ، ولا صبر .

وكل حالة قُدِّرَ إمكان الصبر عليها ، فالنار لا يمكن الصبر عليها .

وكيف الصبر على نار ، قد اشتد حرها ، وزادت على نار الدنيا ، بسبعين ضعفا ، وعظم غليان حميمها ، وزاد نتن صديدها ، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلاها ، وكبرت مقامعها ، وغلظ خزَّانها ، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم .

وختم ذلك سنخ الجبار ، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون : « اخسأوا فيها ولا تكلمون » .

(١) قوله : « لأنفسهم وأهلهم ، وأديانهم » فالأنسب أن يقال « لأنفسكم ، وأهلكم ، وأديانكم » ليتلاءم مع ما بعده .

(٢) قوله « عنهم » الصواب أن يقال « عنكم » ليتناسب مع ما قبله .

لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

﴿٢٤﴾ وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

[وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا] أى : يطلبوا أن يزال عنهم العتب ، فيرجعوا إلى الدنيا ، ليستأنفوا العمل .

[فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ] لأنه ذهب وقته ، وعمروا ، ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير .

واقطعت حجتهم ، مع أن استعتابهم ، كذب منهم « فلوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

* [وَقَيِّضْنَا لَهُمْ ^(١)] أى : لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق [قرناء] من الشياطين كما قال تعالى : « ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً » أى تزعجهم إلى المعاصى ، وتحثمهم عليها .

[فزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ] : فالدنيا زخرفوها بأعينهم ، ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة ، حتى افتتنوا ، فأقدموا على معاصى الله ، وسلوكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسوله والآخرة بَعْدُهَا عَلَيْهِمْ وَأَنْسَوْهَا ذَكَرَهَا .

وربما أوقعوا عليهم الشبه ، بعدم وقوعها ، فترحل خوفها من قلوبهم فقادوهم إلى الكفر ، والبدع ، والمعاصى .

وهذا التسليط والتقييض من الله للكاذبين الشياطين ، بسبب إعراضهم

(١) قوله : وَقَيِّضْنَا لَهُمْ . أى : هيأنا لهم قرناء فاسدين يوسوسون لهم ويستولون عليهم .

وَمَا خَلَفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ
الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْءُ

عن ذكر الله وآياته ، وحجودهم الحق كما قال تعالى : « ومن يعش عن
ذكر الرحمن تقيض له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل
ويحسبون أنهم مهتدون » .

[وحق عليهم القول] أى : وجب عليهم ، ونزل القضاء والقدر ،
بعذابهم .

[فى] جملة [أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا
خَاسِرِينَ] لأديانهم وآخرتهم ، ومن خسر ، فلا بد أن يذل ، ويشقى ،
ويعذب .

* يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن ، وتواصيهم بذلك فقال :

[وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن] أى : أعرضوا عنه
بأسماعكم ، وإياكم أن تلتفتوا ، أو تصفوا إليه وإلى من جاء به .

فإن اتفق أنكم سمعتموه ، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه ، عارضوه .

[والنفوا فيه] أى : تكلموا بالكلام الذى لا فائدة فيه ، بل فيه
المضرة ، ولا تمكنوا - مع قدرتك - أحداً يملك عليكم الكلام به ، وتلاوة
ألفاظه ومعانيه .

هذا لسان حالهم ، ولسان مقالهم ، فى الإعراض عن هذا القرآن .

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنْذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ
الَّتَارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءَ بِمَا كَانُوا بَايِتَنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾

[لعلكم] إن فعلتم ذلك [تغلبون ^(١)] وهذه شهادة من الأعداء ،
وأوضح الحق ، ما شهدت به الأعداء ، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق
إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك .

ومفهوم كلامهم ، أنهم إن لم يلبغوا فيه ، بل استمعوا إليه ، وألقوا
أذهانهم ، أنهم لا يغلبون ، فإن الحق ، غالب غير مغلوب ، يعرف هذا ،
أصحاب الحق وأعداؤه .

ولما كان هذا ظلما منهم وعناداً ، لم يبق فيهم مطمع للهداية ، فلم يبق
إلا عذابهم ونكالهم ، ولهذا قال : [فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديداً
ولنجزيهم أسوأ الذي كان يعملون] .

وهو الكفر والمعاصي ، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون ، لكونهم يعملون
المعاصي وغيرها .

فالجزاء بالعقوبة ، إنما هو على عمل الشرك ، « ولا يظلم ربك أحداً » .
[ذلك جزاء أعداء الله] الذين حاربوه ، وحاربوا أولياءه ، جزاؤهم
[النار] بالكفر والتكذيب ، والمجادلة والمجادلة .

[لهم فيها دار الخلد] أى : الخلود الدائم ، الذى لا يفتر عنهم العذاب
ساعة ، ولا هم ينصرون .

(١) أى : فيسكت محمد صلى الله عليه وسلم عن القراءة ، بسبب
تشويشكم عليه .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ
نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٩﴾
﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ

وذلك [جزاء بما كانوا بآياتنا يمجدون] فإنها آيات واضحة ، وأدلة
قاطعة مفيدة لليقين ، فأعظم الظلم وأكبر العناد ، جعدتها ، والكفر بها .
[وقال الذين كفروا] أي : الأتباع منهم ، بدليل ما بعده ، على وجه
الحنق ، على من أضلهم .

[ربنا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ] أي : الصنفين الذين ،
قادانا إلى الضلال والعذاب ، من شياطين الجن ، وشياطين الإنس الدعاة
إلى جهنم .

[نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين] أي : الأذلين المهانين
كما أضلونا ، وقتنونا ، وصاروا سبباً لنزولنا .

ففي هذا ، بيان حنق بعضهم على بعض ، وتبرئ بعضهم من بعض .
* يخبر تعالى عن أوليائه ، وفي ضمن ذلك ، تنشيطهم ، والحث على الاقتداء
بهم ، فقال :

[إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا] أي : اعترفوا ، ونطقوا ، ورضوا
بربوبية الله تعالى ، واستسلموا لأمره ، ثم استقاموا على الصراط المستقيم ، علما
وعملا ، فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

[تنزل عليهم الملائكة] الكرام ، أي : يتكرر نزولهم عليهم ،
مبشرين لهم عند الاحتضار .

تُوَعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَلَا

[أن لا تخافوا] على ما يستقبل منه أمركم ، [ولا تخزنوا] على
ما مضى .

فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل .

[وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون] فإنها قد وجبت لكم وثبتت ،
وكان وعد الله مفعولا .

ويقولون لهم أيضا - مثبتين لهم ، ومبشرين - : [نحن أولياؤكم في
الحياة الدنيا وفي الآخرة] يحثونهم في الدنيا على الخير ، ويزينونه لهم ،
ويرهبونهم عن الشر ، ويقبحونه في قلوبهم ، ويدعون الله لهم ، ويثبتونهم
عند المصائب والخاوف ، وخصوصا عند الموت وشده ، والقبر وظلمته ، وفي
القيامة وأحوالها على الصراط ، وفي الجنة ، يهينونهم بكرامة ربهم ،
ويدخلون عليهم من كل باب « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى
الدار » .

ويقولون لهم أيضا : [ولكم فيها] أي : في الجنة [ما تشتهي أنفسكم]
قد أعد وهي .

[ولكم فيها ما تدعون] أي : تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم
وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتيات ، مما لا عين رأت ، ولا أذن
سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

مَنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا

[نزلا من غفور رحيم] أى: هذا الثواب الجزيل ، والنعيم المقيم ، نُزِّلُ وضيافة [من غفور] غفر لكم السيئات .

[رحيم] حيث وفقكم لفعل الحسنات ، ثم قبلها منكم .
فبمغفرته ، أزال عنكم المحذور ، وبرحمته ، أنا لكم المطلوب .
هذا استفهام بمعنى النفي المقرر أى : لا أحد أحسن قولاً .

أى : كلاماً وطريقة ، وحالة [ممن دعا إلى الله] بتعليم الجاهلين ، ووعظ الغافلين والمعرضين ، ومجادلة المبطلين ، بالأمر بعبادة الله ، بجميع أنواعها ، والحث عليها ، وتحسينها مهما أمكن ، والزجر عما نهى الله عنه ، وتقبيلحه بكل طريق يوجب تركه .

خصوصاً من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه ، ومجادلة أعدائه بالتى هى أحسن ، والنهى عما يضاذه من الكفر والشرك ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

ومن الدعوة إلى الله ، تحبيبه إلى عباده ، بذكر تفاصيل نعمه ، وسعة جوده ، وكمال رحمته ، وذكر أوصاف كماله ، ونعوت جلاله .

ومن الدعوة إلى الله ، الترغيب فى اقتباس العلم والهدى من كتاب الله ، وسنة رسوله ، والحث على ذلك ، بكل طريق موصل إليه .

ومن ذلك ، الحث على مكارم الأخلاق ، والإحسان إلى عموم الخلق ، ومقابلة السيء بالإحسان ، والأمر بصلة الأرحام ، وبر الوالدين .

وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾

ومن ذلك ، الوعظ لعموم الناس ، في أوقات المواسم ، والعوارض ،
والمصائب ، بما يناسب ذلك الحال ، إلى غير ذلك ، مما لا تنحصر أفراده ،
بما تشمله الدعوة إلى الخير كله ، والترهيب من جميع الشر .

ثم قال تعالى : [وعمل صالحا] أى : مع دعوته الخلق إلى الله ، بادر
هو بنفسه ، إلى امتثال أمر الله ، بالعدل الصالح ، الذى يُرِضِى ربه .

[وقال إننى من المسلمين] أى : المنقادين لأمره ، السالكين فى طريقه .
وهذه المرتبة ، تمامها للصدّيقين ، الذين عملوا على تكميل أنفسهم ،
وتكميل غيرهم ، وحصلت لهم الورائة التامة من الرسل .
كما أن من أشتر الناس ، قولا ، من كان من دعاة الضلال السالكين
لسبله .

وبين هاتين المرتبتين المتباينتين ، اللتين ارتفعت إحداهما إلى أعلى
عليين ، ونزات الأخرى ، إلى أسفل سافلين ، مراتب ، لا يعلمها إلا الله ،
وكلها معمورة بالخلق « ولكل درجات مما عملوا وما ربك بناقل عما
يعملون » .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤)
وَمَا يُلْقَىٰهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَىٰهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ

* يقول تعالى : [ولا تستوى الحسنة ولا السيئة] أى : لا يستوى فعل
الحسنات والطاعات ، لأجل رضا الله تعالى ، وفعل السيئات والمعاصي ،
التي تسخطه ولا ترضيه .

ولا يستوى الإحسان إلى الخلق ، ولا الإساءة إليهم ، لافى ذاتها ،
ولافى وصفها ، ولا فى جزائها « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » .
ثم أمر بإحسان خاص ، له موقع كبير ، وهو : الإحسان إلى من أساء
إليك فقال :

[ادفع بالتي هى أحسن] أى : فإذا أساء إليك مسيء من الخلق ،
خصوصا من له حق كبير عليك ، كالأقارب ، والأصحاب ، ونحوهم ، إساءة
بالقول أو بالفعل ، فتقابله بالإحسان إليه .

فإن قطعك فصله ، وإن ظلمك ، فاعف عنه ، وإن تكلم فيك ، غائبا
أو حاضرا ، فلا تقابله ، بل اعف عنه ، وعامله بالقول اللين .

وإن هجرك ، وترك خطابك ، فطيب له الكلام ، وابذل له السلام .
فإذا قابلت الإساءة بالإحسان ، حصل فائدة عظيمة .

[فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم] أى : كأنه قريب شفيق .

[وما يلقاها] أى : وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة [إلا الذين صبروا]

فموسمهم على ما تكره ، وأجبروها على ما يحبه الله .

عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ

فإن النفوس مجبولة على مقابلة المصائب بإساءته وعدم العفو عنه ،
فكيف بالإحسان !!؟ .

فإذا صبر الإنسان نفسه ، وامتنل أمر ربه ، وعرف جزيل الثواب
وعلم أن مقابله للمصائب بجنس عمله ، لا تفيده شيئاً ، ولا تزيد العداوة
إلا شدة ، وأن إحسانه إليه ، ليس بواضع قدره ، بل من تواضع لله رفعه ،
هان عليه الأمر ، وفعل ذلك ، متلذذا مستحلياً له .

[وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم] لكونها من خصال خواص الخلق ،
التي ينال بها العبد ، الرفعة في الدنيا والآخرة ، التي هي من أكبر خصال
مكارم الأخلاق .

* لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس ، وهو مقابلة إساءته
بالإحسان ، ذكر ما يدفع به العدو الجنى ، وهو الاستعاذة بالله ، والاحتواء
من شره فقال :

[وإما ينزغنك من الشيطان نزغ] أى : أى وقت من الأوقات ،
أحسست بشيء من نزغات الشيطان ، أى : من وساوسه ، وتزيينه للشر ،
وتكسيه عن الخير ، وإصابة ببعض الذنوب ، وإطاعة له ببعض ما يأمر به
[فاستعذ بالله] أى : أسأله ، مفقراً إليه ، أن يعيدك ويعصمك منه .

[إنه هو السميع العليم] فإنه يسمع قولك وتضرعك ، ويعلم حالك
واضطرابك إلى عصمته وحمايقه .

وَالْقَمَرَ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ
إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ

ثم ذكر تعالى أن [من آياته] الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه ، ورحمته بعباده ، وأنه الله وحده لا شريك له [الليل والنهار] : هذا بمنفعة ضيائه ، وتصرف العباد فيه ، وهذا بمنفعة ظلمته ، وسكون الخلق فيه .

[والشمس والقمر] اللذان لا تستقيم معاش العباد ، ولا أبدانهم ، ولا أبدان حيواناتهم ، إلا بهما ، وبهما من المصالح ، ما لا يحصى عدده .

[لا تسجدوا للشمس ولا للقمر] فإنهما مدبران مسخران مخلوقان .

[واسجدوا لله] الذى خلقهن ، أى : اعبدوه وحده ، لأنه الخالق العظيم ، ودعوا عبادة ما سواه ، من المخلوقات ، وإن كبر ، جرمها وكثرت مصالحها ، فإن ذلك ليس منها ، وإنما هو من خالقها ، تبارك وتعالى .

[إن كنتم إياه تعبدون] فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له .

[فإن استكبروا] عن عبادة الله تعالى ، ولم ينقادوا لها ، فإنهم لن يضروا الله شيئا ، والله غنى عنهم ، وله عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

ولهذا قال : [فالذين عند ربك] يعنى : الملائكة المقربين [يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون] أى : لا يملون من عبادته ، لقوتهم ، وشدة الداعى القوى منهم إلى ذلك .

يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ
وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

[ومن آياته] الدالة على كمال قدرته ، وانفراده بالملك والتدبير
والوحدانية .

[أنك ترى الأرض خاشعة] لا نبات فيها [فإذا أنزلنا عليها الماء]
أى : المطر [اهتزت] أى : تحركت بالنبات [وربت ^(١)] ثم : أنبتت من
كل زوج بهيج ، فحي بها العباد والبلاد .

[إن الذى أحياها] بعد موتها وهمودها ، [لمحي الموتى] من قبورهم
إلى يوم بعثهم ، فنشورهم [إنه على كل شيء قدير] فكالم تعجز قدرته عن
إحياء الأرض بعد موتها ، لا تعجز عن إحياء الموتى .

(١) ربت : أى : انتفخت وزادت قال : أبو السعود فى تفسيره
« أى : تحركت بالنبات وانتفخت ، لأن النبات إذا دنا أن يظهر ،
ارتفعت له الأرض ، وانتفخت ، ثم تصدعت عن النبات » .
وقيل تزخرفت بالنبات . وقرئ « ربأت » أى : ارتفعت .

﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا
أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا
مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ

* الإلحاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب ، بأى وجه كان :

إما بإنكارها وجحودها ، وتكذيب من جاء بها .

وإما بتحريفها عن معناها الحقيقي ، وإثبات معان لها ، ما أَرادها

الله منها .

فتوعدّ تعالى ، من ألحد فيها ، بأنه لا يخفى عليه ، بل هو مطلع على

ظاهره وباطنه ، وسيجازه به على إلحاده بما كان يعمل ، ولهذا قال :

[أفن يلقى في النار] مثل الملحد بآيات الله [خير أم من يأتي آمنا

يوم القيمة] من عذاب الله مستحقا لنوابه ؟ من المعلوم أن هذا خير .

لما تبين الحق من الباطل ، والطريق المنجى من عذابه من الطريق

المهلك قال :

[اعملوا ما شئتم] ، إن شئتم ، فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا

ربكم وجنته .

وإن شئتم ، فاسلكوا طريق النفي المسخطة لربكم ، الموصلة إلى دار

الشفاء .

[إنه بما تعملون بصير] يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم ، كقوله

تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

ثم قال تعالى : [إن الذين كفروا بالذکر] أى يجحدون القرآن الكريم

لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

المذكور للعباد جميع مصالحهم الدينية والدينية والأخروية ، المُعَلِّي لقدر
من اتبعه .

[لما جاءهم] نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم .

[و] الحال [إنه لكتاب] جامع لأوصاف الكمال [عزيز] .

أى : منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء . ولهذا قال :

[لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه] أى : لا يقربه شيطان من
شياطين الإنس والجن ، لا بسرقة ، ولا بإدخال ما ليس منه به ، ولا بزيادة
ولا نقص .

فهو محفوظ في تنزيله ، محفوظة ألفاظه ومعانيه ، قد تكفل من أنزله بحفظه
كما قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

[تنزيل من حكيم] فى خلقه وأمره ، يضع كل شىء موضعه ، وينزله
حنازله .

[حميد] على ماله من صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، وعلى ماله من
العدل والإفضال ، فهذا كان كتابه ، مشتملا على تمام الحكمة ، وعلى تحصيل
المصالح والمنافع ، ودفع المفاسد والمضار ، التى يحمد عليها .

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ

لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤٣)

* أى : [ما يقال لك] أيها الرسول من الأقوال الصادرة ، ممن كذبك وعاندك .

[إلا ما قيل للرسول من قبلك] أى : من جنسها .

بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد ، كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسول ، من دعوتهم إلى الإخلاص لله ، وعبادته وحده لا شريك له ، وردم هذا ، بكل طريق يقدرون عليه ، وقولهم : « ما أنتم إلا بشر مثلنا » .

واقترحهم على رسلهم الآيات، التي لا يلزمهم الإتيان بها ، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب ، لما تشابهت قلوبهم في الكفر ، تشابهت أقوالهم .

وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم ، وتكذيبهم ، فاصبر كما صبر من قبلك .

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة ، وحذرهم من الاستمرار على النفي فقال :

[إن ربك لذو مغفرة] أى : عظيمة ، يحجبها كل ذنب لمن أفلح

وتاب [وذو عقاب أليم] لمن : أصر واستكبر .

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ
أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ

* يخبر تعالى عن فضله وكرمه ، حيث أنزل كتابا عربيا ، على الرسول
العربي ، بلسان قومه ، ليبين لهم .

وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به ، والتلقى له والتسليم .
وأنه لو جعله قرآنا أعجميا ، باغة غير العرب ، لاعترض ، المكذبون
وقالوا :

[لولا فصلت آياته] أى : هلا بينت آياته ، ووضحت وفسرت .

[أأعجمي وعربي] أى : كيف يكون محمد عربيا ، والكتاب أعجمي ؟
هذا لا يكون .

ففي الله تعالى كل أمر ، يكون فيه شبهة لأهل الباطل ، عن كتابه ،
ووصفه بكل وصف ، يوجب لهم الانقياد .

ولكن المؤمنون الموقنون ، انتفعوا به ، وارتفعوا ، وغيرهم بالعكس
من أحوالهم .

ولهذا قال : [قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء] أى : يهديهم لطريق
الرشد ، والصراط المستقيم ويعلمهم من العلوم النافعة ، ما به تحصل الهداية
التامة .

وشفاء لهم من الأستقام البدنية ، والأسقام القلبية ، لأنه يزجر عن
مساوى الأخلاق ، وأقبح الأعمال ، ويحث على التوبة النصوح ، التي تغسل
الذنوب ، وتشفى القلب .

لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ
مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٤﴾
﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا

[والذين لا يؤمنون] بالقرآن [في آذانهم وقر] أى : صمم عن استماعه
وإعراض ، [وهو عليهم عمى] أى : لا يبصرون به رشداً ، ولا يهتدون
به ، ولا يزيدهم إلا ضلالاً .

فإنهم إذا ردوا الحق ، ازدادوا عمى إلى عماهم ، وغياً إلى غيهم .
[أولئك ينادون من مكان بعيد] أى : ينادون إلى الإيمان ، ويدعون
إليه ، فلا يستجيبون .

بمنزلة الذى ينادى ، وهو فى مكان بعيد ، لا يسمع داعياً ولا يجيب
منادياً .

والمقصود : أن الذين لا يؤمنون بالقرآن ، لا ينتفعون بهداه ،
ولا يبصرون بنوره ، ولا يستفيدون منه خيراً ، لأنهم سدوا على أنفسهم
أبواب الهدى ، بإعراضهم وكفرهم .

* يقول تعالى : [ولقد آتينا موسى الكتاب] كما آتيناك الكتاب ،
فصنع به الناس ما صنعوا معك ، اختلفوا فيه :

فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع ، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به .
وإن الله تعالى ، لولا حلمه وكميته السابقة ، بتأخير العذاب إلى أجل
مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر [لقضى بينهم] بمجرد ما يتميز المؤمنون من

كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِنْهُ
مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ
بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ

الكافرين ، بإهلاك الكافرين في الحال ، لأن سبب الهلاك ، قد
وجب وحق .

[وإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِنْهُ مُرِيبٍ] أى : قد بلغ بهم إلى الريب الذى
يقلقهم ، فلذلك كذبوه وجحدوه .

[مَنْ عَمِلَ صَالِحًا] وهو العمل الذى أمر الله به ، ورسوله [فلنفسه]
نفعه وثوابه فى الدنيا والآخرة [وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا] ضرره وعقابه ، فى
الدنيا والآخرة .

وفى هذا ، حثُّ على فعل الخير ، وترك الشر ، وانتفاع العاملين ،
بأعمالهم الحسنة ، وضررهم بأعمالهم السيئة ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى .
[وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ] فَيُحْمَلُ أَحَدًا فَوْقَ سَيِّئَاتِهِ .

* هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذى ، لا يطلع عليه
سواه فقال :

[إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ] أى : جميع الخلق يرد علمهم إلى الله تعالى ،
ويقرون بالعجز عنه ، الرسل ، والملائكة ، وغيرهم .

[وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا] أى : وعائها الذى تخرج منه .

أَكْأَمِيهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَثْنِي وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِي وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا أٰذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظُنُّوا مَا لَهُمْ مِنَ نَجِيصٍ ﴿٤٨﴾

وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبرارى ،
فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار ، إلا وهو يعلمها تفصيلىا .
[وما تحمل من أثنى] من بنى آدم وغيرهم ، من أنواع الحيوانات ،
إلا بعلمه [ولا تضع إلا بعلمه] .
فكيف سوى المشركون به تعالى ، من لا علم عنده ، ولا سمع
ولا بصر ؟ .

[ويوم يناديهم] أى : المشركين به يوم القيامة توبيخاً وإظهاراً
لكذبهم فيقول لهم :
[أين شركائى] الذين زعمتم أنهم شركائى ، فعبدتموهم ، وجادتم على
ذلك ، وعاديتم الرسل لأجلهم ؟ .

[قالوا] مقرين ببطلان إلهيتهم ، وشركتهم مع الله :
[آذناك ما منا من شهيد] أى : أعلمناك يا ربنا ، واشهد علينا
أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم ، فكلنا الآن ، رجعنا إلى
بطلان عبادتها ، وتبرأنا منها ، ولهذا قال :

[وضل عنهم ما كانوا يدعون] من دون الله ، أى : ذهبت عقائدهم
وأعمالهم ، التي أفنوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله ، وظنوا أنها تفيدهم ،
وتدفع عنهم العذاب ، وتشفع لهم عند الله .

﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾
﴿فَيُوسِقِنُوطٌ﴾ (٤٩) وَلَكِنْ أَذَقَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ

نخاب سعيهم ، وانتقض ظنهم ، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئا [وظنوا]
أى : أيقنوا فى تلك الحال [ما لهم من محيص] أى : منقذ ينقذهم ،
ولا مغيث ، ولا ملجأ .

فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره ، بينها الله لعباده ، ليحذروا الشرك به .

* هذا إخبار عن طبيعة الإنسان ، من حيث هو ، وعدم صبره وجلده ،
لا على الخير ، ولا على الشر ، إلا من نقله الله من هذه الحال ، إلى حال
الكمال ، فقال :

[لا يسأم الإنسان من دعاء الخير] أى : لا يمل دائما ، من دعاء الله ،
بالفوز ، وللمال ، والولد ، وغير ذلك ، من مطالب الدنيا .

ولا يزال يعمل على ذلك ، ولا يقتنع بقليل ، ولا بكثير منها .

فلو حصل له من الدنيا ، ما حصل ، لم يزل طالبا للزيادة .

[وإن مسه الشر] أى : المكروه ، كالمرض ، والفقر ، وأنواع البلى
[فيئوس قنوط] أى : يئأس من رحمة الله تعالى ، ويظن أن هذا البلاء ،
هو القاضى عليه بالهلاك ، ويتشوش من إتيان الأسباب ، على غير
ما يجب ويطلب .

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة
والحباب ، شكروا الله تعالى ، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم ،
استدراجا وإمهالا .

لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِيتُ إِلَىٰ رَبِّي
إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ
مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ

وإن أصابهم مصيبة ، في أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، صبروا ،
ورجوا فضل ربهم ، فلم يياسوا .

ثم قال تعالى : [ولئن أذقناه] أى : الإنسان الذى يسأم من دعاء
الخير ، وإن مسه الشر فيثوس [رحمة منا] أى : بعد ذلك الشر الذى
أصابه ، بأن عافاه الله من مرضه ، أو أغناه من فقره ، فإنه لا يشكر الله
تعالى ، بل يبنى ، ويطغى ، ويقول :

[هذا لى] أى : أتانى ، لأنى له أهل ، وأنا مستحق له [وما أظن
الساعة قائمة] ، وهذا إنكار منه للبعث ، وكفر للنعمة والرحمة ، التى
أذاقها الله له .

[وأن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى] أى : على تقدير إتيان
الساعة ، وأنى سأرجع إلى ربى ، إن لى عنده ، للحسنى .

فكما حصلت لى النعمة فى الدنيا ، فإنها ستحصل لى فى الآخرة .
وهذا من أعظم الجرأة والقول على الله ، بلا علم ، فلهذا توعده بقوله :
[فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ]
أى : شديد جداً .

[وإذا أنعمنا على الإنسان] بصحة ، أو رزق ، أو غيرها [أعرض]
عن ربه وعن شكره [ونأى] ترفع [بجانبه] عجباً وتكبراً .

وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُوْ دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ

أَضَلَّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ

[وإن مسه الشر] أى : المرض ، أو الفقر ، أو غيرها [فذو دعاء

عريض] أى : كثير جدا ، لعدم صبره .

فلا صبر فى الضراء ، ولا شكر فى الرخاء ، إلا من هداه الله

ومن عليه .

* أى [قل] لهؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلى الكفران :

[أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ] هذا القرآن [مَنْ] عند الله [من غير شك

ولا ارتياب .

[ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو فى شقاق بعيد] أى : معاندة الله

ولرسوله ، لأنه تبين لكم الحق والصواب ، ثم عدلتم عنه ، لا إلى حق ،

بل إلى باطل وجهل .

فإِذَا تَكُونُونَ أَضَلَّ النَّاسِ وَأَظْلَمَهُمْ .

فإن قلم ، أو شككم بصحته وحقيقته ، فسيقم الله لكم ، ويريكم

من آياته ، حيث قال تعالى : [سنريهم آياتنا فى الآفاق] كآيات التى

فى السماء وفى الأرض ، وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة ، الدالة

للمستبصر على الحق .

وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَلْحَقُ أَوْلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٤﴾

[وفي أنفسهم] مما اشتملت عليه أبدانهم ، من بديع آيات الله ،
وعجائب صنعته ، وباهر قدرته ، وفي حلول العقوبات والمثلثات في المكذبين ،
ونصر المؤمنين .

[حتى يتبين لهم] من تلك الآيات ، بيانا لا يقبل الشك [أنه الحق]
وما اشتمل عليه حق .

وقد فعل تعالى ، فإنه أرى عباده من الآيات ، ما به تبين أنه الحق ،
ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء ، والخاذل لمن يشاء .

[أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد] أى : أو لم يكفهم على أن
القرآن حق ، ومن جاء به صادق ، بشهادة الله تعالى ، فإنه قد شهد
له بالتصديق ، وهو أصدق الشاهدين ، وأيده ، ونصره نصراً متضمناً
لشهادته القولية ، عند من شك فيها .

[ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم] أى : في شك من البعث والقيامة ،
وليس عندهم دار ، سوى الدار الدنيا ، فذلك لم يعملوا للآخرة ،
ولم يلتفتوا لها .

[ألا إنه بكل شيء محيط] علما وقدرة وعزة .

تفسير

سُورَةُ الشُّورَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقَ ﴿٢﴾﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ

• يخبر تعالى ، أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم ، كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين .

ففيه بيان فضله ، بإنزال الكتب ، وإرسال الرسل ، سابقا ولاحقا ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بيدع من الرسل .

وأن طريقته ، طريقة من قبله ، وأحواله تناسب أحوال من قبله ، من المرسلين .

وما جاء به ، يشابه ما جاءوا به ، لأن الجميع حق وصدق ، وهو تنزيل من اتصف بالألوهية ، والعزة العظيمة ، والحكمة البالغة .

وأن جميع العالم ، العلوى والسفلى ، ملكه ، وتحت تدبيره القدرى والشرعى .

مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ
فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ
فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا

وأنه [العلى] بذاته ، وقدره ، وقهره .

[العظيم] الذى من عظمته [تكاد السموات يتفطرن ^(١) من فوقهن]
على عظمتها وكونها جماداً .

[والملائكة] الكرام المقربون ، خاضعون لعظمته ، مستكينون
لعزته ، مدعون بربوبيته .

[يسبحون بحمد ربهم] ويعظمونه وينزهونه عن كل نقص ، ويصفونه
بكل كمال .

[ويستغفرون لمن فى الأرض] عما يصدر منهم ، مما لا يليق بعظمة
ربهم وكبريائه .

مع أنه تعالى [هو الغفور الرحيم] الذى لولا مغفرته ورحمته ، لعاجل
الخلق بالعقوبة المستأصلة .

وفى وصفه تعالى بهذه الأوصاف ، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل
عموماً ، وإلى محمد — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — خصوصاً ،

(١) يتفطرن . أى : تنشق كل واحدة فوق التى تليها من عظمة الله .

مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾
وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ

إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم ، فيه الأدلة والبراهين ، والآيات الدالة على كمال الباري تعالى ، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب ، من معرفته ، ومحبته ، وتمظيمه ، وإجلاله ، وإكرامه ، وصرف جميع أنواع العبودية ، الظاهرة ، والباطنة ، له تعالى .

وأن من أكبر الظلم ، وأخس القول ، اتخاذ أنداد لله من دونه ، ليس بيدهم نفع ولا ضرر .

بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم ، ولهذا عقبه بقوله :
[والذين اتخذوا من دونه أولياء] يتولونهم بالعبادة والطاعة ، كما يعبدون الله ويطيعونه ، فإنما اتخذوا الباطل ، وليسوا بأولياء على الحقيقة .

[الله حفيظ عليهم] يحفظ عليهم أعمالهم ، فيجازيهم بخيرها وشرها .
[وما أنت عليهم بوكيل] فتسأل عن أعمالهم ، وإنما أنت مبلغ ، أدبت وظيفتك .

ثم ذكر منته على رسوله ، وعلى الناس ، حيث أنزل الله [قرآنًا عربيًّا] بين الألفاظ والمعاني [لتنذر أم القرى] وهي مكة المكرمة [ومن حولها] من قرى العرب ثم يسرى هذا الإنذار ، إلى سائر الخلق .

[وتنذر] الناس [يوم الجمع] الذي يجمع الله به الأولين والآخرين ،

فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ
مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾
أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ

وتخبرهم أنه [لا ريب فيه] وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين [فريق في الجنة]
وهم الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين ، [وفريق في السعير] وهم أصناف
الكفرة المكذبين .

[و] مع هذا [لو شاء الله لجمعهم] أي : جعل الناس كلهم
[أمة واحدة] على الهدى ، لأنه القادر ، الذي لا يمتنع عليه شيء ، ولكن
أراد أن يدخل في رحمته من شاء ، من خواص خلقه .

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح ، فإنهم محرومون من الرحمة ،
فـ [ما لهم] من دون الله [من ولي] يتولاهم ، فيحصل لهم المحبوب
[ولا نصير] يدفع عنهم المكروه .

[والذين اتخذوا من دونه أولياء] يتولونهم بعبادتهم إياهم ، فقد
غلطوا أقبح غلط .

فإنه ، هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته ، والتقرب إليه
بما أمكن من أنواع التقربات ، ويتولى عباده عموماً بتدبيره ، ونفوذ
القدر فيهم .

ويتولى عباده المؤمنين خصوصاً ، بإخراجهم من الظلمات إلى النور ،
وتربيتهم بلطفه ، وإعانتهم في جميع أمورهم .

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴿٩﴾

﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ
اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ

[وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير] أى : هو المتصرف
بالأحياء والإماتة ، ونفوذ المشيئة والقدرة ، فهو الذى يستحق أن يعبد وحده ،
لا شريك له .

* يقول تعالى : [وما اختلفتم فيه من شيء] من أصول دينكم وفروعه ،
مما لم تتفقوا عليه [فحكمه إلى الله] يرد إلى كتابه ، وإلى سنة رسوله ،
فما حكم به ، فهو الحق ، وما خالف ذلك ، فباطل .

[ذلكم الله ربى] أى : فكما أنه تعالى ، الرب الخالق الرازق المدبر ،
فهو تعالى الحاكم بين عباده ، بشرعه فى جميع أمورهم .
ومفهوم الآية الكريمة ، أن اتفاق الأمة ، حجة قاطعة ، لأن الله تعالى ،
لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه .

فما اتفقنا عليه ، يكفى اتفاق الأمة عليه ، لأنها معصومة عن الخطأ .
ولا بد أن يكون اتفاقها ، موافقا لما فى كتاب الله وسنة رسوله .
وقوله : [عليه توكلت] أى : اعتمدت بقلبي عليه ، فى جلب المنافع ،
ودفع المضار ، واثقا به تعالى فى الإسعاف بذلك .

[وإليه أُنِيبُ] أى : أتوجه بقلبي وبدنى إليه ، وإلى طاعته وعبادته .
وهذان الأصلان ، كثيراً ما يذكرهما الله فى كتابه ، لأنهما يحصل

وَالْأَرْضِ جَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا
يَذَرُونَكُمْ فِيهِ لِيَسَ كَمَثَلِ شَيْءٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ

بمجموعهما ، كمال العبد ، ويفوته الكمال بفوتهما ، أو فوت أحدهما ،
كقوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » وقوله « فاعبده وتوكل عليه » .

[فاطر السموات والأرض] أى : خالقهما بقدرته ومشيتته وحكمته .

[جعل لكم من أنفسكم أزواجاً] لتسكنوا إليها ، وتنتشر منكم
الذرية ، ويحصل لكم من النفع ، ما يحصل .

[ومن الأنعام أزواجاً] أى : ومن جميع أصنافها ، نوعين ، ذكر ،
وأنتى ، لتبقى ، وتنمو لمنافعكم الكثيرة ، ولهذا عداها باللام ، الدالة على
التعليل : أى : جعل لكم من أنفسكم ، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً .

[ليس كمثله شيء] أى : ليس يشبهه تعالى ولا يماثله ، شيء ، من
مخلوقاته ، لا فى ذاته ، ولا فى أسمائه ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، لأن
أسماءه ، كلها حسنى ، وصفاته ، صفات كمال وعظمة ، وأفعاله تعالى ، أوجد
بها المخلوقات العظيمة ، من غير مشارك .

فليس كمثله شيء ، لانفراده ، وتوحيده بالكمال ، من كل وجه .

[وهو السميع] لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات .

[البصير] يرى ديب النملة السوداء ، فى الليلة الظلماء ، على

الصخرة الصماء .

مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جدا ، وسريان الماء
في الأغصان الدقيقة .

وهذه الآية ونحوها ، دليل لمذاهب أهل السنة والجماعة ، من إثبات
الصفات ، ونفي مماثلة المخلوقات .

وفيها رد ، على المشبهة في قوله [ليس كمثل شيء] وعلى المعطلة في قوله
[وهو السميع البصير] .

وقوله [له مقاليد السموات والأرض] أي : له ملك السموات والأرض
وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق ، والنعم الظاهرة والباطنة .

فكل الخلق مفتقرون إلى الله ، في جلب مصالحهم ، ودفع المضار
عنهم ، في كل الأحوال ليس بيد أحد ، من الأمر ، شيء .

والله تعالى هو المعطى المانع ، الضار النافع ، الذي ما بالعباد من نعمة ،
إلا منه ، ولا يدفع الشر ، إلا هو و « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك
لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده » .

ولهذا قال هنا : [يبسط الرزق لمن يشاء] أي : يوسعهم ويعطيه من
أصناف الرزق ، ما شاء [ويقدر] أي : يضيّق على من يشاء ، حتى يكون
يقدر حاجته ، لا يزيد عنها ، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته ، فلهذا قال :

[إنه بكل شيء عليم] فيعلم أحوال عباده ، فيعطى كلا ، ما يليق
بحكمته ، وتقتضيه مشيئته .

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا
الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ

* هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده ، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها ، وأزكاها وأطهرها .

دين الإسلام ، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده .
بل شرعه الله لخيار الخيار ، وصفوة الصفوة وهم أولو العزم من المرسلين
الذكورون في هذه الآية أعلى الخلق درجة ، وأكملهم من كل وجه .
فالدين الذي شرعه الله لهم ، لا بد أن يكون مناسباً لأحوالهم ،
موافقاً لكاملهم ، بل إنما اكلمهم الله واصطفاهم ، بسبب قيامهم به .
فلولا الدين الإسلامي ، ما ارتفع أحد من الخلق ، فهو روح السعادة ،
وقطب رحى الكمال ، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم ، ودعا إليه
من التوحيد والأعمال ، والأخلاق ، والآداب .

قال : [أن أقيموا الدين] أى : أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين
أصوله وفروعه ، تقيمونه بأنفسكم ، وتجتهدون في إقامته على غيركم ،
وتعاونون على البر والتقوى ولا تعاونون على الإثم والعدوان .
[ولا تتفرقوا فيه] أى : ليحصل منكم الاتفاق على أصول
الدين وفروعه .

واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل ، وتمزبكم أحزاباً وشيعاً ، يعادى
بعضكم بعضاً ، مع اتفاقكم على أصل دينكم .

يَجْتَبِي إِلَيْهِ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه ، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة ، كاجتماع الحج والأعياد ، والجمع ، والصلوات الخمس ، والجهاد ، وغير ذلك ، من العبادات ، التي لا تتم ، ولا تكمل إلا بالاجتماع لها ، وعدم التفرق .

[كبر على المشركين ما تدعوهم إليه] أى : شق عليهم غاية المشقة ، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده ، كما قال عنهم « وإذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » وقولهم « أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب » .

[الله يجتبي إليه من يشاء] أى : يختار من خليفته من يعلم أنه يصلح للاجتماع لرسالاته وولايته .

ومنه ، أن اجتبي هذه الأمة ، وفضلها على سائر الأمم ، واختار لها أفضل الأديان وخيرها .

[ويهدى إليه من ينيب] هذا السبب الذى من العبد ، يتوصل به إلى هداية الله تعالى وهو : إنابته لربه ، وانجذاب دواعى قلبه إليه ، وكونه قاصدا وجهه .

فحسن مقصد العبد ، مع اجتهاده فى طلب الهداية ، من أسباب التيسير لها ، كما قال تعالى « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام » .

وفى هذه الآية ، أن الله [يهدى إليه من ينيب] مع قوله « واتبع سبيل من أناب إلى » مع العلم بأحوال الصحابة رضى الله عنهم ، وأن شدة

﴿١٤﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنِعْيَا يَنْهَمُ
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ يَنْهَمُ
وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

إنابتهم ، دليل على أن قولهم حجة ، خصوصا الخلفاء الراشدين ، رضى الله عنهم أجمعين .

* لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم ، ونهاهم عن التفرق ، أخبرهم أنهم ، ينبغي لهم أن لا يفتروا بما أنزل الله عليهم من الكتاب .

فإن أهل الكتاب ، لم يتفرقوا ، حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع ، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم ، وذلك كله ، بغيا وعدواناً منهم .

فإنهم تباغضوا وتحاسدوا ، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة ، فوقع الاختلاف .

فاحذروا ، أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم .

[ولولا كلمة سبقت من ربك] أى : بتأخير العذاب القاضى ، إلى أجل مسمى [لفضى بينهم] ولكن حكمته وحلمه ، اقتضى تأخير ذلك عنهم .

[وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم] أى : الذين ورثوهم ، وصاروا خلفاً لهم ، ممن ينتسب إلى العلم منهم .

[لفي شك منه مرية] أى : لفي اشتباه كثير ، يوقع في الاختلاف ، حيث اختلف سلفهم ، بغياً وعناداً ، فإن خلفهم ، اختلفوا شكاً وارتياباً ، والجميع ، مشتركون في الاختلاف المذموم .

فَلِذَلِكَ فَادِعُ وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ

[فلذلك فادع] أى : فللدين القويم ، والصرراط المستقيم ، الذى أنزل الله به كتبه ، وأرسل رسله ، فادع إليك أمتك ، وحضهم عليه ، وجاهد عليه ، من لم يقبله .

[واستقم] بنفسك [كما أمرت] أى : استقامة موافقة لأمر الله ، لا تقربط ولا إفراط ، بل امتثالاً لأوامر الله ، واجتناباً لنواهيه ، على وجه الاستمرار على ذلك .

فأمره بتكميل نفسه ، بلزوم الاستقامة ، وبتكميل غيره ، بالدعوة إلى ذلك .

ومن العلوم أن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، أمر لأتمته ، إذا لم يرد تخصيص له .

[ولا تتبع أهواءهم] أى : أهواء المنحرفين عن الدين ، من الكفرة والمنافقين .

إما باتباعهم على بعض دينهم ، أو بترك الدعوة إلى الله ، أو بترك الاستقامة .

فإنك إن اتبعت أهواءهم ، من بعد ما جاءك من العلم ، إنك إذاً لمن الظالمين .

ولم يقل « ولا تتبع دينهم » لأن حقيقة دينهم ، الذى شرعه الله لهم ، هو دين الرسل كلهم ، ولسكنهم لم يتبعوه ، بل اتبعوا أهواءهم ، واتخذوا دينهم ، لهوا ولعباً .

ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا

[وقل] لهم ، عند جدالهم ومناظرتهم : [آمنت بما أنزل الله من كتاب] أى : لتسكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم ، الدال على شرف الإسلام وجلالته ، وهيمته على سائر الأديان ، وأن الدين الذى يزعم أهل الكتاب ، أنهم عليه ، جزء من الإسلام .

وفى هذا ، إرشاد إلى أن أهل الكتاب ، إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ، ببعض الكتب ، أو ببعض الرسل دون غيره ، فلا يسلم لهم ذلك .

لأن الكذاب الذى يدعون إليه ، والرسول الذى ينتسبون إليه ، من شرطه ، أن يكون مصداقاً بهذا القرآن ، وبمن جاء به .

فكتابتنا ، ورسولنا ، لم يأمرانا ، إلا بالإيمان بموسى ، وعيسى ، والتوراة ، والإنجيل ، التى أخبر بها ، وصدق بها ، وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته .

وأما مجرد التوراة والإنجيل ، وموسى ، وعيسى ، الذين لم يوصفوا لنا ، ولم يوافقوا كتابنا ، فلم يأمرنا بالإيمان بهم .

وقوله [وأمرت لأعدل بينكم] أى : فى الحكم فيما اختلفتم فيه ، فلا تمنعنى عداوتكم وبغضكم ، يا أهل الكتاب ، من العدل بينكم ، ومن العدل فى الحكم ، بين أهل الأقوال المختلفة ، من أهل الكتاب وغيرهم ، أن يقبل ما معهم من الحق ، ويرد ما معهم من الباطل .

[الله ربنا وربكم] أى : هو رب الجميع ، لستم بأحق به منا .

وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴿١٥﴾
﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ

[لنا أعمالنا ولكم أعمالكم] من خير وشر [لا حجة بيننا وبينكم]
أى : بعد ما تبينت الحقائق ، واتضح الحق من الباطل ، والهدى من
الضلال ، لم يبق للجدل والمنازعة محل .

لأن المقصود من الجدل ، إنما هو بيان الحق من الباطل ، ليهتدى
الراشد ، ولتقوم الحجة على الغاوى .

وليس المراد بهذا ، أن أهل الكتاب لا يجادلون ، كيف والله يقول :
« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » وإنما المراد ، ماذا كنا .
[الله يجمع بيننا وإليه المصير] يوم القيامة ، فيجرى كلابعمله ، ويتبين
حينئذ ، الصادق من الكاذب .

* وهذا تقرير لقوله [لا حجة بيننا وبينكم] .

فأخبر هنا أن [الذين يحاجون في الله] بالحجج الباطلة ، والشبه المتناقضة
[من بعد ما استجيب له] أى : من بعد ما استجاب لله أولو الأبواب
والمقول ، لما بين لهم من الآيات القاطعة ، والبراهين الساطعة .

فهؤلاء المجادلون للحق ، من بعد ما تبين [حجتهم داحضة] .
أى : باطلة مدفوعة [عند ربهم] لأنها مشتملة على رد الحق ، وكل
ما خالف الحق ، فهو باطل .

حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ

[وعليهم غضب] لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبياناته وتكذيبها .

[ولهم عذاب شديد] هو أثر غضب الله عليهم ، فهذه عقوبة كل

مجادل للحق بالباطل .

* لما ذكر تعالى ، أن حججه واضحة بينة ، بحيث استجاب لها كل من

فيه خير ، ذكر أصلها وقاعدتها ، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد ،

ترجع إليه فقال :

[الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان] فالكتاب ، هو هذا القرآن

العظيم ، نزل بالحق ، واشتمل على الحق ، والصدق ، واليقين .

وكله آيات بينات ، وأدلة واضحات ، على جميع المطالب الإلهية ، والعقائد

الدينية ، فجاء بأحسن المسائل ، وأوضح الدلائل .

وأما الميزان ، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح ، والعقل الرجيح .

فكل الدلائل العقلية ، من الآيات الأفقية والنفسية ، والاعتبارات

الشرعية ، والمناسبات ، والعلل ، والأحكام ، والحكم ، داخلة في الميزان ،

الذي أنزله الله تعالى ، ووضعه بين عباده ، ليزنوا به ما أثبتته ، وما نفاه ،

من الأمور ، ويعرفوا به صدق ما أخبر به ، وأخبرت به رساله ، مما خرج

عن هذين الأمرين — عن الكتاب والميزان — مما قيل : إنه حجة

لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَمْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ

أو برهان ، أو دليل ، أو نحو ذلك من العبارات ، فإنه باطل متناقض ،
قد فسدت أصوله ، وانهدمت مبانيه وفروعه .

يعرف ذلك من خبر المسائل وما أخذها ، وعرف التمييز بين راجح
الأدلة ومرجوحها ، والفرق بين الحجج والشبه .

وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة ، والألفاظ الموهمة ، ولم تنفذ
بصيرته إلى المعنى المراد ، فإنه ليس من أهل هذا الشأن ، ولا من فرسان
هذا الميدان ، فوفاقه وخلافه ، سيان .

ثم قال تعالى — مخوفاً للمستمجلين لقيام الساعة ، المنكرين لها :
[وما يدريك لعل الساعة قريب] أى : ليس بمعلوم وقتها وبعدها ، ولا متى
تقوم ، فهى فى كل وقت ، متوقع وقوعها ، مخوف وجبتها .

[يستمجل بها الذين لا يؤمنون بها] عناداً وتكديباً ، وتمجيزاً لربهم .
[والذين آمنوا مشفقون منها] أى : خائفون ، لإيمانهم بها ، وعلمهم
بما اشتمل عليه من الجزاء بالأعمال .

وخوفهم ، لمعرفة ربهم ، أن لا تكون أعمالهم منجية ولا مسعدة ،
ولهذا قال :

[ويعلمون أنها الحق] الذى لا مرية فيه ، ولا شك يعتره .

يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَنِي ضَلَلٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ

[ألا أن الذين يمارون في الساعة] أى : بعد ما امتروا فيها ، ماروا
الرسل وأتباعهم بإثباتها [لنى ضلال بعيد] فى غاية البعد عن الحق .
وأى بعد ، أبعد من كذب بالدار ، التى هى الدار على الحقيقة ، وهى
الدار التى خلقت لبقاء الدائم ، والخلود السرمد ، وهى دار الجزاء ، التى
يظهر الله فيها عدله وفضله ؟ .

وإنما هذه الدار بالنسبة إليها ، كراكب قال^(١) فى ظل شجرة ، ثم
رحل وتركها ، وهى دار عبور وعمر ، لا محل استقرار .

فصدقوا فى الدار المضمحلة الفانية ، حيث رأوها وشاهدوها ،
وكذبوا بالدار الآخرة ، التى تواترت بالإخبار عنها ، الكتب الإلهية ،
والرسل الكرام وأتباعهم ، الذين هم أكمل الخلق عقولا . وأغزهم علما ،
وأعظمهم فطنة ، وفهما .

* يخبر تعالى أنه [لطيف بعباده] ليعرفوه ويحبوه ، ويتعرضوا للطفه
وكرمه .

واللطف ، من أوصافه تعالى ، معناه : الذى يدرك الضمائر والسرائر ،
الذى يوصل عباده - وخصوصا المؤمنين - إلى ما فيه الخير لهم ، من حيث
لا يعلمون ولا يحتسبون .

(١) قال . أى : استراح ونام فى ظل شجرة وقت القيولة وهو
قبيل الظهر . وفعله من الباب الثانى . يعنى « قال يقبل » .

الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ

فن لطفه بعبده المؤمن ، أن هداه إلى الخير ، هداية لا تخطر بباله ، بما يسر له من الأسباب . الداعية إلى ذلك من فطرته ، على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى لملائكته الكرام ، أن يثبتوا عباده المؤمنين ، ويحثوهم على الخير ، ويلقوا في قلوبهم ، من تزيين الحق ، ما يكون داعيا لاتباعه .

ومن لطفه أن أمر المؤمنين ، بالعبادات الاجتماعية ، التي بها ، تقوى عزائمهم ، وتنبعث همهم ، ويحصل منهم التنافس على الخير ، والرغبة فيه ، واقتداء بعضهم ببعض .

ومن لطفه ، أن قيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي . حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها ، مما يتنافس فيه أهل الدنيا ، تقطع عبده عن طاعته ، أو تحمله على الغفلة عنه ، أو على معصيته ، صرفها عنه ، وقدر عليه رزقه ، ولهذا قال هنا :

[يرزق من يشاء] بحسب اقتضاء حكيمته ولطفه [وهو القوى العزيز] الذي له القوة كلها ، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين ، إلا به ، الذي دانت له جميع الأشياء .

ثم قال تعالى : [من كان يريد حَرْثَ الْآخِرَةِ] أي : أجرها وثوابها ، فآمن بها وصدق ، وسعى لها سعيها [نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ] بأن نضاعف عمله وجزاءه ، أضعافا كثيرة .

كما قال تعالى : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » ومع ذلك ، فنصيبه من الدنيا ، لا بد أن يأتيه .

وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾

﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن

[ومن كان يريد حرت الدنيا] بأن: كانت الدنيا، هي مقصوده،
وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها.

[نؤته منها] نصيبه الذي قسم له.

[وما له في الآخرة من نصيب] قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار

وجحيمها.

وهذه الآية، شبيهة بقوله تعالى «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها

نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون».

* يخبر تعالى، أن المشركين اتخذوا شركاء، بوالونهم ويشتركون، هم

وإياهم، في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس، الدعاة إلى الكفر

[شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله] من الشرك والبدع، وتحريم

ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك، مما اقتضته أهواؤهم.

مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى، ليدين به العباد،

ويتقربوا به إليه.

فالأصل، الحجر على كل أحد، أن يشرع شيئا، ما جاء عن الله

ولا عن رسوله.

فكيف بهؤلاء الفسقة المشتركين هم وهم، على الكفر.

بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لُقِضَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشَفِّقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ

[ولولا كلمة الفصل لفضى بينهم] أى : لولا الأجل المسمى ، الذى ضربه
الله فاصلا ، بين الطوائف المختلفة ، وأنه سيؤخرهم إليه ، لفضى بينهم فى
الوقت الحاضر ، بسعادة الحق ، وإهلاك المبطل ، لأن المقضى للإهلاك ،
موجود ، ولكن أمامهم ، العذاب الأليم فى الآخرة ، هؤلاء
وكل ظالم .

وفى ذلك اليوم [ترى الظالمين] أنفسهم بالكفر والمعاصى [مشفقين]
أى : خائفين وجلين [مما كسبوا] أن يعاقبوا عليه .

ولما كان الخائف قد يقع به ، ما أشفق منه وخافه ، وقد لا يقع ، أخبر
أنه [واقع بهم] العقاب ، الذى خافوه ، لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب
للعقاب ، من غير معارض ، من توبة ولا غيرها ، ووصلوا موضعا ، فات
فيه الإنظار والإمهال .

[والذين آمنوا] بقلوبهم ، بالله ، وبكتبه ، ورسله وجاءوا به .
[وعمِلوا الصالحات] يشمل فيه ، كل عمل صالح من أعمال القلوب ،
وأعمال الجوارح من الواجبات ، والمستحبات .

فهؤلاء [فى روضات الجنات] أى : الروضات المضافة إلى الجنات ،
والمضاف يكون ، بحسب المضاف إليه .

فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة ، وما فيها من الأنهار المتدفقة ،

عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ
عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا

والغياض المشبة ، والمناظر الحسنة ، والأشجار المثمرة ، والطيور المفردة ،
والأصوات الشجية المطربة ، والاجتماع بكل حبيب ، والأخذ من المعاشرة
والمنادمة ، بأكمل نصيب .

رياض لا تزداد على طول المدى ، إلا حسنا وبهاء ، ولا يزداد أهلها ،
إلا اشتياقاً إلى لذاتها وودادها .

[لهم ما يشاءون] فيها أى : فى الجنات [عند ربهم] .

فهما أرادوا ، فهو حاصل ، ومهما طلبوا ، حصل ، بما لا عين رأت ،
ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[ذلك هو الفضل الكبير] وهل فضل أكبر من النور برضا الله
تعالى ، والتنعم بقربه فى دار كرامته ؟ .

[ذلك الذى يبشر الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات] .

أى : هذه البشارة العظيمة ، التى هى أكبر البشائر على الإطلاق ، بشر
بها الرحيم الرحمن ، على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح ، فهى
أجل الغايات ، والوسيلة الموصلة إليها ، أفضل الوسائل .

[قل لا أسألكم عليه] أى : على تبليغى إياكم هذا القرآن ودعوتكم
إلى أحكامه .

[أجرا] فلست أريد أخذ أموالكم ، ولا التولى عليكم والتراؤس ،
ولا غير ذلك من الأغراض [إلا المودة فى القربى] .

إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا

يَحْتَمَلُ أَنْ الْمُرَادُ : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا وَاحِدًا هُوَ لَكُمْ ، وَعَائِدُ نَفْعِهِ إِلَيْكُمْ ، وَهُوَ . أَنْ تُوَدِّدُنِي وَتُحِبُّونِي فِي الْقَرَابَةِ ، أَى لِأَجْلِ الْقَرَابَةِ . وَيَكُونُ عَلَى هَذَا الْمَوَدَّةَ الزَّائِدَةَ عَلَى مَوَدَّةِ الْإِيمَانِ ، فَإِنَّ مَوَدَّةَ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ ، وَتَقْدِيمُ مَحَبَّتِهِ عَلَى جَمِيعِ الْمَحَابِّ ، بَعْدَ مَحَبَّةِ اللَّهِ ، فَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ .

وَهُؤُلَاءِ طَلَبُ مَنْهُمْ زِيَادَةٌ عَلَى ذَلِكَ ، أَنْ يُحِبُّوهُ ، لِأَجْلِ الْقَرَابَةِ ، لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَدْ بَاشَرَ بِدَعْوَتِهِ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ .

حَتَّى إِنَّهُ قِيلَ : إِنَّهُ لَيْسَ فِي بَطُونِ قُرَيْشٍ أَحَدٌ ، إِلَّا وَلَّرَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فِيهِ قَرَابَةٌ

وَيَحْتَمَلُ أَنْ الْمُرَادُ إِلَّا مَوَدَّةَ اللَّهِ تَعَالَى ، الصَّادِقَةَ ، وَهِيَ الَّتِي يَصْحَبُهَا التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ ، وَالتَّوَسُّلُ بِطَاعَتِهِ ، الدَّالَّةُ عَلَى صِحَّتِهَا وَصِدْقِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : [إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى] أَى : فِي التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ .

وَعَلَى كِلَا الْقَوْلَيْنِ ، فَهَذَا الْإِسْتِثْنَاءُ ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يُسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا بِالْكُلِّيَّةِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ شَيْئًا يَعُودُ نَفْعُهُ إِلَيْهِمْ .

فَهَذَا لَيْسَ مِنَ الْأَجْرِ فِي شَيْءٍ ، بَلْ هُوَ مِنَ الْأَجْرِ مِنْهُ لَمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » وَقَوْلِهِمْ « مَا لِفُلَانٍ عِنْدَكَ ذَنْبٌ ، إِلَّا أَنَّهُ مُحْسِنٌ إِلَيْكَ » .

[وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً] مِنْ صَلَاةٍ ، أَوْ صَوْمٍ ، أَوْ حَجٍّ ، أَوْ إِحْسَانٍ إِلَى الْخَلْقِ [نَزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا] بِأَنْ يَشْرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ ، وَيَيْسِّرَ أَمْرَهُ ، وَيَكُونُ

إِنَّ اللَّهَ غُفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ

سبيلاً للتوفيق لعمل آخر ، ويزداد بها عمل المؤمن ، ويرتفع عند الله ، وعند خلقه ، ويحصل له الثواب ، العاجل والآجل .

[إن الله غفور شكور] يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت ، عند التوبة منها ، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير .

فبمغفرته ، يغفر الذنوب ، ويستتر العيوب ، ويشكره يقبل الحسنات ، ويضاعفها ، أضعافاً كثيرة .

* يعني أم يقول المكذبون للرسول صل الله عليه وسلم ، جرأة منهم وكذباً : [افترى على الله كذباً] فرموك بأشنع الأمور وأقبحها ، وهو : الافتراء على الله ، بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ، ما هو برىء منه ، وهم يعلمون صدقك وأمانتك .

فكيف يتجرأون على هذا الكذب الصراح ؟ .

بل تجرأوا بذلك على الله تعالى ، فإنه قدح في الله ، حيث مكنتك من هذه الدعوة العظيمة ، المتضمنة — على موجب زعمهم — أكبر الفساد في الأرض ، حيث مكنته الله ، من التصريح بالدعوة ، ثم نسبتها إليه ، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات ، والأدلة القاهرات ، والنصر المبين ، والاستيلاء على من خالفه .

وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يحتم على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل إليه خير .

عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

وإذا ختم على قلبه ، المحسم الأمر كله ، وانقطع .

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول ، وأقوى شهادة من الله له على ما قال ، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر .

ولهذا ، من حكمته ورحمته ، وسنته الجارية ، أنه يحو الباطل ويزيله ، وإن كان له صولة في بعض الأوقات ، فإن عاقبته الاضمحلال .

[ويمح الحق بكلماته] الكونية ، التي لا تبدل ولا تغير ، ووعده الصادق ، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق ، وتثبت في القلوب ، وتبصر أولى الألباب .

حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق ، أن يُقَيِّضَ له الباطل ليقاومه . فإذا قاومه ، صال عليه الحق ببراهينه وبيناته ، فظهر من نوره وهدهاء ، ما به يضمحل الباطل ، وينقمع ، ويتبين بطلانه لكل أحد ، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد .

[إنه عليم بذات الصدور] أي : بما فيها ، وما اتصفت به ، من خير وشر ، وما أكنته ، ولم تبده .

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ
السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

* هذا بيان لكمال كرم الله تعالى ، وسعة جوده ، وتمام لطفه ، إذ
[يقبل التوبة] الصادرة [عن عباده] حين يقلمون عن ذنوبهم ،
ويندمون عليها ، ويعزمون على أن لا يعاودوها ، إذا قصدوا بذلك وجه
رهبهم ، فإن الله يقبلها ، بعد ما انعدت سببا للهلاك ، ووقوع العقوبات
الدينية والدينية .

[ويعفو عن السيئات] ويمحوها ، ويمحو أثرها من العيوب ، وما اقتضته
من العقوبات .

ويعو التائب عنده ، كريما ، كأنه ما عمل سوءاً قط ، ويحبه ، ويوفقه ،
لما يقربه إليه .

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة ، التي قد تكون كاملة بسبب
تمام الإخلاص والصدق فيها ، وقد تكون ناقصة عند نقصهما ، وقد تكون
فاسدة ، إذا كان القصد منها ، بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية ، وكان
محل ذلك ، القلب الذي لا يعلمه إلا الله ، ختم هذه الآية بقوله [ويعلم
ما تفعلون]

فإنه تعالى ، دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه ، والتوبة من التقصير ،
فانقسموا - بحسب الاستجابة له - إلى قسمين :

مستجيبين وصفهم بقوله [ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات]

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ
مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ

أى : يستجيبون لربهم ، لما دعاهم إليه وينقادون له ، ويلبون دعوته ،
لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح ، يحملهم على ذلك .
فإذا استجابوا له ، شكر الله لهم ، وهو الغفور الشكور .

[ويزيدهم من فضله] توفيقاً ونشاطاً على العمل ، وزادهم مضاعفة في
في الأجر ، زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والنور العظيم .

وأما غير المستجيبين لله [و] هم المعاندون [الكافرون] به وبرسله ،
فإنهم [لهم عذاب شديد] في الدنيا والآخرة .

ثم ذكر أن ، من لطفه بعباده ، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة ، تضر
بأديانهم فقال :

[وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ] أى : لغفوا عن طاعة
الله ، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا ، فأوجبت لهم الانكباب على ماتشبهيه
نفوسهم ، ولو كان معصية وظلماً .

[ولكن ينزل بقدر ما يشاء] بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته [إنه
بعباده خبير بصير] كما في بعض الآثار أن الله تعالى يقول « إن من عبادة
من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادة
لا يصلح إيمانه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك ، وإن من عبادة من
لا يصلح إيمانه إلا الصحة ، ولو أمرضته لأفسده ذلك ، وإن من عبادة
من لا يصلح إيمانه إلا المرض ولو عافيته لأفسده ذلك ، إني أدبر أمر عبادة
بعلما بما في قلوبهم ، إني خبير بصير » .

مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٨﴾
﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا

[وهو الذى ينزل الغيث] أى : المطر الغزير الذى به يغيث
البلاد والعباد .

[من بعد ما قنطوا] وانقطع عنهم مدة ، ظنوا أنه لا يأتيهم ، وأيسوا
وعملوا لذلك الجذب أعمالا ، فينزل الله الغيث [وينشر] به [رحمته] من
إخراج الأقوات للآدميين ، وبهائمهم ، فيقع عندهم موقعا عظيما ، ويستبشرون
بذلك ويفرحون .

[وهو الولي] الذى يتولى عباده ، بأنواع التدبير ، ويتولى القيام ،
بمصلح دينهم ودنياهم .

[الحميد] فى ولايته وتدييره ، الحميد على ماله من الكمال ، وما أوصله
إلى خلقه ، من أنواع الأفضال .

* [ومن آياته] أى : ومن أدلة قدرته العظيمة ، وأنه سيحيى الموتى
بعد موتهم .

[خلق] هذه [السموات والأرض] على عظيمها وسعتهما ، الدال على
قدرته ، وسعة سلطانه ، وما فيها ، من الإتقان والإحكام ، دال على حكمته
وما فيها من المنافع والمصالح ، دال على رحمته ، وذلك يدل على أنه المستحق
لأنواع العبادة كلها ، وأن إلهية ما سواه باطلة .

[وما بَثَّ فيهما من دابة] أى : ما نشر فى السموات والأرض من
أصناف الدواب التى جعلها الله مصالح ومنافع لعباده .

مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٩﴾
﴿٣٠﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ
وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ
مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴿٣١﴾

[وهو على جمعهم] أى : جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة [إذا
يشاء قدير] .

فتدبرته ومشيئته ، صالحان لذلك ، ويتوقف وقوعه على وجود
الخير الصادق .

وقد علم ، أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم ، بوقوعه .

* يخبر تعالى ، أنه ما أصاب العباد من مصيبة ، فى أبدانهم ، وأموالهم ،
وأولادهم ، وفيما يحبون ، ويكون عزيزاً عليهم ، إلا بسبب ما قدمته أيديهم
من السيئات ، وأن ما يعفو الله عنه ، أكثر ، فإن الله لا يظلم العباد ،
ولكن أنفسهم يظلمون « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على
ظهرها من دابة » .

وليس إهمالاً منه تعالى ، تأخير العقوبات ، ولا عجزاً .

[وما أنتم بمعجزين فى الأرض] .

أى : معجزين قدرة الله عليكم ، بل أنتم عاجزون فى الأرض ، ليس
عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم .

[وما لكم من دون الله من ولى] يقول لكم ، فيحصل لكم المنافع
[ولا نصير] يدفع عنكم المضار .

﴿٣٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ
يُسْكِنِ الْريِّحَ فَيُظِلِّلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِبَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾

* أى : ومن أدلة رحمة ، وعنايته بعباده [الجوارى فى البحر] من السفن ، والمراكب البخارية ، والشراعية ، التى هى من عظمها [كالاعلام] وهى الجبال الكبار ، التى سخر لها البحر العجاج ، وحفظها من التظام الأمواج ، وجعلها تحملكم ، وتحمل أمتعتكم الكثيرة ، إلى البلدان والأقطار البعيدة ، وسخر لها من الأسباب ، ما كان معونة على ذلك .

ثم نبه على هذه الأسباب بقوله [إن يشأ يسكن الريح] التى جعلها الله سببا لسيورها .

[فيظللن] أى : الجوارى « أى : السفن على اختلاف أنواعها » [رواكد] على ظهر البحر ، لا تتقدم ولا تتأخر ولا ينتقض هذا ، بالمراكب البخارية ، فإن من شرط مشيها ، وجود الريح .

وإن شاء الله تعالى ، أوبق الجوارى ، بما كسب أهلها ، أى : أغرقها فى البحر ، وأتلفها ، ولكنه يحلم ، ويعفو عن كثير .

[إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور] أى : كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها ، فيكرهها عليه ، من مشقة طاعة ، أو ردع داع إلى معصية ، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط ، [شكور] .

فى الرخاء وعند النعم ، يعترف بنعمة ربه ويخضع له ، ويصرفها فى مرضاته . فهذا الذى ينتفع بآيات الله .

وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾
﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ

وأما الذي لا صبر عنده ، ولا شكر له عند نعم الله ، فإنه معرض أو معاند ، لا ينتفع بالآيات .

ثم قال تعالى : [ويعلم الذين يجادلون في آياتنا] ليطلوها بباطلهم .

[ما لهم من محيص] أى : لا ينقذهم منقذ مما حل بهم من العقوبة .

* هذا تهديد في الدنيا ، وترغيب في الآخرة ، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال :

[فما أوتيتم من شيء] من ملك ورياسة ، وأموال ، وبنين ، وصحة ، وعافية بدنية .

[فمتاع الحياة الدنيا] لذة منقصة منقطعة .

[وما عند الله] من الثواب الجزيل ، والأجر الجليل ، والنعيم المقيم

[خير] من لذات الدنيا ، خيرية لا نسبة بينهما [وأبقى] لأنه نعيم لا منقوص فيه ولا كدر ، ولا انتقال .

ثم ذكر لمن هذا الثواب فقال : [للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون]

أى : جمعوا بين الإيمان الصحيح ، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة وبين التوكل ، الذى هو الآلة لكل عمل .

فكل عمل لا يصحبه التوكل ، فغير تام ، وهو « أى : التوكل »

الاعتماد بالقلب على الله .

يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ
يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ

في جلب ما يحبه العبد ، ودفع ما يكرهه مع الفقه به تعالى .

[والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش] والفرق بين الكبائر
والفواحش - مع أن جميعهما كبائر - أن الفواحش هي : الذنوب الكبار
التي في النفوس داع إليها ، كالزنا ونحوه ، والكبائر ، ما ليس كذلك ،
هذا عند الاقتران .

وأما مع أفراد كل منهما عن الآخر يدخل فيه .

[وإذا ما غضبوا هم يغفرون] أي : قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ،
ومحاسن الشيم ، فصار الحلم لهم ، سجية ، وحسن الخلق لهم ، طبيعة .
حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله ، أو فعله ، كظموا ذلك الغضب ، فلم
ينفذوه ، بلى غفروه ، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح .
فترتب على هذا العفو والصفح ، من المصالح ، ودفع المفاسد في أنفسهم
وغيرهم ، شيء كثير ، كما قال تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك
وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو
حظ عظيم » .

[والذين استجابوا لربهم] أي : اتقادوا لطاعته ، ولبوا دعوته ،
وصار قصدهم ، رضوانه ، وغايتهم ، الفوز بقربه .

ومن الاستجابة لله ، إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

فلذلك عطفها على ذلك ، من باب عطف العام على الخاص ، للدال على

شرفه وفضله فقال :

شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ
الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

[وأقاموا الصلاة] أى : ظاهرها وباطنها ، فرضها ونفلها .

[ومما رزقناهم ينفقون] من النفقات الواجبة ، كالزكاة ، والنفقة على الأقارب ونحوهم ، والمستحبة ، كالصدقات على عموم الخلق .

[وأمرهم] الدينى والدينى [شورى بينهم] أى : لا يستبد أحد منهم برأيه ، فى أمر من الأمور المشتركة بينهم ، وهذا لا يكون إلا فرعا عن اجتماعهم ، وتوافقهم ، وتواددهم ، وتحابيبهم .

فن كمال عقولهم ، أنهم إذا أرادوا أمرا من الأمور ، التى تحتاج إلى إعمال الفكر والرأى فيها ، اجتمعوا لها ، وتشاوروا ، وبخثوا فيها ، حتى إذا تبينت لهم المصلحة ، انتهزوها وبادروها .

وذلك ، كالرأى فى الغزو ، والجهاد ، وتولية الموظفين ، لإمارة ، أو قضاء ، أو غيرها .

وكالبحث فى المسائل الدينية عموماً ، فإنها من الأمور المشتركة ، والبحث فيها ، لبيان الصواب ، مما يحبه الله ، وهو داخل فى هذه الآية .

[والذين إذا أصابهم البغى ^(١)] أى : وصل إليهم من أعدائهم [هم ينتصرون] لقوتهم وعزتهم ، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار .

(١) البغى . أى : الظلم . يعنى : ينتقمون ممن ظلمهم بمثل ظلمه . كما قال تعالى : [وجزاء سيئة مثلها] .

﴿٤٠﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ
عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَجِبُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ

فوصفهم بالإيمان ، والتوكل على الله ، واجتناب الكبائر والفواحش
الذى تكفر به الصغائر ، والانقياد التام ، والاستجابة لربهم ، وإقامة
الصلاة ، والإنفاق فى وجوه الإحسان ، والمشاورة فى أمورهم ، والقوة
والانتصار على أعدائهم .

فهذه خصال الكمال قد جمعوها ، ويلزم من قيامها فيهم ، فعل ما هو
دونها ، وانتفاء ضدها .

* ذكر الله فى هذه الآية ، مراتب العقوبات ، وأنها على ثلاث مراتب :
عدل ، وفضل ، وظلم .

فترتبة العدل ، جزاء السيئة بسيئة مثلها ، لا زيادة ولا نقص .
فالنفس بالنفس ، وكل جارحة بالجارحة المائلة لها ، والمال يضمن بمثله .
ومرتبة الفضل : العفو والإصلاح عن المسيء ، ولهذا قال :
[فمن عفا وأصلح فأجره على الله] يميزه أجراً عظيماً ، ومواباً كثيراً .
وشرط الله فى العفو والإصلاح فيه ، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجانى
لا يليق بالعفو عنه ، وكانت المصلحة الشرعية تقتضى عقوبته ، فإنه فى - هذه
الحال - لا يكون مأموراً به .

وفى جعل أجر العافى على الله ، مما يهيج على العفو ، وأن يعامل العبد
الخالق بما يجب أن يعامله الله به .

فكما يجب أن يعفو الله عنه ، فلْيَعْفُ عنهم ، وكما يجب أن يسامحه الله ،

فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ
النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

فليسأحهم ، فإن الجزاء من جنس العمل .

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله : [إنه لا يجب الظالمين] الذين
يحنون على غيرهم ابتداء ، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته ،
فالزيادة ظلم .

[ولئن انتصر بعد ظلمه] أى : انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه
[فأولئك ما عليهم من سبيل] أى : لا حرج عليهم فى ذلك .

ودل قوله : [والذين إذا أصابهم البغى] وقوله : [ولئن انتصر من بعد
ظلمه] أنه لا بد من إصابة البغى والظلم ووقوعه .

وأما إرادة البغى على الغير ، وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء ،
فهذا لا يجازى بمثله ، وإنما يؤدب تأديباً ، يردعه عن قول ، أو فعل
صدر منه .

[إنما السبيل] أى : إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية [على الذين
يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق] وهذا شامل للظلم والبغى على
الناس ، فى دمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

[أولئك لهم عذاب أليم] أى : موجه للقلوب والأبدان ، بحسب
ظلمهم وبغيتهم .

أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٢﴾

[ولمن صبر] على ما يناله من أذى الخلق [وغفر] لهم ، بأن سمح لهم
عما صدر منهم .

[إن ذلك لمن عزم الأمور] أى : الأمور التى حث الله عليها وأكدها
وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة ، ومن الأمور التى
لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم ، وذوو الألباب والبصائر .

فإن ترك الانتصار للنفس ، بالتقول أو الفعل ، من أشق شىء عليها .
والصبر على الأذى ، والصفح عنه ، ومغفرته ، ومقابلته بالإحسان ،
أشق وأشق .

ولكنه يسير على من يسره الله عليه وجاهد نفسه على الاتصاف به ،
واستعان الله على ذلك .

ثم إذا ذاق العبد حلاوته ، ووجد آثاره ، تلقاه برحب الصدر ، وسعة
الخلق ، والتلذذ فيه .

﴿٤٤﴾ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَليٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى
الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلِ ﴿٤٤﴾
وَتَرَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الْذُلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ
وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ

* يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإصلاح ، وأنه [من يضل الله] بسبب
ظلمه [فما له من ولي بعده] بقولى أمره ويهديه .

[وترى الظالمين لما رأوا العذاب] مرأى ومنظراً فظيماً ، صعباً
شنيعاً ، يظهرون الندم العظيم ، والحزن على ما سلف منهم [يقولون هل إلى
مرد من سبيل] أى : هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا ، لنعمل
غير الذى كنا نعمل ، وهذا طلب للأمر المحال ، الذى لا يمكن .

[وتراهم يعرضون عليها] أى : على النار [خاشعين من الذل] .

أى : ترى أجسامهم خاشعة للذل ، الذى فى قلوبهم .

[ينظرون من طرف خفى] أى : ينظرون إلى النار مسارقة وشزراً ،

من هيبتها وخوفها .

[وقال الذين آمنوا] حين ظهرت عواقب الخلق ، وتبين أهل الصدق

من غيرهم :

[إن الخاسرين] على الحقيقة [الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم

القيامة] حيث فوتوا على أنفسهم جزيل الثواب ، وحصلوا على أليم العقاب

وفرق بينهم وبين أهليهم ، فلم يجتمعوا بهم ، آخر ما عليهم .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّثَقِمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ
لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ
مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

﴿٤٦﴾ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ

[ألا إن الظالمين] أنفسهم بالكفر والمعاصي [في عذاب أليم] .
أى : في سوائه ووسطه ، منغمرون لا يخرجون منه أبداً ، ولا يقتر
عنهم ، وهم فيه مبلسون .
[وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله] كما كانوا في الدنيا
يمنون أنفسهم بذلك .
ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم ، أن أسبابهم التي أملوها ، تقطعت ، وأنه
حين جاءهم عذاب الله ، لم يدفع عنهم .
[ومن يضل الله فماله من سبيل] تحصل به هدايته ، فهؤلاء ضلوا
حين زعموا في شركائهم النفع ، ودفع الضر ، فتبين حينئذ ، ضلالهم .
* يأمر تعالى عباده بالاستجابة له ، بامتنال ما أمر به ، واجتناب ما نهى
عنه ، وبالمبادرة بذلك ، وعدم التسوية .
[من قبل أن يأتي يوم] القيامة الذي إذا جاء ، لا يمكن رده ،
واستدراك الغات .
وليس للعبد في ذلك اليوم ، ملجأ يلجأ إليه ، فيفوت ربه ،
ويهرب منه .

مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مُلْجَا يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾
فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ
وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا

بل قد أحاطت الملائكة بالخلية ، من خلفهم ، ونودوا « يا معشر الجن
والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا
لا تنفذون إلا بسلطان » .

وليس للعبد في ذلك اليوم ، نكير لما اقترفه وأجرمه ، بل لو أنكر
لشهدت عليه جوارحه .

وهذه الآية ونحوها ، فيها ذم الأمل ، والأمر باتمّاز الفرصة في كل
عمل يعرض للعبد .

فإن للتأخير ، آفات .

[فإن أعرضوا] عما جئتم به بعد البيان التام [فما أرسلناك عليهم حفيظاً]
تحفظ أعمالهم ، وتساءل عنها .

[إن عليك إلا البلاغ] فإذا أدبت ما عليك ، فقد وجب أجرك على
الله ، سواء استجابوا ، أم أعرضوا ، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم
صغير أعمالهم وكبيرها ، وظاهرها وباطنها .

ثم ذكر تعالى حالة الإنسان ، وأنه إذا أذاقه رحمة ، من صحة بدن ،
ورزق رغد ، وجاه ونحوه [فرح بها] أي : فرح فرحاً مقصوداً عليها ،
لا يتعدها ، ويلزم من ذلك ، طمأنينته بها ، وإعراضه عن النعم .

[وإن تصيبهم سيئة] أي : مرض ، أو فقر ، أو نحوها [بما قدمت

قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ
لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ
ذَكَرًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

أيديهم فإن الإنسان كفور [أى : طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه ، من السيئة .

* هذه الآية ، فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى ، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء ، والتقدير لجميع الأمور .

حتى أن تديره تعالى ، من عومه ، أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب لولادة الأولاد ، فالله تعالى هو الذى يعطيهم من الأولاد ، ما يشاء .

فمن الخلق من يهب له إناثاً ، ومنهم من يهب له ذكوراً .

ومنهم من يزوجه ، أى يجمع له ذكوراً وإناثاً .

ومنهم من يجعله عقيماً ، لا يولد له .

[إنه عليم] بكل شيء [قدير] على كل شيء ، فيتصرف بعلمه وإتقانه

الأشياء ، بقدرته في مخلوقاته .

﴿٥١﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ
وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ

* لما قال المكذبون لرسول الله ، الكافرون بالله : [لولا يكلمنا الله أو
تأتينا آية] من كبرهم وتجبرهم ، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة ، وبين أن
تكليمه تعالى ، لا يكون إلا لخواص خلقه ، للأنبياء والمرسلين ، وصفوته
من العالمين ، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه .

إما [أن يكلمه الله وحيا] بأن يلقي الوحي في قلب الرسول ، من غير
إرسال ملك ، ولا مخاطبة منه شفاها .

[أو] يكلمه منه شفاها لكن [من وراء حجاب] كما حصل لموسى
ابن عمران ، كلهم الرحمن .

[أو] يكلمه الله بواسطة الرسول الملوكي [يرسل رسولا] كجبريل
أو غيره من الملائكة .

[فيوحي بإذنه] أى : بإذن ربه ، لا بمجرد هواه [ما يشاء] .
[إنه] تعالى [على] الذات على الأوصاف ، عظيمها على الأفعال ،
قد قهر كل شيء ، ودانت له المخلوقات .

[حكيم] فى وضعه كل شيء موضعه ، من المخلوقات والشرائع .
[وكذلك] حين أوحينا إلى الرسل قبلك [أوحينا روحا من أمرنا]
وهو : هذا القرآن الكريم ، سماه روحا ، لأن الروح يحيا به الجسد والقرآن

تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيْمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ
مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾
صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ
تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٣﴾

تحيا به القلوب والأرواح ، وتحيا به مصالح الدنيا والدين ، لما فيه من الخير
الكثير ، والعلم الغزير .
وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين ، من غير سبب مهمم ،
ولهذا قال :

[ما كنت تدرى] أى : قبل نزوله عليك [ما الكتاب ولا الايمان]
أى : ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة ، ولا إيمان وعمل بالشرائع
الإلهية ، بل كنت أميا ، لا تحط ولا تقرأ .

فإما هذا الكتاب الذي [جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا]
يستضيئون به فى ظلمات الكفر والبدع ، والأهواء المردية ، ويعرفون
به الحقائق ، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم .

وإنك تهدي إلى صراط مستقيم [أى : تبينه لهم وتوضحه ، وترغبهم
فيه ، وتنههم عن ضده ، وترهبهم منه ثم فسر الصراط المستقيم فقال :
[صراط الله الذى له ما فى السوات وما فى الأرض] أى : الصراط
الذى نصبه الله لعباده ، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته .

[ألا إلى الله تصير الأمور] أى : ترجع جميع أمو الخير والشر ،
فيجازى كلاً بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .
تم تفسير سورة الشورى - والحمد لله أولاً وآخراً

تفسير

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْأَمِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنِّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدِينًا لَعَلِّيَّ

* هذا قسم بالقرآن ، فأقسم بالكتاب المبين ، وأطلق ، ولم يذكر المتعلق ،
ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد ، من أمور الدنيا
والدين والآخرة .

[إنا جعلناه قرآنا عربيا] هذا هو المقسم عليه ، أنه جعل بأفصح اللغات
وأوضحها ، وأبينها ، وهذا من بيانه .

وذكر الحكمة في ذلك فقال : [لعلم تعقلون] ألفاظه ومعانيه
لتيسرها وقربها من الأذهان .

[وإنه] أي : هذا الكتاب [في أم الكتاب لدينا] أي : في
الملا الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها [لعلى حكيم] أي : لعلى في قدره ،
وشرفه ، ومحله ، حكيم فيما يشتمل عليه ، من الأوامر ، والنواهي ،

حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا

مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾

﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ

مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ

والأخبار ، فليس فيه حكم مخالف للحكمة ، والعدل ، والميزان .

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله ، تقتضى أن لا يترك عباده هملا ، لا يرسل إليهم رسولا ، ولا ينزل عليهم كتابا ، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال :

[أفنضرب عنكم الذكر صفحا] أى : أفعرض عنكم ، ونترك إنزال

الذكر إليكم ونضرب عنكم صفحا ، لأجل إعراضكم ، وعدم انقيادكم ؟ بل نزل عليكم الكتاب ، ونوضح لكم فيه كل شىء .

فإن آمنتم به واهتديتم ، فهو من توفيتكم ، وإلا ، فقد قامت عليكم الحجة وكنتم على بينة من أمركم .

* يقول تعالى : إن هذه سنقنا فى الخلق ، أن لا تتركهم هملا .

[كم أرسلنا من نبي في الأولين] يأمرونهم بعبادة الله وحده

لا شريك له .

ولم يزل التكذيب موجودا فى الأمم .

[وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون] ججدا لما جاء به ،

وتكبرا على الحق .

بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴿١﴾

﴿٢﴾ وَلَيْنَ سَاءَتْهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ

خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ

[فأهلكنا أشد منهم] أى : من هؤلاء [بطشًا] أى : قوة ، وأفعالاً
وآثارا فى الأرض .

[ومضى مثل الأولين] أى : مضت أمثالهم ، وأخبارهم ، وبيننا
لكم منها ، مافيه عبرة ، ومزدجر عن التكذيب .

* يخبر تعالى عن المشركين ، إنك [لئن سألتهم من خلق السموات
والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم] أى : الله وحده لاشريك له ،
العزيز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات ، بظواهر الأمور ، وبواطنها ،
وأوائنها ، وأواخرها .

فإذا كانوا مقرن بذلك ، فكيف يجعلون له الولد ،
والصاحبة ، والشريك ؟!

وكيف يشركون به ، من لا يخلق ، ولا يرزق ، ولا يميت ، ولا يحيى ؟!
ثم ذكر أيضا ، من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره ، بما خلقه
لعباده من الأرض ، التى مهدها ، وجعلها قرارا للعباد ، يتمكنون فيها
من كل ما يريدون .

[وجعل لكم فيها سبلا] أى : جعل منافذ ، بين سلاسل الجبال
المتصلة ، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار .

لَكُمْ فِيهَا مَثَلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ
الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَلْفُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾

[لعلمكم تهتدون] في السير في الطرق ولا تضيعون ، واملكم أيضا ،
تهتدون في الاعتبار بذلك ، والادكار فيه .

[والذي نزل من ماء بقدر] لا يزيد ولا ينقص ، ويكون أيضا ،
بمقدار الحاجة ، لا ينقص ، بحيث لا يكون فيه نفع ولا يزيد ، بحيث يضر
العباد والبلاد .

بل أغاث به العباد ، وأنقذ به البلاد من الشدة ، ولهذا قال :

[فأنشَرنا به بلدة ميتا] أي : أحييناها بعد موتها [كذلك تخرجون]
أي : فكما أحيى الأرض الميتة الهامدة بالماء ، كذلك يحييكم ، بعد ما
تستكملون في البرزخ ، ليجازيكم بأعمالكم .

[والذي خلق الأزواج كلها] أي : الأصناف جميعها ، مما تنبت
الأرض ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون ، من ليل ، ونهار ، وحر ، وبرد
وذكر ، وأنثى ، وغير ذلك .

[وجعل لكم من الفلك] أي : السفن البحرية ، الشراعية والبخارية
[و] من [الأنعام ما تركبون لتسقوا على ظهوره] وهذا شامل لظهور
الأنعام ، أي : لتستقروا عليها .

لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ
وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾
وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

[ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه] بالاعتراف بالنعمة لمن
سخرها ، والثناء عليه تعالى بذلك ولهذا قال :

[وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين] أى : لولا
تسخيره لنا ما سخر ، من الفلك ، والأنعام ، ما كنا مطيقين لذلك ،
وقادرين عليه .

ولكن من لطفه وكرمه تعالى ، سخرها ، وذلها ، ويسر أسبابها .
والمقصود من هذا ، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره ، من إفاضة
النعم على العباد ، هو الذى يستحق أن يعبد ، ويصلى له ويسجد^(١) .

(١) [وإنا إلى ربنا لمنتقلبون] أى : وإنا إلى خالقنا لراجعون بعد هذه
الحياة ليحاسب كلا بما قدمت يداه .

وفيه إبدان وإعلام ، بأن حق الراكب ، أن يتأمل فيما يلبسه ، من
المسير ، ويتذكر منه المسافة العظمى ، التى هى الانقلاب والرجوع إلى
الله تعالى :

فبينى أموره فى مسيره ذلك ، على تلك الملاحظة
ولا يخطر بباله فى شيء ، مما يأتى ويذر أمراً ينافيها ، ومن ضرورته
أن يكون ركوبه لأمر مشروع .

﴿١٥﴾ مِمَّا اتَّخَذَ أُمَّامٍ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾

* يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين ، الذى جعلوا لله تعالى ولداً ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولم يكن له كفواً أحد . وإن ذلك باطل من عدة أوجه .

منها : أن الخلق كلهم عباده ، والعبودية ، تنافى الولادة .

ومنها : أن الولد جزء من والده ، والله تعالى بائن من خلقه ، مباين لهم فى صفاته ، ونعوت جلاله ، والولد جزء من الوالد ، فحال أن يكون لله تعالى ولد .

ومنها : أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله ، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين .

فكيف يكون لله البنات ، ويصطفيهن بالبنين ، ويفضلهن بها ؟!

فاذاً يكونون أفضل من الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومنها : أن الصنف الذى نسبوه لله ، وهو البنات ، أدون الصنفين ، وأكرهها لهم ، حتى إنهم من كراهتهم لذلك « إذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً » من كراهته وشدة بغضه ، فكيف يجعلون لله ما يكرهون ؟

ومنها : أن الأنتى ناقصة فى وصفها ، وفى منطقتها وبيانها ، ولهذا

قال تعالى :

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ
كَظِيمٍ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يُمْشِقُونَ فِي الْخَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾
وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ

[أو من يشأ في الخلية] أى : يحمل فيها ، لنقص جماله ، فيجمل بأمر
خارج منه ؟ .

[وهو في الخصام] أى : عند الخصام ، الموجب لإظهار ما عند الشخص
من الكلام [غير مبين] أى : غير مبين لحجته ، ولا يفصح عما احتوى
عليه ضميره ، فكيف ينسبونهن لله تعالى ؟

ومنها : أنهم [جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثاء] فتجروا أو
على الملائكة ، العباد المقربين ، ورقومهم عن مرتبة العبادة والذل ، إلى مرتبة
المشاركة لله ، فى شىء من خواصه ، ثم نزلوا بهم ، عن مرتبة الذكورية ،
إلى مرتبة الأنوثة .

فسبحان من أظهر تناقض من كذب عليه ، وعاند رسله .

ومنها : أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله للملائكة .

فكيف يتكلمون بأمر ، من المعلوم عند كل أحد ، أنه ليس
لهم به علم !! ؟

ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة ، وستكتب عليهم ،
ويعاقبون عليها .

وقوله تعالى : [وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم] فاحتجوا على عبادتهم

سُكِّتَبُ شَهَادَتِهِمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ
مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾
أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا

الملائكة بالمشيئة ، وهي حجة ، لم يزل المشركون يطرقونها ، وهي حجة
باطلة في نفسها ، عقلا ، وشرعا .

فكل عاقل ، لا يقبل الاحتجاج بالقدر ، ولو سلكه في حالة من أحواله ،
لم يثبت عليها قدمه .

وأما شرعا ، فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به ، ولم يذكره عن غير
المشركين به ، المكذبين لرسله ، فإن الله تعالى قد أقام الحججة على العباد ،
فلم يبق لأحد عليه حجة أصلا ، ولهذا قال هنا :

[ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون] أي : يتخرون تخرصاً
لا دليل عليه ، ويتخبطون خبط عشواء .

ثم قال : [أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون] يخبرهم بصحة
أفهامهم ، وصدق أقوالهم ؟ .

ليس الأمر كذلك ، فإن الله أرسل محمداً نذيراً إليهم ، وهم لم يأتهم
نذير غيره .

أي : فلا عقل ، ولا نقل ، وإذا انتفى الأمران ، فلا ثم إلا الباطل -

نعم لهم شبهة ، من أوهى الشبهة ، وهي : تقليد آبائهم الضالين ، الذين
ما زال الكفرة ، يردون بتقليدهم ، دعوة الرسل ، ولهذا قال هنا :

إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾
وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾
قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا

[بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة] أى : على دين وملة [وإنا على آثارهم مهتدون] أى : فلا نتبع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

[وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها]
أى : منعموها ، وملأها الذين أطعتهم الدنيا ، وغرتهم الأموال ،
واستكبروا على الحق .

[إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون] أى : فهؤلاء
ليسوا يبدع منهم ، وليس بأول من قال هذه المقالة .

وهذا الاحتجاج ، من هؤلاء المشركين الضالين ، بتقليدهم لآبائهم
الضالين ، ليس المقصود به ، اتباع الحق والهدى ، وإنما هو تعصب محض ،
يراد به نصره ما معهم من الباطل .

ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة [أولو جئتكم
بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم] أى : أفتتبعونى لأجل الهدى .

[قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون] يعلم بهذا ، أنهم ما أرادوا اتباع
الحق والهدى .

وإنما قصدهم ، اتباع الباطل والهوى .

أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا
تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً

[فانتقمنا منهم] بتكذيبهم الحق ، وردهم إياه ، بهذه الشبهة الباطلة .

[فانظر كيف كان عاقبة المكذبين] فليحذر هؤلاء ، أن يستمروا
على تكذيبهم ، فيصيهم ما أصابهم .

* يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام ، الذي ينتسب إليه
أهل الكتاب والمشركون ، وكلهم يزعم أنه على طريقته

فأخبر عن دينه الذي ورثه في ذريته فقال : [وإذ قال إبراهيم لأبيه
وقومه] الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ، ويتقربون إليهم :

[إنني براء مما تعبدون] أي : مفضل له ، محجّب معاد لأهله [إلا الذي
فطرني ^(١)] فإني أتولاه ، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق ، والعمل بالحق .

فكما فطرني ودبرني بما يصلح بدني ودنياي [فإنه سيهدين] لما يصلح
ديني وآخرتي .

[وجعلها] أي : هذه الخصلة الحميدة ، التي هي أم الخصال وأساسها ،
وهي إخلاص العبادة لله وحده ، والتبرّي من عبادة ما سواه .

(١) فطرني . أي : خلقتني ، وأبدعني .

بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ
حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ
قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا

[كلمة باقية في عقبه] أى : فى ذريته [لعلهم] إليها [يرجعون]
لشهرتها عنه ، وتوصيته لذريته ، وتوصية بعض بنيه ، كإسحاق ، ويعقوب
لبعض ، كما قال تعالى : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه »
إلى آخر الآيات .

فلم تزل هذه الكلمة موجودة فى ذريته عليه السلام ، حتى دخلهم
الترف والطفیان .

فقال تعالى : [بل تمتع هؤلاء وآباءهم] بأنواع الشهوات ، حتى
صارت هى غايتهم ، ونهاية مقصودهم ، فلم تزل بتربى حبها فى قلوبهم ، حتى
صارت صفات راسخة ، وعقائد متأصلة .

[حتى جاءهم الحق] الذى لاشك فيه ، ولا مرية ولا اشتباه .
[ورسول مبين] أى : بين الرسالة ، قامت أدلة رسالته ، قياماً باهراً ،
بأخلاقه ، ومعجزاته ، وبما جاء به ، وبما صدق به المرسلين ، وبنفس دعوته
صلى الله عليه وسلم .

[ولما جاءهم الحق] الذى يوجب على من له أدنى دين ومعقول ، أن
يقبله وينقاد له .

[قالوا هذا سحر وإننا به كافرون] وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة .

الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه ، بل ولا جرده ، فلم يرضوا حتى قدحوا به ، قدحاً شنيعاً ، وجملوه بمنزلة السحر الباطل ، الذي لا يأتي به إلا أخبث الخلق ، وأعظمهم افتراء .

والذي حملهم على ذلك ، طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم .

[وقالوا] مقترحين على الله بعبوهم الفاسدة : [لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم] أى : معظم عندهم ، مبدل من أهل مكة ، وأهل الطائف ، كالوليد بن المغيرة ، ونحوه ، ممن هو عندهم عظيم .

قال الله رداً لاقتراحهم : [أم يقسمون رحمة ربك] أى : أم الخزان لرحمة الله ، ويبدم تديرها ، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون ، ويمنعونها ممن يشاءون ؟

[نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات] أى : في الحياة الدنيا ، [و] الحال أن [رحمة ربك خير مما يجمعون] من الدنيا .

فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدينوية بيد الله تعالى ، وهو الذي يقسمها بين عباده ، فيبسط الرزق على من يشاء ، ويضيقه على من يشاء ، بحسب حكيمته ، فرحمته الدينية ، التي أعلاها ، النبوة والرسالة ، أولى وأحرى ، أن تكون بيد الله تعالى ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته .

فَوْقَ بَعْضِ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ ، وأن التدبير للأموركلها ، دينيها ودينيوها ، بيد الله وحده .

هذا إقناع لهم ، من جهة غلطهم في الاقتراح ، الذي ليس في أيديهم منه شيء ، إن هو إلا ظلم منهم ، ورد للحق .

وقولهم [لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم] لو عرفوا حقائق الرجال والصفات ، التي بها يعرف علو قدر الرجل ، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه ، لعلوا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم ، هو أعظم الرجال قدراً ، وأعلامهم فخراً ، وأكملهم عقلاً ، وأغزهم علماً ، وأجلهم رأياً ، وعزماً ، وحزماً ، وأكملهم خلقاً ، وأوسعهم رحمة ، وأشدهم شفقة ، وأهداهم وأتقاهم .

وهو قطب دائرة الكمال ، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال ، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق .

يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه ، إلا من ضل وكابر .

فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كاله ؟!

ومن جرمه ومنتهى حقه ، أن جعل إلهه الذي يعبده ، ويدعوه ، ويتقرب إليه ، صنماً ، أو شجراً ، أو حجراً ، لا يبصر ولا ينفع ، ولا يعطى ولا يمنع ، وهو ككل على مولاة ، يحتاج لمن يقوم بمصالحه .

فهل هذا ، إلا من فعل السفهاء والمجانين ؟

فكيف يجعل مثل هذا عظيماً ؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد

خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَلَّمُونَ ﴿٣٤﴾

ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون .
وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى ، في تفضيل الله بعض العباد
على بعض في الدنيا [ليقخذ بعضهم بعضا سخريا] أى : ليسخر بعضهم
بعضا ، في الأعمال والحرف ، والصنائع .

فلو تساوى الناس في الغنى ، ولم يحتج بعضهم إلى بعض ، لتعطل كثير
من مصالحهم ومنافعهم .

وفيه دليل على أن نعمته الدينية ، خير من النعمة الدنيوية كما
قال تعالى في الآية الأخرى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا
هو خير مما يجمعون » .

* يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئا ، وأنه لولا لطفه ورحمته
بعباده ، التي لا يقدم عليها شيئا ، لو سح الدنيا على الذين كفروا ، توسيعا
عظيما ، ولجعل :

[لبیوتهم سقفا من فضة ومعارج] أى : درجا من فضة .

[عليها يظهرون] إلى سطوحهم .

[ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكلمون] من فضة ، ولجعل

وَزُخْرُقًا وَإِنْ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

لهم زخرفاً ، أى : لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف ، وأعطاهم ما يشتهون .

ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي ، بسبب حب الدنيا .

ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم .

وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا ، منقصة ، مكدره ، فانية ، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

لأن نعيمها تام كامل من كل وجه ، وفي الجنة ما تشتهيهِ النفس وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون .

فما أشد الفرق بين الدارين !! .

﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا
فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ

* يخبر تعالى عن عقوبته البليغة ، بمن أعرض عن ذكره فقال :

[ومن يعش] أى : يعرض ويصد [عن ذكر الرحمن] الذى هو
القرآن العظيم ، الذى هو أعظم رحمة ، رحم بها الرحمن عباده .

فمن قبلها ، فقد قبل خير المواهب ، وفاز بأعظم المطالب والرغائب .

ومن أعرض عنها وردها ، فقد خاب وخسر خسارة ، لا يسعد بعدها
أبدأ ، وقِيضَ له الرحمن شيطاناً مريداً ، يقارنه ، ويصاحبه ، ويعده ، ويمنيه ،
ويؤزّه إلى المعاصى أزاً .

[وإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ] أى : الصراط المستقيم ، والدين القويم .

[ويحسبون أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ] بسبب تزيين الشيطان للباطل ، وتحسينه

له ، وإعراضهم عن الحق ، فاجتمع هذا وهذا .

فإن قيل : فهل لهذا من عذر ، من حيث إنه ظن أنه مهتد ،

وليس كذلك ؟

قيل : لا عذر لهذا وأمثاله ، الذين مصدر جهلهم ، الإعراض عن ذكر

الله ، مع تمكنهم من الاهتداء .

فزهدوا فى الهدى ، مع القدرة عليه ، ورجبوا فى الباطل ، فالذنب ذنبهم ،

والجرم جرمهم .

الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ
أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا ، مع قرينه ، وهو الضلال
والغى ، وانقلاب الحقائق .

وأما حاله ، إذا جاء ربه في الآخرة ، فهو شر الأحوال ، وهو :
الندم والتحسر ، والحزن الذى لا يجبر مصابه ، والتبرئى من قرينه ، ولهذا
قال تعالى :

[حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين] .

كما فى قوله تعالى « ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت
مع الرسول سبيلاً * ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلنى عن الذكر
بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً » .

وقوله تعالى [ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون]
أى : ولا ينفعكم يوم القيامة ، اشتراككم فى العذاب ، أنتم وقرناؤكم ،
وأخلاؤكم .

وذلك لأنكم اشتركتم فى الظلم ، فاشتركتم فى عقابه وعذابه .

ولن ينفعكم أيضاً ، روح التسلى فى المصيبة فإن المصيبة إذا وقعت فى الدنيا ،
واشترك فيها للعاقبون ، هان عليهم بعض الهون ، وتسلى بعضهم ببعض .

وأما مصيبة الآخرة ، فإنها جمعت كل عقاب ، ما فيه أذى راحة ، حتى
ولا هذه الراحة .

نسألك ياربنا العافية ، وأن تريحنا برحمتك .

﴿٤٠﴾ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الْأُصْمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾
أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَا لَهُمْ فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ

* يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، مسلماً له عن امتناع المكذبين ،
عن الاستجابة له ، وأنهم لا خير فيهم ، ولا فيهم زكاء يدعوهم إلى الهدى :
[أفأنت تسمع الصم] أى : الذين لا يسمعون [أو تهدي العمى]
الذين لا يبصرون .

[و] تهدي [من كان في ضلال مبين] أى : بين واضح ، لعله بضلاله ،
ورضاه به .

فكما أن الأصم ، لا يسمع الأصوات ، والأعمى ، لا يبصر ، والضال
ضالاً مبيناً ، لا يهتدى .

فهؤلاء قد فسدت فطرتهم وعتولهم ، بإعراضهم عن الذكر ، واستحدثوا
عقائد فاسدة ، وصفات خبيثة ، تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدى ، وتوجب
لهم الازدياد من الردى .

فهؤلاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم ، إما في الدنيا ، أو في الآخرة ،
ولهذا قال تعالى :

[فإما نذهبنا بك فإنما منهم منتقمون] أى : فإن ذهبنا بك قبل أن
نريك ما نعدهم من العذاب ، فاعلم بخبرنا الصادق ، أنا منهم منتقمون .

[أو نرينك الذى وعدناهم] من العذاب [فإنما عليهم مقتدرون]
ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيره .

بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنصِتُكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنهٗ لَذِكْرٌ لَّكَ
وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

فهذه حالك ، وحال هؤلاء المكذبين .
وأما أنت [فاستمسك بالذي أوحى إليك] فعلا واتصافاً ، بما يأمر
بالاتصاف به ودعوة إليه ، وحرصاً على تنفيذه بنفسك وفي غيرك .
[إنك على صراط مستقيم] موصل إلى الله وإلى دار كرامته .
وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء .
إذا علمت أنه حق ، وعدل ، وصدق ، تكون بانياً على أصل أصيل ،
إذا بنى غيرك على الشوك^(١) والأوهام ، والظلم والجور .
[وإنه] أي هذا القرآن الكريم [لذكركم ولتقومكم] أي : نغفر
لكم ، ومنقبة جليلة ، ونعمة لا يقادر قدرها ، ولا يعرف وصفها ، ويدرككم
أيضاً ، ما فيه ، من الخير الدنيوي والأخروي ، ويمحسكم عليه ، ويدرككم
الشر ويرهبكم عنه .

[وسوف تسألون] عنه ، هل قتم به فارتفعتم وانتفعتم ، أم لم تقوموا به؟
فيكون حجة عليكم ، وكفراً منكم بهذه النعمة .

[واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة

(١) قوله « على الشوك » لعل الصواب « الشرك » كما يفيد سياق الكلام وسباقه .

رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٥﴾
﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ

يعبدون [حتى يكون للمشركين نوع حجة ، يتبعون فيها أحدا من الرسل .
فإنك لو سألتهم ، واستخبرت عن أحوالهم ، لم تجد أحدا منهم يدعو
إلى اتخاذ إله آخر مع الله ، وأن كل الرسل ، من أولهم إلى آخرهم ، يدعون
إلى عبادة الله ، وحده لا شريك له .

قال تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا
الطاغوت » .

وكل رسول بعثه الله ، يقول لقومه : اعبدوا الله مالكم من إله غيره .
فدل هذا ، أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم ، لا من عقل صحيح ،
ولا نقل عن الرسل .

لما قال تعالى [واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون
الرحمن آلهة يعبدون] بين تعالى حال موسى ودعوته ، التي هي أشهر
ما يكون من دعوات الرسل ، ولأن الله تعالى ، أكثر من ذكره في كتابه ،
فذكر حاله مع فرعون .

[ولقد أرسلنا موسى بآياتنا] التي دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء
به ، كالعصا ، والحية ، وإرسال الجراد ، والقمل ، إلى آخر الآيات .

[إلى فرعون وملائه فقال إني رسول رب العالمين] فدعاهم إلى الإقرار
بربهم ، ونهاهم عن عبادة ما سواه .

مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ
أُخْتِهَا وَأَخَذْتَهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا آيَةُ
السَّاحِرِ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ

[فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون] أى : ردوها وأنكروها ،
واستهزأوا بها ، ظلما وعلوا .

فلم يكن لقصور بالآيات ، وعدم وضوح فيها ، ولهذا قال :

[وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها] أى الآية للتأخرة أعظم
من السابقة [وأخذناهم بالعذاب] كالجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ،
آيات مفصلات .

[لعلهم يرجعون] إلى الإسلام ، ويدعون له ، ليزول شر كههم وشرهم .
[وقالوا] عندما نزل عليهم العذاب : [يا أيها الساحر] يعنون موسى
عليه السلام .

وهذا ، إما من باب التهكم به ، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم ،
مدحاً ، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه ، بما يخاطبون به ، من يزعمون أنهم
علماءهم ، وهم السحرة فقالوا : [يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك]
أى : بما خصك الله به ، وفضلك به ، من الفضائل والمناقب ، أن يكشف
عنا العذاب [إننا لمهتدون] إن كشف الله عنا ذلك .

[فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون] أى : لم يفوا بما قالوا ،
بل غدروا ، واستمروا على كفرهم .

فِي قَوْمِهِ قَالَ يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ

وهذا كقوله تعالى « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع
والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين * ولما وقع عليهم
الرجز قالوا * ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز
لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل
هم بالغوه إذا هم ينكثون .

[ونادى فرعون فى قومه قال [مستعليًا بباطله ، قد غره ملكه ،
وأطغاه ماله وجنوده : [يا قوم أليس لى ملك مصر] أى : أأست المالك
لذلك ، المتصرف فيه .

[وهذه الأنهار تجرى من تحتى] أى : الأنهار المنسجبة من النيل ،
فى وسط القصور والبساتين .

[أفلا تبصرون] هذا الملك الطويل العريض .

وهذا من جهله البليغ ، حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته ، ولم يفخر
بأوصاف حميدة ، ولا أفعال سديدة .

[أم أنا خير من هذا الذى هو مهين] يعنى قبحه الله - بالمهين ، موسى بن
عمران ، كلیم الرحمن ، الوجيه عند الله .

أى : أنا العزيز ، وهو الذليل المهان المحقر ، فأينا خير ؟ [و] مع هذا
فإنه [لا يكاد يبين] عما فى ضميره بالكلام ، لأنه ليس بفضيح اللسان .

مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

وهذا ليس من العيوب في شيء ، إذا كان بين ما في قلبه ، ولو كان الكلام ثقيلًا عليه .

ثم قال فرعون : [فلولا أتق عليه أسورة من ذهب] أي : فهلا كان موسى بهذه الحالة ، أن يكون مزينا بمجلا بالحلى والأساور ؟ .

[أوجاء معه الملائكة مقترنين] بما ونونه على دعوته ، ويؤيدونه على قوله .
[فاستخف قومه فأطاعوه] أي : استخف فرعون عقولهم ، بما أبدى لهم من هذه الشبه ، التي لا تسمن ولا تغني من جوع ، ولا حقيقة تحتها ، وليست دليلًا على حق ولا على باطل ، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول .
فأي دليل ، يدل على أن فرعون محق ، في كون ملك مصر له ، وأنهارها تجري من تحته ؟

وأي دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى ، لقلّة أتباعه ، وثقل لسانه ، وعدم تحلية أمه له بأساور من ذهب ؟

ولكن فرعون ، أتق ملاً ، لا معقول عندهم ، فهما قال ، اتبعوه ، من حق وباطل .

[إنهم كانوا قومًا فاسقين] فنسب فسقهم ، قيص لهم فرعون ، يزين لهم الشرك والشر .

[فلما آسفونا] أي أغضبونا بأفعالهم [انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين .
فجعلناهم سلفًا ومثلاً للآخرين] ليعتبر بهم للمعتبرون ويتعظ بأحوالهم المتعظون .

﴿٥٧﴾ وَقَالُوا آءِلهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا
وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ

* يقول تعالى : [ولما ضرب ابن مريم مثلا] أى : نهى عن عبادته ،
وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد .

[إذا قومك] الكاذبون لك [منه] أى : من أجل هذا
المثل المضروب .

[يصدون] أى : يلجئون فى خصومتهم لك ، ويصيحون ، ويزعمون
أنهم قد غلبوا فى حجتهم ، وأفلجوا .

[وقالوا آلهتنا خير أم هو] يعنى : عيسى ، حيث نهى عن عبادة
الجميع ، وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم ، ونزل أيضا قوله تعالى
« إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » .

ووجه حجتهم الظالمة ، أنهم قالوا : قد تقرر عندنا وعندك يا محمد ،
أن عيسى من عباد الله المقربين ، الذين لهم العاقبة الحسنة ، فلم سويت يده
وبين معبوداتنا ، فى النهى عن عبادة الجميع ؟ فلولا أن حجتك باطلة ،
لم تناقض .

ولم قلت « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » .

وهذا اللفظ بزعمهم ، يعم الأصنام ، وعيسى ، فهل هذا إلا تناقض ؟
وتناقض الحجة ، دليل على بطلانها .

هذا أقصى ما يقرون به هذه الشبهة ، التى فرحوا بها ، واستبشروا ،
وجعلوا يصدون ويتباشرون .

بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ

وهي — والله الحمد — من أضعف الشبه وأبطلها ، فإن تسوية الله بين النهى عن عبادة المسيح ، وبين النهى عن عبادة الأصنام ، لأن العبادة ، حق لله تعالى ، لا يستحقها أحد من الخلق ، لا الملائكة المقربون ، ولا الأنبياء المرسلون ، ولا من سواهم من الخلق .

فأى شبهة ، في تسوية النهى عن عبادة عيسى وغيره ؟

وليس في تفضيل عيسى عليه السلام ، وكونه مقرباً عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها ، في هذا الموضع .

وإنما هو كما قال تعالى : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه » بالنبوة والحكمة والعلم والعمل « وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل » يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب .

وأما قوله تعالى « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » .

فالجواب عنها من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن قوله « إنكم وما تعبدون من دون الله » أن « ما » اسم لما لا يعقل ، لا يدخل فيه المسيح ونحوه .

الثاني : أن الخطاب للمشركين ، الذين بمكة وما حولها ، وهم إنما يعبدون أصناماً وأوثاناً .

الثالث : أن الله قال بعد هذه الآية « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » .

مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً
فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا
وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ

فلا شك أن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء، داخلون في هذه الآية .

ثم قال تعالى : [ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلقون]
أى جعلنا بدلکم ملائكة يخلقونکم في الأرض ، ويكونون في الأرض
حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم .

وأما أنتم يا معشر البشر ، فلا تطيقون أن ترسل إليکم الملائكة .
فمن رحمة الله بکم ، أن أرسل إليکم رسلا من جنسکم ، تتمكنون من
الأخذ عنهم .

[وإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ] أى : وإن عيسى عليه السلام ، لدليل على الساعة ،
وأن القادر على إيجاده ، من أم بلا أب ، قادر على بعث الموتى
من قبورهم .

أو ، وإن عيسى عليه السلام ، سينزل في آخر الزمان ، ويكون نزوله ،
علامة من علامات الساعة [فلا تَمْتَرُنَّ بِهَا] أى : لا تشككن في قيام الساعة ،
فإن الشك فيها ، كفر .

[واتبعون] بامثال ما أمرتكم ، واجتناب ما نهيتكم .

[هذا صراط مستقيم] موصل إلى الله عز وجل .

لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ
بِالْحِكْمَةِ وَالْبَيِّنَاتِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا نَوَاذِرِيَّ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ

[ولا يصدنكم الشيطان] عما أمركم الله به [إنه] أى الشيطان
[لكم عدو مبين] حريص على إغوائكم ، باذل جهده فى ذلك .

[ولما جاء عيسى بالبينات] الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به ،
من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمة ، والأبرص ، ونحو ذلك من الآيات .

[قال] لبنى إسرائيل [قد جئتكم بالحكمة] النبوة والعلم ، بما ينبغى
على الوجه الذى ينبغى .

[ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه] أى : أبين لكم صوابه
وجوابه ، فيزول عنكم بذلك ، اللبس .

فجاء عليه السلام ، مكلا ، ومتمما لشريعة موسى عليه السلام ،
ولأحكام التوراة .

وأتى ببعض التسهيلات ، الموجبة للاقياد له ، وقبول ما جاءهم به .

[فاتقوا الله وأطيعوا] أى : اعبدوا الله وحده لا شريك له ،
وامتثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه ، وآمنوا بى ، وصدقونى ، وأطيعونى .

[إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم] ففيه الإقرار
بتوحيد الربوبية ، بأن الله هو الربى جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة
والإقرار بتوحيد العبودية ، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، وإخبار

مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٤﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا

مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾

﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ

لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

عيسى عليه السلام ، أنه عبد من عباد الله ، ليس كما قال النصراني فيه
« إنه ابن الله ، أو ثالث ثلاثة » .

والإخبار بأن هذا المذكور ، صراط مستقيم ، موصل إلى الله
وإلى جنته .

فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا [اختلف الأحزاب] المتحزبون
على التكذيب [من بينهم] كل قال بعيسى عليه السلام ، مقالة باطلة ،
ورد ما جاء به ، إلا من هدى الله من المؤمنين ، الذين شهدوا له بالرسالة ،
وصدقوا بكل ما جاء به ، وقالوا : إنه عبد الله ورسوله .

[فويل للذين ظلموا] أى : ما أشد حزن الظالمين [من عذاب يوم أليم]
وما أعظم خسارهم ، فى ذلك اليوم !! .

* يقول تعالى [هل ينظرون] أى : هل ينتظر المكذبون ، وهل يتوقعون
[إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون] أى : فإذا جاءت ، فلاتسألوا
عن أحوال من كذب بها ، واستهزأ بمن جاء بها .

وإن [الأخلاء يومئذ] أى : يوم القيامة ، المتخالين على الكفر
والتكذيب ، ومعصية الله [بعضهم لبعض عدو] لأن خلتهم ومحبتهم
فى الدنيا ، تغير الله ، فانقلب يوم القيامة عداوة .

إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا
الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ

[إلا المتقين] للشرك والمعاصي ، فإن محبتهم تدوم وتصل ، بدوام من
كانت المحبة لأجله .

ذكر ثواب المتقين ، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر
قلوبهم ، ويذهب عنهم كل آفة وشر ، فيقول :

[يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون] أي : لا خوف
يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور ، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها .
وإذا اتقى المكروه من كل وجه ، ثبت المحبوب المطلوب .

[الذين آمنوا بآياتنا] أي : وصفهم الإيمان بآيات الله ، وذلك شامل
للتصديق بها ، وما لا يتم التصديق إلا به من العلم ، بمعناها والعمل بمقتضاها .
[وكانوا مسلمين] الله منقادين له في جميع أحوالهم .

فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن .
[ادخلوا الجنة] التي هي دار القرار [أنتم وأزواجكم] أي : من كان
على مثل عملكم ، من كل مقارن لكم ، من زوجة ، وولد ، وصاحب ،
وغيرهم .

[تحبرون] أي : تنعمون وتكرمون ، ويأتيكم من فضل ربكم من
الخيرات والسرور ، والأفراح ، واللذات ، ما لا تعبر الألسن عن وصفه .
[يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب] أي : تدور عليهم

مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ
وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا

خدامهم ، من الولدان المخلدين بطعامهم ، بأحسن الأواني وأغرها ،
وهي : صحاف الذهب وشرابهم ، بألطف الأواني ، وهي : الأكواب ،
التي لا عرى لها ، وهي من أصفى الأواني ، من فضة أعظم من صفاء القوارير .
[وفيها] أى : الجنة [ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين] وهذا اللفظ
جامع ، يأتي على كل نعيم وفرح ، وقررة عين ، وسرور قلب .

فكل ما تشتهيه النفوس ، من مطاعم ، ومشارب ، وملابس ، ومناكح
وما تلذذه العيون ، من مناظر حسنة ، وأشجار محدقة ، ونعم موقنة ، ومبان
مزخرقة ، فإنه حاصل فيها ، معد لأهلها ، على أكل الوجوه وأفضلها ،
كما قال تعالى « لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون » .

[وأنتم فيها خالدون] وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة ، وهو : الخلد
الدائم فيها ، الذى يتضمن دوام نعيمها وزيادته ، وعدم انقطاعه .

[وتلك الجنة] الموصوفة بأكمل الصفات هي [التي أورثتموها بما كنتم
تعملون] أى : أورثكم الله إياها بأعمالكم ، وجعلها من فضله ، جزاء لها ،
وأودع فيها من رحمته ، ما أودع .

[لكم فيها فاكهة كثيرة] كما فى الآية الأخرى « وفيها من كل
فاكهة زوجان » .

تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿٧٤﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ

[منها تأكلون] أى : مما تتخبرون من تلك الفواكه الشبيهة ، والثمار اللذيذة تأكلون .

ولما ذكر نعيم الجنة ، عقبه بذكر عذاب جهنم فقال : [إن المجرمين] إلى [كارهون] .

* [إن المجرمين] الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم [فى عذاب جهنم] أى : منغمرون فيه ، محيط بهم العذاب من كل جانب . [خالدون] فيه ، لا يخرجون منه أبداً .

و [لا يفتقر عنهم] العذاب ساعة ، لا يباله ، ولا يتهوين عذابه .

[وهم فيه مبلسون] أى : آيسون من كل خير ، غير راجين للفرج ، وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون : « ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » * قال اخسأوا فيها ولا تكلمون « وهذا العذاب العظيم ، بما قدمت أيديهم ، وبما ظلموا به أنفسهم .

[وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين] فالله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم .

[ونادوا] وهم فى النار ، لعلمهم يحصل لهم استراحة .

[يامالك ليقض علينا ربك] أى : ليمتنا فنتستريح ، فإننا فى غم شديد ،

مَكْتُونًا ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ
كِرْهُونَ ﴿٧٨﴾
﴿٧٩﴾ أَمْ أَيْرْمُونَ أَمْ أَيْرْمُونَ أَمْ أَيْرْمُونَ أَنَا

وعذاب غليظ ، لا صبر لنا عليه ولا جلد .

[قال] لهم مالك خازن النار — حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن
يقضى عليهم :

[إنكم ما كئون] أي : مقيمون فيها ، لا تخرجون منها أبدا .

فلم يحصل لهم ما قصدوه ، بل أجابهم بنقيض قصدهم ، وزادهم غما
إلى غمهم .

ثم وبخهم بما فعلوا فقال : [لقد جئناكم بالحق] الذي يوجب عليكم
أن تتبعوه .

فلو تبعتموه ، لفزتم وسعدتم .

[ولكن أكثركم للحق كارهون] فلذلك شقيتم شقاوة لاسعادة بعدها .

* يقول تعالى : [أم أبرموا] أي : أبرم المكذبيون بالحق المعاندون له
[أمرا] أي : كادوا كيذا ، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق ، ليدحضوه ،
بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق .

[فإننا مبرمون] أي : محكون أمرا ومدبرون تديرا ، يعلو تديريهم ،
وينقضه ويبطله .

وهو ما قيضه الله من الأسباب والأدلة ، لإحقاق الحق ، وإبطال

لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ

الباطل ، كما قال تعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه » .
[أم يحسبون] بجهلهم وظلمهم [أنا لا نسمع سرهم] الذي لم
يتكلموا به ، بل هو سر في قلوبهم [ونجواهم] أى : كلامهم الخفى الذى
يتناجون به ،
أى : فذلك أقدموا على المعاصى ، وظنوا أنها لا تتبعها ولا مجازاة ،
على ماخفى منها .

فرد الله عليهم بقوله : [بلى] إنا نعلم سرهم ونجواهم [ورسلنا]
الملائكة الكرام .

[لديهم يكتبون] كل ما عملوه ، سيحفظ ذلك عليهم ، حتى يردوا
القيامة ، فيجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا .

* أى قل يا أيها الرسول الكريم ، الذين جعلوا الله ولدا ، وهو الأحد
الفردي الصمد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، ولم يكن له كفوا أحد .

[قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين] لذلك الولد ، لأنه جزء
من والده ، وأنا أول الخلق انقيادا للوا أمر المحبوبة لله ولسكنى أول
النكرين لذلك ، وأشدهم له نفيا ، فعلم بذلك بطلانه .

فهذا احتجاج عظيم ، عند من عرف أحوال الرسل .
وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق ، وأن كل خير ، فهم أول الناس
سبقا إليه ، وتكميلا له .

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ
يَخْوِضُونَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّىٰ يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾

وكل شر ، فهم أول الناس تركا له ، وإنكارا له ، وبعدا منه .
فلو كان للرحمن ولدوهو الحق ، لكان محمد بن عبد الله ، أفضل الرسل
أول من عبده ، ولم يسبقه إليه المشركون .
ويحتمل أن معنى الآية : لو كان للرحمن ولد ، فأنا أول العابدين لله .
ومن عبادتي لله ، إثبات ما أثبتته ، ونفى ما نفاه ، فهذا من العبادة
القولية الاعتقادية .

ويلزم من هذا ، لو كان حقا ، لكنت أول مثبت له .
فعل بذلك ، بطلان دعوى المشركين وفسادها ، عقلا ونقلا .
[سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون] من الشريك
والظهير ، والعوين ، والولد ، وغير ذلك ، مما نسبه إليه المشركون .
[فذرهم يخوضوا ويلعبوا] أى : يخوضوا بالباطل ، ويلعبوا بالمحال .
فعلومهم ضارة غير نافعة ، وهى الخوض ، والبحث بالعلوم ، التي يعارضون
بها الحق ، وما جاءت به الرسل ، وأعمالهم لعب وسفاهة ، لا تتركى النفوس ،
ولا تشمر المعارف .

ولهذا توعدهم بما أمامهم يوم القيامة فقال :
[حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون] فسيعلمون فيه ماذا حصلوا ،
وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم ، والعذاب المستمر .

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُهُ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (١٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

* [وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله] يخبر تعالى ، أنه وحده ،
المألوه ، للمعبود فى السموات والأرض .

فأهل السموات كلهم ، والمؤمنون من أهل الأرض ، يعبدونه ،
ويعظمونه ، ويخضعون لجلاله ، ويفتقرون لكماله .

« تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء
إلا يسبح بحمده * والله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً » .
فهو تعالى المألوه المعبود ، الذى يأله الخلائق كلهم ، طائعين مختارين .
وكارهين .

وهذه كتوبه تعالى : « وهو الله فى السموات وفى الأرض » أي : ألوهيته
ومحبته فيهما .

وأما هو ، فإنه فوق عرشه ، بائن من خلقه ، متوحد بجلاله ، متمجد
بكماله .

[وهو الحكيم] الذى أحكم ما خلقه ، وأتقن ، ما شرعه .

فما خلق شيئاً إلا بالحكمة ، وحكمه القدرى ، والشرعى ، والجزائى مشتمل
على الحكمة .

[العليم] بكل شيء يعلم السر وأخفى ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى العالم
العلوى والسفلى ، ولا أصغر منها ، ولا أكبر .

[وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما] تبارك بمعنى تعالى
وتعظيم ، وكثر خيره ، واتسعت صفاته ، وعظم ملكه .

وَمَا يَنْبَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ
الَّذِينَ يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ

ولهذا ذكر سعة ملكه للسماوات والأرض وما بينهما ، وسعة علمه ،
وأنه بكل شيء عليم .

حتى إنه تعالى ، انفراد بعلم الغيوب ، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق
لا نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ولهذا قال :

[وعنده علم الساعة] قدم الظرف ، ليفيد الحصر ، أي : لا يعلم متى
تجيء الساعة إلا هو .

ومن تمام ملكه وسعته ، أنه مالك الدنيا والآخرة ، ولهذا قال :

[وإليه ترجعون] أي : في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل .

ومن تمام ملكه ، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً ، ولا يقدم
على الشفاعة عنده أحد ، إلا بإذنه .

[ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة] ، أي : كل من دعى
من دون الله ، من الأنبياء والملائكة وغيرهم ، لا يملكون الشفاعة ،
ولا يشفعون إلا بإذن الله ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، ولهذا قال :

[إلا من شهد بالحق] أي : نطق بلسانه ، مقراً بقلبه ، عالماً بما يشهد
به ، ويشترط أن تكون شهادته بالحق ، وهي الشهادة لله تعالى بالوحدانية ،
ولرسله بالنبوة والرسالة ، وصحة ما جاءوا به ، من أصول الدين ، وفروعه ،
وحقايقه وشرائعه .

يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين ، وهؤلاء الناجون من عقاب الله ، الحائزون لثوابه . ثم قال تعالى :

[ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله] أى : ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية ، ومن هو الخالق ، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له .

[فأنى يؤفكون] أى : فكيف يصرفون عن عبادة الله ، والإخلاص له وحده !؟ .

فإقرارهم بتوحيد الربوبية ، يلزمهم به ، الإقرار بتوحيد الألوهية ، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك .

[وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون] هذا معطوف على قوله .
[وعنده علم الساعة] أى : وعنده علم قيله ، أى : الرسول صلى الله عليه وسلم ، شاكياً لربه ، تكذيب قومه ، متحزناً على ذلك ، متحسراً على عدم إيمانهم .

فالله تعالى عالم بهذه الحال ، قادر على معاجلتهم بالعقوبة .

ولكنه تعالى ، حلیم يمهل العباد ، ويستأني بهم ، لعلمهم يتوبون ، ويرجعون ، ولهذا قال :

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨٩﴾

[فاصفح عنهم وقل سلام] أى : اصفح عنهم ، ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية ، واعف عنهم ، ولا ييدر منك لهم إلا السلام الذى يقابل به أولو الألباب والبصائر للجاهلين .

كما قال تعالى عن عباده الصالحين « وإذا خاطبهم الجاهلون » .
أى : خطاباً بمقتضى جهلهم « قالوا سلاماً » .

فامتثل صلى الله عليه وسلم ، لأمر ربه ، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم ، من الأذى ، بالعمو والصفح ، ولم يقابلهم ، عليه السلام ، إلا بالإحسان ، إليهم والخطاب الجميل .

فصلوات الله وسلامه ، على من خصه الله بالخلق العظيم ، الذى فضل به أهل الأرض والسماء ، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء .

وقوله [فسوف يعلمون] أى : غيباً ذنوبهم ، وعاقبة جرمهم .

تم تفسير سورة الزخرف - والله الحمد والمنة .

وبه تم الجزء السادس وبليه إن شاء الله الجزء السابع

وأوله تفسير سورة الدخان

فهرس

الجزء السادس

	صفحة
. تفسير سورة القصص	٣
. تفسير سورة العنكبوت	٦٦
. تفسير سورة الروم	١٠٩
. تفسير سورة لقمان	١٤٧
. تفسير سورة السجدة	١٧٦
. تفسير سورة الأحزاب	١٩٣
. تفسير سورة سبأ	٢٥٦
. تفسير سورة فاطر	٢٩٨
. تفسير سورة يس	٣٣٢
. تفسير سورة الصافات	٣٦٦
. تفسير سورة ص	٤٠٦
. تفسير سورة الزمر	٤٤٣
. تفسير سورة غافر	٥٠٢
. تفسير سورة فصلت (السجدة)	٥٥٧
. تفسير سورة الشورى	٥٩٢
. تفسير سورة الزخرف	٦٣٢

تم طبع كتاب

﴿ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ﴾

تأليف علامة القاصم الأستاذ الجليل الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رقم الإيداع ٣٨٤٩ / ١٩٧٧